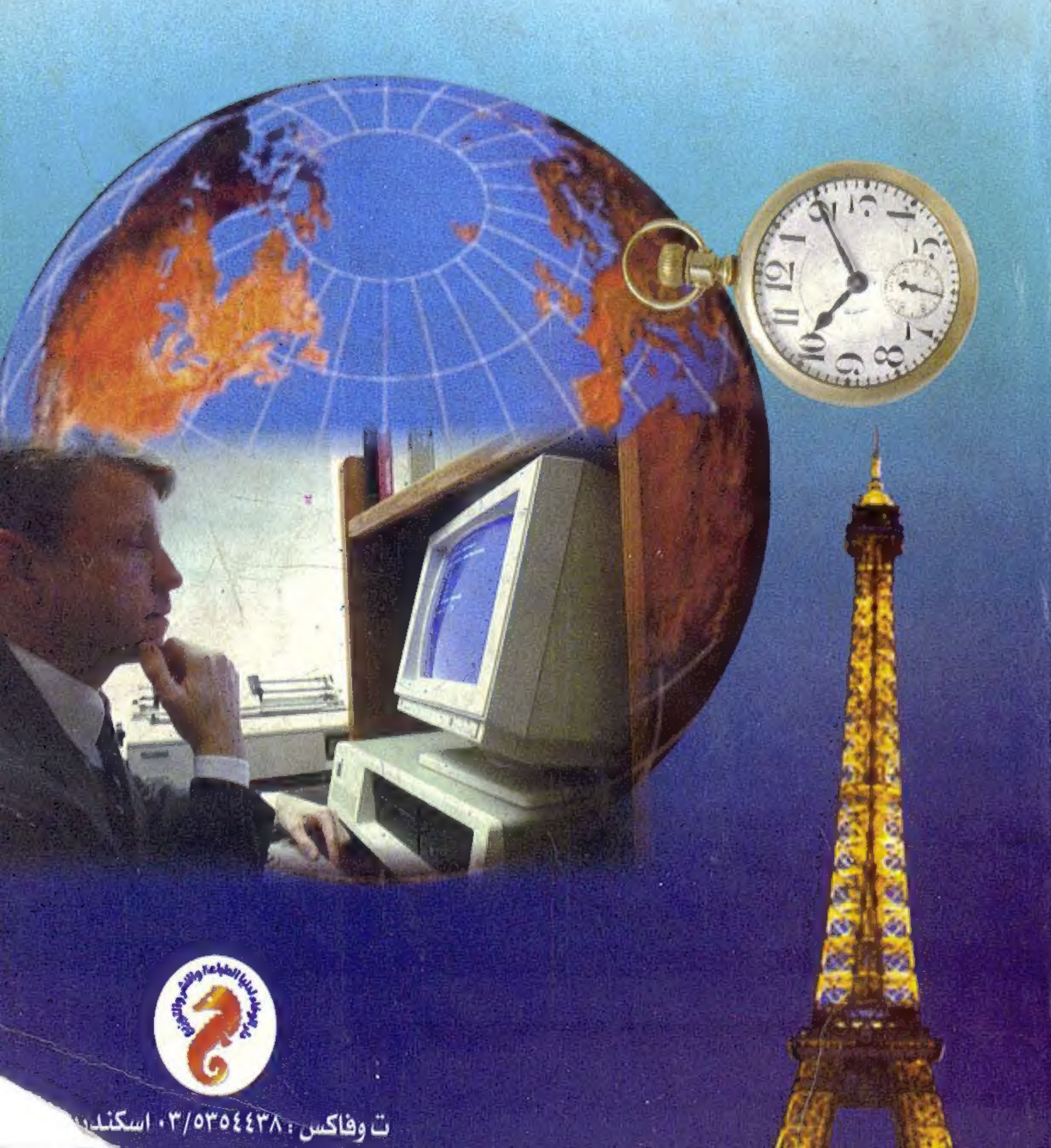
تاريخ أوروبا الحديث

د. صلاح أحمد هريدى



تاريخ أوروبا الحديث

تاريخ أوربا الحديث

د. صلاح أحمد هريدى

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

شارع ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة بلوك رقم (٣)

الرقم البريدى: ٢١٤١١- إسكندرية

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٥٦٩٤

الترقيم الدولى: 1 - 013 - 329 - 977

تاريخ أوروبا الحديث

دكتــور

صلاح أحمد هريدى على

أستاذ التاريخ الحديث

رئيس قسم التاريخ

كلية الآداب/ جامعة الاسكندرية

فــرع دمنهـــــور

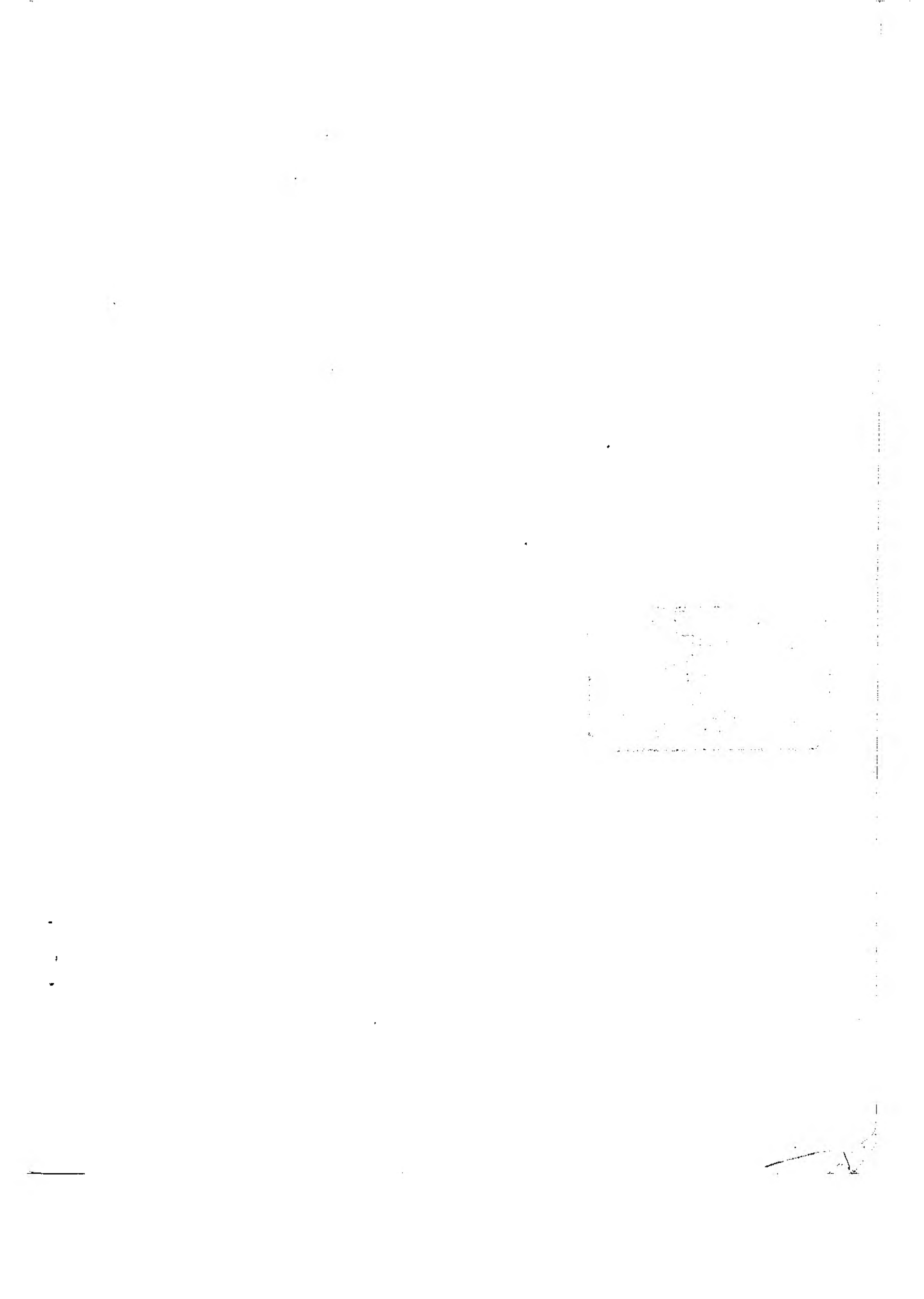
الطبعة الأولى

٢٠٠١م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ الاسكندرية



مقدمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد "صلى الله عليه وسلم" وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد، أقدّم كتاب تاريخ أوروبا الحديث بدءًا من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. ولقد رأيت أن أبدأه بعصر النهضة لما له من أهمية بالغة مهدت لظهور أوروبا الحديثة.

لقد شهد عصر النهضة الكثير من الأحداث التى عملت على التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى والثقافى فى أوروبا، فهو فى الواقع يمثل الفترة الانتقالية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

ولتعدد الأحداث والظواهر والمؤثرات، فقد قسمت الكتاب إلى ثنتا عشر فصلا، تحدثت فى الفصل الأول منها عن أوروبا فى فجر عصر النهضة. فألقيت نظرة عامة عن العصور الوسطى، وما حدث فى أواخرها من تطورات هامة تتمثل فى التأثير الإسلامى فى الأراضى الأيطالية وشبه جزيرة أيبريا، وتحرير العبيد وإنهيار النظام الإقطاعى .. إلخ، وأثر ذلك على المجتمع الأوروبى وبخاصة فى النواحى الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما تبع ذلك من ظهور المدن الحديثة، وعلى رأسها خمس مدن اشتهرت فى إيطاليا، وإن صح القول خمس ولايات استطاعت أن تلعب دورا هامًا فى تقرير مصير إيطاليا، وهى: البابوية ونابلى وميلان والبندقية وفلورنسة.

وخصصت الفصل الثانى لدراسة عصر النهضة فبدأته بالنهضة الإيطالية، ومميزاتها، والعوامل المؤثرة فيها مثل: ظهور اللغات الحديثة والآثار والتاريخ والفنون الجميلة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن النهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية. فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وأسبانيا والبرتغال.

أما الفصل الثالث، فقد تحدثت فيه عن حركة الكشوف الجغرافية وتأسيس الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية الأولى: البرتغالية والأسبانية والإنجليزية والفرنسية والهولندية، وأنهيت هذا الفصل ببحث نتائج حركة الكشف الجغرافي.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن فرنسا والحروب الإيطالية وقسمت تلك الحروب إلى قسمين: القسم الأول يبدأ من عام ١٤٩٤م، حين قام شارل الثامن ملك فرنسا بغزو الأراضي الإيطالية، ثم تلاه الملك لويس الثاني عشر الذى صار على نفس سياسة سلفه، مما ترتب عليه قيام التحالف الأوروبي ضده، كما إستغل البابا في روما ذلك، وأقام التحالف المقدس الذى انتهى عام ١٥١٥م.

أما القسم الثاني فكان عن الحروب الإيطالية، ويبدأ بعام ١٥١٥م وينتهي عام ١٥٥٩م بعقد معاهدة كاتوكمبرسيس، ولقد شهدت هذه الفترة الكثير من الحروب وعقد المعاهدات إلى أن انتهى الموقف بالمعاهدة المذكورة.

أما الفصل الخامس، فقد خصصته للإصلاح الديني في أوروبا، وهو يتناول الإصلاح الديني في ألمانيا، وما ترتب عليه من قيام الحروب والثورات والأحلاف التي تكونت حتى إتمام صلح أوجزبرج عام ١٥٥٥م.

أما الفصل السادس فهو بعنوان فرنسا وحركة الإصلاح الديني، ويتناول هذا الفصل عن موقف فرنسا من هذه الحركة.

ويتناول الفصل السابع عن الإصلاح الكاثوليكي أو انتعاس الكنيسة الكاثوليكية منذ أن عقد مجلس ترنت والنتائج التي ترتبت عليه مثل إنشاء جماعة الجزويت أو اليسوعيين والفهرس ومحاكم التفتيش.

أما أسبانيا وثورة الأراضي المتحفضة فقد كان عنوان الفصل الثامن، وتحدثت عن الأسباب التي أدت إلى قيام هذه الثورة حتى عقد معاهدة غنت نوفمبر ١٥٧٦.

ويأتي الحديث بعد ذلك عن انجلترا في القرن السادس عشر، ذلك عنوان الفصل التاسع، الذى تتبعت فيه اسرة تيودور، وكيف فازت هذه الأسرة بحكم انجلترا والاجراءات التي اتخذها ملوكها مثل هنرى السابع وهنرى الثامن، والظروف

التى أدت إلى قيام حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا التى استغلها هنرى الثامن لتحقيق مكاسبه الشخصية، مع بيان تطور نظام الحكم هناك.

أما الفصل العاشر فقد تحدثت فيه عن حرب الثلاثين عاما ١٦١٨ - ١٦٤٨، وشرحت الأسباب التى أدت إلى قيام مثل هذه الدول التى اشتركت فيها مثل هذه الحرب التى بدأت فى بوهيميا والمانيا، وأدوار الدول التى اشتركت فيها مثل الدور الدنمركى والسويدى، والسويدى الفرنسى، حتى عقد صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ والنتائج السياسية والدينية التى ترتبت على هذا الصلح.

أما الفصل الحادى عشر، فقد تحدثت فيه عن عصر التفوق الفرنسى "عصر لويس الرابع عشر"، وجهوده فى سبيل ذلك وإستعانته برجال عظماء مثل كولبير كوزير للمالية، وحرو به الخارجية مثل حرب الوراثة الاسبانية، وأثر ذلك على فرنسا من أحداث حتى نهاية القرن الثامن عشر.

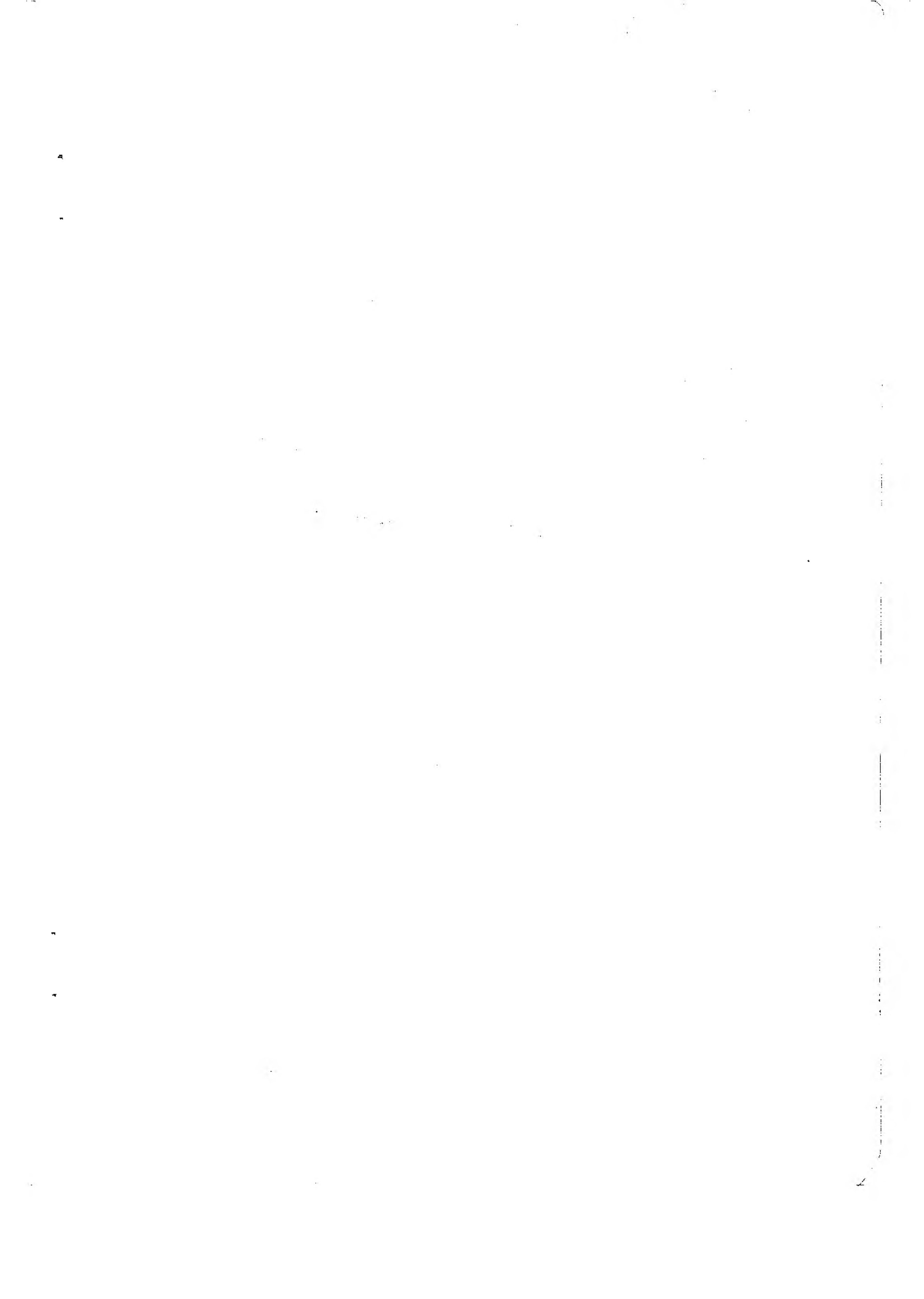
وبالنسبة لبريطانيا فى القرن السابع عشر فهو عنوان الفصل الثانى عشر، حيث شهدت بريطانيا ظهور اسرة آل ستيوراث وثورة البيورتان والتطورات السياسية التى اشهدتها بريطانيا خلال هذه الفترة.

وبعد فهذه محاولة جادة لا لقاء الضوء على تاريخ أوروبا الحديث، وأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فى ذلك، وعلى الله قصد السبيل.

الاسكندرية فى ٢٠/٦/٢٠٠٠

دكتور

صلاح أحمد هريدى



الفصـــل الأول

أوروبا الحديثة فى فجر عصر النهضة

أوروبا الحديثة فى فجر عصر النهضة

نظرة عامة إلى العصور الوسطى:

يظن بعض الناس أن العصور الوسطى عصور تأخر وانحطاط وهو وصف لا يمثل الحقيقة تمثيلا صحيحًا، ولعل هذه الفكرة ترجع إلى الأثر الذى أحدثه انبثاق العصر الحديث بما حمل من نهضة وتقدم فى أذهان الناس، فقد كان هذا الأثر قويًا إلى الحد الذى حجب الماضى عن أعينهم فكان فى نظرهم ظلامًا كله.

وواقع الأمر أن العصور الوسطى تعتبر من أهم فترات التاريخ الأوروبى، بل هى الأساس الذى نستطيع من خلاله أن نفهم التاريخ الحديث وذلك بدراسة أهم مظاهر العصور الوسطى فى أوروبا.

وتشمل هذه العصور تلك الفترة التى بدأت بسقوط الدولة الرومانية الغربية على ايدى البرابرة بعد منتصف القرن الخامس الميلادى، واستمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر وهو تحديد تقريبى - وفى خلال تلك القرون حدثت تغييرات هامة فى المجتمع الأوروبى. وأول هذه التغيرات هى تلك التى حدثت بسبب محاولة رجال العصور الوسطى اصلاح ما أفسدته غزوات البرابرة والعمل على استقرار الأحوال بعدما حدث من فوضى وارتباك. فكان عليهم أن يخرجوا أوروبا من هذا المعترك الصاخب ليصلوا بها إلى حياة هادئة نسبيًا.

وقد افلحوا فى تحقيق تلك الأمنية واستقرت الأوضاع ونعم الناس بفترات من الأمن والسلام، ولكن تلك الفترات لم تكن متشابهة فى مظاهرها على مدى القرون الوسطى، فالفرد الذى عاش فى القرن العاشر كان أبعد حياة ومدنية عن شخص عاش فى القرن السابع أو الثامن، فقد كان هناك نمو دائم ومطرد يبشر بحياة مستقبلة أرقى منزلة وأكثر حرية وأعظم تقدمًا. حتى أواخر القرن الثانى عشر ظهر

نشاط ملحوظ فى الحياة العلمية، ولو أن الأهتمام بالعلوم كان محصورًا بين جدران الكنائس والأديرة التى كان لها الفضل فى حفظ التراث القديم وصيانته وتسليم هذا التراث الضخم للعصور الحديثة.

وفى القرن الثانى عشر يحدث اتصال بين حضارة الشرق والغرب وبدأ عصر الترجمة، حيث ترجمت علوم اليونان عن العرب، وتأثر المجتمع بالفلسفة اليونانية القديمة. ولكنهم فى تلك الفترة كانوا يدرسون العلوم كما وردت دون اثباتها علميًا، وهذا هو الفرق بين العقليتين، عقلية العصور الوسطى وعقلية العصور الحديثة.[1]

فأهل العصور الوسطى كانوا يأخذون العلوم على علاتها وشعارهم فى ذلك "أعتقد لأفهم"، أما عندما أشرفت العصور الوسطى على الانتهاء، وانبثق عصر النهضة سادت الفكرة التى تقول بأن لا يجوز الاعتقاد فى شئ قبل فهمه Nothing to be believed unless it is to be understood.

وعلى ذلك بدأت العقول تتحرر، واتجه الناس إلى نقد ما كان شائعًا فى العصور الوسطى حتى فى الدين نفسه، فقد وجد من ينقد الكنيسة، وظهر "الهراطقة" الذين تعرضوا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية بالنقد والتقريع، ونمت تلك الروح التقديس فى أوائل العصر الحديث ونتج عنها حركة الاصلاح الدينى البروتسنتنتى.

كذلك كان من مميزات أواخر العصور الوسطى ظهور الجامعات وما تبع ذلك من انتشار العلم وتعميق الثقافة، فنشأت جامعات بدأت باجتماع الطلبة حول أستاذ من أساتذة الفلسفة أو الرياضة، ولم يكن ضروريًا وجود البناء الذى يجتمع فيه الأساتذة بطلابهم، بل كانوا يجتمعون حيث يطيب لهم المقام، إلى أن أصبحت الحاجة ملحة فى إيجاد رابطة تجمع بينهم وتحقق الغرض العلمى من اجتماعهم فنشات الجامعات فى أماكن مختلفة، وشجعها البابوات الذين أصدروا قرارات بانشائها ومدها بالمال والتسهيلات، وانشئت كليات لدراسة العلوم الإلهية ومختلف الفنون

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، بيروت، ص١١ - ١٢.

والعلوم الإنسانية والقانونية ولكن الطابع الدينى، كان قويًا فى هذه الدراسات[1] بداية العصور الحديثة.

اختلف المؤرخون حول تحديد بداية العصور الحديثة، وهناك ثلاثة آراء رئيسية، يستند أصحاب كل منها إلى أدلة وبراهين يرون أنها تؤيد وجهة نظرهم:-

الرأى الأول: يعتقد أصحاب هذا الرأى وبخاصة المؤرخين الفرنسيين أن عام ١٤٩٢م، وهو العام الذى بدأ فيه كشف العالم الجديد، يعتبر بداية طيبة للتاريخ الأوروبى فى العصر الحديث، لما ترتب على هذا الكشف من نتائج ذات أهمية بالغة فى التاريخ الأوروبى فى القرون التالية، نتيجة للتنافس الاستعمارى من أجل السيطرة والاستحواذ على هذه المناطق الجديدة، وما ترتب على استعمار أسبانيا للمكسيك وبيرو، من تدفق معدنى الذهب والفضة من هذه المناطق الغنية بهذه المعادن النفيسة إلى أوروبا فأدى ذلك إلى انعاش التجارة، وخفض قيمة العملة وارتفاع أثمان السلع، من أدى إلى رفع مستوى المعيشة، وازدياد نفوذ الطبقة الوسطى، التى أصبحت تلعب دورًا بارزًا فى بناء الدولة القومية، ولذا فإن هذا الكشف يعتبر انجازًا عظيمًا للإنسانية عامة، وللإنسان الأوروبى خاصة، حيث تغيرت فى ذهن هذا الإنسان الصورة الجغرافية التى كانت لديه عن العالم.[2]

كذلك ترتب على متابعة حركة الكشف الجغرافى، سيطرة البرتغال على تجارة الشرق الأقصى، بعد أن تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م وتم للبرتغاليين ربط آسيا بأوروبا بواسطة هذا الطريق المائى الجديد، وتمكنوا من السيطرة على تجارة التوابل المربحة إلى جانب نقلهم لبعض السلع الأخرى مثل العاج والحرير والسكر ونقل هذه السلع إلى غرب أوروبا عن طريق هذا الطريق التجارى الجديد، مما أدى إلى فقدان مدن وثغور حوض البحر المتوسط لأهميتها

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، ص١٢ - ١٣.

[2] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، معالم التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٨٢، ص٥.

الاقتصادية، وانتقال هذه الأهمية إلى المدن الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى مثل انتورب Antwerp وأنفرس بيلجيكا، ونانت على ساحل فرنسا الغربى، كما احتلت لندن مكانة اقتصادية هامة.

كما ترتب على حركة الكشف الجغرافى بدء تكوين الشركات الرأسمالية التى أخذت تنشط فى القيام بالمشروعات التجارية المتعددة الأغراض والقيام بالمشروعات الزراعية، ومشروعات البحث والتنقيب عن معادن الأرض وجواهرها، وبذلك نمت قوة الرأسمالية وعظمت آثارها فى الحياة الاقتصادية والسياسية، حيث نشط النظام المصرفى والتجارى بصورة فعالة، وازداد نفوذ رجال المصارف والبنوك وكونوا فيما بينهم اتحادات توظف رءوس أموالها ثم تتقاسم الأرباح وقفزوا إلى مراكز ذات نفوذ سياسى، مثل جاك كور Jack Couer فى فرنسا وفوجر[1] Fugger فى أوجسبرج ببغاريا بألمانيا وربرتو ستروزى Roberto Strozzi فى فلورنسا، ولذا فإنه عندما بدأ تدخل الدولة الحديثة فى أمور التجارة لتحتفظ لنفسها بجزء مما تدره من أرباح عن طريق تنظيمات عملية، ولتسد نفقات الإدارة، بدأ أصحاب رءوس الأموال يضيقون ذرعا بتدخل الدولة ويستخدمون نفوذهم فى تقويض السياسة ونجحوا فى مسعاهم، وفرضوا الحرية الاقتصادية أو مذهب الرأسمالية الفردية.

كذلك ترتب على هذا الازدهار الاقتصادى الذى نتج عن عملية الكشف الجغرافى نمو تدريجى فى الصناعة ونظام المصنع، فأدى ذلك بدول أوروبا إلى السعى جادة فى السيطرة على مواطن المواد الخام والأسواق الخارجية، ووجدت الميدان أمامها رحبا فى العالم الجديد وأفريقيا، فتسابقت فيما بينها على الاستحواذ على هذه المناطق،وكان ذلك بداية لحركة الاستعمار التى نشطت بصورة فعالة فى القرن التاسع عشر.

وبذلك يرى أصحاب هذا الرأى ان أوروبا شهدت بعد حركة الكشف الجغرافى نشاطا اقتصاديا لعب دورًا بارزًا فى تغيير وجه الحياة الأوروبية فى مطلع

---

(1) عبد الرحيم عبد الرحمن، معالم التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر، ص٦ ،٧.

العصور الحديثة، وهذا النشاط، وذلك التغيير كانت أوروبا تفتقر إليهما فى العصور الوسطى، ولذلك يعتقدون أن حركة الكشف الجغرافى والوصول إلى العالم الجديد ١٤٩٢م، خير بداية لتاريخ أوروبا الحديث[١].

الرأى الثانى: يرى أصحاب هذا الرأى أن عام ١٤٩٤م خير بداية للتاريخ الأوروبى الحديث، ويعتمدون فى رأيهم هذا على اعتبارات سياسية كان لها أثرها فى توجيه العلاقات الأوروبية فى الفترات التالية، فقد كان هذا العام بداية لما عرف بالحروب الإيطالية ليس هذا فقط، وإنما لما انطوى عليه هذا التاريخ من أهمية بسبب ذلك التكوين السياسى والقومى الجديد، بعد أن كان الاتجاه السائد أثناء العصور الوسطى فى التكوين السياسى لأوروبا يسير نحو الوحدة السياسية، وكان الأفراد مدفوعين نحو هذا الاتجاه بالوازع الدينى، فقد كانت هناك وحدة دينية مسيحية كاثوليكية فى غرب أوروبا، وكانت الكنيسة الكاثوليكية بمثابة منظمة كبرى عاش الأوروبيون قرونا عديدة فى كنفها. وكان هدف اتباع هذه العقيدة، هو النجاح فى تحقيق وحدة سياسية شاملة، تضم البقاع التى تدين بالمسيحية، وعلى هذا الأساس كانت هناك امبراطورية على رأسها الأمبراطور يحكمها حكما زمنيا، إلى جانب البابا الذى يدير أمورها من الناحية الدينية، ولكن هذه الوحدة السياسية كانت تحمل فى طياتها عوامل ضعفها، وكان من العسير الاستمرار فى الاحتفاظ بهذه الوحدة لاختلاف أجناس أوروبا بعضها عن بعض، واختلافها فى العادات والتقاليد من ناحية، ولمنافسة البابويه لسلطة الأمبراطورية الزمنية، ومحاولة بعض البابوات أن تكون لهم السلطة الزمنية إلى جانب السلطة الروحية، من ناحية ثانية، ولذا فإنه ما كاد الفكر يتحرر، حتى اتجه الإنسان إلى البحث عن المجتمع الذى يكفل له الطمأنينة والاستقرار، وأصبح الأوروبيون يعتقدون أنه لا مبرر للاحتفاظ بعالم مسيحى موحد من الناحيتين السياسية والدينية وبدأ التفكير الجدى نحو إقامة ما عرف بالدولة القومية الحديثة،[٢]

---

[١] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المرجع السابق ص ٧.

[٢] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ص٨.

وبدأ كل شعب يسكن رقعة معينة من الأرض لها معالمها الجغرافية الخاصة وعاداتها وتقاليدهـا المميزة له عن غيره من الشعوب، يرى أهمية الانفصال عن التكوين السياسي الشامل لأوروبا (الامبراطورية) الذى لم يكن ليستطيع أن يرعى مصالح هذه الشعوب المختلفة، وقد وجدت ظروف محلية وخارجية، ساعدت بعض هذه الشعوب على تحقيق هدفها القومى، بينما عجز البعض الآخر عن تحقيق وحدته السياسية فى مطلع العصور الحديثة[1]

وكانت الشعوب التى استطاعت أن تحقق هذا الهدف القومى هى الشعب الفرنسى حيث تعطدت الملكية الجديد فى أسرة فالوا Volois بتولى لويس الحادى عشر العرش [١٤٦١ - ١٤٨٣م] وفى عهد خلفائه، ظلت الملكية توسع نفوذها باستمرار عن طريق الميراث والزواج والحرب والغرو، وبذلك استكملت فرنسا وحدتها القومية والشعب الانجليزى حيث جاء الحكم الملكى الجديد بأسرة آل تيودر Tudors [١٤٨٥ - ١٦٠٣م] حيث وحد أول ملوكها هنرى السابع [١٤٨٥ - ١٥٠٩م] فى شخصيته مطالب المدعين السابقين بالعرش ووضع حدا لحروب الوردتين [١٤٥٥ - ١٤٨٥م] الفوضوية، ثم الشعب الأسبانى حيث تمت وحدة مملكتى أراغون وقشتالة بزواج فرديناند ملك أراغون بايزابيلا ملكة قشتالة Castilla ١٤٦٩ حيث ظهرت أسبانيا المسيحية موحدة لأول مرة.

ولذافإنه ما كاد القرن الخامس عشر يشرف على نهايته حتى توطدت الحكومات القومية فى انجلترا وفرنسا وأسبانيا. وأخذت كل من هذه الدول تعمل جاهدة على مراعاة مصالحها الخاصة. وتدعم أنظمتها القومية الداخلية، ثم بدأت تتطلع إلى التوسع على حساب الشعوب التى لم تستطع أن تحقق وحدتها القومية عند مطلع العصور الحديثة وكانت ايطاليا ميدانا للأطماع المختلفة. فبدأت فيها الحروب المعروفة بالحروب الإيطالية عام ١٤٩٤م، وانتهت بمعاهدة كاتوكمبرسيس Cateau Cambersis ١٥٥٩م وقد ترتب على هذه الحروب أنه عندما اجتاحت

عبد الرحيم عبد الرحمن، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ص ٩

الجيوش الفرنسية فى عهد شارل الثامن، شبه جزيرة ايطاليا من جبال الألب شمالا حتى نابلى جنوبا أن اشتد قلق الدول الأوروبية فتحالفت على رد ذلك العدوان حتى لا يخل تفوق فرنسا فى ايطاليا بالتوازن الدولى، وكان ظهور مبدأ التوازن الدولى من الأهمية بمكان، فقد حرصت الدول الأوروبية منذ ذلك الوقت على هذا المبدأ، ودخلت فى سبيل تلك المحافظة عليه حروبا متعددة، ومن هنا فإن الحروب الايطالية تعد فى رأى هذا الفريق بداية للعصر الحديث.[1]

الرأى الثالث يعتقد أصحاب هذا الرأى أن عام ١٥١٧م هو بداية التاريخ الأوروبى الحديث. حيث أعلن مارتن لوتر Martin Luther فى ٣١ أكتوبر من هذا العام، هجوم على الفساد الذى كان يسود الكنيسة الكاثوليكية وبخاصة بيع صكوك الغفران، وترتب على هذه الثورة الدينية، أن عددا كبيرا من الأوروبيين، بل ومن سكان العالم الجديد، أعتنقوا المبادئ التى نادى بها مارتن لوثر Martin Luther وغيره من المصلحين أمثال جون كلفن Jean Calvin وأولريخ زونجلى Urich Zwingli، وبهذا لم يعد المذهب الكاثوليكى هو السائد فى أوروبا، وإنما بدأ المذهب البروتستنتى يسود معه جنبا إلى جنب، وترتب على ذلك كثير من الحروب الدينية، التى كان على أثرها فى التاريخ الأوروبى الحديث، كما أدت إلى تفتيت الوحدة الدينية التى كانت تتمتع بها أوروبا فى العصور الوسطى، وقد شغلت الحروب الدينية أوروبا طوال القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، وتداخلت معها الأطماع السياسية فى كثير من مراحلها حتى غدت فى كثير من الأحيان حروبا سياسية وأصبحت من أهم سمات التاريخ الأوروبى فى تلك الفترة. لذا فإن هذا الفريق يتخذ من هذه الثورة بداية للتاريخ الأوروبى الحديث[2]

أما أوروبا الجديدة وأهم مميزاتها، نستطيع أن نقول أن لكل عصر من العصور التاريخية فى العالم مميزاته الخاصة، ولما كانت هذه المميزات مرتبطة

---

[1] عبد الرحيم عبد الرحمن، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ص٩ - ١٠.

[2] عبد الرحيم عبد الرحمن معالم التاريخ ص ١٠.

بتكوينها بمجهودات الإنسان فأصبح من الطبيعي أن تكون بطيئة في تكوينها وتحديد معالمها، وأدى ذلك كله إلى أن تتخلل كل العصور التاريخية المختلفة مراحل انتقال، تتبلور أثناءها هذه المميزات وتلك السمات.

ولا يختلف عن ذلك تاريخ أوروبا الحديث الذى بدأ فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بعد فترة انتقال استمرت زهاء قرنين من الزمان لمعت أثناءها بعض الشخصيات أمثال "دانيتى اليجيرى" [١٢٦٥ - ١٣٦١] مؤلف الكوميديا الالهية، وقد اشتهر بعرضه لطائفة من صور الحياة فى العصور الوسطى، والشاعر "بترارك" [١٣٠٤ - ١٣٧٤م]، ويعرف بأبى الحركة الإنسانية، وقد خلد الحروب البونية بملحمة "أفريقيا" المكتوبة باللاتينية، كما نظم بالإيطالية "كتاب الأغانى" الذى يتضمن مقطوعته الغنائية الرائعة التى استوحاها من صديقته "لورا". وكان بترارك يعتز بمؤلفاته اللاتينية، ولا يفخر بمعرفته للإيطالية. والروائى الشاعر "بوكاشيو" [١٣١٣ - ١٣٧٥]، اشتهر بمؤلفه الخالد "الديكامرون" وهو من المؤلفات العالمية المشهورة، ويعد من أبرع الكتاب فى سرد القصة وتحليلها. ويعد "دانتى وبترارك وبوكاشيو" أئمة للأدب الايطالى الحديث. [1]

وتتنوع هذه المميزات بين فكرية وسياسية ودينية واقتصادية واجتماعية.

المميزات الفكرية

مما لا شك فيه أن التحرر الفكرى فى أوروبا كان من أهم مميزات العصر، وكان ثورة على الجمود الذى ساد الحياة الأوروبية خلال العصور الوسطى، لذلك كانت ميزة لهذا العهد أن الفرد قد أصبح حرًا فى أن يختار من العلوم وألوان الثقافة ما يلائم طبيعته وتفكيره غير مقيد بتقاليد الكنيسة وتعاليم رجال الدين الجافة، وهم الذين كانوا يسيطرون على العقول والإتجاهات الفكرية فى العصور الوسطى. وكان

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر القاهرة ١٩٩٨، ص١١.

لهم تأثيرهم الواضح على الأذهان عندئذ، لأنهم كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة إلى جانب من الأرستقراطية في المجتمع[1]

وهكذا أصبح التفكير حرًا يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة، ويعمل على توفير كل أسباب السعادة والحياة التي توفر الراحة للفرد، ولم يعد التفكير فيما بعد الموت وأداء الواجبات الدينية هو وحده الذي يشغل الخواطر الإنسانية، ومن ثم ظهرت الحركة الواسعة النطاق الشاملة التي عرفت بالحركة الإنسانية.

هذه الحركة تزعمها جماعة يعرفون بالإنسانيين. ومن ذلك التسمية نتبين أن الإنسان كان موضع البحث والاهتمام. فلم تعد هناك حقائق خفية لا يجب التعرض لها كما كان يوحي بذلك رجال الدين من قبل، وأصبحت المعرفة في حد ذاتها معرفة كل شئ، التأكد من حقيقتها هو الاتجاه الجديد، وقد ترتب على ذلك أن هذه الحركة الإنسانية اهتمت بالبحث عن تلك الحقائق في كنوز المعرفة القديمة الرومانية والإغريقية بصفة خاصة، فاكتشفت المعلومات الحديثة التي كان يجهلها الغربيون من قبل.

وقد تأثر الأوروبيون باتصالهم بالعرب في الشرق أيام الحروب الصليبية. وفي الغرب أيام حكم العرب في الأندلس، تأثروا بما اطلعوا عليه من معلومات مختارة في الطب والجغرافيا والرياضة والجبر، وما لمسوه من تقدم في بعض الصناعات مثل صناعة الورق والحرير والسكر، كل هذه الاتصالات جعلتهم يؤمنون بضرورة جمع المخطوطات القديمة ودراستها ونقلها والتعليق عليها.

ولما كانت هذه المخطوطات مكتوبة باللغتين الإغريقية أو اللاتينية فقد عكف بعض الإنسانيين على اتقان هاتين اللغتين. وكانت اللاتينية معروفة لدى الفئات المتعلمة فكانت هي اللغة التي تكتب بها الأبحاث العلمية والأدبية. فازداد عدد المقبلين على تعلمها، إلى جانب اقبالهم على تعلم اللغة الإغريقية حتى

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، ص ١١

يستطيعوا تفسير ما جاء في الوثائق المكتوبة بهما. وعندما تم لهم ذلك أظهروا اهتمامًا بالغًا بلغاتهم القومية كالإيطالية والانجليزية والفرنسية وغيرها.

وهكذا أصبحت اللغات القومية غير قاصرة على التخاطب والتفاهم بل عدت ذلك إلى البحث والتأليف، ومن ثم كانت النهضة بهذه اللغات واستخدامها على النحو الذى قدمنا سبيلاً ميسرة إلى توصيل المعلومات المتنوعة إلى مختلف الشعوب الأوروبية.

وكان لهذه الناحية أهميتها العظمى، لأن حركة الترجمة من اللغات القديمة إلى اللغات الحديثة أدت إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية فأصبح من السهل على المسيحي المخلص أن يطلع بنفسه على المعلومات الدينية الأصلية وأن يعرف ما أدخل عليها من إضافات تتعارض مع أسس الدين، وقد كان رجال الدين يحتفظون بسرية هذه المعلومات ويحرصون على عدم تسربها إلى فئات الشعب حتى يكتسبوا مكانة ومهابة فى نفوس المسيحيين، وحتى يستغلوا هذه المعلومات لخدمة مصالحهم المادية المختلفة. ومن ثم كانت صيحة الإصلاح الدينى التى نادى بها "مارتن لوثر" فى ألمانيا "وجون كالفن" فى فرنسا وسويسرا وغيرهما من المصلحين الدينيين.

وكان لهذه الصيحات المطالبة بالإصلاح الدينى أثرها العميق فى توجيه الأذهان والنفوس إلى اصلاح الكنيسة بشتى الطرق والوسائل، فكانت بذلك حركة الإصلاح الدينى الواسعة النطاق. والتى شملت بعض الدول الأوروبية، وترتب عليها اعتناق بعض شعوب أوروبا العقيدة البروتستنتية.[1]

وترتب على الحركة الفكرية الجديدة اكتشاف بعض الحقائق التى كانت خافية على المجتمع الأوروبى منذ العصور الوسطى مثل كروية الأرض وحركتها حول نفسها، كما كان لتقدم فن الملاحة وتطوير بعض الأجهزة مثل البوصلة،

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، ص١٢ - ١٣.

والاسطرلاب أثره البالغ فى نجاح بعض المغامرين الغربيين فى تحقيق أهدافهم الكشفية والاستعمارية، فخطوا خطوات واسعة فى هذين المجالين، واستطاعوا أن يكتشفوا عالمًا كبيرًا فيما وراء البحار، كما اكتشفوا الأمريكتين وجزر الهند الغربية، واكتشفوا طريق رأس الرجال الصالح إلى الشرق الأقصى فكان لهذه الكشوف آثارها البعيدة فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وكان من نتيجة ذلك ظهور طبقة وسطى قوية ثرية، الأمر الذى أوجد تغييرا جذريا فى المجتمع الأوروبى الذى كان يحيا فى العصور الوسطى حياة تتسم بالتخلف والجمود فهى لا تعدو الزراعة والفروسية. ولكن هذا المفهوم تغير من ذلك الحين.

ومما تميز به الفكر الحديث ظهور عدد كبير من المؤلفات الحديثة فى ميادين العلم والأدب والفنون المختلفة، وكان من حسن حظ هذه الحركة – الحركة الإنسانية – أن ظهرت الطباعة فى أثناء نموها، ويضاف إلى هذا ظهور طائفة من العلماء الباحثين المدققين المتحمسين للبحث عن كل ما هو قديم. ظهرت الطباعة فى ألمانيا حوالى منتصف القرن الخامس عشر وانتقلت منها إلى أنحاء أوروبا فساعدت على ظهور هذه المؤلفات والأبحاث التى قام بها الإنسانيون فى كل الميادين، مما سهل انتشارها ورواجها، فشاهدت العصور الحديثة إنتاجًا علميًا وأدبيًا وفنيًا لم تشاهده أوروبا من قبل منذ نهضة الإغريق فى عصر بركليس فى القرن الخامس قبل الميلاد.[1]

المميزات السياسية للعصور الحديثة

كانت أوروبا، تتمتع فى العصور الوسطى بوحدة سياسية شاملة، على رأسها امبراطور الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة. ولم تكن فكرة الدولة والأمة بالمعنى الذى نفهمه بها الآن، مفهومه فى العصور الوسطى، فعلماء النظريات

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، منذ مطلع القرن السادس عشر. ص١٢ – ١٣.

السياسية فى العصور الوسطى، كانوا يؤمنون أن المسيحية تكون دولة واحدة، يحكمها البابا والأمبراطور فيما بينهما بتفويض من الله تعالى، الأول فى الشئون الدينية، والثانى فى الشئون الدنيوية، ولهذا فإنه يجب على كل الملوك اطاعتها.[1]

ولم يكن هناك أى تفكير حول نظام حكومى أفضل من هذا النظام الشمولى، حتى كانت فترة الانتقال هذه، حيث بدأ التفكير فى النظم الحكومية ومهمة الحكومة التى تبلورت فى النظرية التى تقول بان مهمة أى حكومة هى السهر على مصالح الأمة، وكان هذا التفكير بدء ما نسميه بالعلوم السياسية وكان الرائد فى هذا الميدان نيقولا ميكافللى Nicolas Machiavelli [١٤٦٩ - ١٥٢٧م] القاضى والمؤرخ الدبلوماسى الإيطالى الذى وضع كتابه المشهور "كتاب الأمير" بعد أن تدرج فى عدة وظائف، وندب لمهمات سياسية فى إيطاليا وفى الخارج وحصل على ثقافة تاريخية وسياسية واسعة، وآمن أن القوة وحدها هى التى تعيد لإيطاليا وحدتها، ولذا وضع هذا الكتاب، الذى درسه كل من شغلته السياسية، كما انتفع به كثير من ساسة العالم، لما فيه من شرح مستفيض لأصول الحكم وفن السياسة، وطرح لقواعد العصور الوسطى، ولذا فإن ملوك أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ساروا على نسقه، ثم خلف ميكافيللى سير توماس مور Sir Thomas More ابن البرجوازية البريطانية وصديق أرزمس Erasmus الذى وضع كتابه "يوتوبيا Utopir" والذى نشر عام ١٥١٦ وبسط فيه وبطريقة غير مباشرة آراءه الاقتصادية والدينية والسياسية واقتبس فكرته من جمهورية أفلاطون، يقصد إظهار المساوئ المنتشرة فى عصره، ونقدها، مع مقارنتها بالمثل العليا التى هداه تفكيره إليها[2].

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، معالم التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر، ص١٨ - ١٩.

(٢) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى، أوروبا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة، ص٣٢ - ٣٤، عبد الرحيم عبد الرحمن، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٨ - ١٩.

هكذا ظهرت فى فترة الانتقال نظريات سياسية جديدة، قادت إلى انهيار النظريات السياسية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى، وبخاصة أنه لم يأت القرن الخامس عشر، إلا وكانت بعض الدول الأوروبية قد اكتملت لها شخصية الأمم الحديثة، وبدت واضحة بكيانها القومى المستقل مثل انجلترا وفرنسا وأسبانيا، وبهذا تميزت فترة الانتقال بوضوح الفكر السياسى وقيام الأمم الحديثة، وهذا لم يكن معروفا من قبل.

ثالثًا: الخصائص الاقتصادية والاجتماعية وانهيار نظام الإقطاع:

أما من الناحية الاقتصادية والإجتماعية، فقد تميز العصر الوسيط بالنظام الإقطاعى Feudal System الذى بدأت تتلاشى مظاهره فى العصور الحديثة. فقد كانت الأرض موزعة بين أشراف يمتلكونها بما عليها من إنسان وحيوان، ويحكمون إقطاعاتهم بمعلق آراؤهم، يقضى بين الناس بما شاء له حكمه،وبذلك كانت الأرض هى عماد الثروة الإقتصادية. لذلك انعدم وجود الطبقة الوسطى التى تعتبر عماد الحياة، أو كانت قلة معدومة الأثر فى البلاد، ولذلك كان المجتمع طبقتين: أشرافًا يتمتعون بكل شئ، وفلاحين يعتبرون أرقاء للأرض.

أما عندما بدأت العصور الحديثة أخذت الأوضاع فى بعض البلاد الأوروبية تأخذ أشكالًا اقتصادية متغيرة، ففى فرنسا مثلا حيث كان النظام الإقطاعى سائدا، كان الملك نفسه يحكم اقطاعًا فى باريس ولا يتعداه إلى بقية الإقطاعات على الرغم من اعتراف الأشراف به وبأسرته، إلى أن حدث تطور أضعف قدرة الأشراف بعد أن انهكت قواهم الحروب المتتالية. وعندئذ بدأ بعض الملوك يحطمون نفوذهم ويبسطون سيطرتهم خارج باريس، فقام صراع طويل بين الملكية والأشراف انتهى بهدم النظم الاقطاعية وتحرر الفلاحون من رق الأرض، ومنحوا حق الملكية، فكان هذا التحول الإقتصادى على أكبر جانب من الأهمية.

وقد أعان الملكية فى النصر الذى حازته على الأشراف أن الناس بدأوا يشعرون بأن الأرض لم تعد المصدر الأساسى للثروة، فقد اينعت التجارة وراجت الصناعة، وظهرت على أثر ذلك طبقة وسطى تشتغل بالتجارة وناله ثراء دفعها إلى

النفوذ الذى حرمت منه فى العصور السالفة، وعلى الأخص عندما اتسعت العلاقات التجارية بين أوروبا والعالم الجديد بعد حركة الكشوف الجغرافية، ومن جهة أخرى ازدادت العلاقات الأوروبية بالشرق الغنى بغلاته ومنتجاته.[1]

وانتعشت أحوال أوروبا الإقتصادية بانتعاش تلك الطبقة الجديدة التى كان من مصلحتها تدعيم نفوذ الملكيات ليسود الاستقرار والأمن حتى تستطيع ممارسة نشاطها ومضاعفة ثرواتها. وبذلك أرتبطت مصلحة الملوك بمصحلة الطبقة الوسطى فى الصراع ضد الأشراف ورأت الملكية أن من مصلحتها الاستعانة بمواهب رجال الطبقة المتوسطة والانتفاع بأموالهم. فعيّن الملوك منهم أعضاء فى البرلمان وحكامًا فى الأقاليم، وقضاة، ومشرعين.

وقد غيرت تلك الظروف نظرة الملوك فى الحكم. فبعد أن كانوا يحكمون معتمدين على الجيوش التى يجمعها الأشراف فى زمن الحرب. عمدوا إلى إنشاء الجيوش الثابتة التى تبقى زمن الحرب وزمن السلم. كحارس ومدافع ضد أطماع الأشراف وضد العدو الأجنبى. وتقوم تلك الجيش بالغزوات والفتوحات التى يفكر الملوك القيام بها. وجاء اختراع البارود والمفرقعات فى نهاية العصور الوسطى أكبر معين للملك ضد فروسية العصور الوسطى فساعد ذلك على دك معاقل الأشراف وتحطيم حصونهم وقد استغرق القضاء على الأشراف زمنًا ليس بالقصير[2]

كذلك ظهرت فى العصور الحديثة روح جديدة، وهى النزوع إلى التفكير الحر، أما أطلق عليه بكلمةالفردية Individualism أى روح الفردية أى انفصال الفرد عن التقيد بما ليستسيغه أو يعتقده فى داخلية نفسه. ظهرت تلك الروح فى التفكير الدينى. وكان من نتيجتها ظهور حركة الإصلاح، ومحاولة المصلحين تغيير ما يرونه ضد العقيدة الحقة والدين الصحيح. على أن ذلك لا يعنى أن الفرد كان حرًا فى العصور الحديثة، بل أنه كان مقيدًا فى بلده برأى حكومته، إنما كان باستطاعته

---

(1) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٦ - ١٧.

(2) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٧.

أن يهاجر إلى بلاد أخرى. فمذهب لوثر كان مذهبًا عامًا ودوليًا ظهر فى ألمانيا، فمن لم يرتح إليه من الألمان يستطيع أن يرحل من ألمانيا إلى دولة أخرى لا تعتنق هذا المذهب.

كذلك ظهرت الروح الفردية فى الحكم والسياسة، ونجدها واضحة فى الظروف التى نشأت فيها الدول القومية، ولو أنها لم تنشأ فى أوائل العصور الحديثة بل احتاجت إلى ثلاثة قرون حتى تم نضجها فى أوروبا، فإيطاليا لم تحقق وحدتها إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وكذلك ألمانيا بل إن شعوبًا كثيرة ظلت تجاهد من أجل قوميتها واستغرق جهادها سنين طويلة امتدت إلى نهاية الحرب العالمية الأولى. على أن روح الفردية لم تظهر فجأة فى تاريخ محدد، بل احتاجت إلى أجيال متعاقبة تنمو فيها وتتطور. فالفكرة وجدت فى بداية العصور الحديثة ولا تزال الدولة هى صاحبة الحق فى كل شئ، والفرد خاضع لها ويسير على دربها، حتى إذا جاءت الثورة الفرنسية، وأعلنت حقوق الإنسان، ورفعت شعار الحرية والإخاء والمساواة، بدأت الفكرة تنساب من فرنسا إلى الشعوب المتعطشة لتحقيق تلك الشعارات. ومع ذلك لم يكن تحقيقها سهلًا ميسورًا. وحتى فى فرنسا ذاتها احتاج الشعب إلى زمن طويل للحصول على هذه الحقوق وفى حدود ضيقة.[1]

وكان من الظواهر التى اتسمت بها المدينة تقسيمها إلى وحدات تبلغ مساحة كل منها ربع المدينة، وكانت لكل منها كنيستها أو كنائسها، وكثيرا ما كانت لها سوق محلية للحاجات الغذائية، وكان لها دائمًا موردها المحلى للمياه، كبيرًا أو نافورة. ولم تكن شوارع مدينة العصور الوسطى ضيقة، وفى حالات كثيرة غير منتظمة فحسب، بل كانت تكثر بها المنحنيات الحادة، إذ كان من شأن هذا التخطيط أن تجد من قوة الريح ويقلل من مساحة الأوصال.

واهتمت المدينة بحماية مشروعاتها التجارية والصناعية ومنع تجار مدينة منافسة من دخول المنطقة الريفية التى تمارس فيها نشاطها، وفرضت الطرائب

(1) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٨.

الجمركية على البضائع المستوردة إلى داخل. أسوارها من المدن الأخرى، كما فرضت رسوما خاصة على التجار القادمين من الخارج لمزاولة التجارة فى داخل المدينة. ولجأت بعض المدن إلى سك عملتها الخاصة وتحديد نسبة استبدال عملة بأخرى.[1]

وكان لأهل الحرف والتجار نقابات طائفية Guilds نزعت إلى احتكار نوعًا معينًا من الصناعة والتجارة، وكانت تتولى المحافظة على النظام فى داخل بيئتها، فتوقع الغرامة والعقاب على مرتكبى الجرائم الصغرى فى حق رابطة الأخوة، وكان لها وحدها أن تشترى المواد ثم توزعها على الأعضاء، وأن تسن ما تراه من قوانين وأحكام بصدد الأسواق، وشروط العمل والأسعار، ومستويات الإنتاج من حيث الجودة، وأن تحدد عدد المشروعات والحوانيت الجديدة، وذلك تفاديًا لتكدس الإنتاج الذى يؤدى بالضرورة إلى انخفاض الأسعار. وعلاوة على ذلك كله، فقد كانت النقابات الطائفية تنظيم توريد الأطعمة لمدنها ونقل فضلاتها، وتشرف على رصف الشوارع وإنشاء الطرق والأحواض وتعميق الموانئ.[2]

وكانت المدن عادة تحكم بواسطة مجالس بلدية Municiptat Councils أو حكومات محلية تمثل مصالح النقابات الطائفية. وكانت الحكومة المحلية هى ونقابة التجار الطائفية فى بعض الأحيان هيئة واحدة، على حين أن بعض المدن القديمة كانت تحكم بواسطة دوقات توارثوا مناصبهم، وكانوا ذرارى رجال إدارةغدوا ملاكا للأرض.

وفى إيطاليا بوجه خاص، اتجهتالمدن الهامة لتصبح مدن _ دول City States أو جمهوريات حرة، ولتشن الحرب ضد بعضها بعضًا، بسبب الخلاف على الحدود الإدارية والحقوق ضد بعضها بعضا، بسبب الخلاف على الحدود الإدارية والحقوق الإقطاعية، أو بسبب الأسواق وضرائب الطرق والجسور، أو بسبب التنافس

---

[1] السيد رجب حراز، عصر النهضة، دراسة فى الحضارة الأوروبية الحديثة، القاهرة ١٩٧٤، ص٥٨ - ٥٩.

[2] السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٦٠.

على الأراضى الزراعية وغير الزراعية المجاورة، أو بسبب المشاركة فى العداوات القديمة والضغائن المتوارثة بين البيوت الكبرى، حتى أصبحت الجيرة فى حد ذاتها - على حد قول فشر - من أقوى العوامل فى إثارة الأحقاد الطويلة الآماد[1]

ومنذ أواخر القرن الثانى عشر، فإن سكان المدن فى إيطاليا لحاجتهم الماسة إلى يد قوية تدرأ عنهم خطرًا داهمًا لجأوا إلى نقل قدر كبير من السلطة التنفيذية إلى موظف خاص يدعى البودتستا Podesta، كان يتولى وظيفته لمدة سنة واحدة أو لبضع سنين معدودة، ولكنه كان يتحرر عنه الضرورة من قيود القانون. وكان هذا - من بعض الوجوه - منشأ حكم الطغاة DesPosts فى ايطاليا، بعد أن غدت وظيفة البودتستا مستديمة قابلة للتوريث خالفًا عن سالف. وكانت المدن الإيطالية أحيانًا أخرى تستخدم الجنود المرتزقة فى الحرب ضد فلورنسا. وإزاء الشدائد الحربية، كانت المجالس البلدية هى أول من قلب عملية الحصول على الحرية رأسا على عقب. ورغم ما كان يحدوها من أمل فى اعتبار استخدام المحترفين من المأجورين تدبيرًا مؤقتًا، فإنها كثيرًا ما وجدت أن القائد الأجير Condottiere يصبح فى مقابل انتصاره حاكما للمدينة التى كان قد استؤجر للدفاع عن حريتها.[2]

ومن جهة أرى، فلما كان سكان المدن دائمًا وتحت رحمة الاضطرابات السياسية والمغارم الثقيلة واعتداءات البارونات اللصوص وقراصنة الأنهار، لم يكن غريبًا أن تعمد مدن كثيرة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى تكوين عصبة تضم مدن وادى الراين وعصبة أخرى تضم المدن الألمانية الجنوبية، بيد أن أعظم هذه العصبات كلها وأطولها عمرًا، كانت عصبة المدن الهنسية التى امتدت شبكة علاقاتها التجارية من القنال الإنجليزى إلى خليج فنلند، ومن لندن إلى نوفجورود، ومن كولون Cologne إلى برجن Bergen. ومن الصعوبة تحديد عدد المدن

---

(1) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٦٠.

(2) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٦٠ - ٦١.

التى ضمنتها العصبة. لأن عددها كان متغيرًا باستمرار. ولكن التقدير المعتاد لعدد مدن العصبة فى ذروتها قوتها هو ثمانين مدينة. ولا تقع هذه المدن على طول الساحل فحسب، بل أيضًا على طول المجارى المائية فى السهل الألمانى الشمالى. وقد نظمت العصبة على هيئة أربعة "دوائر" لكل منها مركز، وهذه المراكز الأربعة هى لوبيك Lubeck ودانزيج Danzig وبرنزويك Brunswick وكولون. وكانت همبورج Hamburg وبرمن Bremen عضوين بارزين بالعصبة.

وبلغت عصبة المدن الهنسية ذروتها وقوتها وعظمتها فى القرن الرابع عشر، حيث سنحت الفرصة فى هذا القرن للتاجر الألمانى – دون غيره من التجار – أن يصبح وسيط المبادلة والمتاجرة بين بلاد الشمال الغربى من أوروبا وكثر عدد التجار الألمان الذين أثروا من حمل الصوف الخام والمنسوجات الصوفية والغلال والأنبذة والفراء الثمينة والمنسوجات الرفيعة. وأن التجار الألمان وأشباههم من تجار البلاد الأوروبية الواقعة شرقى انجلترا، هم الذين أطلق عليهم الإنجليز اسم "ايسترلنج" Easterling أى الشرقيين، وهم الذين أصبحوا عاملا هامًا فى تجارة انجلترا الخارجية، بل غدوا شخصيات مألوفة فى لندن قبل بداية القرن الرابع عشر. وبلغ أولئك التجار من الثراء والاستقرار بنقابتهم Hans الخاصة بهم فى لندن وبالغرفة التجارية Guild Hall الخاصة بالعاصمة الإنجليزية نفسها، أى صيغة مختزلة من لفظ ايستلنج – أى استرلينى Sterling – صارت علمًا على الوحدة الذهبية فى النقد الإنجليزى حتى الوقت الحاضر.[1]

أما نمو التجارة والصناعة فمنذ أن ظهرت المدن حوالى عام ١٠٠٠ الميلادى، نمت التجارة والصناعة، نموًا مضطردًا حتى ظهرت النهضة الأوروبية، وقد تميّزت المدن الإيطالية بالذات عن غيرها بذلك النمو، فتلك المدن تقاليدها التجارية منذ العهد الرومانى، عندما كانت ايطاليا مركزًا لتجارة العالم وظلت ذائعة الصيت فى عالم التجارة وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافى فى منتصف

---

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٦٠ – ٦١.

حوض البحر المتوسط، ذلك الموقع الذى جعلها على مدى العصور الوسطى وفى عهد النهضة الأوروبية أعرق البلاد الأوروبية حضارة واكثفها سكانًا، وبذلك تفوق المجتمع الإيطالى على غيرها من المجتمعات التى تعيش فى أسبانيا وفرنسا وانجلترا وألمانيا.(١)

وظلت التجارة الدولية الأوروبية فى عام ١٥٠٠ على ما كانت عليه خلال القرنين السابقين فظلت الفلندر وشمال إيطاليا أكثر بلاد أوروبا تقدمًا فى الصناعة فكانت تصنع فى كل منها أحسن أنواع الأقمشة الصوفية فى أوروبا كما تخصصت إيطاليا فضلا عن هذا فى صناعة الحرير، والفلندر فى الأقمشة الكتانية والدانتلا والنسيج المزدان بالصور المستخدمة فى كسوة بعض الأثاث. كما تقدمت فى كليتيهما صناعة بناء السفن والمطبوعات المعدنية. واحتكرت البندقية تجارة التوابل القادمة من الشرق وغيرها من سلع الترف التى كان تجار البندقية وألمانيا يوزعونها على أوروبا.(٢)

وكان الاتصال بين ايطاليا والفلندر ميسرًا برًا وبحرًا، كما توافرت الخطوط الجانبية لهذا المحور "إيطاليا – الفلندرز" فى الاتجاه الغربى والجنوبى نحو فرنسا وأسبانيا والاتجاه الشرقى والشمالى نحو ألمانيا والبلطيق، ويلاحظ أن اتصال هذا المحور ممتد نحو الشمال الغربى أى إلى انجلترا التى لم تعد المورد للصوف الخام الذى أثرى صناع الأقمشة فى جنت وفلورنسا – وإن كانت لا تزال تصدر إلى الفلندرز وبربان Flanders, Brabant الأقمشة نصف المصنعة - Semi Finished لتقوم على إتمام تصنيعها. وقد احتلت أسبانيا مكانة انجلترا؛ فأصبحت المورد الرئيسى الدولى لأحسن أنواع الصوف الخام.

على أن التجارة الخارجية لم يقتصر على المنسوجات والتوابل، فالأخشاب والحبوب والفراء كانت تصدر من النرويج والبلطيق فى مقابل الملح والنبيذ من

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٩ – ٢٠.

(٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، ص٣٦.

فرنسا والبرتغال. كما كانت الأسماك والجبن والزبد والنبيذ والبيرة وكل أنواع الأسلحة تصدر إلى جهات بعيدة. ولم تكن تجارة الرقيق أقل أهمية من كل ذلك؛ فلم تتوقف في جنوب أوروبا على الإطلاق؛ فخلال القرن السادس عشر أصبح تجنيد العبيد المجدفين في السفن الشراعية الكبيرة من مختلف الجنسيات للخدمة في السفن الحربية بحوض البحر المتوسط يتم بطريقة وحشية، لم يهاجمها إلا ارزم والإنسانيون المنتمون إليه.[1]

وكانت السلع المنقولة برًا تشحن على ظهور البغال والخيول في طرق غير بعيدة، بينما كان البعض ممن تسمح ظروفهم يفضلون نقلها بحرًا عن طريق البحار أو الأنهار؛ نظرًا لأن هذه الوسيلة كانت أقل النفقات، وأسرع كما كانت اسلم في كثير من الأحيان. وكانت الرحلة من البندقية إلى بروكسل تستغرق عشرة أيام وإلى باريس أثنى عشر يومًا، وإلى لندن أربعة وعشرين يومًا وإلى وإلى الآستانة ما يتجاوز الشهر. على أنه قد إستغرقت أقصر رحلة من البندقية وباريس سبعة أيام، وإلى القسطنطينية خمسة عشر يومًا. ولكنها في الأغلب الأعم كانت تستغرق أكثر من ذلك بكثير [2]

وكانت أهم المدن الرئيسية التي اشتهرت بالتجارة والغنى والثروة هي المدن القريبة من ممرات الألب شمال شبه الجزيرة الإيطالية، لأن تلك الممرات الجبلية ساعدتها على نشر تجارتها في أوروبا، لذلك استحضرت ميلان وجنوا وبولونيا، وفيرونا وبادوا. وفاقتها جميعها مدينتنا البندقية وفلورنسة أهم مركز لتوزيع تجارة التوابل ونفائس الشرق، وكانت فلورنسة المركز الرئيسي لصناعة النسيج من صوف وحرير.

على أية حال كانت هذه المدن التي تكوّن ولايات صغيرة تختلف حجمًا وبعضها كان من صغر المساحة بحيث لم يكن لها أثر في تاريخ ايطاليا، ولكن استطاعت خمس ولايات إيطالية أن تنمو وتطور نفسها حتى أصبحت مراكز قوة

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثاني عشر، ص٣٦ - ٣٧.

(٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص٣٧.

لتقرير مصير إيطاليا بأكملها فيما بعد، تلك كانت الولايات البابوية، ونابلى، وميلان والبندقية وفلورنسة.

الولايات البابوية:

أما ولايات البابوية فكانت تمتد فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية من جنوب مصب التبير إلى مصب نهر البو وتشتمل على عدة مدن وحصون تحت سلطة حكام يعترفون بسيادة البابا ويخضعون لسلطانه، ونظرًا لأهمية مركز البابا أصبح له مركز الصدارة فى قيادة السياسية الإيطالية، إذ لم يكن مركزه دينيًا فحسب بل لقد اشتغل عدد كبير من الباباوات مراكزهم وزجوا بأنفسهم فى السياسة وعاشوا حياة الغنى والترف.

وكانت فكرة الذين يؤمنون بحكم البابا الدنيوى نبع من اعتقادهم بأن زعامته الروحية فى العالم المسيحى لا تكون فعالة إلا إذا أيدها ملك دنيوى. ومن هنا كان تدخل البابوات فى السياسة الإيطالية والأوروبية حتى أصبحوا عنصرًا فعالًا فى العلاقات الدولية بين إيطاليا كلها وبين الدول الأوروبية الأخرى.[1]

ميـــلان:

وهى دوقية تمتد فى الشمال وسط سهل لمباردى الخصيب، ولذلك توفرت لديها ثروة زراعية كبيرة وإلى جانب ذلك ازدهرت صناعاتها التى كان أهمها صناعة المنسوجات الحريرية.

وكانت ميلان تحت حكم أسرة عريقة هي أسرة فسكونتى Visconti التى سعت لجعل ميلان مركزًا للتوسع نحو المدن المجاورة وتأسيس حكومة تميل نحو الدكتاتورية العسكرية. وقد قام أحد الحكام من أسرة فسيكونتى بتحويل ميلان إلى دوقية وأطلق على نفسه لقب الدوق، وقام التنافس بين دوقية ميلان وبين الدولتين الكبيرتين المجاورين لها وهما البندقية وفلورنسة.

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٢٤.

وفي عام ١٤٥٠ انتقل الحكم في الدوقية إلى شخصية عسكرية، وهو فرانسسكو سفورزا، الذى أسس أسرة جديدة بعد أن اقتنص الحكم من آخر سلالة أسرة فسكونتي وهو صبي صغير. وكانت هناك صلة قرابة تربط الأسرة الملكية في فرنسا بأسرة سفورزا مما جعل لميلان أهمية سياسية قصوى بالنسبة لفرنسا، وظلت ميلان محتفظة باستقلالها إلى أن أقدم أحد أفراد هذه الأسرة وأسمه "لودفيكو سفورزا" على الاتصال بفرنسا لتساعده على انتزاع الحكم من ابن أخيه القاصر والذى كان لودفيكو وصيًا عليه. ولذلك يعتبره المؤرخون المسئول عن غزو شارل الثامن ملك فرنسا للأراضي الإيطالية، مما دعا الأسبانيون للتدخل وقيام الحروب التي عرفت في التاريخ باسم الحروب الإيطالية.[1]

البندقية

كانت الحكومة تتركز في أيدى الأقلية من عائلات البندقية الكبيرة العتيقة، وكان على رأسها حاكم Doge يعين بالانتخاب، وهو الصورة الفخمة والرمز الباهر لعظمة البندقية. وفي القرن الخامس عشر وجد إلى جواره مجلس من عشرة أعضاء يمارسون سلطة عليا. وقد كان للبندقية من استقرار في النظم والثروة التجارية والنجاح في سياستها الحريصة ما بهر أعين الساسة والفلاسفة معًا في أوروبا. وكانت البندقية تملك منذ القرن الثالث عشر ممتلكات مهمة في شرقي أوروبا وشرقي البحر المتوسط. كما كونت الثروات الضخمة نتيجة لتجارتها مع الشرق، وصارت لها ممتلكات في الأدرياتي في ساحل دالماشيا وفي جزائر ايونيان والبحر الايجي وفي شبه الجزيرة نفسها ولكن بتقدم الأتراك العثمانيين تضاءلت تجارة أهل البندقية وأملاكهم[2].

ولما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م وجدت البندقية نفسها وقد وقع عليها عبء مقاومة العثمانيين، وذلك بحكم موقعها وعلاقاتها

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز التاريخ الأوروبي الحديث، ص٢٤.

(٢) حسن صبحي، التاريخ الأوروبي الحديث، الجزء الأول ١٤٥٣ - ١٧٩٣، جـ١، الاسكندرية ١٩٨٢، ص٣٠.

مع الشرق، بدأ النزاع معهم – العثمانيين – عام ١٤١٦م في عهد السلطان محمد الأول ثم تطور بعد ذلك بشكل أزعج البنادقة بعد أن اقترب العثمانيون من أرض البندقية نفسها. ولكن الحزب المنادى بالسلام بها قاوم سياسة الحاكم العدائية إزاء العثمانيين، وعقدت البندقية معاهدة منفصلة مع السلطان محمد الثاني عام ١٤٥٤ للصداقة وحسن الجوار وبها أمنت مصالحها على حساب أوروبا. ثم تعقد بعدئذ اتفاقية القسطنطينية ١٤٧٩ الدفاعية الهجومية وفيها تتعهد البندقية بمساندة الفاتح بأسطول من مائة سفينة في حالة الهجوم عليه، كما سلم أهل البندقية جزءا كبيرا من أراضيهم للعثمانيين ورضوا بدفع الجزية السنوية على أن يسمح لهم بالتجارة داخل الأراضي العثمانية، ولكي يعوضوا ما فقدوه في الشرق اتجه أهل البندقية إلى ايطاليا نفسها، وتنازعوا السيطرة على شمالها مع ميلان التي كانت تسيطر على وادي البو الغني، كما صاروا دائمي النزاع مع الولايات الإيطالية. وصارت سياستهم في شبه الجزيرة مبنية على أساس من الأنانية. هذا الاتجاه الجديد لأهل البندقية قد انحرف بهم عن طبيعة عملهم وهو التجارة، وعمل في النهاية على القضاء على عظمتهم كما أضر بإيطاليا كلها.[1]

فلورنسـة:

إذا نظرنا إلى فلورنسا من الناحية الاقتصادية، فسنجد أن تلك المدينة قد لعبت دورا هاما في الاقتصاد الأوروبي خلال عصر النهضة، إذ سيكون من نتيجة تركيز الأموال الطائلة التي جمعتها تلك المدينة عن طريق التجارة إلى أن تكون فلورنسا من أوائل الدول – إن لم تكن الأولى – في تأسيس البنوك والمصارف لخدمة الإقتصاد الفلورنسي وتنمية المشروعات المختلفة. بل ستقوم تلك البنوك بإقراض بعض الملوك والبابوات في أوروبا، فمثلا ستقرض فلورنسا الملكية الإنجليزية في حرب المائة عام. كما ستقرض بعض ملوك فرنسا لتنفيذ بعض المشروعات كإنشاء المباني والمنشآت الضخمة التي تحتاج إلى أموال كثيرة. ومن هنا نجد أن فلورنسا

---

[1] حسن صبحي، التاريخ الأوروبي الحديث، الجزء الأول، ص٣٠ - ٣١.

كانت تتمتع بدرجة من الثراء. واستخدمت هذه المدينة تلك الثروة الطائلة فى بعث التراث اليونانى القديم والنهوض بمختلف الفنون والآداب.[1]

أما من الناحية السياسية فقد امتازت فلورنسا بالنظام الحزبى وبالصراع الداخلى العنيف. وقام هذا الصراع بين حزبين كبيرين أحدهما يسمى حزب الجبليين والآخر حزب الجولف: أما الحزب الأول وهو حزب الجبليين فكان يناصر الأمبراطورية، بينما وقف الحزب الثانى إلى جانب البابوية. فكان هذا الصراع الحزبى العنيف يستند إلى جذور تعمقت فى الماضى البعيد، وترجع إلى أيام الصراع الطويل الذى نشأ خلال العصور الوسطى بين الامبراطورية والبابوية.

كما ساعدت عوامل أخرى جديدة على إذكاء هذا الصراع وإلى استمرار النزاع الداخلى والتطاحن بين الطبقات كالمنافسة بين المدن الإيطالية المختلفة أو المنافسة بين الأسر الحاكمة، أو تعارض المصالح السياسية أو الإقتصادية لتلك المدن.[2]

مملكة نابلـــــى:-

أما البلاد الإيطالية الواقعة فى أقصى الجنوب فكانت تختلف اختلافًا بيِّنًا عن غيرها من الولايات، فمملكة نابلى كانت حكومة اقطاعية يحكمها ملك، ولم تتأثر بالنهضة التى نمت فى الولايات الإيطالية فى الشمال، واحتفظ مجتمعها بطابع العصور الوسطى، ولكن نظرًا لاتساع رقعتها، فقد كان لها أثرها القوى فى مجرى السياسية الإيطالية، وبعد أن حكمتها فى العصور الوسطى ثلاث أسرات ملكية، انتقل العرش فى القرن الخامس عشر إلى أسرة كان لها صلة قوية بالأسرة المالكة فى أراجون الأسبانية.

---

[1] محمد محمود السروجى، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، الاسكندرية ١٩٦٧، ص٤٤.

[2] محمد محمود السروجى، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ص٤٥.

وكانت نابلى لعدة قرون – فريسة لصراع الدول الأوروبية خارج إيطاليا ويرجع ذلك إلى عام ١٢٦٥ عندما منح البابا مملكة نابلى – بما فى ذلك صقلية إلى شارل أنجو شقيق الملك لويس التاسع ملك فرنسا [وكان ذلك خلال صراع البابا مع الامبراطور]. وفى سنة ١٢٨٢ قام الصقليون بالثورة ضد أسرة أنجو، ودعوا ملك أراجون بأسبانيا لتولى عرش بلادهم، وظل الأمر كذلك إلى أن استطاع ملك أراجون أن يغزو مملكة نابلى ويضمها إلى حكمه، وظلت نابلى وصقلية تحت حكم أسرة تمت بصلة القربى لأسرة أراجون، إلا أن فرنسا لم تسلم أبدًا بأحقية تلك الأسرة فى تاج نابلى وتتطلع إلى الفرصة التى تسنح لها لاسترداد عرش نابلى وقد تجلّى ذلك فى الحروب الطويلة التى نشبت بين فرنسا وأسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر عندما أقدم الملك شارك الثامن ملك فرنسا على غزو إيطاليا عام ١٤٩٤م. وقد غيّر هذا الغزو وجه شبه الجزيرة الإيطالية وأحدث أثرًا واضحًا فى تاريخ أوروبا الحديث، وذلك عندما قام النزاع بين أسبانيا وفرنسا كل منهما تدعى حق وراثة العرش فى مملكة نابلى وتسعى كل منهما إلى التوسع فى شبه الجزيرة الإيطالية.[1]

تلك صفحة من صفحات تاريخ الأراضى الإيطالية فى عصر النهضة ومستهل التاريخ الحديث، ونخرج منها بفكرتين: الأولى أن إيطاليا لم تستطع لعدة قرون أن تحقيق الوحدة القومية التى ظلت أمّلا بعيد المنال، نظرًا للظروف السياسية والإجتماعية التى عاشتا فى فرقة وخلاف رغم أن أبناءها أبناء جنس واحد، ويتكلمون لغة واحدة، ولم تتحقق لهم الوحدة الشاملة إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والثانية أن إيطاليا كانت مهد حضارة عريقة وكان الشعب الإيطالى فى الولايات المختلفة يتمتع برخاء اقتصادى ورقى علمى، وحب عميق للفنون والآداب جعل إيطاليا مركز إشعاع للنهضة الأوروبية.

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٢٨.



الفصل الثانى

عصر النهضة Renaissance

أو النهضة الإيطالية

عصر النهضة Renaissance

أو النهضة الإيطالية

وصف يطلق على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون القديمة التى امتازت بها ايطاليا منذ القرن الرابع عشر والدول الأخرى فيما بعد، وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك دراسة للقديم فى العصور الوسطى، وإنما أساء العلماء حينئذ فهم العالم القديم اليونانى والرومانى، كما أساءوا معرفته بما نبذوه جانبًا من مبادئ هذه الحضارة ومظاهرها، وخاصة ما كان منها فى نظرهم يتعارض مع تعاليم رجال الدين وتقاليد الكنيسة. بل ويتعارض كذلك فى نظرهم مع أصول الدين.

ولكن هذه الحركة تميزت بأن القائمين عليها من العلماء والأدباء والفنانين قد أولوها عنايتهم التامة، وبذلوا فى سبيلها كل ما يملكون من جهد، فدرسوا كل ما هو قديم من آثار الأقدمين الإغريق والرومان من مؤلفات علمية وأدبية ومخلفات فنية فذة فى عوالم النحت والرسم والنقش والمعمار فاستطاعوا فى هذه الحركة الواسعة العملاقة أن يبعثوا التفكير القديم من مرقده، التفكير القديم فى كل اتجاهاته المختلفة، غير مكترثين بتعاليم رجال الدين ولا تقاليد الكنيسة. كما أنهم أضفوا على القديم من شخصيتهم وأحاسيسهم ما جعل لهذه الحركة طابعها المميز، يضاف إلى ذلك طبيعة البيئات المختلفة التى عاشوا فيها، وكان من نتائج ذلك كله ظهور حضارة متقطعة النظير، لها طابعها الخاص فى كل من الدول المختلفة التى ظهرت فيها.

ووسط حماسة العلماء والفنانين العظيمة فى إيطاليا نجدهم يحتقرون كل ما ظهر قبلهم من حضارات أو تقدم فنى أو أدبى أثناء العصور الوسطى ويعتقدون أن

الحضارة الحقيقيـة التى اختفت بسقوط الامبراطورية الرومانية إنما أصيبت بفضل جهودهم، ومن ذلك أطلقوا عليها اسم "الرونسانس" Renaissance أى الأحياء.

على أن هـذه التسـمية تعسفية إلى حـد بعيد فإن صفة الإحياء لا يجـب أن تطلق على الحضارة، لأن هذه الأخيرة لم تمت فـى القرون السالفة وإنما يكفى أن نطلق على هذه الحركة حركة بعث القديم أو بمعنى أوسع حركة انبثاق الحضارة الحديثة للنهضة وانتشارها فى بقاع أوروبا المختلفة عوامل متعددة من أهمها:-[1]

١ - الاتصال الحضارى بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية وكانت هـذه المراكز هى:-

أولا: بلاد الشرق الأدنى التى وقع عليها عدوان الغربيين باسم الصليب.

ثانيا: شبه جزيرة ايبريا.

ثالثا: جزيرة صقلية.

يطلق اسم العصور المظلمة فى التاريخ الأوروبى على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى أواخر القرن الخامس الميلادى وقيام "النهضة الوسيطة" فى أواخر القرن الحادى عشر، وقد رانت على أوروبا خلال هذه القرون الستة سحابة كثيفة الإظلام من التخلف الحضارى: توارت معالم الحضارة الرومانية تدريجيا من إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وانجلترا وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية، واضمحلت المدن الزاهرة وأغلقت المدارس وانتشرت الجهالة. ولم يبق أثر للحضارة والعلم والثقافة فى أوروبا الغربيـة إلا بصيص خافت ينبعث من المؤسسات الدينيـة الجديدة مثل المدارس الديرية والمدارس الأسقفية أو الكاتدرائية. وكانت البابوية تشرف على توجيه الدراسة فى هذه المدارس وتخطط السياسة التعليمية فيها بما طبع الثقافة بطابع دينى متزمت.

[1] زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا الحديث ص٦٩.

وقد ساعد على انتشار الجهل والانحطاط العلمى أن الجرمان الذين أقاموا لهم ممالك فى غرب أوروبا على أنقاض الدولة الرومانية كانوا يظهرون نفورًا شديداً من التعليم. كما أن البابوات كانوا لا يشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية ويحاربون ما عداها من دراسات محاربة عنيفة لا هوادة فيها. وكان من بين هؤلاء البابوات البابا الذى أطلق عليه مؤرخوا العصور الوسطى جريجورى العظيم [٥٩٠ - ٦٠٤].[1]

حدث هذا فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يمضون قدمًا فى إقامة بنيان حضارى شامخ، ويضربون أروع الأمثلة فى حرية الفكر وتشجيع البحوث وسرعة التطور. وقد كان أثر الإسلام والمسلمين فى التاريخ خلاقًا مبدعًا لم يقف عند حد التغييرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف، وإنما كان هذا الأثر أشد ما يكون وضوحًا فى الميدان الحضارى.

وقد أخذت الحضارة الإسلامية تزحف إلى أوروبا منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، وسلكت فى طريقها عدة معابر أهمها ثلاثة، هى شبه جزيرة ايبريا أولاً، وجزيرة صقلية ثانية، وبلاد الشرق الأدنى القديم وما أرتبط بها من حروب صليبية ثالثا.

فلما أفاقت أوروبا الغربية فى أواخر القرن الحادى عشر من سبات الفترة المظلمة وجدت نفسها أمام حضارة إسلامية عملاقة أسهمت بنصيب موفور فى كل ميادين العلم والمعرفة، وكان أن هرع طلاب العلم من مختلف أنحاء أوروبا الغربية إلى مراكز الحضارة الإسلامية ينهلون من مواردها: يدرسون ويترجمون ويقتبسون الكثير منن معالم هذه الحضارة. وقد ترتبت على هذه الدراسة والترجمة والاقتباسات نتيجة هامة، هى قيام وثبة حضارية ازدهرت فى القرن الثانى عشر يطلق عليها اسم "النهضة الوسيطة"، وكانت هى فى حد ذاتها ثمرة من ثمار الاتصال الحضارى بين

---

(1) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، جـ١ الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٨٥، ص١٨ - ١٩.

غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية. وقد أدت هذه النهضة الوسيطة إلى تمهيد طريق الرقى وتحرير العقل الأوروبى من القيود الثقيلة التى فرضتها عليه الهيئات والأنظمة المختلفة وأصبحت النفوس مهياة لقبول الانقلاب العظيم الذى حدث بعد قرن وبعض قرن. أى في بداية القرن الرابع عشر حوالى. سنة ١٣٠٠، ونعنى بهذا الانقلاب النهضة الأوروبية الحديثة.[1]

إن الحضارة الأوروبية الحديثة تستمد أصولها من النهضة الأوروبية التى بزغت فى إيطاليا منذ مطلع القرن الرابع عشر، وهذه ترجع جذورها إلى النهضة الوسيطة فى القرن الثانى عشر والتى هى ثمرة من ثمار الاتصال الحضارى بين أوروبا الغربية وبين مراكز المدنية الإسلامية ومعنى ذلك أن الحضارة الأوروبية الحديثة قامت علي أساس واضح من المدينة الإسلامية بجميع فروعها ومظاهرها[2]

وكانت أيبريا حيث ساد حكم العرب ما يقرب من ثمانية قرون [من معركة تور أو بواتيه ٧٣٢م إلى طرد عرب بنى الأحمر من غرناطة ١٤٩٢م] - موردا فياضا للعلم والمعرفة والفنون، ومقرا لدور العلم والمعاهد والمدارس، وقد أصبحت جميعا قبلة لطلاب العلم من كل صوب ومكان فازدهرت فيها لطلاب الدراسات الطبية القديمة والعلوم الفلسفية والرياضيات بأنواعها، كما أرتقت دراسة الأدب والشعر.

وكانت صقلية المصدر الثالث للحضارة العربية، بدأ غزو العرب لها عام ٨٢٧م وفى عام ٨٧٨م تمت سيطرتهم عليها وظلت خاضعة لهم مدة ٢٦٣ عاما عندما غزاها النورمان عام ١٠٩٠م، وقد استمرت الحضارة الإسلامية قائمة فى عهد الحكم النورماندى.

وقد نقل الغربيون عن المسلمين كثيرا من العلوم ولاسيما الطب والعلوم الرياضية إلى جانب بعض الصناعات مثل صناعة الحرير والسكر والورق.[3]

---

[1] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، جـ٢ ص١٩ - ٢٠.

[2] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، جـ٢ ص٢٠

[3] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص٦٨ - ٦٩.

٢- الاطلاع على مؤلفات وكتابات الأقدمين من يونان ورومان دون قيود والعمل على تصحيحها ومقارنة بعضها بالبعض الآخر، ثم الأجتهاد في ادخال تعديلات أو تعليقات هامة عليها ثم محاولة محاكاتها والاستفادة من طريقة البحث مع ظهور عنصر الابتكار والتجديد. وقد دفع هذا الاطلاع المهتمين بهذه الدراسات إلى الرغبة الشديدة في الوصول إلى مزيد من الحقيقة والمعرفة، كما حررهم تمامًا من القيود والأغلال التى كانت تشل تفكيرهم أيام العصور الوسطى، وبتعدهم عن ميادين البحث والمعرفة.

٣- استجابة عدد كبير من المفكرين لهذه الحركة وتكريسهم للجهد والمال في سبيل ازدهارها، فتسابقوا في البحث عن كل ما هو قديم ودراسته، وتقديمه للأذهان سهلًا مستساغًا. وقد استطاعوا تحت تأثير آداب القدماء وفنونهم بعث التفكير القديم في كل نواحيه المختلفة؛ وأضافوا عليه ما تميز به كل منهم من مميزات خاصة في كل من الدول المختلفة؛ فنتجت عن ذلك حضارة منقطعة النظير، ليس لها طابعها الخاص في كل مكان ظهرت فيه. ويعرف هؤلاء المفكرون بجماعة الإنسانيين، الذين كرسوا حياتهم لدراسة الأدبيات القديمة، فاستطاعوا بمجهوداتهم أن يقربوا لمعاصريهم مؤلفات وأفكار كتاب العهد القديم. كان هؤلاء الإنسانيون كتابًا إجتهدوا في تقليد الأساتذة القدامى في طريقتهم وأسلوب تفكيرهم، كما كانوا كذلك جمّاعين لكل ما تقع عليه أيديهم مما كتبه القدماء، واتصفوا بأنهم كانوا علماء يعملون على تصحيح كل ما يجدونه من منقول للمخطوطات الأصلية، واساتذة بدأوا دراسات جديدة مبنية على أساس العلوم القديمة، وما تعلموه من الاطلاع على حضارة المسلمين الشامخة.[1]

٤- قامت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة. وكانت الكاتدرائيات والكنائس والأديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات وكانت على نوعين المخطوطات الإغريقية والمخطوطات اللاتينية. وقد نشط البحث أولا عن

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص٦٨ - ٦٩.

المخطوطات اللاتينية فى شبه الجزيرة الإيطالية وفى سويسرا والولايات الألمانية وغيرها من بقاع أوروبا، وقامت الأسرة الحاكمة فى المدن الإيطالية بتمويل عمليات البحث عن المخطوطات وشرائها حتى أصبحت هذه الظاهرة بارزة مشتركة بين حكومات المدن الإيطالية انقلبت إلى منافسة حادة بينها. أما المخطوطات الإغريقية فقد اتجهت الأنظار بشأنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. ونشأت تجارة واسعة نشيطة للمخطوطات، وكانت القسطنطينية قبل سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين مركز هذه التجارة. وكان يقصدها عملاء من حكومات المدن الإيطالية يقتنون المخطوطات الإغريقية، أو دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الإغريقية فى القسطنطينية، ويجمعون فى أثناء دراستهم عددا وافرا من المخطوطات، وعن طريق العملاء والدارسين معا انتقلت مجموعات ضخمة من المخطوطات الإغريقية إلى مدن شبه الجزيرة.[1]

ويقول عبد العزيز الشناوى أنه تأسيسا على هذه الوقائع الثابتة تاريخيا، يبين خطأ الرأى الشائع بين جمهرة كبيرة من الباحثين، وهو أن فتح الأتراك العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ أدى إلى ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية فى شبه الجزيرة الإيطالية بسبب هجرة عدد ضخم من العلماء البيزنطيين من وجه الأتراك العثمانيين والتجائهم إلى إيطاليا حيث استقر بهم المقام وباشروا نشاطا علميا واسعا. والحق أن هذه الحركة الفكرية – حركة إحياء الدراسات الإغريقية – قد ظهرت فى ايطاليا قبل سقوط القسطنطينية بخمسين سنة على الأقل حين جذبت طلائع الحركة الفكرية عددا من العلماء البيزنطيين إلى الهجرة فى مطلع القرن الخامس عشر إلى أيطاليا، حيث طاب لهم المقام فى مدنها لما كان يغمرهم به حكام هذه المدن من رعاية مادية وأدبية. وعلى ذلك فإن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين لم يكن السبب الرئيسى فى ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية فى شبه الجزيرة الإيطالية. ويمكن تعليل ذلك الحادث الحربى لم يكن سوى عامل ساعد على

(١) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٣٠ – ٣١.

ازدهار هذه الحركة. ومن الخقائق الثابتة أيضًا أنه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكرى بين الدولة البيزنطية وبين المدن الإيطالية التى اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب، وتبودلت الزيارات العلمية من الجانبين، فقام عدد من الدارسين الإيطاليين بزيارة القسطنطينية للتخصص فى دراسة اللغة الإغريقية ذات المستوى الرفيع، كما وفد تباعا إلى فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية نخبة من العلماء البيزنطيين، ويمثل الفريق الأول بوكاشيو Ghiovanni Bocaccio [١٣١٣ - ١٣٧٥] ذهب إلى القسطنطينية ينشد التعمق فى الدراسات الإغريقية، ويمثل الفريق الثانى كريزولوراس Chrysoloras من أهالى القسطنطينية أوفده امبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى مهمة سياسية لدى الحكومات القائمة فى شبه الجزيرة الإيطالية يسعى للحصول على مساعدتها ضد الأتراك العثمانيين الذى ازداد ضغطهم العسكرى على آسيا الصغرى فى زحفهم المرتقب نحو القسطنطينية. وحدثت اتصالات علمية فى فلورناسا بين كريزولوراس وبين علمائها الذين قدروا فيه غزارة العلم. فلما عاد إلى القسطنطينية ظل علماء فلورنسا على اتصال وثيق به، وعرضوا عليه القدوم إلى فلورنسا ليتولى تدريس اللغة الإغريقية بها. وقو وافق على العرض وعاد إلى فلورنسا[١] وحاضر بين عامى ١٣٩٧، ١٤٠٠ ثم انتقل منها ليحاضر فى ميلان والبندقية ومنهم "بساريون Bessarion الذى نجح فى جمع حوالى ستمائة [٦٠٠] وثيقة يونانية كلفته نفقات طائلة، وخلفها فى النهاية للبندقية، فأصبحت نواة لمكتبتها الشهيرة. وهكذا استمرت دراسة اليونانية بين عامى ١٤٠٠، ١٤٥٣ بفضل أمثال هذين العالمين أى أنها لم تكن لاحقة لعام ١٤٥٣ فحسب بل وجدت من قبل.

ففى خلال نصف القرن الذى سبق سقوط القسطنطينية سافر عدد كبير من العلماء إلى اليونان للدراسة فيها أو لمجرد الزيارة. ومنهم جيوفانى أوريسبا "Giovani Aurispa" وقد أحضر معه إلى ايطاليا ٢٣٨ وثيقة، وكان العلماء البيزنطيون عند قدومهم إلى إيطاليا يحملون الوثائق اليونانية، فيستقبلون استقبال

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ط ٣٢١.

القواد المظفرين، وقد نتج عن سقوط القسطنطينية بعد ذلك ضياع عدد كبير من المؤلفات اليونانية، ومع ذلك فقد أنقذ عدد كبير من الكتب والمخطوطات.[1]

٥- ولقيت الدراسات الإنسانية في اختراع الطباعة خير معين لها على الذيوع والانتشار. والطباعة - شأنها في ذلك شأن الدراسات الإنسانية - مظهر من مظاهر النهضة الأوروبية وهي أهم اختراع ظهر في عصر النهضة، بل هي من أعظم الاختراعات التي شهدتهاالإنسانية وأسهمت في إثراء الحياة العقلية على مر العصور والأحقاب. وإذا كان حنا جوتنبرج Jean Gutenberg الألماني وهو من مدينة ماينز Mayence على الصفة الغربية لنهر الراين - قد أدخل على الطباعة تحسينات كثيرة قفزت بها إلى الأمام خطوات واسعة. فسرعان مالتقفها الإيطاليون وأدخلوها بحروف معدنية إلى بلادهم في سنة ١٤٦٥. وكانوا في هذا المضمار أسبق من الفرنسيين الذين جاءوا بها إلى باريس في سنة ١٤٧٠ ومن الإنجليز ١٤٧٧ وأهل السويد (١٤٨٣) والأسبان (١٤٩٩). ويتصل الورق بالطباعة اتصالا وثيقا. في العصور القديمة كان ورق البردى يستخدم في الكتابة، وفي العصور الوسطى حلت محله رقائق جلود الأغنام، وكانت هذه الرقائق باهظة التكاليف. فكان الناس يعمدون إلى محو الكتابات القديمة من الرقائق لإعادة استخدامها أكثر من مرة. وفي عصر النهضة كشف الورق. وكان النجاح في صنعه هو الذي مكن الطباعة من أداء رسالتها[2]

ظهور اللغات الحديثة

يعتبر نمو اللغات الوطنية واعتداؤها التدريجي على اللغة اللاتينية التي كانت لغة الأدب والعلم حلقة الاتصال بين عصر النهضة والعصور الحديثة، - وهو بالتالي يعد من مظاهر النهضة[3]

---

(١) زينب عصمت راشد، أوروبا الحديث، ص٧٠.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص٣٤ - ٣٥.

(٣) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، جـ٢، القاهرة، ١٩٩٧، ص٦٩.

فقد عمد بعض الكتاب والأدباء لمتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم، فنشأت في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتيني وظهرت في شمال أوروبا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتوني. وعمد علماء كل لغة إلى نحت كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها، حتى أصبحت هذه اللغات صالحة لتدوين العلوم والآداب بها وعاملا مهمًا طرأ على نشر الأفكار الجديدة التي اتسمت بها النهضة. كما أوجد نمو هذه اللغات الوطنية طائفة من القراء والأدباء في إيطاليا وفي فرنسا وغيرها فأضحى الأدب ملكًا للشعب.

وإذا اتخذت إيطاليا مثلا، فإن لهجة توسكانيا هي التي أصبحت أساس اللغة الإيطالية. ويرجع ذلك إلى تفوق لهجة توسكانيا إلى أنها كانت بعيدة عن التأثر بلهجات الغزاة البرابرة بحكم موقع توسكانيا في إيطاليا، وظهور شعراء ممتازين توسكانيين فرصوا الشعر باللهجة العامية.

وكان أول كاتب في إيطاليا يستخدم اللغة الإيطالية الحديثة في التعبير هو دانيتي اليجيري [١٢٦٥ – ١٣٢١م] Dante Alighieri الذي كتب كتابه المشهور الكوميديا الالهية Devina Commedia باللغة الإيطالية، وهو عبارة عن رحلة خيالية إلى العالم الآخر، يؤكد بعض الباحثين أن دانتي تأثر في كتابتها بـ "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعرى من ناحية الفكرة، وإن اختلفت من حيث البناء والتفصيلات والمضمون والأهداف.[1]

وتنقسم الكوميديا إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريبا، وهي الجحيم Infero والمطهر Purgatorio والفردوس Paradiso وكل قسم ينقسم بدوره إلى مجموعة من الأناشيد متقاربة الطول.

ويصور دانتي في الجحيم عالم الخطيئة والإثم والعذاب، وهو يقسم تسع درجات، ويتصور أنه شاهد في كل درجة عددا من أعاظم رجال الشعر والحرب والفلسفة والسياسة.

---

[1] عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، حـ، ص٧.

أما المطهر فهو يمثل النصح والتوبة والتطهر والأمل. وهناك فرق بين الجحيم والمطهر، ففي الجحيم يبقى الآثمون فيه أبدا، أما فى المطهر فيوجد به الآثمون بصفة مؤقتة لأنهم تابوا وكفروا عن ذنوبهم قبل موتهم.

أما الفردوس فيمثل عند دانتى الطهارة والصفاء والحرية والنور الإلهى، ويضم أرواح الصالحين الإتقياء ويصوره دانتى على شكل سماوات عشر ترتقى حتى تصل إلى الذات الإلهية. وقد اتخذ دانتى من الشاعر فرجيليوس Virgilius [٧٠-١٩ ق.م] الشاعر اللاتينى القديم صاحب الأليإذه والذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد. مرشده فى الجحيم والمطهر. أما فى الفردوس فاتخذ من بياتريشى Beatrice التى كان يحبها وماتت فى الخامسة والعشرين من عمرها وحزن عليها دانتى حزنًا شديدًا دليلا ومرشدا.[1]

هذا فى إيطاليا أما فى فرنسا فقد كتب مونتانى De Montaigne [١٥٣٣ - ١٥٩٢م] باللغة الفرنسية رسائل رائعة فى الأخلاق عرفت باسم Essais وكتب فرانسوا رابليه Rabelais قصته عن مخاطرات بتنجرول دجارجانتوا Pentegruel et Gargantua، ولما كان النثرالفرنسى حين بدأ رابليه كتابته لا يزال وليدًا، فقد استطاع أن يلقب بالألفاظ ويؤلف منها تراكيب غريبة.

وفى أسبانيا ألف سرفانتيز Cervantes [١٥٤٧ - ١٦١٦م] باللغة الأسبانية قصته المشهورة دون كويكزوت Don Cuixote أو دون كيشوت Don Quichotte سنة ١٦٠٥م، وقد قصد بها السخرية بروايات الفروسية التى كتب معظمها قبل ذلك العهد بجبلين أو أكثر، ونقد مساوئ المجتمع فى عصره.

وفى انجلترا كتب تشوسر Chaucer [١٣٤٠ - ١٤٠٠م] قصص كانتربرى Canterbury باللغة الإنجليزية. وقد تأثر تشوسر فى شعره ببوكاشيو أبو النثر الإيطالى. كما ظهر سبنسر Spenser [١٥٢٢ - ١٥٩٩م] ثانى الشعراء الإنجليز

---

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، طـ، ص٧١.

العظام. وقد ظل موضع فخار انجلترا الأدبي حتى ظهور شكسبير في أخريات عهد النهضة.

كل هؤلاء إلى جانب عدد كبير آخر ممن ظهروا في مختلف البلاد الأوروبية، وكتب كل منهم بلغة وطنه. وبفضل التطوير والتحديث الذى طرأ على هذه اللغات الحديثة، أصبحت أداة لها شأن في نشر العلم وإعداد أفراد المجتمع لتقبل الآراء الجديدة والمفاهيم الجديدة[1].

الآثـــار:

لقد خرجت دراسة الآثار من حركة البعث. فالإيطاليون في العصور الوسطى كانوا ينظرون إلى الآثار الرومانية القديمة نظرة ملؤها الخرافة. ولم تكن هذه الخرافة مصحوبة بأى تقدير أو إحساس بقيمتها الفنية أو بالرغبة في المحافظة عليها كما أن أهل روما في العصور الوسطى كانوا ينزعون الرخام من هذه الآثار القديمة لحرقه واستخراج الجير منه. كما استخدم نبلاء العصور الوسطى المخلفات الرومانية ولاسيما الحمامات والقبور لحاجاتهم الخاصة فتعرض الكثير منها للتلف. غير أنه منذ بدء حركة الإحياء أخذ شعور جديد نحو هذه المخلفات طريقه إلى نفوس الناس. وكان أول مظهر بهذا الشعور إحساس الإيطاليين بذلك التناقض الصارخ بين العظمة القديمة التى تشير إليها هذه المخلفات وتدهور روما الحديثة. وكان أول رجل في النهضة يعمل على دراسة آثار روما بطريقة علمية ففي بحثه الذى سماه وصف روما Urbis Romae Descriptio كتب بوجيو أوضح عرض للآثار الرومانية كما وجدت في النصف الأول من القرن الخامش عشر ثم خلفه في هذا الميدان عالم الآثار الكبير فلافيوبيوندو Falvio Biondo [ت ١٤٦٣] الذى جمع موسوعة قسمها إلى أقسام ثلاثة هي: "بعث روما" (Roma Jnstanrata) و"انتصار روما" [Roma Triumphans] و"وصف إيطاليا"[Italia illustrata] ، والكتاب يعالج تاريخ وأنظمة وعادات الرومان القدماء وتخطيط وآثار إيطاليا القديمة. وعاش بعد ذلك

---

(1) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم، ط٢ ٧١- ٧٢.

ليكمل أكثر من ثلاثين كتابا عن تاريخ الفترة التى تبدأ باضمحلال الامبراطورية الرومانيـة القديمـة تحـت عنـوان [Historiarum ab Inelination Romanorum] ويعتبر بيوندو بحق مؤسس علم الآثار الرومانية. وقرب نهاية حياته أصدر البابا بيوس الثانى [Pius II] فى ١٤٦٢ أمرًا بابويًا يقصد حماية مخلفات روما القديمة من التلف والضياع. ورغـم أن البابوات الذين خلفوا بيوس لم يسيروا على سياسته إلا أن الفترة ما بين ١٤٧٠ و١٥٢٥ شاهدت تقدمًا محسوسًا فى العناية بالآثار القديمة ودراستها فخلال هذه الفترة أسس متحف الكابتول ومتحف الفاتيكان كما ظهر الاهتمام بالآثار عند رافليو Raffeaelo – فقد كان رافليو مفتشا عامًا للآثار، تولى هذا المنصب فى ١٥١٥ وشغل لفترة طويلة من حياته بدراسة هذه الآثار. وخلال السنوات الاثنتى عشرة التى قضاها رافيلو فى روما أخذ يرسم مشروعًا هامًا للتنقيب عن الآثار الرومانية وصيانتها والمحافظة عليها من التلف ولكنه توفى ١٥٢٠ فلم يتمكن من أن يضع مشروعه موضع التنفيذ.

ولقد كان لدراسة الآثار القديمة فروع متعددة منها علم النقوش الذى برز فيه يعقوب مازوكى Jacop Mazochi وزميله فرانشسكو البرتينى Francessco Alpertini فألفا معًا فى ١٥٢١ كتابا تحت عنوان "نقوش من مدينة روما القديمة" [Epigrammato Antiquae urbis Romae] من هذه الفروع علم التبوغرافية (الخطط) الذى برز فيه بارتلميو مارليانو "Bartolommao marliano" الذى نشر كتاب "خطط روما" (Romae Topographie) فى ١٥٣٧.[1]

التاريـــخ

لم يحظ علم بالانتعاش فى حركة النهضة الإيطالية بقدر ما حظى التاريخ. فلم تعد الفكرة التى تجعل التاريخ يعتمد على السماع والرواية وقبولة وحل محلها

(١) محمد أنيس، السيد رجب حراز، عصر النهضة الأوروبية، القاهرة ١٩٦١، ص٣٩ – ٤٠.

دراسة التاريخ على أساس إعادة المادة العلمية الموثوق بها الأمر الذى أدى إلى ظهور مدرسة فى النقد التاريخى كان من أبرز كتابها لورنزو فالا - فمع أنه كان لاتينيًا ممتازًا إلا أنه قام فى ١٤٤٠ حين كانت نابلى خاضعة لنفوذ البابوية بكتابه عن "هبة قسطنطين Donation of Consrantine" وبرهن فيه على أن هذه الوثيقة زائفة وكان البابا فى ذلك الوقت هو نيقولا الخامس وكان باحثًا وسياسيًا فاعجب ببحث فالا وعينه موظفًا فى الحكومة البابوية - ويعتبر ذلك الحادث نقطة تحول فى موقف البابوية من الحركة الإنسانية إذا أضحت البابوية منذ ذلك الوقت وحتى ظهور حركة الإصلاح لديني - باستثناء فترات قصيرة - نصيرة الدراسات الإنسانية.

كما قام العالمان اللغويان بروني وبوجيو - وهما من فلورنسة - بكتابة تاريخ مدينتهما، ولكن يؤخذ على كتابتها التاريخية أنها كانت تقليدا صارحا لكتابات المؤرخين القدماء. غير أن هذا التقليد أخذ يختفى فى الجيل الذى تلى هذين اللغوين وتكونت مدرسة تاريخية فى فلورنسة لها طابعها المميز والتى تعتبر كتاباتها بداية للكتابة التاريخية الحديثة. وكان من إعلام هذه المدرسة "جويتشاردينى Guicciadini" [ت١٥٤٠] ونيكولوميكافيلى "Nicolo Machiavell" [١٤٦٩ - ١٥٤٢] فكتب الأول "تاريخ إيطاليا" وهو أول تاريخ من نوعه يشمل شبه الجزيرة كلها، وكتب الثانى [تاريخ فلورنسة] كما كتب فى ١٥١٢ دراسة واسعة عن الاستبداد من الناحيتين النظرية والعملية سماه "الأمير Principe"[1]

وورثت أوروبا عن إيطاليا النهضة فكرتين قيض لهما أن يكون لهما أثر دائم فى مجال السياسة والتعليم. أما الفكرة الأولى عن السياسى الخالص أو المنقطع للسياسة فقد احتواها كتاب الأمير لميكافيللى وهو الذى كتب عام ١٥١٣ والفكرة الثانية عن السيد المهذب الشغوف بالدراسة احتواها كتاب "رجل البلاط" لكاستليونى Castiglione الذى وضع بعد ثلاثة أعوام من هذا التاريخ. أما مكيافللى فقد كان دبلوماسيا فلورنسيًا ووطنيًا إيطاليًا متحمسًا، استغل الفراغ الذى

---

[1] محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، عصر النهضة الأوروبية ص٣٥ - ٣٦.

فرض عليه فى المنفى فى تصوير نوع الحاكم الذى يؤهل خير تأهيل لتحرير أرض إيطاليا من دنس الغزاة ويبعث أمجاد روما القديمة. والمثير فى هذا البحث أنه موضوعى، فالأمير متمرس فى سياسة القوة: فهو يلجأ إلى أساليب القوة والغش دون وازع أوتكيت، لا يعبأ بشئ فى سبيل توسيع رقعة أملاكه، واحاطتها بالضمانات الكافية. وهو واقعى يرى الحياة كما هى عليه، ويحيط بالتيارات المعاصرة بمن كتب، ولا يتوقع فى الحياة أحسن أو أكثر مما تستطيع هى إعطاءه. وهكذا كان "أميرمكيافللى" مختلفا كل الاختلاف عن أرواح القديسين الذى جعلت بهم مؤلفات القسيس فى العصور الوسطى. وإن مبدأ سياسة القوة الذى سفر للناس دون مواربة أو تحفظ ممثلا ما هو جار فى الواقع فى ذلك العصر، قد جاء بمثابة صدمة للرأى العام – إذ الناس لم يعتادوا أن يطلع عليهم بحث سياسى عار من الأخلاق والدين. ثم إن بطل ميكافيللى كان قيصر بورجيا ابن أخ اسكندر السادس البابا. وبالرغم مما قام به قيصر بورجيا من أعمال شخصية براقة، نقد عرف فى الناس جميعًا بنجاحه فى تدبير جرائم القتل وأعمال الغدر والخيانة، وهذا كله مما أضاف صفة الجرأة إلى هذا الكتاب الذى تحدى المألوف عند الناس.

ويقدر ما مثل "الأمير" الروح الإيطالية فى ذلك العصر، مثلها أيضًا كتاب "رجل البلاط" لكاستليونى. وقد استقى المؤلف انطباعاته من بلاط إيطالى على درجة كبيرة من الثقافة، هو بلاط الدون جويدوبالدو Guidobaldo فى أورينو ثم رسم لرجل البلاط الأغوذج صورة نالت شهرة طبقت الآفاق فى طول أوروبا وعرضها. فرجل البلاط لا ينبغى أن يقصر تدريبه على مدرسة البلاط، بل عليه أن يتلقاه أيضًا فى المعسكر، فينبغى عليه أن يكون مدججًا بالسلاح، وأن يكون رياضيًا يعنى بصحتة جسمه، ومثقًا ذواقة للأدب بحيث يندمج فى كل مجتمع فيقرأ الإغريقية واللاتينية والإيطالية جيدًا، مع بعض الإلمام عمليًا بالرسم والموسيقى وإظهار اتقان يخيل إلى الناس وكأنه ليس نتيجة مجهود كبير، لكل ما يسود عصره من أذواق وأفانين. وتمشت هذه النظرة إلى التعليم مع روح العصر، فترجم كتاب "رجل البلاط" إلى عدة لغات، ويمكننا مطمئنين أن نعزو فكرة ملتون عن تعليم متعدد الجوانب من شأنه "أن يعد

الإنسان للاضطلاع فى مهارة واتقان بكل المناصب العامة والخاصة سواء فى الحرب أو السلم، وفقا لمقتضيات الظروف" - يمكننا أن نعزو فكرة ملتون هذه إلى الترجمة الإنجليزية الجذابة التى قامم بها سيرتوماس هوبى Thomas Hoby فى عام ١٥٦١.[١]

ولكن هذا الفيض المفرط من العبقرية الإيطالية لم يكن لدى أى صدى فى العالم الإغريقى الأرثوذكسى سواء فى أملاك السلطان العثمانى أو فى أملاك قيصر روسيا. فلم تكن النهضة الإيطالية تعنى شيئا للروس أو للعثمانيين؛ وبغض النظر عن بعض المؤثرات القليلة المتناثرة كصورة محمد الفاتح التى رسمها أحد البنادقة ووضعت فى قصر السلطان، أو كبناء الكرملن فى موسكو الذى أخذ عن ميلان، أو بعض اللفتات المتقنة فى اكرا ودلهى، ظل أثر الذوق الإيطالى والعبقرية الإيطالية مقصورًا على العالم المسيحى اللاتينى. أما روسيا فقد كانت عالماً منفصلًا قائمًا بذاته، ولم تكن عاملًا يعتد به فى السياسة الأوروبية فى القرن الثامن عشر.[٢]

الفنون الجميلة

لقد كانت الفنون الجميلة أكثر اعتدالا وانتظامًا فى تطورها فى عصر النهضة من دراسة الأدب ولذلك فالفنون الجميلة يمكن أن تعطى صورة أوضح مما يعطيه الأدب فيما يتعلق بطبيعة العصر. ورغم ذلك فلا يمكن فهمها كبقية مظاهر النهضة بالتعرف على الإنتاج الفنى فى أواخر العصور الوسطى. فالواقع أن البناء والنحت والرسم كانت قد وصلت فى العصور الوسطى إلى مستوى مرض. فالبناء هو فن العصور الوسطى فى أوروبا والكاتدرائية القوطية أثر هام جدا من آثار البناء فى تاريخ الفنون الأوروبية. ورغم أزدهار النحت والرسم كذلك إلا أن هذين الفنين

---

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٦٢، ص٤٣ - ٤٤.

(٢) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ص٤٤ - ٤٥.

سخرا لخدمة أعمال البناء - فتداخل الفنون الجميلة في العصور الوسطى وعدم استقلال كل فن بذاته جعل منها كلها وحدة. وكانت هذه الوحدة راجعة إلى أن الفنون كلها خضعت لخدمة الكنيسة أو الغرض الديني.(١)

وفي القرن الرابع عشر بدأت روح علمانية تأخذ طريقها إلى الفنون الجميلة في إيطاليا. ففي البناء كان هذا المجدد فيليبو برونلسكي Filippo Brunelleschhi [١٣٧٧ - ١٤٤٦] وهو فلورنس المولد، سافر إلى روما لدراسة المعبد والمسرح الرومانيين القديميين. ولما عاد إلى فلورنسا ترك فيليبو الأسلوب القوطي السائد الذي كان يتميز بكثرة "الدعائم الطائرة Flying battresses والأقبية العالية، وعاد بالبناء إلى الشكل الكلاسيكي الذي يتميز بالعمود والعتب [Column - and - Lintel] أو العمود والقوس (Column - and arch) وبتطبيق هذا الشكل القديم في الأبنية المعاصرة مثل الكنائس وقاعات المدن وللقصور الخاصة شاع نموذج العمود الذي ينتهي بالتاج.

ولقد بدأ في البناء الجديد في فلورنسة في النصف الأول من القرن الخامس عشر ثم انتشر في بقية أنحاء إيطاليا حتى احتلت روما والبندقية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر مكانة فلورنسة وحتى وصل فن البناء درجة الكمال عند ميشيلانجلو "Michel Angelo" [١٤٧٥ - ١٥٦٤] ففي فن ميشيلانجلو بقيت العناصر الكلاسيكية التي ظهرت في فن برونلسكي، العامود والتاج والمثلث القائم على الأعمدة [Pediment] والفص أو الكتف [Pilaster] هذا بالإضافة إلى دقة في التفصيل وتناسب في الأبعاد تكشف عن دراسة دقيقة في التفصيل وتناسب في الأبعاد تكشف عن دراسة دقيقة للنماذج القديمة.(١)

أما فن النحت فقد انجب عصر النهضة نخبة ممتازة من النحاتين تفوقوا على أسلافهم الرومان. ومن أشهر أساتذة فن النحت لورنتزودي تشينوجيرتي Lorenzo

---

(١) محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، عصر النهضة الأوروبية، ص٤٠.

(١) محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، عصر النهضة الأوروبية، ص٤٠ - ٤١.

di cino Ghiberti [١٣٧٨ - ١٤٥٥] الذى حفر الأبواب البرونزية بمعمودية كنيسة فلورنسا وكذلك أبواب معمودية كاتدرائية سينا. وبرغم إعجابه بالتماثيل الإغريقية، فلم يلجأ جيرتى إلى تقليد أساتذة النحت الإغريقى أو بعث الأفكار الهللينية، بل استوحى الطبيعة فى إنتاجه.

ومن أشهر أساتذة فن النحت كذلك، أندريا ريكيو Andrea Riccio [١٤٧٠ - ١٥٥٢] الذى اشتهر بتماثيله البرونزية، ودوناتللو Donatello [حوالى ١٣٨٦- ١٤٦٦] الذى برع فى تجسيد الحركات المحزنة كالصلب أو الحركات السارة كالرقص، وأبدع تمثيل حياة الإنسان - وبخاصة الأطفال - فى تماثيل من المرمر والبرونز. ومع أن دوناتللو بلمسات يده السحرية لم يقلد الطبيعة، بل سما عليها. ويعد دوناتللو أعظم نحاتى فلورنسا قبل ميكلا انجلو، وقد انتقل أثره إلى البندقية. ومن أهم روائعه تمثال من البرونز "للمجدلية" Magdalen فى معمودية كنيسة فلورنسا وتمثال ليوحنا المعمدان Baptist فى كاتدرائية سينا وتمثالان "لداود" أحدهما من البرونزوالآخر من المرمر، ويوجدان بمتحف البارجلو Bargello فى فلورنسا[1]

وقد عبر ميكلا انجلو بتماثيله العظيمة عن عصر جديد تسوده القوى والحرية ومن أعماله تمثال باخوس Bacchus وداوود David وموسى Moses والعذراء والطفل Madonna and the Child والأسيران المقيدان. Bound Captive فى كاتدرائية فلورنسا وتمثالان للورع Pieta أحدهما فى كاتدرائية فلورنسا والآخر فى كنيسة القديس بطرس فى روما والليل Night والنهار Day على قبر جوليانودى ميدتشى والفجر Dawing والمساء Twilight على قبر لوتنز ودى مديتشى فى فلورنسا.[2]

فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر أخذت النهضة الإيطالية تحبو بدأ هذا فى عام ١٤٩٤ ثم انطفأت الشعلة تمامًا فى ١٥٢٧ بنهب الجيوش الأجنبية

---

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، دراسة فى الحضارة الأوروبية الحديث، ص١٧٤ - ١٧٥.

(٢) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص١٧٦.

لمدينة روما. ففى ١٤٩٤ غزا شارل الثامن ملك فرنسا إيطاليا عبر الألب ومنذ ذلك الوقت أصبحت إيطاليا مرتعا للصراع الحربى بين الدول الأوروبية الكبرى كما اشتركت فى هذا الصراع الإمارات الإيطالية نفسها، فأسرة مدتشى طردت من فلورنسا التى أصبحت مجالًا للصراع بين أسرتى بيانونى Piagnoni وأويتماتى Ottimati ونابلى استولى عليها فرناند ملك أراجون فى ١٥٠٤ وميلان خربت على يد الجيوش الأجنبية الفرنسية والألمانية والسويسرية. ولم ينج من هذا الخراب إلا عدد قليل من الإمارات الإيطالية مثل فرارا ومانتوا وروما، فأصبحت روما حتى الربع الأول من القرن السادس عشر مركز الإشعاع للنهضة الإيطالية كما كانت البابوية هى الدولة الوحيدة من الدويلات الإيطالية. ويعتبر البابا ليو العاشر [١٥١٥ - ١٥٢١] محور الحركة الإنسانية فى هذه الفترة الأخيرة من تاريخ النهضة الإيطالية. فقد كان ليو العاشر شديد التحمس للدراسات الكلاسيكية وفى عهده بالذات كانت روما مركزًا أوسع وأكبر من فلورنسة فى عهد لورنزو ومدتشى وأن كانت أقل منها فى عميقها وعبقريتها. ودور الفاتيكان فى الدراسات الإنسانية فى هذه الحقبة يختلف تماما عن دوره فى القرن الخامس عشر. ففى القرن الخامس عشر كانت صلة البلاط البابوى بالحركة الإنسانية تتمثل فى استخدام أصحاب هذه الدراسات ككتاب للاتينية فى الحكومة البابوية Curia فيوجيو وبرونى وفالا شغلوا مناصب كتابية فقط ولم يتولوا مناصب كنسية فى السلك البابوى ولذلك ظلت الدراسات الإنسانية بعيدة عن المناصب الكنسية. أما فى أيام ليو العاشر فقد تطورت علاقة البابوية بالحركة الإنسانية أو اشتدت إذ أصبح الامتياز فى الدراسات الإنسانية سبيلا للوصول إلى مناصب الكنيسة الكبرى. وهكذا وصل عدد كبير من الإنسانيين إلى مناصب كنسية هامة. كان منهم بولوس جوفيوس Paulus Jjovius وفيدا Vida وماركوس موسورس Marcus Mosurus الذين أصبحوا أساقفة. كما عرف عن ليو نفسه رغبته الصادقة القوية فى نشر الثقافة الفكرية الجادة فجامعة روما Sapienza كانت حتى عصره أقل بكثير من مستوى الجامعات الإيطالية الأخرى فى الدراسات الإنسانية. فكان هم ليو أن يرفع من شأن جامعة روما فى هذه الدراسات فعدل من نظمها ولوائحها وانشأ

كراسى جديدة للأستاذية وشجع الأساتذة الممتازين على الالتحاق بها. وقد اهتم ليو بصفة خاصة فى اصلاحه الجامعى بتشجيع الدراسات اليونانية وكانت روما متأخرة إلى حد كبير فى هذه الدراسات فانشأ ليو مطبعة يونانية فى روما[1] ولكن سقوط روما فى ١٥٢٧ فى يد القوات العسكرية الأجنبية كان السبب المباشر فى انهيار النهضة الإيطالية انهيار تاما، فقتل ومات بالمرض بعض العلماء وهرب البعض الآخر من المدينة خارج إيطاليا. وبعض الفارين من روما بقى فى إيطاليا حتى هدأت الأحوال قليلا أو حتى كانت الأحوال تهدأ أحيانا فيتابعون دراساتهم. ومن هذا الفريق الأخير بتروس فيكتوريوس [Petrus Victorius] (١٤٨٩ – ١٥٨٤). الذى حاضر فى الأدب والفلسفة فى فلورنسا ابتداء من ١٥٣٧. والواقع أنه بعد نهب روما عاد بصيص من الكلاسيكية إلى مركزها الأصلى فى سهل لمبارديا. ففى فرارا تمثلت الدراسات الإنسانية فى "ليتيوس جيرالدس Litius Gyraldus" [١٤٧٩ – ١٥٥٢] الذى كان كتابه فى تاريخ الشعر [Historia Poetarum] فى مقدمة الكتب عن تاريخ الأدب الكلاسيكى وكذلك "روبرتلوس Robertlus" [١٥١٦ – ١٥٦٧] وهو إنسانى كبير درس فى بافيا وغيرها وتخصص فى النقد الأدبى.[2]

وثمة عامل هام مسئول عن أفول النهضة فى روما بالذات لا يقل أهمية عن الغزو الأجنبى لشبه جزيرة إيطاليا ونقصد بذلك حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا. إذ لما كانت حركة الإصلاح الدينى تحمل معنى التحرر الدينى، والتحرر من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية ورجالها فقد كانت على الأقل فى نظر الكنيسة الكاثوليكية ثمرة من ثمرات الحركة الإنسانية – ولذلك فقد أخذت البابوية تعارض الحركة الإنسانية بقوة منذ ظهور بوادر حركة الإصلاح الدينى فى الربع الثانى من القرن السادس عشر فتواطأت البابوية فى عهد كلمنت السابع فى ١٥٢٠ مع شارل الخامس ملك أسبانيا الكاثوليكى على تصفية الحركة الإنسانية فى إيطاليا.[3]

---

(1) محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، عصر النهضة الأوروبية، ص٤٤ – ٤٥.

(2) محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، عصر النهضة الأوروبية، ص٤٥ – ٤٦.

(3) محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، عصر النهضة الأوروبية، ص٤٦.

النهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية:-

قبل أن يبدأ اضحلال النهضة فى شبه الجزيرة الإيطالية كانت روحها ومظاهرها قد تسربت عبر الألب إلى اصقاع شتى من القارة الأوروبية على يد الطلاب الذين كانوا قد توافدوا من أنحاء أوروبا إلى المدن الإيطالية ينهلون من مراكز النهضة فيها ما شاء لهم شغفهم بالتحصيل العلمى. ولما عاد هؤلاء الوافدون إلى بلادهم دفعهم حماسهم إلى نشر الآراء الجديدة بين مواطنيهم. وقد اتسمت النهضة فى كل دولة أو إقليم بطابع خاص ومظاهر معينة حسب خصائص كل شعب وأحواله السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.[1]

ويعتبر "ديديديه إرزمس Didie Erasmes" [١٤٦٧ - ١٥٣٦] أكبر داعية للنهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية، وهو عالم هولندى ولد فى روتردام، طبعت شهرته دول أوروبا حتى أن فرنسا وانجلترا وألمانيا كانت تدعيه لنفسها استنادا إلى أنه أقام بكل منها زمنا يحاضر فى اللغتين الإغريقية واللاتينية، وتجمع حوله علماء تلك البلاد وصفوة المثقفين فيها. وقد شغف بالبحث عن الكتب القديمة وجمعها والتعليق عليها ونشرها للإفادة منها، وقد وضع عدة مؤلفات باللغة اللاتينية.[2]

كان إرزمس يرى أن الدراسات الإنسانية وسيلة لغاية، هى إصلاح المجتمع الأوروبى وتخليصه من الشرور والآثام والفضائح الخلقية التى كانت ترتكب جهارا، وكذلك من الجهالة المتفشية فيه، وبعبارة أخرى كان يرى أن الدراسات الإنسانية يجب أن تهدف أولا وقبل كل شئ إلى علاج الأمراض الاجتماعية والمساوئ الخلقية. وكانت الناحية الدينية بارزة فى إرزمس، فدراسة الإنجيل هى الدراسة المفضلة لديه. وقد نشر النسخة الإغريقية الأصلية للانجيل وأرفقها بترجمة لاتينية سليمة وتعليقات جديدة مبسطة، وكان يريد أن يعود الناس فى أوروبا إلى المسيحية الأولى فى بساطتها ونقائها. ولكنه كان يخشى أن يؤدى إحياء الدراسات الإغريقية

---

(1) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٤٧.

(2) نفسه، ص٤٨.

إلى بعث الوثنية أو الأبتعاد عن القيم الدينية المسيحية. وكان يدرك إدراكا تاما التدهور الذى أصاب الكنيسة نتيجة سلوك كبار رجال الدين، وحياة البذخ والفساد التى يحيونها، وضعف مستواهم العلمى والإهتمام بظواهر الدين دون لبه، واعتقاد الناس فى الخرافات الدينية. فكان إرزمس فى طليعة الرواد الذين دعوا إلى الإصلاح الدينى، ولكن لم تتجاوز رغبته فى انهاض الكنيسة الثورة عليها أو الخروج عل روما، وقد ظهر قبيل مارتن لوثر بفترة وجيزة.

ويختلف إرزمس عن الإنسانيين الإيطاليين فى أنه لم تظهر فى كتاباته أية نزعة وثنية. بل كان مسيحيًا متدينًا مستنيرًا معتدًلا، اتسمت كتاباته بالطابع الأوروبى العام والبعد عن العنف، واستبدت به رغبة قوية فى نشر الدراسات الإنسانية وتثقيف الناس بها حتى عقدت له الزعامة الثقافية فى أوروبا، وكان يرى أن التعليم أرقى مهنة. وقد توفى فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٥٢٦ حيث كان يستعد لطبع مؤلفاته. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين: "فولتير اللاتينى Le Voltare Latin".[١]

النهضة فى ألمانيا:-

تميزت النهضة فى ألمانيا باتجاهها الدينى والعلمى، على العكس من إيطاليا التى اقتصرت الدراسات الإنسانية فيها على الطابع الوثنى. وكانت طلائع النهضة فى ألمانيا جماعة من المبتدئين الذين جذبتهم الدراسات القديمة فى إيطاليا ونقلوها بمجرد عودتهم إلى ألمانيا. وكان هدف الألمان من دراسة الأدب القديم تهذيب النفوس وتربية النشئ وتنمية شعور التقوى.

ويرجع الفصل فى إثارة الاهتمام بهذا الدراسات الجديدة فى ألمانيا إلى "جوهان رويخلن Johann Reuchlin [١٤٥٥ - ١٥٢٢] الذى درس الأدبين اليونانى واللاتينى. ثم انصب اهتمامه على العبرية باعتبارها مفتاحًا لدراسة العهد القديم. وهكذا كان اهتمام رويخلن بالعبرية لخدمة المسيحية.

---

[١] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٤٩.

وفى الواقع أن هذا هو الأتجاه المميز للحركة الإنسانية فى مرحلتها الأولى فى ألمانيا. فقد اخضع الإنسانيون الدراسات الإنسانية لخدمة الكتاب المقدس، فكان الأئتلاف قويًا بين الحركة الإنسانية وحركة الاصلاح الدينى، فكما أن الدراسات الإنسانية تعتمد على الدراسات القديمة، فكذلك حركة الإصلاح الدينى تعتمد على الرجوع إلى المصادر الأولى للمسيحية دون فلسفة العصور الوسطى من مدرسية وغيرها لذلك اتجهت النهضة فى ألمانيا لخدمة الإصلاح الدينى واتخذت أشكالها فى دراسة الكتاب المقدس كما كتب باليونانية، وفى مهاجمة رجال الدين ومحاربة البدع والخرافات الدينية. وقد تبلور هذا الاتجاه بصورة صارخة فيما بعد فى قيام حركة الإصلاح الدينى Reformation المعادية للكنيسة الكاثوليكية والتى انتهت بحروب دينية مدمرة.[١]

النهضة فى فرنسا

ومن ايطاليا أيضا سرت النهضة فى فرنسا، فوجد العلماء والشعراء والفنانون أرحب صدر فى ملوك فرنسا وأمرائها، من لويس الحادى عشر إلى فرنسوا الأول، على أن روح النهضة تتمثل فى مرجريت أخت فرانسوا، إذ كانت - مرجريت - شاعرة فنانة واسعة الاطلاع لا تتقطع الرسائل بينها وبين إرزمس، حتى أنها لتعد تلميذته، وقد بسطت كرمها على الشعراء والعلماء، ولم يحرم من كرمها أصغر ملتجئ إليها من المنتسبين إلى الأدب.

ومن أدباء فرنسا "باديوس Badius" الذى اشتهر بمعرفة اللغة الإغريقية وعد من أعظم علمائها فى عصره جميع أوروبا، وهو الذى ساعد فرانسوا الأول وأخته مرجريت على إنشاء كلية فرنسا La College de France عام ١٥٣٠ ومن أساطين النهضة الفرنسية "فرانسوا رابليه France Rabelais (١٤٨٣ - ١٥٥٣م) وكان أول أمره راهبًا، ثم صار طبيبا وداعيًا إلى البحث العلمى وهو أول فرنسى خالف أمر البابا، وشرّح جثة إنسان وكان رابليه متعطشا لتحصيل العلم والفضيلة

---

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم الحديث، جـ١ ص ٩٩-١٠٠.

والتجربة، وبعبارة أخرى متعطشا لمعرفة الحقيقة، وكانت طريقة نشر الحقائق في صيغة قصص خيالية ممتعة يتسلى بها العامة ويتعظ بها الخاصة.

ومنهم "ميشيل دى مونتانى Michel de Montaigne [١٥٣٣ - ١٥٩٢م] وهو أول فرنسى كتب المقالات التى جمع فيها خواطره العديدة وتجلت فيها فصاحته وسلامة أسلوبه واتخذها وسيلة للبحث على دراسة الطبيعة والتزام الفضيلة من غير تقشف ولا عبوس وعلى الصراحة فى القول، واتباع الطريقة الطبيعية فى التعليم: وتعد مقالاته خطوة جديدة فى الأدب، إذ وصف فيها أدق عاداته وأذواقه وخياله، وبذلك كتب لنفسه سيرة مفصلة، فآذن بالوقت الذى يظهر فيه علم النفس الحديث. وكانت أفكاره السياسية تشبه أفكار ميكافيللى.[1]

أما الفن فساهمت فيه فرنسا بصفاتها الخاصة، ونعنى بذلك عبقريتها فى نقد الفن والحياة، وحسن ابتكارها فى إنشاء الحدائق وتشييد القصور. وقد بلغ الفن أوجه أيام فرانسوا الأول [١٥١٥ - ١٥٤٧]، وكان مولعًا بالعمارة، وما زالت آثاره قائمة فى "فنتبنلوا Fontainebleau" وغيرها واقتدى به الأمراء فشيدوا على نسقه قصورًا منها عدد كبير على نهر لوار ومن أكبر المعماريين فى عصره "بييرلسكوت Pierre Lescoht" وهو الذى أعاد إنشاء اللوفر Louvre" بأمر من فرانسوا، وجاء بعده "دى لورم Philobert De Lorme [١٥١٥ - ١٥٧٠] فانشأ بأمر هنرى الثانى قصر التويلرى Tuileries فى باريس ودى لورم، هو الفرنسى الوحيد الذى يشبه الإيطاليين من حيث النبوغ فى أكثر من فن. فإلى جانب خدمة هندسة البناء. كان يجيد الكتابة وفن التحصينات فى حين أن النهضة الفرنسية مشهورة بوجه عام بتخصص كل شخص فى الفن الذى اختاره لنفسه. بدلا من مجاراة الإيطاليين فى الأخذ من كل من بطرف، وإلى جانب التخصص احتفظ الفرنسيون بمزايا الشعب والبلاد، كما عبر عن ذلك "دى لورم" بقوله أحسن الوحى ما يجئ من البلاد التى نعيش فيها، ومما يعيننا على صوغ الأشياء المناسبة للتربة الفرنسية ولميول الفرنسيين،

---

[1] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ص٣٩ - ٤٠.

فقد كان الفنانون الفرنسيون يأخذون من الآداب القديمة ما يروقهم ويضيفون إليه من عندهم ثم يبرزونه فى صورة جديدة وكذلك فعلوا فى فن البناء وفن النحت[1]

النهضة فى انجلترا:

دخلت الدراسات الإنسانية انجلترا متأخرة بعض الوقت، لأن هذه البلاد كانت منصرفة إلى مشكلات الحرب التى قامت بينها وبين فرنسا، وهى المعروفة باسم حرب المائة سنة [١٣٣٧ – ١٤٥٣]، ثم لم تلبث أن شغلت مرة أخرى بحرب داخلية عرفت باسم حرب الوردتين [١٤٦١ – ١٤٨٥]. فلما وضعت هذه الحرب الأخيرة أوزارها أخذت الدراسات الإنسانية طريقها إلى انجلترا، وكان جماعة من الإنجليز قد شدوا رحالهم إلى شبه الجزيرة الإيطالية ونهلوا من الدراسات القديمة فى فلورنسا والبندقية وروما وغيرها ما شاء لهم فهمهم العلمى. وكان معظم هؤلاء الإنجليز من اكسفورد Oxford Reformers.

وقداسهم إرزمس فى ازدهار الدراسات الإغريقية فى انجلترا، ففى زيارته الأولى لها سنة ١٤٩٩ حاضر فى جامعة اكسفورد، فى هذه الدراسات وفى زيارته الثانية لانجلترا وقد امتدت من سنة ١٥١٣ حتى ١٥٦٣ حاضر فى جامعة كمبردج وترعرت بينه وبين أعلام الانجليز فى الدراسات الإنسانية أواصر صداقة وثيقة. ويعتبر إرزمس من أعلام مصلحى اكسفورد وبسبب زياراته لإنجلترا.

اهتم مصلحوا اكسفورد بدراسة الأدبيات القديمة، ونادوا بضرورة إطلاق الفكر الإنسانى من القيود التى كانت تفرضها الكنيسة على حرية البحث العلمى وحرية الفكر. وكان هؤلاء المصلحون متأثرين بروح النقد المنتشرة فى عصرهم وكانوا لا يرضون عن مساوئ الكنيسة، ولكنهم لم يذهبوا فى مطالبتهم بإصلاحها إلى حد المناداة بانفصالها تمامًا عن روما.

ومن أعلام النهضة فى انجلترا توماس كولت Thomas Colet أدخل تعليم اللغة الإغريقية فى جامعة اكسفورد، وسير توماس مور Thomas More

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، معالم التاريخ الأوروبى الحديث، ٤١.

وكلاهما كان صديقًا لارزمس، وتعاون الثلاثة على نشر الإنجيل "حتى يصل إلى كل فلاح خلف محراثه، وكل ناسج خلف منواله، وحتى يكون سلوى كل مسافر".[1]

وأخذت الدراسات الإنسانية طريقها من جامعة اكسفورد إلى جامعة كمبردج على يد إرزمس الذى حاضر فى اللغة الإغريقية فى رحاب تلك الجامعة حتى إذا جاءت سنة ١٥٤١ أصدر هنرى الثامن مرسومًا ملكيًا بإنشاء خمسة كراسى أستاذية فى جامعة كمبردج للغة اليونانية واللغة العبرية واللاهوت والقانون المدنى والطبيعة.

وفى النصف الأول من القرن السادس عشر دخلت الدراسات الإنسانية برامج المدارس الإنجليزية، وكانت أقدم المدارس التى أسست لهذه الدراسات مدرسة سانت بول Saint Paul وتابع إنشاء مدارس أخرى على شاكلتها فى لندن وضواحيها.

وأهم فارق بين النهضة فى انجلترا وبين النهضة فى كل من إيطاليا وفرنسا أن النهضة فى الدولتين الأخيرتين اتجهت اتجاهًا وثنيًا. أما فى انجلترا فقد أخذت النهضة طابعًا دينيًا يستهدف خدمة المسيحية، ولذلك لم تكن النهضة فى انجلترا مقصورة على الآداب والفنون، بل شملت أيضًا الدين، وحاولت التوفيق بين الفن والعقيدة، وبين الجمال والدين.

واتجهت النهضة فى انجلترا أول الأمر إلى جعل الآداب القديمة فى متناول المثقفين، فأخرجت تراجم لأعلام الفكر القديم، مثل هوميروس، وفرجيل وبلوتارك وغيرهم، كما ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ألوان من الإنتاج الأدبى لأعلام النهضة الإيطاليين، ولم تقدم انجلترا فى القرن السادس عشر روائع أدبية مبتكرة إلى الدراسات الإنسانية، حتى إذا جاء القرن السابع عشر، بلغ الإنتاج الأدبى فى اللغة الإنجليزية الذروة فى الروعة والإبداع وقد تمثل هذا الإنتاج فى مؤلفات شيكسبير

---

[1] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، جـ٢ ص٥٣ - ٥٤.

Shakes Prears [١٥٦٤ - ١٦١٦] وجـون ملتـون John Milton [١٦٠٨ - ١٦٧٤].[1]

النهضة فى أسبانيا والبرتغال:

انتقلت بذور الحركة الإنسانية إلى شبه جزيرة ايبريا أسبانيا والبرتغال بمد عدد من الطلاب الأسبان الذين قدموا إلى إيطاليا فى القرن الخامس عشر ودرسوا بجامعاتها، ثم عادوا إلى وطنهم وأخذوا يحاضرون فى الدراسات الإنسانية ومن أبرزهم إليو انطونيو دى نبريا Elio Antonio de Nebrija [١٤٤٤ - ١٥٢٢]، وهرنان ناتز Herman Nunez [١٤٧١ - ١٥٢٢].

وقد لعب نبريا دورا بالغ الأهمية فى التاريخ المبكر للحركة الإنسانية فى أسبانيا، حيث قاد حملة نشطة ضد لاتينية العصور الوسطى، وحل كتابه "مقدمات فى اللاتينية Introduction Latinae محل كتب النحو القديمة المستخدمة فى المدارس والجامعات. فإلى جانب دراساته فى ميدان النحو والمعاجم، قام بنشر وشرح عدة مؤلفات للكتاب اللاتين القدماء، وكان أول أبحاثه فى عصر النهضة يصدر أحكامًا قاطعة بشأن نطق اللغة اليونانية القديمة، وترك أيضًا أعمالا هامة عن الآثار الأسبانية القديمة والجغرافيين القدماء، وأبدى اهتمامًا متزايد باللغة العبرية.

أما هرنان ناتر فقد غدا أشهر علماء التراث الهلينى الأسبان فى عصره، وهو من أنبغ تلاميذ العالم البرتغالى "أرياس بربوسا Arias Barbosa" الذى كان أول من تولى تدريس الإغريقية بجامعة سالامنكا إبان السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر.[2]

ومن أعلام الدراسات القديمة الأسبان فى القرن الخامس عشر: فرننـدو القرطبى Fernando de Cordoba" [١٤٢٥ - ١٤٨٦] الذى انصبت اهتماماته

---

(1) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٤ - ٥٥.

(2) السيد رجب حراز، عصر النهضة، دراسة فى الحضارة الأوروبية، ص٢٨٣ ،٢٨٤.

على محاولة التوفيق بين تعاليم أرسطو وأفلاطون، ثم مايسى روديجوى دى سانتيلا Maese Rodrigo Santaella [١٤٤٤ - ١٥٠٩] الذى وضع المعجم الكنسى Vocabularium Ecclesiasticum بهدف شرح مصطلحات الكنيسة الفنية لأولئك الذين لا يعرفون اللاتينية.

ومثلما حدث فى أسبانيا، توافد عدد من الأساتذة الإيطاليين على البرتغال مثل أستاذ البلاغة الفلورنسى جاكو بو بوبليتشيو Jacopo Publicio الذى قام بالتدريس فى البرتغال خلال جولاته بأوروبا بين عامى ١٤٦٥ و١٤٨٠، وفيما تبادل بوليتز يانو الرسائل مع ملك البرتغال يوحنا الثانى [١٤٨١ - ١٤٩٥] وكان من تلاميذ أرياس بريوسا وقام كاتلدو باريسيو Cataldo Parisio أستاذ البلاغة بجامعة يافيا بإلقاء محاضرات فى كويمبرا Coimbra حتى عام ١٤٩٥، حين استدعاه ملك البرتغال يوحنا الثانى إلى بلاطه وطبع فى لشبونه عام ١٥٠٥ كتاب استيفان كافيللرو Estevan Cavillero المعنون "مقدمة علم النحو Prosodia Grammatica. وهكذا كانت شبه جزيرة ايبريا مهيأة فى مطلع القرن السادس عشر لحركة الإحياء الكلاسيكى ولكن هذه الحركة ما لبثت أن اهتزت فى أسبانيا اهتزازا عنيفا.[1]

على أن الخوف من بوادر حركة الإصلاح الدينى دعا شارل الخامس والباب كلمنت السابع إلى الوقوف ضد الدراسات الإنسانية، مما جعل تأثير الدراسات الإنساتية فى المجتمع الأسبانى محدودًا بصفة عامة. وكانت محاكم التفتيش الأسبانية سيفًا على رءوس هؤلاء الإنسانيين.

على أن أثر حركة الإحياء فى شبه الجزيرة الأيبرية تمثل بدرجة أوضح فى استخدام اللغة الأسبانية القومية فى مجال الأدب والمسرح. فكتب سرفانتيز Cervantes قصته المشهورة دون كيشوت وكتب لويس دى كاميونس De

---

[1] السيد رجب حراز، عصر النهضة، دراسة فى الحضارة الأوروبية، ص٢٨٤ - ٢١٥.

Cameons [١٥٢٤ - ١٥٨٠] ملحمته الشهيرة لوزيا Lusia وكتب لوب دى فيجا Lope de Vega المعاصر لسرفانتيز عدة درامات.

وإلى جانب الدراسات القديمة والأدب القومي، اقترنت النهضة فى شبه جزيرة أيبريا بالاهتمام بالملاحة وصناعة السفن فضلا عن الفنون التى تأثرت بالناحية الدينية نظرًا لأن رعاة الفن من ملوك أسبانيا كانوا من الكاثوليك المتعصبين، ولذلك فغدا كان الفن الأسبانى فى عصر النهضة قليل الأهمية بالنسبة للمستويات الأوروبية، إلا أنه كان متميز الشخصية.[1]

---

[1] عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم المعاصر فى العصر الحديث، جـ ١ ص٩٧ - ٩٨.

الفصل الثالث

حركة الكشوف الجغرافية



حركة الكشوف الجغرافية

كان من أهم مميزات تاريخ أوروبا الحديث حركة الكشوف وما تلاها من حركات استعمارية واسعة النطاق؛ فحركة الكشوف الجغرافية ظهرت مبكرة منذ بداية القرن الخامس عشر، واستمرت خلال ذلك القرن ولم تظهر نتائجها الحاسمة إلا فى نهاية وبداية القرن الذى يليه، وتلتها كذلك حركة إستعمارية واسعة النطاق تميزت بها قلة من الدول الأوروبية، ثم لم تلبث أن انضمت إليها دول أخرى محاولة أن تحقق نصيبها من هذا الكسب المادى العظيم، وترتبت على ذلك حروب من هذه الدول، لم تقتصر ميدانها على بقاع ومواطن هذه المستعمرات وإنما عداها إلى الأراضى الأوروبية نفسها.

وكان لظهور نزعة الكشف الجغرافى والاستعمار واشتدادها فى العصر الحديث بين الدول الأوروبية أسباب متعددة:-

١- نموذج الروح القومية:

من أقوى الأسباب فى بعض دول أوروبا الغربية فى مطلع العصر الحديث أقوى الأسباب فى بعض دول أوروبا الغربية فى مطلع العصر الحديث، وما اقتضاه ذلك من اشتداد رغبة هذه الدول فى السيطرة على بقاع جديدة ترى فى شعوبها من الضعف والتخلف ما يعينها على تحقيق ما تريد. ولم تلبث هذه الدول أن وجدت فى العالم الجديد وعلى سواحل أفريقيا وجنوبى آسيا مجالا واسعاً لتحقيق هذه الأطماع. وعلى صدى المحاولات التى قامت بها فى هذا المجال إذن مؤذن الحرب فاندلعت نيرانها فى أنحاء أوروبا وغيرها ثم انتهت إلى قيام الأمبراطوريات الاستعمارية. وكان أعظم تلك الدول وأنشطها فى هذا الميدان أسبانيا والبرتغال

وهولندا وفرنسا وانجلترا، وهى دول كانت تحركها النزعة القومية، وكان لكل منها ظروف خاصة مهدت لتحقيق وحدتها القومية فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال أيام القرن السادس عشر. وإذا كانت ألمانيا وإيطاليا لم تظهرا على مسرح تلك الحوادث، فما كان ذلك إلا أنها لم تكونا قد استكملتا وحدتهما القوميتين. فلما تم ذلك فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهر اهتمامها بالاستعمار واضحًا وجليا، فأما النمسا التى لم تحركها النزعة القومية فقد تخلفت عن موكب الظهور فى هذا الميدان البغيض؛ ومن ثم لم يكن لها فى اسلاب الاستعمار نصيب[1]

ومن هنا نجد أن الدول التى حققت وحدتها القومية حديثا اشتدت رغبتها الملحة فى التوسع لنشر نفوذها ومبادئها حتى باتت تؤمن بأن بقاءها رهين ببقاء مستعمراتها أيا كانت مظاهر الأستعمار فيها، ولا أدل على ذلك مما جاء فى أقوال اللورد "كرزون" Curzon أحد مشاهير الساسة الإنجليز بشأن الهند حيث قال:

"هى محور عظمتنا ومقياس نجاحنا أو اخفاقنا، ولئن فقدنا الهند فليكونن هذا بغروب شمس حياتنا"

كما يقول أحد الكتاب الفرنسيين:-

"إن فرنسا لابد لها من امبراطورية أفريقية عظيمة، وإلا غدت دولة أوروبية من الدرجة الثالثة، وغدا شأنها فى ذلك شأن اليونان ورومانيا"[2]

وكما تقول زينب عصمت راشد تلك أقوال معناها فى رأى الإنسانية الصادقة الرشيدة ضرب من الوهم السخيف إذ لا ينبغى لدولة عاقلة تؤمن بكيانها الإنسانى أن تعتمد فى بقائها وتثبيت عظمتها على المستعمرات، وإنما العظمة فى حكم العقل الرشيد تتمثل فى جهود كل دولة فى سبيل استقلال مواردها الخاصة، وفى المشاركة فى تحقيق السلام والخير للإنسانية كافة. وقد كانت ألمانيا القيصرية قبل محنتها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من أعظم الدول فى العالم وأقواها؛

---

(1) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص٤١ – ٤٢.

(2) نفسه، ص٤٢.

ومع ذلك لم يكن لها من المستعمرات كما كان لغيرها من دول أوروبا. وكذلك كانت الحال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ثم في إيطاليا وخاصة قبل ظهور روح الجشع والأوهام الباطلة التى بثها فيها موسوليني بغروره المسرحي، إذ كانت من المستعمرات نصيب موفور، وليس لها مع ذلك في ميزان القوى كفة راجحة ومن ذلك هولندا وبلجيكا والبرتغال.[1]

٢- العامل الاقتصادى أو الكسب المادى:

كانت الطرق الرئيسية التى تسلكها المتاجر الشرقية إلى أوروبا فى العصور الوسطى، وأهمها طريق آسيا البرى من الصين شرقا إلى شبه جزيرة القرم والبحر الأسود والقسطنطينية غربًا، ثم طريق الخليج العربى والبحر الأحمر إلى موانى الشام ومصر. وكانت سفن جنوًا تجلب المتاجر الشرقية من شبه جزيرة القرم، حيث وجدت مراكز الجنوبيين التجارية. أما البندقية، التى حبتها الطبيعة بوضع جغرافى جعلها الطريق بين الشرق والغرب، فقد استطاعت بفضل تحالفها مع سلاطين المماليك - وكانوا يجمعون مصر والشام فى وحدة سياسية - أن تحتكر من المتاجر الشرقية معظم السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر للتجارة بها فى أوروبا، مما مكنها من أن تجنى أرباحًا خيالية. وفى الوقت نفسه استطاع حكام الدول الشرقية التى تمر التجارة الشرقية بأراضيهم - وخاصة سلاطين المماليك فى مصر - أن يجنوا أرباحًا طائلة من الضرائب الجمركية الباهظة التى يفرضونها على مختلف أصناف التوابل قبل أن تصل إلى أيدى التجار الأوروبيين من البنادقة وغيرهم. ولذا أضحى التخلص من دفع هذه الضرائب الباهظة التى ملأت جيوب أولئك الوسطاء الشرقيين هدفًا اقتصاديًا لابد من تحقيقه عاجلًا أو آجلًا، بفتح طريق من طرق الاتصال المباشر مع بلاد الشرق.[2]

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص٤٢.

(٢) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٠٧ - ٣٠٨.

ومنذ بداية القرن الثالث عشر لقيت جمهورية البندقية منافسة شديدة من جمهورية جنوا فى ميدان المتاجر الشرقية. ولم يكن ثمة سبيل إلى فك احتكار البندقية للسلع الشرقية إلا بوسيلة من وسيلتين: إما هدم قوتها بحرب تشنها عليها جنوا في إيطاليا، وإما هدم ثروتها بسد منابع هذه الثروة قبل أن تصل إليها. وجربت جنوا وسيلتها الأولى، فدخلت مع البندقية فى صراع حربى بالغ العنف، استطال سنين عديدة، وانتهى بهزيمة جنوا وإبرام صلح تورنتو عام ١٣٨١. وفى غضون هذا الصراع الحربى لجأت جنوة إلى تجربة وسيلتها الثانية، فعكفت على دراسة الطرق والمسالك الكفيلة بتحقيقها وقدرت أن باستطاعة أية سفينة تطوف حول أفريقية أن تأتى بالتوابل من وراء البحار إلى أوروبا، دون حاجة إلى استئذان العرب أو المماليك أو التعرض لضرائبهم الجمركية الباهظة.[1]

والواقع أن الجنوبيين كانوا أول من حاول تنفيذه الفكرة، ففى عام ١٢٩١ أبحر الأخوان الجنويان أوجولينو ugolino وفادينو فيفالدو Vadino Vivaldo سرا فى سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحرى إلى الهند، إلا أنهما غرقا بسفينتها في قبالة ساحل مراكش، وليس من المعروف ما إذا كان الأخوان فيفالدو قد خططا للوصول إلى الهند عن طريق الالتفاف حول أفريقية أو بالإبحار غربا عبر المحيط الأطلنطى. وجاء القرن الرابع عشر وانتهى دون أن يحاول أحد تكرار مغامرة الأخوين فيفالدو، ولو أن جنويا آخر يدعى لانزاروتى مالوتشالو Lanzarote Mallocello قد اكتشف عام ١٣١٢ تقريبا جزر كناريا وأسس بها مستعمر استمرت قائمة لعدة سنوات، وفى تلك الأثناء تعلم البرتغاليون من الجنويين فنون البحار وبناء السفن الكبيرة نوعا والسير بها في البحار والمحيطات.[2]

ولم يلبث أن جد عامل كان له أثره فى تشجيع الأوروبيين على محاولة إيجاد طريق بحرى مباشر بالشرق، ذلك أن الأتراك العثمانيين كانوا بفضل

(1) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٠٨.

(2) نفسه، ص٣٠٨.

الامبراطورية الكبيرة التى بدأوا ينشئونها وسقوط القسطنطينية فى أيديهم عام ١٤٥٣، قد عطلوا أو أعانوا تجارة أوروبا الغربية مع آسيا عبر الطرق البرية التى كانت تسير فيها هذه التجارة من أيام ماركو بولو، ولو أنهم لم يغفلوا بصفة دائمة طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب وكان تعطيل أو إعاقة التجارة من الحوافز التى جعلت أوروبا الغربية تبحث عن طريق للتجارة مع آسيا.[1]

٣- العوامل الدينية ونشر حضارة الدول المستعمرة

أما العوامل الدينية فكانت قوة دافعة لا ريب فيها ووراء حركة البعوث الكشفية. كانت البرتغال وأسبانيا أسبق الدول فى إيفاد هذه البعوث. وكانت الناحية الدينية تلعب دورا كبيرا فى تخطيط سياسة هاتين الدولتين، وكانت تكمن فى هذه الناحية الدينية روح صليبية جارفة. فالكشوف الجغرافية يجب أن تكون من أهدافها - فى نظر البرتغال - تحويل المسلمين فى غرب أفريقيا وفى غيرها من المناطق الآهلة بهم إلى المسيحية الكاثوليكية. والكشوف الجغرافية فيما وراء البحار يجب أن يكون من مراميها - فى نظر أسبانيا - نشر الديانة المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى بين السكان الأصليين والوثنيين فى تلك الأصقاع البعيدة. بل إن هذه الروح الصليبية استهدفت أيضا تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكى وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى مصر.[2]

من أهم الأسباب التى جعلت الناحية الدينية المسرفة فى تعصبها تلعب دورا طاغيا فى سياسة البرتغال وأسبانيا أن الروح الصليبية قد تسلطت على سكان هذين الإقليمين فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. أخذوا يضيقون الخناق على القوى الإسلامية فى الأندلس، وكانت هذه القوى تزداد وهنا على وهن فى الوقت الذى أخذت فيه الإمارات المسيحية تأخذ بأسباب القوة والوحدة. وكان قد تم فى سنة ١٤٦٩ زواج فرديناند حاكم أرجونة من إيزابيلا حاكمة قشتالة. وكان هذا الزواج

---

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٠٩.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص١١٠.

بمثابة مولد دولة أسبانيا المتحدة فى التاريخ الحديث. وسرعان ما أمعن هذان العاملان فى أسبانيا سياسة الاضطهاد الدينى واستئصال شأفة كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكى، وكانت أول الأعمال التى قام بها الاستيلاء على غرناطة وهى آخر معقل المسلمين فى شبه جزيرة أيبريا. ويلاحظ أن سقوط غرناطة وطرد اليهود من أسبانيا وتعاقد ملكى أسبانيا مع كرستوف كولمبوس على القيام برحلته الكشفية الجغرافية الأولى كل هذه الأحداث التاريخية البارزة وقعت كلها فى سنة واحدة هى ١٤٩٢، ولما تم إجلاء المسلمين عن الأندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة ايبريا تحمسا وشراهة فى مطاردة المسلمين خارجها، وانتقل نشاطهم إلى شمال أفريقيا وغربيها يتعقبون المسلمين، وراودتهم الآمال فى إمكان محاصرة الإسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وسحقه فى آسيا وأفريقية، ولذلك فإن الشعور الذى احتوى مسيحى شبه جزيرة أيبيريا بوجوب محاربة الإسلام كان شعورا امتزجت فيه الروح الصليبية المتأججة العنيفة بالعاطفة الوطنية.[1]

وظفرت الكشوف الجغرافية بأعظم اهتمام من البابوية، واصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة يخولون بها ملوك البرتغال وأسبانيا الحق فى ملكية كل إقليم جديد أو كل بحر جديد يتم اكتشافه فى الحاضر والمستقبل وتورط بعض البابوات فى هذه المراسيم فوصفوا الإسلام بأنه طاعون The Plague of Islam وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى كشف أو سوف تكتشف والحيلولة بينهم وبين "أصابتهم بطاعون الإسلام" وفى نفس الوقت بذلت البابوية نفوذها الأدبى لإغراء البحارة على الانخراط فى سلك البعوث الكشفية حين كان الأقبال على العمل فى سفن الكشوف الجغرافية فاترا. وكان البابوات يعدون المشتركين فى تلك الرحلات بالعفو عند الحساب فى اليوم الآخر بالفوز بالجنة والنجاة من النار. وصدرت الأوامر برسم الصلبان على أشرعة السفن. وكان دعاة المسيحية من رجال الطوائف الدينية يرافقون الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى فى العالم الجديد.[2]

---

(١) عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ص١١١.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص١١٢.

وجاء البابا نيقولا الخامس [١٤٤٧ - ١٤٥٥] فأدلى دلوه فى مجال الآمال الصليبية واستغرق هذا البابا فى خيال خصب. فوضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية لضرب المسلمين ضربة أخيرة والقضاء على الإسلام قضاء مبرما، وأرسل فى سنة ١٤٥٤ إلى ملك البرتغال مرسوما بابويا تضمن ما يعرف باسم "خطة الهند" تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية للقضاء نهائيا على الإسلام بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها ويتصل البرتغاليون بالملوك المسيحيين سواء في أفريقيا أو فى آسيا كى يسهم هؤلاء الملوك فى تمويل الحملة الصليبية بالأموال والرجال والعتاد ويتم تطويق البلاد الإسلامية.

وسيطرت على الأوروبيين فى عصر النهضة رغبة قوية لزيادة معلوماتهم الجغرافية، وكان مرد هذه الرغبة إلى ظهور البحث العلمى والتنقيب والكشوف وتقدم علم الفلك والاهتداء إلى آلات لا غناء عنها للقيام برحلات بحرية طويلة، فقد عرف الأوروبيون الاسطرلاب والبوصلة أو الإبرة المغناطيسية والدفة المتحركة لعبور البحار مما شجع الملاحين على توسيع نطاق الملاحة، وبناء سفن كبيرة وقوية.[1]

٤- العثور على أوطان جديدة

ورابع أهداف الاستعمار العثور على أوطان جديدة لمن ضاقت بهم بلاد المستعمرين، ولم يتضح ذلك الهدف قبل القرن التاسع عشر، بل كان هناك راشدون من الساسة البريطانيين فى مطلع حركة الاستعمار؛ يرون فى ذلك خطرا على مصلحة الوطن. يتمثل فى حرمانه من جهود المهاجرين من أبناء الاكفاء.

هذا الأسلوب من أساليب الأستعمار كله شر إذ معناه الاغتصاب والسطو على بلاد آمنة مطمئنة. آهلة بالسكان، الذين نشأوا فيها وعمروها بعد أسلافهم، يحتلها المستعمرون لينزلوا بها من يدعون أنهم زادوا حتى ضاقت لهم أوطانهم، ومعنى ذلك أنهم يجيئون بهم ليشاركوا المواطنين فى أرزاقهم بعد أن كانت خالصة لهم من دون الناس. ولا يلبث هؤلاء النزلاء حتى يندسوا فى كيان هذه الشعوب، يمتصون

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص١١٢ - ٢١٣.

دماءهم ويحرمونهم نعمة الحياة. وقد كانت إيطاليا الفاشية تستند إلى هذا اللون من ألوان الأستعمار، فالمناطق الأفريقية فى نظر الإيطاليين لم تكن غير مجال يتسع للجاليات الإيطالية؛ وذلك صدى لنغمة رومانية ألفها التاريخ منذ القدم، فالإيطاليون هم سلالة الرومان الذين انشأوا الأمبراطورية الرومانية، وجعلوا من رحاب الدنيا مجالا لأهلها ومن محاصيلها موارد لأرزاقهم، ومن بحارها مرافق لحياتهم، وحسبهم أن يكون البحر المتوسط فى رأيهم حتى أيام موسولينى بحيرة رومانية.

وأن المطالبة بمستعمرات لإيواء من ضاقت بهم أوطانهم لم تكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من الزيف السياسى وذريعة لتحقيق المطامع المادية[1]

ويضاف إلى كل ذلك عوامل أخرى مثل غريزة حب الاستطلاع ورغبة بعض الناس فى أن يحيوا حياة مفعمة بالحوادث والمغامرات ويتسع فيها المجال للمغامرين فى القرن السادس عشر خصوصا مثل الأسبان والملاحين الإنجليز فى عهد الملكة إليزابيث الأولى، ثم رغبة البعض الآخر فى الهجرة إلى بلدان مأمونة وأماكن جديدة يستطيعون فيها ممارسة شعائرهم الدينية وذلك عندما إشتد الاضطهاد الدينى فى أوروبا نتيجة لانتشار حركة الإصلاح الدينى وانتعاش الكنيسة الكاثوليكية بها، وما ترتب على ذلك من حروب مهلكة واضطهادات عنيفة، كما حدث عندما اضطر البيورتان الإنجليز إلى الهجرة من إنجلترا والهجونت من فرنسا والهولنديون كذلك.

ومع هذا فإنه ما كان يتسنى فى آخر الأمر المغامرة والقيام بأصلا برحلات الكشف الجغرافى من غير أن يكون قد حدث ذلك التغيير الكبير الذى طرأ على أفكار الناس عمومًا نتيجة لتنبه الذهن البشرى فى عصر النهضة، كما كان لتقدم المعلومات الجغرافية وارتقاء فن الملاحة مع تقدم صناعة بناء السفن واستخدام البوصلة البحرية وآلة الاسطرلاب أكبر الأثر فى تشجيع المغامرين على القيام بهذه الرحلات البعيدة. أضف إلى هذا أن استخدام البارود سرعان ما جعله ممكنا القضاء

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص، ص٤٥.

على مقاومة الأهالي والسكان الأصليين في البلدان التي قصدها هؤلاء المغامرين، على نحو ما يشاهد في تاريخ الاستعمار البرتغالي في بداية العصور الحديثة.[1]

الكشوف الجغرافية البرتغالية:

يعود فضل اهتمام البرتغال بالكشوف الجغرافية إلى الأمير هنري الملاح [١٣٩٤ – ١٤١٠] ابن الملك جان الأول الذى كان يرغب في السيطرة على شواطئ المغرب المطلة على المحيط الأطلسي بغية الوصول إلى غانا والاستيلاء عليها بدافع الحماس الديني من جهة والكسب المادي من جهة ثانية.ولتحقيق هذه الرغبة التي تبنتها البابوية أصدر البابا نقولا الخامس [١٤٤٧ – ١٤٥٥] مرسوما بعث به إلى هنري يشجعه على المعنى في عمله ويمنحه الحق في السيطرة على جميع البلاد التي تخضع للمسلمين."

"أن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنرى أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه، الملك جون، بوصفه جنديا قديرا، من جنود المسيح ليقضى على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين والكفرة".[2]

بدأ هنرى عمله في تأسيس أكاديمية بحرية ومرصدا؛ وجمع لديه مجموعة كبيرة من العلماء الجغرافيين والخرائط التي كانت موضوعه حتى عصره. وفعلا بدأت تباشير النجاح عندما كشف البرتغاليون جزائر ماديرا وجزر آزور ومصب نهر السنغال ثم الرأس الأخضر حيث وصلوا إلى غانا. وقد سجل كشف غانا حدثا مهما في التاريخ الحديث، حيث بدأت منها تجارة الرقيق التي حققت أرباحا طائلة على المشتغلين بها. وازداد الإقبال على هذه التجارة بعد حركة الكشوف الأميريكية حتى أدت إلى قيام مجتمع غير متجانس في الولايات المتحدة الأمريكية ووضعت قضية الملونيين التي ما زالت حتى يومنا من المشاكل الإجتماعية التي يصعب حلها.

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص٧٥.

(٢) محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي، عصر النهضة، بيروت ١٩٨٣، ص٨٨.

بعد الكشف البحرى إلى غانا، ازداد تطلع البرتغاليين إلى اكتشاف طريق يؤدى إلى الهند. فنجحوا فى عبور خط الاستواء سنة ١٤٧١. وتوصلوا بعدها إلى كشف مصب نهر الكونغو. وهكذا احتكر البرتغاليون طريق الملاحة البحرية على طول الشاطئ الأفريقى إلى غينيا.[1]

وواصلت البرتغال سياستها الكشفية والاستعمارية تحت حكم جون الثانى الذى كان يرمى إلى إيجاد مملكة مسيحية فى غرب أفريقيا ليتخذها قاعدة يتوغل منها خلال القارة إلى الهند فوصلت سفن فرناندو جومز فى سنة ١٤٧٥ إلى ساحل غانا، بل وعبرت خط الاستواء. وكان قد حصل على امتياز من الملك يبيح له احتكار التجارة فى هذه الأنحاء، كما وصل الكابتن ديوجوكاو Diogo Cao أحد كبار الملاحين البرتغال إلى مصب الكونغو. ولم تكن تمضى أربع سنوات على ذلك حتى وصل برتلمودياز إلى أقصى جنوب القارة وأطلق عليه رأس العواصف فما كان سببًا فى بطء حركة الكشف إلى حين.[2]

إلا أن فاسكودى جاما لم يلبث أن عاود الرحلة فوصل إلى نهاية القارة فى سنة ١٤٩٨، وأطلق عليها اسم رأس الرجاء الصالح. ودار حول القارة حتى وصل إلى الساحل الشرقى. وكان الملك جون الثانى يهدف من وراء ذلك تشجيع هذه الاستكشافات إلى هدفين هما العثور على القس حنا، واكتشاف التوابل التى يبيعها الإيطاليون إلى الأسواق الأوروبية. وكان الفلفل يسترعى اهتمام الملك بنوع خاص ويسعى لإيجاد سوق رائجة للفلفل الذى حمله إليه رجاله من ساحل غانا، والذى أرسلت منه إلى بروج Bruges وغيرها من مراكز التجارة الرئيسية، ولكنه تبين أن ثمنها أقل من ثمن الفلفل الهندى، فما زال حتى عرف السر فى ذلك، وأصر على ضرورة الوصول إلى الهند من أجل الحصول على هذه الأنواع الممتازة التى يجبى منها التجار الإيطاليون أرباحًا تفوق حد الخيال. لاسيما وقد حصل من البابا على

---

(١) نفسه، ١٩.

(٢) زاهر رياض، استعمار [illegible]رىقيا، القاهرة ١٩٦٥، ص٢٢ - ٢٣.

إذن يهب له جميع ما يكتشفه من الأرض ويحرمه على غير رعاياه، كما أرسل إلى زميله الملك ادوارد الرابع ملك انجلترا ينبئه بما حصل عليه ويطلب منه إذاعة هذا النبأ على رعاياه كي يحرم عليهم الإتجاه إلى مياه غانا بسفنهم، واستجاب الملك ادوارد لهذه المطالب.

ولم يطق الملك جون صبر حتى يصل رجاله إلى أرض القس حنا، وأصر على أن يرسل إليها بعض رجاله. ووقع اختياره على الفونسودى بايفا وبدور ذى كوفلهام وزودهما بالأوراق اللازمة كي يبرزاها إلى كل ملك مسيحى رجاء معاونتهما فى رحلتهما، كما زودهما بالماس اللازم لافتداء نفسهما لو وقعا فى أسر أحد الملوك المسلمين. وبعد رحلة طويلة طاف فيل كوفلهام بأسيا وجزيرة العرب وصل إلى أثيوبيا سنة ١٤٩٠ حيث سر الامبراطور برؤيته وعرض عليه المناصب الكبيرة ترغيبًا له فى البقاء حتى إذا رفضها وأصر على العودة رفض الأمبراطور أن يمنحه إذنًا بالخروج.[1]

ورسافا سكودى جاما بأسطوله عند مصب نهر أطلق عليه اسم نهر الرحمة "لأنهم وجدوا حاجتهم من لحوم وفاكهة كانت انجح علاج لمن استبد به المرض من رجاله. وقضى فيه عشرين يومًا أبحر بعدها وفى الطريق أسروا هنديًا اسمه دافان كان يعمل فى تجارة التوابل فكان لهم خير معوان للوصول إلى ثغرموزمبيق فى مارس ١٤٩٨ حيث وجد أربع سفن موسوقة بالتوابل والفضة والحرير قادمة من الهند. ولكنهم عجبوا حين شاهدوا سكان هذه المدن على غير ما ألفوا فى شواطئ أفريقيا الغربية حيث السكان عراة الأجسام ولكنهم هنا يرتدون الملابس القطنية الملونة ويرتدى بعضهم الحرير وقد تدلت سيوفهم وخناجرهم من أحزمتهم العريضة، كما كان بالمدينة أيضًا بعض الأثيوبيين الذين خروا على وجوهم ساجدين حين شاهدوا الصليب مرسومًا على أشرعة السفينة فاغتبط دى جاما برؤيتهم وحادثهم وعرف منهم أن بلادهم قريبة والوصول إليها سهل.[2]

---

(1) زاهر رياض، استعمار أفريقية، ص٢٣.

(2) زاهر رياض، استعسار أفريقيا، ص٢٣.

على أية حال عندما وصل فاسكودى جاما إلى موزمبيق تعرّف هناك ببعض الملاحن العرب، وأخذ منهم مرشدًا بصيرًا بأمور الملاحة وطرقها وأسرارها اسمه [أحمد بن ماجد] وساعده ابن ماجد على الوصول إلى الساحل الغربى للهند، وهناك استطاع الاتصال بالأمراء الهنود وعقد معهم الاتفاقات التجارية، ثم عاد إلى بلاده سنة ١٤٩٩ وسفنه مشحونة بالتوابل والمنتجات الشرقية، وبذلك تحقق للبرتغال كشف طريق بحرى مباشر إلى الهند.[1]

وكان هكذا الكشف أكبر جزية اقتصادية وجهت للعالم الإسلامى وخصوصا فى مصر، إذ انتقل المركز التجارى العالمى من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى، وكان لهذا الانتقال أسوأ الأثر فى تجارة الدول التى تمس سواحلها حوض البحر المتوسط كالبندقية ومصر. وكانت مصر المملوكية قد بلغت فى العصور الوسطى انتهاء ببداية القرن السادس عشر درجة عظيمة من الثراء وكانت خزائن حكامها تفيض بالأموال الخاصة بالتجار الإيطاليين من البندقية وجنوة الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق إلى أوروبا عن طريقين تتحكم فيها مصر المملوكية: طريق الفرات وحلب واسكتدرونة ومنها إلى أوروبا. وطريق البحر الأحمر والسويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة، ثم على السفن فى فرع رشيد إلى قرب الرحمانية على النيل، ومنها إلى الاسكندرية وبعد ذلك تنقل إلى الموانئ الإيطالية فى طريقها إلى الدول الأوروبية المختلفة.[2]

وهكذا انتهى العهد الذى درّ على العرب ثروات كبيرة أيام أن كانوا وسطاء ملاحة وتجارة بين الهند والصين من ناحية، وأوروبا من ناحية أخرى، وحتى نهاية القرن الخامس عشر. كانت السفن العربية تمخر عباب المحيط الهندى، وتشاهد دائما فى موانئه. انتهى كل ذلك ليحل البرتغاليون محلهم فى احتكار التجارة الشرقية ويطردونهم م[illegible]ار الشرقية، بعد الاستيلاء على مراكز حصينة كبعض الموانى

---

(1) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، عصر النهضة الأوروبية، ص٥٢.

(2) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، النهضة الأوروبية، ص٥٢ ـ ٥٣.

والجزر التى يستطيعون منها إغلاق البحر الأحمر، والخليج العربى فى وجه الملاحة العربية. أما فى الهند نفسها فقد عمد البرتغاليون إلى امتلاك أجزاء من الساحل، ووضعوا فيها بعض قواتهم البحرية والبرية، ليخضعوا أمراء المسلمين فى الهند، ويجبروهم على توقيع معاهدات تلزمهم بقصر التجارة على البرتغاليين.

واستصرخ الأمراء وسلاطين الهند المسلمون حكام البلاد العربية الإسلامية ليمدوا لهم يد المساعدة فى تلك الحرب المقدسة، ووجد استصراخهم صدى لدى سلطانِ مصر المملوكى، الذى أعد أسطوّلا ضخمًا لمنازلة البرتغاليين فى أعالى البحار الشرقية، وقد استطاع الأسطول المملوكى أن يحقق انتصارًا أولا فى شول سنة ١٥٠٨، ولكن تمكن الأسطول البرتغالى بقيادة الميدا من أن يهزم الأسطول المملوكى فى معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩.[1]

وواصل البرتغاليون تدعيم تفوقهم البحرى وسيطرتهم التجارية فى البحار الشرقية والمضى فى تنفيذ سياستهم التوسعية، فكلفوا أحد كبار قوادهم البحريين وهو الفونسو البوكيرك d'Ilburerque [١٤٥٣ – ١٥١٥] فرسم خطته فى ضرورة السيطرة على بحار الهند باحتلال المنافذ البحرية الموصلة إليها أى احتلال مدخل البحر الأحمر من جهة ومدخل الخليج العربى من جهة أخرى. فاستولى على مسقط مفتاح باب المندب فى أغسطس سنة ١٥٠٩ ثم سلمت إليه هرمز فى الخليج العربى، فاستطاع البرتغال بفضل هذا الانتصار السيطرة على تجارة الهند عن طريق الخليج العربى إلى فارس والعراق وحلب وبيروت، ثم استولى والبوكيرك على جوا فى نوفمبر سنة ١٥١٠ على ساحل الملبار، وقد جعلها البرتغاليون من ذلك الحين المركز الرئيسى لممتلكاتهم الآسيوية. وفى عام ١٥١١ استولى دالبوكيرك على ملقا ثم حاول السيطرة على عدن فى البحر الأحمر ولكنه اخفق فى عام ١٥١٣ وفى عام ١٥١٥ تم له اخضاع هرمز نهائيا.

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٥٣.

وتعتبر هذه الفترة التى تميّزت بنشاط البوكيرك بداية تكوين الأمبراطورية البرتغالية، وحاول خلفاؤه صيانة المراكز التى أوجدها دالبوكيرك والمحافظة عليها، ثم السير على سياسته ومتابعة أعماله واستطاع البرتغاليون أن يحتفظوا بممتلكاتهم فى ديو وغيرها. بيد أن الضعف سرعان ما أخذ يدب فى جثمان هذه الامبراطورية ابتداء من منتصف القرن السادس عشر تقريبًا لأسباب منها النزاع بين البرتغال ودولة المماليك والدولة العثمانية، ثم انتشار النفوذ الأسبانى فى البرتغال نفسها التى كانت قد ضعفت حتى استطاع ملك أسبانيا فيليب الثانى أن يستولى على عرشها بعد وفاة ملكها هنرى فى سنة ١٥٧٠ بسبب ادعاءات وراثية ناشئة من الزيجات المتعددة بين الأسرتين البرتغالية والأسبانية. ولما كان فيليب لا يعنى بأمر هذه الامبراطورية وتركها وشأنها فقد بدأ الهولنديون منذ ذلك الحين يهاجمون مراكز البرتغال ويحلون محلهم فى الشرق، ولم تستطع الأمبراطورية الدفاع عن نفسها لأنها كانت ضعيفة. وأما أسباب ضعف هذه الامبراطورية فمرجعها إلى نظام الاستعمار البرتغالى نفسه.[١]

نظام الاستعمار البرتغالى:

أراد البرتغاليون من مجهوداتهم الحصول على تجارة التوابل واحتكار هذه التجارة ولذلك اصطدموا مع العرب الذين استأثروا بها، وزادت الاختلافات الدينية بين الفريقين من حدة هذا الاصطدام وكان البرتغاليون يريدون توطيد نفوذهم على ساحل الملبار مركز تجارة التوابل والسيطرة على الملاحة فى البحار الهندية، وإغلاق أبواب أو منافذ هذه البحار دون منافسيهم المسلمين والعرب خاصة كما يتضح ذلك كله من نشاط فاسكودا جاما، ودالميدا والبوكيرك وغيرهم.[٢]

ولما كان غرض البرتغال الاستحواذ على تجارة التوابل واحتكارها، فقد قصروا جهودهم على إنشاء المحطات المسلحة التى تستطيع أن تمون أساطيلهم بما يلزمها من المؤن، وأن تكون بمثابة قواعد ثابتة لمراقبة منافذ البحار الهندية

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة فى أوروبا، ص٨٠.

(٢) نفسه، ص٨٠.

وحراستها، وهذا إلى جانب اتخاذها مراكز مهمة لتجارة التوابل، ولذلك فإن وصف هذه المراكز بالامبراطورية مع ما يستلزمه إنشاء الامبراطورية من وجود تنظيم وتوطن واستقرار وغير ذلك أمر لا يصور الحال على حقيقته.

فأقام البرتغاليون في الشرق جملة محطات. كانت مراكز استعمارهم في ساحل الملبار حيث أبقوا بها أكثرية الحكام الوطنيين حصلوا منهم الجزية ثم منعوهم من التجارة، وأقاموا الحصون والقلاع لدعم سيطرتهم البرتغالية، وكذلك انشأوا المحطات المسلحة في سوقطرة ومسقط وعدن وهرمز وملقا - وهذه كانت جميعها محطات رئيسية لوقوعها على منافذ البحار ومسالكها. وأما في الجهات التي لم يخشى فيها البرتغاليون المنافسة الشديدة من جانب العرب، فقد اكتفوا بإنشاء المحطات البسيطة في جزر الملقوس وفي بحار الصين[1]

وأقام البرتغاليون في هذه الممتلكات نظامًا من الحكم كان في النهاية أحد أسباب انحلال امبراطوريتهم. ذلك أنهم جمعوا السلطة في شخص نائب الملك، الحاكم المقيم في جوا والذي تمتع بسلطة مطلقة، ولم يكن مسئولا عن حكومته إلا أمام ملك البرتغال نفسه. ولما كانت مدة حكمه في العادة قصيرة لا تتجاوز الثلاثة أعوام فقط، فقد اشتد نواب الملك في معاملة الأهالي وابتزاز الأموال منهم لملء جيوبهم، وللانفاق منها على شئون الإدارة التي صارت لاتساعها المستمر في حاجة متزايدة للمال. فساءت الأحوال، وكان من أسباب زيادة سوءها تشدد البرتغاليين في احتكار التجارة، فاحتكر الملك تجارة الهند، ثم أعطيت حقوق التجارة إلى الحكام والضباط البرتغاليين، فصار هؤلاء يقسون في معاملة الأهالي. وعندما صحب هذا كله رغبة البرتغاليين، في نشر المسيحية بين أمم نشأت بينها ديانات قديمة وكانت لها عقائد ثابتة، زاد طغيان البرتغاليين وتحمل الأهالي صنوف الإرهاق والعسف، وتطرف البرتغاليين في أعمال لاضطهاد والتعذيب عندما أدخلوا في جوا محاكم التفتيش فتى سنة ١٥٦٠.

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة في أوروبا ص٨١.

ولكن البرتغاليين أستطاعوا أن يؤسسوا فى أفريقيا مستعمرات حقيقية فى جزر ماديرا، آزور، وفى الرأس الأخضر، هذا إلى جانب المراكز التى تم إنشاءها على الشاطئ الأفريقى، وكانت هذه منيعة وقوية. وكذلك أسس البرتغاليون مستعمرة حقيقية كبيرة فى البرازيل، وعينوا لها حكامًا أدخلوا بها زراعة قصب السكر، وتربية الماشية، وأنشأوا المعامل لصناعة السكر، كما أسسوا المدن الجديدة. وكان لتدفق رؤوس الأموال على هذه البلاد أكبر الأثر فى نشاط الزراعة بها خصوصًا فى أواسط القرن السادس عشر. ثم أمكن إتمام تنظيم إدارة هذه المستعمرة فى نفس الوقت تقريبًا على أساس تركيز السلطة فى شخص حاكم عام [١٥٤٩]. وكذلك اهتم البرتغاليون بنشر المسيحية فى هذه المستعمرة فقصدها الجزويت الذين وجدوا فى البرازيل مجالا واسعا لنشر التعاليم المسيحية وتأسيس المعاهد الدينية والتعلمية وساعدوا بجهودهم العلمية والتبشيرية على استقرار النظام بالمستعمرة الجديدة.[١] غير أن انتقال مملكة البرتغال إلى التاج الأسبانى فى عام ١٥٨٠ – أيام فيليب الثانى ملك أسبانيا – لم يلبث أن أفقد البرازيل أهميتها، لأن الأسبان أهملوا شأنها واعتبروها فى مرتبة ثانوية بالنسبة لممتلكاتهم الأخرى الغنية بالمعادن النفيسة واستمر الأمر كذلك مدة خضوع البرتغال لأسبانيا أى إلى منتصف القرن السابع عشر تقريبًا [١٦٤٠].

تلك إذن كانت الامبراطورية البرتغالية:

ولكن مما يجدر ذكره أن البرتغال نفسها لم تستفيد من امبراطوريتها هذه الفائدة المرجوة. فمع أن لشبونة العاصمة كانت فى رخاء وازدهار فى القرن السادس عشر لكونها مركز تجارة الهند فى المملكة، فإن داخل البلاد كان فى تأخر ظاهر. والسبب فى هذا الفلاحين البرتغاليين صاروا يتركون حقولهم للاشتراك فى الرحلات والحملات والحروب. فصارت الزراعة مهملة. وكثرت الأرض البور. واضطر البرتغاليون إلى استخدام الرقيق بدرجة كبيرة. وانتشر البؤس فى داخل البلاد.

---

[١] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة فى أوروبا، ص٨٢.

وعلى ذلك كانت عظمة البرتغال الخلابة الظاهرية تخفى وراءها فى الحقيقة بؤسا وتعاسة فى داخل البلاد لدرجة يمكن معها إيجاز النتائج التى عادت على البرتغال من استكشافاتها فى العبارة الآتية. مجد كبير وربح قليل.[1]

حركة الكشوف الأسبانية

بدأت الكشوف الأسبانية بمهمة خريستوف كولمبس Christopher Columbus [١٤٥١ - ١٥٠٦]، وهو تاجر وملاح إيطالى من جنوا، بدأ حياته بالاشتغال بتجارة الصوف والحرير، وجال لهذا الغرض بموانى البحر المتوسط، وهو صبى لا يتجاوز عمر الرابعة عشر عامًا. وقد سمع باستكشافات "الشماليين" غرب ايسلنده. وفى عام ١٤٧٦ استقل كولمبس سفينته جنويه إلى لشبونة، ونزل على أخيه برتولومى Bartolome بائع الكتب ورسام الخرائط. ولما كان قد ذاع الاعتقاد بين أكثر الجغرافيين فى هذا العصر بأن الأرض كروية. فقد نبتت فكرة أن الإنسان إذا أبحر غربًا من شبه جزيرة أيبيريا عبر المحيط الأطلنطى، فإنه يصل حتما إلى شواطئ آسيا أما إلى الصين أو الهند.[2]

وعاد كولمبس إلى لشبونة عام ١٤٨٢ "وفكرة" الأرض الواقعة صوب الغرب "تلح عليه ويحلم بالقيام برحلة استكشافية عبر المحيط الأطلنطى أو البحر المحيط Sea Ocean للعثور على هذه الأرض، وعرض مشروعه على ملك البرتغال يوحنا الثانى كما عرضه عن طريق أخيه برتولومى على هنرى السابع ملك انجلترا وعلى شارل الثامن ملك فرنسا، فلم يظفر منهم بطائل. ويقال إنه عرض مشروعه كذلك على سلطات جنوا ولكن دون جدوى. وإزاء ذلك، قرر أن يجرب حظه مع البلاط الأسبانى، ووصل إلى دير لارابيدد ١٤٨٥ La Rabida، حيث وجد تشجيعا من رهبانه. وفى عام ١٤٨٧ عرض مشروعه على البلاط الأسبانى فى قرطبة ولكن ايزابيلا رفضته بلطف متعللة بانشغال التاج بمحاصرة معاقل المسلمين فى البلاد. ولم يتطرق

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة فى أوروبا، ص٨٢ - ٨٣.

(٢) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٣٠ - ٣٣١.

اليأس إلى قلب كولمبس، فظل منتظرًا حتى سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين عام ١٤٩٢، فعاود السعي لدى ايزابيلا مستعينا بجوان بيريز Juan Perez رئيس رهبان دير لارابيدا وكاهن اعتراف الملكة، وتكللت مساعيه بالنجاح، فقبل مشروعه نهائيًا في ٣٠ ابريل ١٤٩٢، بشروطه الخاصة، وهي أن يعين أميرالا وحاكما على الأرض التي يعثر عليها وأن يرخص له باحتكار تجارة "الأراضي الجديد" وأن يكون له نصيب في الثروة التي تكتشف هناك.(١)

وفي ٣ أغسطس ١٤٩٢ خرج كولمبس في رحلته الأولى من ميناء بالوس Palos متجهًا صوب العالم المجهول. وكانت الحملة تتألف من ثلاث سفن رسمت الصلبان على أشرعتها وهي سانتا ماريا Santa Maria ويقودها كولمبس بنفسه، وبنتا Pinta ونينا Nina، ووصلت في ٩ أغسطس إلى جزر كناريا، ثم استأنف إبحارها غربًا، وشاهد البحارة في سبتمبر طائرًا مائيًا شبيهًا بالنورس وآخر من نوع عريف الملاحين، وتملك اليأس والخوف لدى البحارة، ولكن كولمبس هدأ من روعهم. وظهرت لهم الأرض بعد ذلك، فشاهدوا جزيرة يطلق عليها الأهالي اسم جوانا هاني Guanahani وهي إحدى جزر الباها Bahamas القريبة من الطرف الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة فلوريدا في قارة أمريكا الشمالية. ولكن كولمبس سماها سان سلفادور San Salvador [وتعرف الآن بجزيرة وتلنج Watling] ثم ابحر على طول الشاطئ لشمالي لجزيرة جوانا Juana[كوبا]، وقام قبطان السفينة بنتا باستكشافها. أما كولمبس فقد كشف جزيرة هايتي Haiti أو سان دومنجو Sant Domingo وسماها هسبانيولا Hispaniola وبعد أن انشأ بها حصنا سماه لانفيداد La Navidad وترك بعض رجاله وعاد إلى أسبانيا. وهو يعتقد أنه ضل الطريق للوصول إلى آسيا، إذ ظن أن كوبا هي اليابان. وكان يحمل معه عينات من نباتات الأراضي الجديدة وأخشابها وكمية من الذهب ومجموعة من السكان الوطنيين

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٣٤ - ٣٣٥.

الذين سماهم بالهنود. وفى ١٥ مارس ١٤٩٣ استقبلته جماهير الشعب الأسبانى فى ميناء بالوس استقبال الأبطال.[1]

وكان لنبأ نجاح الأسبان فى رحلة كولمبس الكشفية رد فعل قوى فى نفوس البرتغاليين لأنهم اعتقدوا أن الأسبان قد وصلوا إلى الهند بالسير إليها غربًا. وكان البرتغاليون جد حريصيين على الاحتفاظ بالأقاليم الجديدة ملكًا خاصًا لهم، فظهر لهم منافس جديد يبغى الاستحواذ عليها،وزاد الموقف حرجًا أن البرتغال كانت قد ظفرت من البابا فى روما بمرسوم بابوى يخولها الحق فى تملك جميع القارات والجزر التى تكتشفها البرتغال فيما وراء رأس بوجادور. وأقر هذا المرسوم ثلاثة بابوات آخرون، ورأى البرتغاليون عدم جدوى المرسوم البابوى الذى منحهم جميع البلدان الواقعة فى طريق الهند من الشرق إذا كان الأسبان قد سبقوهم من الغرب وانتزعوا منهم الهند.وكادت تقع هذه الحرب بينهما لولا أن لجأت الدولتان إلى البابا اسكندر السادس تلتمسان تدخله بينهما لتسوية المسألة سلميًا، واستجاب البابا لطلبهما، وكانت المسألة سلميًا، واستجاب البابا لطلبهما، وكانت أسبانيا والبرتغال أحب الدول المسيحية إلى قلب البابا لأنها أكثر الدول طاعة له، وكانت أسبانيا بوجه خاص تضع مواردها فى خدمة المذهب الكاثوليكى.[2] وأصدر الباب قراره سنة ١٤٩٤، بتصور خط تقسيم من القطب إلى القطب يمر فى المحيط الأطلسى على مسافة ٣٧٠ فرسخًا [١١٠ ميل] غربى جزائر آزور فكل ما يكتشف شرقى هذا الخط يكون من نصيب البرتغال، وما يكشف غربيه يكون لأسبانيا ومعنى هذا أنه حرم على غير الأسبان والبرتغاليين أن يشتركوا فى عمليات الكشف وأخذ نصيب من الكشوف الجديدة، ولكن الدول الأخرى لم تكترث لهذا الحكم ولم تلبث أن نزلت الميدان منافسة للدولتين، مما أفضى فى النهاية إلى اشتعال نار الحروب بين المتنافسين واستمرارها عدة قرون.

---

[1] .السيد رجب حراز، عصر النهضة ص٣٣٥.

[2] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص١٢٩.

ومن نتائج هذا القرار كذلك أن أراضى البرازيل وقعت شرقى خط التقسيم فأصبحت من نصيب البرتغال ولما أيقن ملكها ذلك أرسل البعوث تلو البعوث للكشف عنها، وضم كل ما يكشف منها إلى أملاكه وأصبحت من ذلك الوقت تابعة للبرتغال، واستمرت كذلك نحوا من ثلاثة قرون حيث كان يعتبرها البرتغاليون جزءا من أملاكهم.[1]

وفى ١٥ سبتمبر ١٤٩٣ خرج كولمبس من ميناء قادش فى رحلته الثانية على رأس أسطول كبير من ١٧ سفينة تقل ١٥٠٠ رجل من الجنود والصناع والفلاحين والقسس والمتطوعين. ولم يكن هدف هذه الرحلة بالقطع فتح طريق تجارى، بل إنشاء مستعمرة فى هسبانيولا واستغلال أراضيها الزراعية واستخراج الذهب من مناجمها، ونشر المسيحية، وفى ٢ نوفمبر وصلت الحملة إلى إحدى جزر الأنتيل وسماها كولمبس "دومنيكا" Dominica وسمى جزيرة أخرى ماريجلانتى Marigalante باسم سفينته ونزل إليها وأعلن امتلاكها لها وكذلك الجز المجاورة – باسم العاهلين الأسبانيين. وبعد أن اكتشف عدة جزر من جزر الأنتيل، أبحر إلى هسبانيولا، ووجد أن رجاله الذين تركهم فى حصن لانقيداد قد هلكوا وعلم من الأهالى أن إحدى القبائل المجاورة قد قضت عليهم. واختار بقعة جديدة أنزل بها المستوطنين الجدد وسماها "ايزابيلا" ثم ارتاد شاطئ كوبا الجنوبى واكتشف جزيرة جاميكا، ولم يعثر على الذهب بها بكميات كبيرة. وعند عودته إلى مستوطنة "ايزابيلا" وجد أن المستعمرين الأسبان قد انتشرت بينهم الأمراض ودخلوا فى عداء صريح مع الوطنيين، فانقلب ضد الأخيرين، وقنص عددًا كبيرا منهم مستعينا برجاله المسلحين وكلابه المتوحشة. وأرغم الأسرى على العمل كرقيق، وشحن بضعة مئات منهم على ظهر السفن الأسبانية وأرسلهم إلى أسبانيا. حيث توفى معظمهم وأطلق سراح البقية

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن، معالم التاريخ الأوروبى الحديث و المعاصر، ص٥٧ – ٥٨.

وأعيدوا إلى بلادهم بأوامر الملكة. وفى ١١ يونيو ١٤٩٦ عادت الحملة إلى قادش.[١]

وفى ٣٠ مايو ١٤٩٨، خرج كولمبس من ميناء سان لوكار San Lucar فى رحلته الثالثة [١٤٩٨ - ١٥٠٠] وشاهد أثناءها الساحل الشمالى لقارة أمريكا الجنوبية، وأرسل مندوبا من طرفه نزل بهذا الساحل فى ١٠ أغسطس ١٤٩٨، فكان أول رجل أبيض نطأ قدماه أرض أمريكا الجنوبية منذ أيام الشماليين"وفى ربيع عام ١٤٩٩ عين فرنسيسكو دى بوباديلا de Bobadilla حاكمًا على هسبانيولا بدلا من كولمبس وليحقق فى الشكاوى المقدمة ضده، فاعاد الحاكم الجديد كولمبس مكبلا بالأغلال إلى قادش فى أكتوبر ١٥٠٠ ولم يلبس أن قام كولمبس برحلته الرابعة والأخيرة عام ١٥٠٢ - ١٥٠٤] ولم يكن موفقًا فى هذه الحالة كما كان الحال فى رحلته الثالثة.

والواقع أن كولمبس كان قد خسر كثيرا من سمعته الطيبة بسبب وشايات أعدائه وحقد المضاربين من التجار الذين كانوا يحومون حول بلاط برشلونة، والذين بدا لهم أن رحلات كولمبس الباهظة التكاليف لم تحقق آمالهم فى جلب توابل الشرق التى يتطلعون إليها، ولعدم توفيق كولمبس فى إحضار الذهب الكثير الذى انتظره فرديناند، ولأن كولمبس اخضع أهالى الممتلكات الجديدة من الهنود .. للأسترقاق معتقدًا أن ذلك هو خير ما يمكن عمله لهم، فأثار بذلك غضب الملكة ايزابيلا، ولأن الممتلكات الجديدة عمومًا سرعان ما صارت فريسة للأضطرابات والقلاقل بسبب الانقسامات بين أعوان كولمبس ورجال حملاته. هذا علاوة على حقد المستثمرين الذين خابت آمالهم والغيظ الأشد من جانب المستعمرين العائدين إلى أسبانيا.[٢]

ولقد بقى كولمبس طول حياته، ومعاصروه كذلك، يجهلون أنهم اكتشفوا عالمًا جديدًا، بل إن كولمبس ومعاصريه اعتقدوا أن الأراضى التى أمكن الوصول إليها هى جزر الهند الشرقية وليس جزر الهند الغربية والأخير هو الاسم الذى صارت

---

[١] السيد رجب حراز، عصر النهضة ص٣٣٦ - ٣٣٧.

[٢] السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٣٧ - ٣٣٨.

تعرف به مجموعة الجزر التى اكتشفها - أى وصل إليها - كولمبس فى رحلاته الأربع [١٤٩٢ - ١٥٠٤] عبر المحيط الأطلنطى وذلك بعد وفاة كولمبس أن هذه الجزر جزء من عالم جديد، وليست جزر الهند الشرقية فى القارة الآسيوية ولم تلبث الأذهان أن أخذت تشك فى أن هذه الأراضى التى وصل إليها كولمبس هو أسيا ولاسيما بعد تلك الرسالة التى نشرها أمريجو فسبوتشى Amerigo Ves Pucci الفلورنسي، فأشار لى أن هذه الأراضى المكتشفة حديثاً بالعالم الجديد. وقد قام برحلته لحساب البرتغال فى أعقاب أتمام كشف البرازيل فاقترح عالم اللورين أطلاق أسم أمريكا على هذه الأراضى المكتشفة عام ١٥٠٧ وقد تأكد هذا الأعتقاد عندما عبر بالوا Bahboa الجبال التى يتكون منها المضيق [مضيق بنما] ووجد نفسه تجاه محيط عظيم واسع الأرجاء فى عام ١٥١٣.[1]

وقد استقر الأسبان فى أول الأمر فى جزر الهند الغربية، واتخذوا من كوبا قاعدة لهم وركزوا اهتمامهم فى الكشف على العالم الجديد واستعماره، ومن ثم أخذوا يرسلون الحملات الكشفية متوغلين فى أمريكا الجنوبية حتى غدت معظم أجزاء هذه القارة فى حوزة الأسبان وتحولت أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية إلى مناطق لاتينية على النحو التالي:

كشف المكسيك:

خرجت من جزيرة كوبا فى سنة ١٥١٩ حملة بقيادة فرناندكورتيز Fernand Cortez [١٤٨٥ - ١٥٤٧] لغزو المكسيك. وكانت تسكنها قبائل من الهنود الحمر تسمى الازتك أو الازاتكة Azteques وهم قوم أقوياء ذو حضارة، ولكنهم لم يكونوا يدرون عن العملة كوسيلة للتعامل الاقتصادى ولا يعرفون دواب الحمل أو سلاح المدفعية، بينما كانت حملة كورتيز تعتمد على الخيول والمدافع وقد شعر هذا السلاحان الرعب فى قلوب الأهالى، واعتمد كورتيز على الدجل السياسي. وفاق فى هذا الصدد،رجال الاستعمار اللاحقين فأدخل. فى روعهم أن

---

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٣٨.

الأسبان الذين هبطوا المكسيك إنما هم فوق مستوى البشر، وأنه إذا فكر أهل المكسيك فى مقاومتهم أو إغضابهم فإن الأخطار تحيق بهم من يمين ويسار.

اتجهت الحملة إلى شبه جزيرة يوكاتان yucatan وأسس قائد الحملة ثغرفيراكروز Vera - Cruz على خليج المكسيك ثم زحف على مدينة المكسيك، وهى مدينة قديمة أسسها الازاتكة حوالى سنة ١٣٢٥، واستعصت عليه بعض الوقت أمام البسالة التى أبداها الأزاتكة فى الدفاع عن عاصمتهم، وبفضل المدفعية وسلاح الفرسان استطاع كورتيز الاستيلاء على العاصمة فى أغسطس ١٥٢١ وألقى القبض على ملكهم مونتزوما Montezume وتركه يموت بعد قصة دامية من التعذيب الوحشى.

وقد أصدر الأمبراطور شارل الخامس امبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة – وهو شارل الأول ملك أسبانيا – مرسومًا بتعيين كو رتيز حاكمًا عامًا على أسبانيا الجديدة، وهو الاسم الذى حلا للأسبان إطلاقه على المكسيك. وأخذت كنوز المكسيك من الفضة تتدفق على خزائن أسبانيا حتى أصبحت مدريد عاصمة الفضة فى دنيا المال والأقتصاد فى أوروبا. وعلى الرغم من الخدمات التى أسداها كورتيز بطريق مباشر إلى بلاده، وبطريق غير مباشر نحو تقدم المعارف الجغرافية، فإن صفحته تظل متشحة بالسواد لا سرافه التنكيل بقبائل الازاتكة حتى اتسمت تصرفاته معهم ومعاملته لهم بالوحشية والضراوة.[1]

كشف بيرو

أمكن بيزارو Pizzro الحصول على كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التى كانت فى نظر الأسبان – الذين سيطر تفكيرهم الربح المادى – الهدف الرئيسى للمغامرة الاستعمارية. وكان بيزارو رجلًا غير مثقف احترف ركوب البحر كغيره من فقراء الأسبان فى ذلك الوقت. وفى خريف عام ١٥٢٢، كان يبحث عن رزقه فى بنما، وهناك اجتمع يومًا بأحد الملاحين الأسبان الذى أخبره

[1] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديث، ص١٣٤.

أن أرضًا غنية فى أمريكا الجنوبية على ساحل المحيط الهادى يسكنها أقوام يعرفون باسم الأنكا Incas وكان بيزارو متعطشا للمغامرة من أجل الذهب، فجمع معه مائة ملاح وأقلع إلىٰ المكان الذى سمع عنه على ظهر سفينة واحدة، ورغم أن المحاولة انتهت بالفشل، إلا أنه جدد المحاولة بعد سنتين ١٥٢٦ وإذا به يرسو على أرض منزرعة، فلحت خير فلاحة، ورأى أمامه السكان الوطنيين وقد تحلو باللالئ وزينة الذهب، ومنذ تلك اللحظة رأى أن يستعمر هذه الأرض ويقطع صلته بـ "بناما"[(١)]

وقد تبين له أنه اكتشف فوق هذه الأرض دولة زراعية منظمة، تتميز بمدنية خاصة. ولسكانها أساليبهم المتقدمة فى الزراعة وتمهيد الأرض وحفر القنوات وهناك القصور والمعابد وغيرها من معالم متطورة.

وبعد أن تم لبيزارو اكتشاف مناطقها المختلفة عاد إلى أسبانيا حيث حصل على تفويض من الامبراطور خوّله سلطة نائب ملك فى البلاد التى كان لا يزال عليه أن يقمها.

وقد استعمل بيزارو منتهى القسوة والعنف مع حاكم بيرو الوطنى، فقد خطفه وجرده من ثروته وأحرقه على ملأ من الناس بل ومن الرهبان الأسبان المبشرين الذين أبدوا موافقتهم ولم يستنكروا إحراق الرجل. ولو أن التاريخ لا ينسى لبعض الإرساليات التبشيرية فى أماكن أخرى من المستعمرات وأقاموا به من محاربة المظالم التى كان يقترفها مواطنوهم فى المستعمرات الأسبانية ومحاولة الحد من طغيانها على أهل البلاد الأصليين، وكان الأمبراطور شارل الخامس ينحاز إلى جانب الرأفة والاعتدال، وكان إذا ما نشب النزاع بين الإرسليات التبشيرية العاملة لخير الإنسان وبين المستعمرين االمستغلين كان ينحاز إلى جانب الإرسليات.[(٢)]

---

(١) عبد الحميد البطريق، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٦٢.

(٢) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث. ص٦٣.

رحلة ماجلان [١٥١٩ - ١٥٢٢م]

أما رحلة ماجلان حول الأرض فقد كلفه الأمبراطور شارل الخامس في١٥١٩ بالبحث عن الطريق الغربي إلى الهند تمهيدًا للوصول إلى الملقوس والنضال مع البرتغال في الهند الشرقية، فغادر ماجلان ميناء سان لوكار San Lucar في ٢٥ سبتمبر ١٥١٩ ووصل إلى شاطئ البرازيل عند ريودى جانيرو،ثم إلى مصب نهر لابلاتا ثم دار حول أمريكا الجنوبية، ودخل في نوفمبر ١٥٢٠ المحيط الذى سماه بالباسفيكى [الهادى]. وبلغ الفلبيين فى مارس ١٥٢١. وعندما قتله الوطنيون في إحدى المعارك هناك في إبريل من السنة نفسها تمكن أحد رجال سباستيان ديلكانو[Sabstian del cano من قيادة الحملة والعودة بها عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى أسبانيا فبلغ سان لوكار فى ٦ سبتمبر ١٥٢٢ وبذلك تكون الرحلة حول الكرة الأرضية استغرقت ثلاثة أعوام.

وقضى نجاح هذه الرحلة على أخطاء كثيرة كانت شائعة وقتئذ، كما أن الرحلة صححت موقع الأراضى التى استكشفها كولمبس وغيره، وأظهرت أن هذه الأراضى المستكشفة حديثًا إنما هى عالم جديد لا صلة له بأوروبا أو بآسيا. وزيادة على ذلك أحدث نجاح هذه الرحلة أثر سيكولوجيا بعيدا عندما صار شارل الخامس يعتقد أن العناية الآلهية تريد له السيطرة والحكم فى العالم المعروف بأجمعه، لحدوث هذه الرحلة فى بداية عهده وفى وقت اشتدت فيه صعوباته السياسية فى أسبانيا وايطاليا وفى علاقاته مع الأتراك العثمانيين. فأخذ من ثم يتوقع أن تصبح على يديه امبراطورية إلها بسبورج امبراطورية واسعة وعالمية قولا وحقيقة فى القارة الأوروبية ذاتها، وفيما وراء البحار فى العالم الجديد أيضًا.[1]

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص٨٦.

الاستعمار الأسبانى

اختلف الاستعمار الأسبانى عن الاستعمار الاستراتيجى الساحلى فى أفريقيا وآسيا، فى أنه كان استعمارًا استيطانيًا، أقرب فى طبيعته إلى الاستعمار الرومانى العسكرى القديم.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا وآسيا قد دخل مناطق مأهولة بالسكان، كثيفة ومدارية، فلم يكن بوسعه أن يكون استعمارًا استيطانيًا هذا بالإضافة إلى أن البرتغال لم يكن لديها القوة البشرية لمثله. أما فى حالة الاستعمار الأسبانى، فقد حدث فى مناطق مخلخلة قليلة السكان، يصلح كثير منها بحكم ارتفاعية لتوطن البيض. كما أن أسبانيا كانت قوتها البشرية أكثر نسبيا، ولذلك فقد اتخذ هذا الاستعمار نمطًا استيطانيًا أخذ يشتد حتى تحول إلى خليط جنسى لم يسبق له مثيل.

وإذا كان اتجاه الأسبان فى البداية موجهًا نحو تجارة التوابل، إلا أن هذا الاتجاه قد تغير بعد سيطرة البرتغال على هذه التجارة. فضلًا عن طول الطريق الغربى، الذى أثبت فشله تجاريًا، لأنه أطول بكثير من طريق البرتغال. هذا إلى جانب فشل الحملة التى أرسلت إلى جزر الهند الشرقية لانتزاعها من يد البرتغاليين كما أن المناطق التى دخلها الأسبان لم يكن لها توابل أو تجارة تستغل، وإنما كانت توابل هذه المناطق هى المعادن النفيسة، الذهب والفضة.[1]

ولهذا اندفعوا فى أمريكا اللاتينية مباشرة إلى المرتفعات الغربية، الغنية جيولوجيا بهذه الثروات، فى المكسيك وبيرو. وسرعان ما أخذت السفن الأسبانية تذهب وتعود محملة الفضة من المستعمرات. وقد ازداد تدفق هذا المعدن على الموانى الأسبانية فى عهد فيليب الثانى [١٥٥٦ - ١٥٧١] لاسيما بعد أن اكتشفت مناجم الفضة فى "بوتوسى" فى بوليفا سنة ١٥٤٥.

---

(1) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، جـ١، ص٢٤٠ - ٢٤١.

وقد حاولت أسبانيا فى أول الأمر الاحتفاظ بهذا المعدن النفيس داخل بلادها. ولكن عجز المصانع الأسبانية عن سد حاجة البلاد من المصنوعات اضطرها إلى شراء حاجتها من ذلك كله من المنطقة الشمالية الغربية الصناعية فى أوروبا. وانتهى الأمر بأن أصبحت أسبانيا هى القناة التى تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا. ومن هذا الحين بدأ عصر الفضة فى أوروبا، وبقى هذا المعدن خلال الخمسين سنة التالية يسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فيها. أما بالنسبة لجزر الهند الغربية وشرق القارة وشيلى، حيث لم تكن بها ثروة إلا الزراعة المدارية. فقد تطلب الأمر الاستعانة بالأيدى العاملة.

ولما كانت الحروب والأمراض والاسترقاق قد قضت على العدد الكبير من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين، فقد اجتلب الأسبان الرقيق الأسود من أفريقيا منذ سنة ١٠٥١م. لفلاحة الأرض والعمل فى المناجم. وقد عمد الأسبان إلى تقسيم الأراضى إلى إقطاعيات وزعت بين الأسبان، وإرغام الهنود والرقيق الذين يعيشون عليها على العمل فيها دون أجر، وتسمى هذه الإقطاعيات الموزعة بما عليها من أيد عاملة، وعلى هذا النحو كانت البيئة الإجتماعية للمستعمرات الأسبانية تتكون من سادة ورقيق.[1]

وأتسمت الفتوح والاستعمار الأسبانى بقسوة بالغة واستغلال الأهالى استغلالا شائنًا لا يعرف الرحمة. وكانت هذه القسوة محل تنديد شديد من بعض الأسبان أنفسهم ضد مواطنيهم. فكتبوا عن غرائز فى التلذذ بممارسة القسوة مع الأهالى. وعلى رأس هؤلاء المنددين "لاس كاساس" الذى كتب كتابه" تدمير الهنود".[2]

الكشوف الإنجليزية

أما دور إنجلترا فى ميدان الكشف فيعد صغيرا للغاية إذا قورن بالدور العظيم الذى قامت به كل من البرتغال وأسبانيا. ويرجع الفضل فيه إلى إيطالى كذلك، من

---

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم المعاصر الحديث، حـ ا، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) عبد العظيم رمضان تاريخ أوروبا والعالم المغاصر، جـ١، ص٢٤٣.

البندقية يدعى "جون كابوت John Cabot نزح إلى انجلترا وأقام فى بريستول فى عهد هنرى السابع مؤسس أسرة التيودور. وكان مولعًا بالسير وركوب البحر وعلى علم بأحوال الشرق إذ سبق له السفر إليه عن طريق القوافل فى وسط آسيا إلى الصين، وقد سمح له هنرى السابع فى عام ١٤٩٦ بالقيام على رأس بعثة لاكتشاف الأقاليم التى يحيا عليها "الكفرة غير المسيحيين" فابحر "كابوت" من ميناء بريستول ١٤٩٧ فى سفينة إنجليزية، وعبر المحيط الأطلسى حتى وصل ساحل أمريكا الشمالية عند "نيوفوندلاند" New Found Land وهى أقدم الممتلكات الإنجليزية.

وأبحر كابوت مرة ثانية عام ١٤٩٨ فى خمس سفن وارتاد الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية حتى فلوريدا. وقد أدى ذلك إلى استعمار انجلترا للأقاليم المعروفة باسم الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن السابع عشر.[1]

الكشوف الفرنسية:

أما فرنسا فكانت كشوفها قليلة ومتأخرة عن البرتغال وأسبانيا وإنجلترا، نلخصها فيما يلى:-

اتجهت نحو أمريكا الشمالية فاكتشفت كندا وكان الملاح الفرنسى جاك كارتييه [١٤٩١ - ١٥٥٧] Jack Cartier فى طليعة الرواد الفرنسيين الذين كشفوا هذا الإقليم. عهد إليه الملك فرانسوا الأول فى عام ١٥٣٤، بالقيام برحلات كشفية يعبر فيها المحيط الأطلسى فى اتجاه الغرب نحو العالم الجديد. وقد وصل إلى، شاطئ جزيرة بنوفوند لاند المواجهة لكندا ثم بلغ شاطئ كندا، وكان "جون كابوت" قد سبقه إلى هذا الشاطئ عام ١٤٩٧ ولكن الملاح الفرنسى تميز عنه بكشف مصب نهر سنت لورانس وبتوغله داخل الأراضى الأمريكية. وقام "جال كاريتيه" بأربع رحلات فى هذه المنطقة.

وأدت الاضطهادات الدينية فى فرنسا إلى هجرة عدد كبير من الهيجونت إلى العالم الجديد. وكان لتجارة الفراء أثرها فى تنشيط حركة الكشف. فقد أقبل

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص٥٥.

عليها الفرنسيون إقبالا عظيما واستعانوا بالهنود الأصليين فى الحصول على الفراء من الغابات.

وركز الفرنسيون جهودهم فى حوض سانت لورانس طوال القرن السابع عشر. فتكونت الشركات التجارية لاكتشاف المناطق وبناء المستعمرات. وكانت أكبر الجهود فى هذا المجال بفضل "صمويل شمبلان Samuel de Champlaine إذ أسس أول مستعمرة فرنسية فى شبه جزيرة شرق كندا أطلق عليها "أكاديا" Acadia ثم عرفت "بنوفا سكوشيا" Nova Scotia. وفى عام ١٦٠٨ أسس مدينة كويبك Quebec على نهر سانت لورانس. وأطلق اسم "شامبلان على بحيرة تقع بين الولايات المتحدة وجنوبى كندا تخليدا لذكرى المكتشف العظيم.[1]

وفى عام ١٦٨٢ نجح لاسال La salle [١٦٤٠ - ١٦٨٧] فى اكتشاف نهر المسيبسى، ونشأت فيه مستعمرة لويزيانا نسبة إلى لويس ١٤. وانتهى الأمر بالفرنسيين إلى تكوين مستعمرتى وقد أدى الاحتكاك بين مستعمرات انجلترا وفرنسا إلى صدام حربى بينهما عام ١٧٥٤. وهكذا اسهمت فرنسا فى مجال الكشوف الجغرافية بعمل رائع فى أمريكا الشمالية يفوق عمل انجلترا.[2]

الكشوف الهولندية:

لم تتقاعس هولندا عن المساهمة فى حركة الكشوف الجغرافية رغم انشغالها بثورتها ضد الحكم الأسبانى. ومع أن حرب الاستقلال الهولندية ظلت مشتعلة منذ عام ١٥٦٦، حين اندلعت الثورة بسبب سياسة فيليب الثانى المالية والدينية، حتى عام ١٦٤٨ عندما اعترفت أسبانيا أخيرا باستقلال هولندا وبلجيكا فى معاهدة وستفاليا Westphalia إلا أن جميع الدلائل كانت توحى بأن الحرب قد كسبها ثوار الأراضى المنخفضة منذ عام ١٥٩٥، مما أتاح للهولنديين لكى يدلو بدلوهم فى ميدان الكشوف الجغرافية.

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ٥٦.

(٢) زينب عضمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص٥٦.

وفى عام ١٦٠٩ كلفت شركة الهند الشرقية الهولندية Dutsh East India Company الملاح الإنجليزى هنرى هدسون Henry Hudson الذى كان قد سبق له الملاحة فى المياه القطبية، باستكشاف ممر شمالى شرقى إلى آسيا. وعلى ظهر سفينته الصغيرة "هاف موون Half Moon" أبحر هدسون من امستردام فى إتجاه نوفازمبلا Nova Zembla، إلا أنه سرعان ما توصل إلى قرار مؤداه أن البحث عن هذا الممر الشمالى الشرقى لن يؤدى إلى شئ، فقير اتجاهه وعبر شمال الأطلنطى للبحث بدلا من ذلك عن ممر شمالى غربى يؤدى إلى آسيا. ووصل هدسون إلى خليج نيويورك ونهر الهدسون [الذى سمى باسمه] وأعتلى هذا النهر حتى موقع ألبانى Albany.[1]

وفى عام ١٦١٦ اكتشف القبطان الهولندى شويتن Willem Schouten طريق رأس هورن Cope Horn Route، الذى أصبح عندئذ طريقًا ملاحيًا هامًا، كما يرجع إلى الملاحين الهولنديين اكتشاف استراليا ونيوزلندة. ففى عام لامس لقوين Leeuwin بعض أجزاء من سواحل استراليا الجنوبية والغربية. وتلاه أبل تاسمان Abel Tasman الذى أبحر خلال رحلتين فى سنوات ١٦٤٢ - ١٦٤٣ ثم ١٦٤٤ حول استراليا، وتمكن من مشاهدة شواطئها الشمالية والشمالية الغربية. غير أن الهولنديين لم يتابعوا اكتشافات تاسمان. وعندما أقبل القرن الثامن عشر، لم يكن شكل قارة استراليا قد اتضح بعد، كما أن ساحلها الشرقى ظل مجهولا. ولذلك فإن المكتشف الحقيقى لكل من استراليا ونيوزلندة، كان الملاح الإنجليزى جيمس كوك James Cock، الذى قام بثلاث رحلات، سار فى الرحلة الأولى بحذاء نيوزلندة وكل ساحل استراليا الشرقى، وأكمل فى الرحلتين الثانية [١٧٧٢ - ١٧٧٥] والثالثة [١٧٧٦ - ١٧٨٠] مسح سواحل نيوزلندة بالإضافة إلى ريادة العديد من جزر الباسفيكى[2]

---

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٣٧٥ - ٣٧٦.

(٢) نفسه، ص٣٧٦ - ٣٧٧.

نتائج حركة الكشوف الجغرافية

من أهمها النتائج الاقتصادية: وتتلخص فى انتقال مركز التجارة من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى، فانتقلت الأهمية التجارية من دول حوض البحر المتوسط إلى دول غرب أوروبا. ويعرف هذا بالثورة التجارية التى كان من أهم عواملها اتساع نطاق التجارة وتدفق معدنى الذهب والفضة إلى أوروبا وكانا نادرى الوجود بها فى نهاية القرن الخامس عشر. فقد حصل البرتغاليون منذ البداية على كميات كبيرة من الذهب من الساحل الغربى لأفريقيا. وازداد تدفق الذهب إلى أوروبا نتيجة لاستيلاء الأسبان على المكسيك [بين عامى ١٥١٩ - ١٥٢٢] وعلى بيرو [١٥٣٢ - ١٥٤١]. وفى عام ١٥٤٥ اكتشفت جبال بأكملها من الفضة يصل ارتفاعها إلى سبعمائة متر فى بوتسوى Postsoi بمرتفعات بيرو. وقد أمس غنى بيرو بعد ذلك مضرب الأمثال. وترتب على ذلك أنه منذ منتصف القرن السادس عشر أصبح فى أوروبا من القطع الفضية ولذهبية ما يعادل اثنتى عشرة مرة ما كان بها قبل ستين عاما، إذ اتسعت عمليات تصدير الذهب والفضة وغيرهما من المعادن النفيسة إلى أوروبا، وأخذت السفن الأسبانية منذ أواسط القرن السادس عشر تعود إلى أسبانيا وهى محملة بالفضة من المستعمرات الأسبانية فى أمريكا الجنوبية بعامة وفى بيرو بخاصة، وغدت أسبانيا مركز الفضة وسوقها الرئيسية فى أوروبا. وأخذت تصدر سبائك الفضة إلى سائر البلاد الأوروبية، وبدأ فى عهد فيليب الثانى ملك أسبانيا [١٥٥٦ - ١٥٩٨] ما يسمى بعصر الفضة فى أوروبا. وتوافر نتيجة لذلك النقد المتداول فزادت الأجور، وقفزت أسعار السلع والحاجيات وارتفع بالتالى مستوى المعيشة بين أفراد الطبقة الوسطى، فازدادت قوة وتدعم مركزها السياسى[1]

حاولت أسبانيا بما سنته من قوانين ونظم تجارية أن تحتفظ باحتكار هذه الثروات الطائلة التى كانت ترد إليها من العالم الجديد، ولكنها لم تستطع أن تحقق ذلك تمام التحقيق لأنها كانت لا تستطيع أن تزود مستعمراتها فى العالم الجديد بما

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص٦٠.

يلزمها من مصنوعات مختلفة؛ لذلك قام الأجانب غير الأسبان بهذا الدور من دول أوروبه البحرية فى الجزء الشمالى الغربى منها وهى هولندا وانجلترا وفرنسا، مما ترتب عليه انتشار المعدنين النفيسين فى هذه البقاع المختلفة فى القرن السادس عشر. وقد تأثرت فرنسا تأثرا بالغًا بهذا المعدن فقد كانت تمد أسبانيا بكثير من مصنوعاتها وصناعها كذلك، فتأثرت طبقة الماليين فيها ورجال المصارف مما شجع الكثيرين من التجار على ترك أعمالهم التجارية للاشتغال بالمعاملات المالية.

ولم يقتصر الأمر على أسبانيا وفرنسا بل أصاب الغلاء سائر الدول التى وصل إليها هذا المعدن، ففى فرنسا ارتفع فيها أثمان الغلال والمصنوعات والأراضى. وصلت هذه الأثمان فى نهاية القرن السادس عشر إلى ثلاثة أمثال بل أربعة أمثال ما كانت عليه فى بدايته.[1]

نتج عن ذلك أيضًا ازدياد النشاط التجارى الاقتصادى، وقد ظهر ذلك فى إنشاء الصناعات الجديدة مما أدى إلى زيادة فى رؤوس الأموال، ووجه الأنظار نحو العمل على ضمان حرية التجارة، ومن هنا ظهرت كذلك الحاجة إلى الحصول على مستعمرات لتصريف مصنوعات الدولة، والحصول على المعادن والمواد الأولية اللازمة للصناعة. ومن بدأ التقدم والنمو الاقتصادى للدول البحرية ولاسيما الواقعة غربى أوروبا وشمالها الغربى، ولم تلعب فرنسا فى هذا المضمار إلا دورًا ثانويًا، ومع ذلك فقد نمت تجارتها مع الخارج وخاصة مع أسبانيا التى كانت فى حاجة إلى منتجاتها ومع إنجلترا التى كانت تبحث عن منتجات فرنسا الزراعية.

كما اهتمت فرنسا بالاتجار مع الشرق، وقد عقد ملكها فرانسوا الأول معاهدة الامتيازات مع سلطان المماليك فى مصر ثم مع السلطان العثمانى [سليمان القانونى] ١٥٣٦، واعترفت هذه المعاهدات بحماية فرانسوا الأول الشعوب الكاثوليكية فى أملاك الأمبراطورية العثمانية. وهكذا أصبحت فرنسا فى حوض البحر المتوسط تتمتع بمركز قوى لا تنافسها فيه إلا البندقية. كما كانت فى أمريكا الجنوبية

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص٦٠ - ٦١.

تقوم تجارة التهريب، ونشأ من أجل ذلك ميناء "هافر" Havre في عهد فرانسوا الأول، كما ازدهرت كل من "نانت Nantes" وبوردو Bordeaux" فـي القرن السادس عشر.

ومع ذلك فقد ظهرت قوة هولندة البحرية فتفوقت على فرنسا في هذا الميدان خلال ذلك القرن كما ساهمت انجلترا في النصف الثاني منه في التجارة البحرية، فشجعت أسرة التيودور هذه الحركة وبدأت تصنع لنفسها سياسة بحرية في عهد اليزابيث [١٥٥٨ - ١٦٠٣] وقد اصطدمت انجلترا بأسبانيا في هذا الميدان واستطاع "دريك Dreake" بين عامي ١٥٧٧، ١٥٨٠ أن ينزل بالمستعمرات الأسبانية خسائر فادحة.[1]

نتج عن النشاط التجاري الإقتصادي المتزايد إنشاء البورصات المالية على نطاق عالمي، كما في بورصة أنفرس Anvers وفي بورصة ليون Lyon ومن ثم انطلقت الأهمية من الأسواق إلى البورصة التي ساعدت على تركيز العمليات التجارية والمالية وأصبحت مفتوحة أمام بضائع كل الأمم، كما تشير العبارة الموجودة على بورصة Anvers التي انشئت عام ١٥٣١.

وازداد نشاط المصارف، وعددها زيادة عظيمة، وأحرز عمالها ومؤسسوها ثروات ضخمة مما جعلهم يشترون ضياعًا واسعة ةويصبحون من كبار الأغنياء، وكان يحميهم عواهل أوروبا ومنهم الامبراطور شارل الخامس [١٥١٩ - ١٥٥٥][2]

النتائج السياسية:

أدت الكشوف الجغرافية أيضًا إلى ازدياد حدة التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية وكان ميدان هذا التنافس هو الأقاليم التي كشفت فيما وراء البحار، فقد حرصت كل دولة كبيرة - بعد الظفر الذي حققته كل من البرتغال وأسبانيا - على أن تنال ما تدعيه لنفسها من حقوق في التوسع والتملك. ويوفر في أذهان

---

(1) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ، ص٦١.

(2) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص٦١.

الساسة أن الدول التى تمتلك عددًا كبيرًا من المستعمرات هى أكبر دول العالم، ومن ثم سيطرت عليهم رغبة جامحة فى انتزاع الممتلكات من يد دول أخرى أصيبت فى تقديرهم بالضعف والشيخوخة أو تصادمت مصالحها مع مصالح دولهم. وهكذا كانت الكشوف الجغرافية فى مقدمة العوامل التى أدت إلى نمو الأطماع الاستعمارية بين الدول الأوروبية وقد ساقت هذه الأطماع كثير من الدول إلى الحروب. وازداد اهتمام الدول بإنشاء الأساطيل. الحربية البحرية باعتبارها الوسيلة الأولى للاحتفاظ بأقطار فيما وراء البحار وبالاستيلاء على مزيد من الأراضى الجديدة أو الجزر الجديدة التى اتخذتها محطات بحرية وقواعد عسكرية تؤمن لها سبل الاتصال بأملاكها البعيدة.

٣- النتائج الإجتماعية

ونشأت فى قاموس السياسات العالمية نظريات جديدة تنادى بسيطرة الرجل الأبيض، وتقر التفرقة العنصرية، وتبيح تملك الأرض التى تسكنها شعوب غير أوروبية وغير مسيحية، وتبيح استغلال هذه الشعوب وجعل إرادتها وحياتها وجهود أبنائها سخرة لإرادة الشعب المالك وللسياسة التى يريد إنتهاجها.[1]

وانخدع العالم بوجود مفكرين راشدين بين من زعموا أنهم ثاروا لدعوة الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة ومنهم من استحل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان لشئ سوى بشرته "فهذا "منتسكيو" أحد أعلام المفكرين فى الثورة الفرنسية وأمام من أئمة التشريع فيها وصاحب كتاب روح القوانين" يقول فى تبرير استرقاق البيض للسود، ويعلل ذلك بأن البيض قد أنفوا سكان أمريكا الأصليين، وأنه لا ترى مانعًا من تسخير السود لخدمة البيض، وأنه لولا ذلك لارتفع ثمن السكن. إلى غير ما قال بخصوص ذلك.[2]

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، طـ، ص١٥٠ - ١٥١.

(٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، طـ، ص٦٢ - ٦٣.

٤- النتائج الثقافية:

تطلبت الحاجة الماسة إلى عبور المحيطات والقيام برحلات بحرية طويلة المدى إدخال تحسينات متتالية في صناعة بناء السفن التجارية من حيث حجمها وزيادة حمولتها وسرعتها ومتانة أجسامها فضلًا عن التقدم في وسائل إرشاد الملاحين. وكما حدث تقدم في صناعة بناء السفن وما يتصل بها من صناعات أخرى طرأ تقدم على عدد لا يستهان به من العلوم، فقد حدث انقلاب جذري في المبادئ الأساسية التي يقوم عليها علم الجغرافيا، وتهاوت الأفكار التي كانت سائدة وقتذاك عن الأرض وحجمها وشكلها وقاراتها ومحيطاتها. وفي علم الفلك ظهرت لعلماء الفلك مجموعات من النجوم لم يكن في الاستطاعة رؤيتها ورصد حركاتها إلا من النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. واتسع مجال البحوث التاريخية. وبعد أن كانت مقصورة على العالم القديم المعروف امتدت بحيث أصبحت تشمل البلاد التي كشفت. كما أضيفت معلومات جديدة إلى علوم النبات والحيوان والبحار والجيولوجيا وما إليها.[١]

وكانت أغراض التاج الأسباني الرئيسية إلى جانب الحصول على إيرادات المستعمرات الوفيرة. نشر المسيحية بين سكانها الوثنيين (الهنود) وأراد ملوك أسبانيا أن تصبح هذه المستعمرات مكتفية بحوائجها، ثم إذا أمكن أن تكون مصدر ربح لأسبانيا. وأخيرًا طغت الرغبة في الربح على كل شئ آخر. فصار تشغيل الأهالي في المناجم وكثر استخدام الرقيق، وصار المستعمرون يقسون في معاملة الوطنيين بالعنف والشدة. وكان النظام الذي لجأ إليه التاج ونواب الملك لتحقيق الربح الوفير، يقوم على توزيع الأراضي بين الأسبان وإرغام الهنود الذين يعيشون عليها على العمل فيها من غير أجر في استغلال المناجم وفلاحة الأرض والعناية بالماشية، وعرف هذا النظام باسم Repartiminto أو encomienda وكان كولمبس أول من طبقه في هسبانيولا[٢].

---

(١) عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص١٥١.

(٢) السيد رجب حراز ، عصر النهضة، ص٣٥١.

تلك صورة بشعة من صور الاستعمار الأسباني فى القرن السادس عشر رسمها واحد منهم، وكان من المفروض أن يكون لها من الأثر الفعال ما يعظ النفوس ويردها عن الشر والضر، ولكنها كانت صرخة فى الهواء ذهبت بها ريح الجشع والظلم إلى واد سحيق، فهؤلاء مستعمرو القرن التاسع عشر من البريطانيين والفرنسيين وغيرهم يفصلون مثل ذلك فى أفريقيا، ويعيرون الأمريكيين بسلوكهم إزاء الهنود الحمر، ويبررون سلوكهم مع السود بأنهم قوم لم تكن لهم حضارة فحضّروهم وكان الظلام يغمر حياتهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور.[1]

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، طـ، ص٦٥.

الفصل الرابع

الحروب الإيطاليـــة

مظهر للتنافس الدولى بين فرنسا وأسبانيا

(١٤٩٤ - ١٥٥٩)

الحروب الإيطالية هى حروب متقطعة نشبت بين فرنسا وأسبانيا خلال فترة استطالت خمسة وستين عامًا [١٤٩٤ - ١٥٥٩]، وكانت هذه الحروب مظهرًا من مظاهر التنافس الدولى بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ فى أوروبا والرغبة فى التوسع الإقليمى داخل القارة. قد بدأ هذا التنافس بين فرنسا وأسبانيا قبل أن ينتهى القرن الخامس عشر، واقترن بصراع حربى مرير خاضته الدولتان، وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميدانا لتصارع الجيوش الفرنسية والأسبانية خلال المراحل الأولى لهذه الحروب التى تطورت بعد ذلك إلى نضال أوروبى اتسع نطاقه وانتقل إلى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الإيطالية.

وقد اختتمت الحروب الإيطالية بمعاهدة كاتوكمبرسيس Cateau Cambresis فى سنة ١٥٥٩، وتعتبر هذه المعاهدة أول تسوية عامة أوروبية فى تاريخ أوروبا الحديث.[١]

فقد ظلت شبه الجزيرة الإيطالية فى بداية العصر الحديث منقسمة إلى جملة دويلات - كما تم التعرض لذلك سابقًا - صغيرة. فبينما استطاعت الدولة الوطنية الحديثة التى تم تكوينها فى كل من فرنسا وأسبانيا أن تجد فى إيطاليا مجالا لتوسعها وساعد على ذلك أنه كان لفرنسا ادعاءات بخصوص وراثة عرشى ميلان ونابولى، وأنه

---

[١] عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص١٥٤.

كان لأسبانيا أيضًا ادعاءات فى وراثة عرش نابولى. كما أنها كانت تطمع فـى امتلاك ميلان لثروتها وغناها.

أضف إلى هذا أن الدويلات الإيطالية ذاتها كانت متقسمة على نفسها. فهناك نزاع بين جمهورية البندقية والولايات البابوية حول امتلاك إقليم رومانا Romana الواقع بينهما، ثم إن البندقية كانت تريد امتلاك دوقية ميلان بينما أرادت الولايات البابوية امتلاك فلورنسة.

وقد نتج عن هذا الوضع فى شبه الجزيرة الإيطالية أمران:

أولا: أن النزاع الرئيسى من أجل السيطرة فى إيطاليا كان منحصرًا بين فرنسا وأسبانيا ثم أن الغرض من هذا النزاع لم يكن مجرد الاستيلاء على ممتلكات جديدة فى إيطاليا فحسب، بل وإحراز السيطرة والتفوق السياسى فى القارة الأوروبية كذلك.[1]

ولذلك فإن الدول الأوروبية الأخرى ما كانت تعنى فى أثناء هذه الحروب بشئون إيطاليا إلا بالقدر الذى يمس مصالحها هى مباشرة فالامبراطور مكسيمليان [١٤٩٣ - ١٥١٩] يخشى من تفوق دولة قوية وسيطرتها على إيطاليا لأن أملاكه فى التيرول كانت متأخمة لجمهورية البندقية، وهو لذلك أيضًا يخشى من اتساع وقوة نفوذ البندقية. وانجلترا كانت لا تزال من أيام حروب المائة سنة تحتفظ بثغر كالية فى الأراضى الفرنسية ولذلك فإن ملكها هنرى الثامن [١٥٠٩ - ١٥٤٧] كان يخشى من ضياع كالية إذا قويت فرنسا. ثم إن هنرى الثامن كان يريد من تدخله فى الحروب الإيطالية أن يصبح لإنجلترا، إذا استطاع هذا، مكانة الزعامة، السياسية بين الدول. وفى سويسرة وجد أهلها فى هذه الحروب سببًا للارتزاق، فتألفت منهم الجيوش المرتزقة التى ساعدت الدول المتحاربة، ثم إن سويسرة اهتمت أيضًا بخدمة مصالحها فى علاقاتها مع الامبراطور ومع فرنسا.

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص٩٣ - ٩٤.

وعلى ذلك فقد استرشدت الدول الأوروبية في أثناء الحروب الإيطالية بالمبدأ الذي صار يعرف باسم مبدأ المحافظة على التوازن [توازن القوى بين الدول The Balance of Power.

ثانيا: أن انقسام الدويلات الإيطالية على بعضها بسبب أطماعها لم يلبث أن أوجد حالة في شبه الجزيرة الإيطالية نفسها، تشبه بدرجة أقل الحالة السائدة في أوروبا. فنجد أن بعض هذه الدويلات تنضم إلى أسبانيا أو إلى فرنسا ضد البعض الآخر مادام في هذا التحالف أو التكتل خدمة لمصالحها، ثم لا يلبث أن يتغير هذا التحالف أو التكتل إذا ظهر خطر من ازدياد نفوذ وقوة دولة أخرى جديدة وهكذا.

وعلى ذلك فقد صار يطبق أيضًا في شبه الجزيرة الإيطالية في العصر المبدأ السياسي الذي يطبق في بقية أوروبا، أي مبدأ المحافظة على ثورات القوى بين الدول.[1]

ويمكننا أن نقسم الحروب الإيطالية إلى مرحلتين متميزتين: المرحلة الأولى [١٤٩٤ - ١٥١٦] وكان مسرحها شبه الجزيرة الإيطالية، فهاجمت فرنسا مملكة نابولي ودوقية ميلان في هجومين متعاقبين تأييدا لادعائها في وراثة عرش كل منهما.

وفي المرحلة الثانية [١٥١٦ - ١٥٥٩] خرجت فيها الحرب عن النطاق الإيطالي واشتركت فيها جوانب متعددة، وإن كانت قد تركزت حول الصراع بين الأسرتين الكبيرتين في أوروبا حول التفوق والسيطرة وهما أسرة الهابسبرج والأسرة المالكة الفرنسية ممثلة في أسرة الفالوا Valois في إيطاليا.[2]

المرحلة الأولى [١٤٩٤ - ١٥١٦]

وتبدأ هذه المرحلة بالحوادث الأساسية حيث كان جيش شارل الثامن عظيما في عصره بالرغم من أنه لم يكن يتجاوز الثلاثين ألفا، وأكثر من نصفه فرسان، ويشتمل على جنود فرنسيين من مقاطعات جاسكوينا ودوفنيه وبيكارديا ونورمانديا.

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص٩٤.

(٢) محمد محمود السروجي، معالم التاريخ الأوروبي الحديث، ص٧٠.

وكانت المدافع التى معهم ثقيلة خشّيها الإيطاليون. وقد أعد الملك كل ما أستطاع في سبيل النصر.[1]

وما انحدرت الحملة من جبال الألب إلا وانهارت إيطاليا كالبناء المتوهن. ففى بافيا قدم لودفيك لتحية الملك وتوفى بعد ذلك جان جاليبا دوق ميلانو الأسمى، وقيل أنه مات مسمومًا، واستقر الأمر للودفيك ونودى به دوق ميلانو. أما فى فلورنسا فقد أخذ وعظ سافونا رولا شكل نداء للحرية وطرد الفلورانسيين آل ميدتش، وفر بطرس وأخواته، وجاء سافونا رولا إلى المارشال "الثامن" "المسيحى جدًا" ليخفف من غضبه ويطلب منه وعدا بالمرور من فلورنسا التى أصبحت مملكة المسيح وأحرقت الأوثان التى غيرتها الوثنية الجديدة. ولكن سرعان ما تبدل هذا الأمل الباسم بيأس مرير ورأت إيطاليا نفسها قد خدعت، لأن الفرنسيين، بعد أن استقبلوا الإيطاليون عليهم، وكرهوهم لفظاظتهم، واعتدائهم على النساء، وتدخلهم فى المنازعات الإيطالية وكان النزاع يحتدم بين جماعة الملك ورجال فلورنسا.[2]

وأصعب من هذا كان مرور الجيش من "الدولة الرومانية وذلك لأن الإرهاب كان عظيمًا فى روما حيث وصلت الأخبار عن فظاظة الفرنسيين فى الحرب. وكان آل كولونا حلفاء شارل الثامن قد استولوا على أوستى وهددوا الرومانيين بالمجاعة، وأبلغ شارل عن غرمه بقضاء عيد الميلاد فى المدينة المقدسة، ولم يدخلها إلا بعد مفاوضات طويلة جرت بينه وبين البابا اسكندر السادس بورجيا، وتم عرض عسكرى للجيش الفرنسى، وأن الملك طلب إلى البابا تسليم قصر آنج وجم مرشح العرش العثمانى، وكان لاجئا عند البابا، وتسليم ابنه قيصر بورجيا رهينة ليرافقا الجيش إلى نابولى. ورأى الكرادلة الذين كانوا فى حاشية الملك، أن يخلع هذا البابا السيمونى وأن يدعوا إلى مجمع دينى لاصلاح الكنيسة. غير أن شارل لم يذهب بعيدًا. وفى ١٥ يناير انتهى الطرفان إلى اتفاق. وفى ٢٧ منه ذهب الملك إلى نابولى ومات هذا

---

[1] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص٤٣. ١٩٦٨.

[2] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص٤٤.

الأخير طبيعيًا موتًا طبيعيًا أو مفتعًلا كما قيل، منذ وصوله إليها. ثم فر قيصر بورجيا بعد ذلك. وترك شارك الثامن البابا وأعاد إليه مفاتيح المدينة. وقدم الملك بين يدى البابا يمين الولاء والطاعة ولكنه لم يحظ منه بتقليده عرش نابولى حسب المراسيم المتعارف عليها فى العصر الوسيط[1] وكان زحف الجيش الفرنسى من روما إلى نابولى زحفًا سريعًا خاطفًا، ويقال إن المدن الواقعة على طول الطريق بين المدينتين كانت ترسل مفاتيح بواباتها إلى الجيش الفرنسى. ولكن حدث فى الطريق أن استطاع قيصر بورحيا أن يهرب من الجيش الفرنسى إلى أبيه فى روما. وكان الفونس الثانى Alphonse II ملك نابولى الذى تولى العرش بعد وفاة والده فردیناند الأول فى سنة ١٤٩٤ قد تنازل عن الملك لأبنه فردیناند الثانى فى هذا الوقت العصيب الذى كان الجيش الفرنسى يزحف على نابولى، ولكن أراد هذا الملك الشاب أن يتصدى للجيش الفرنسى وخرج بقواته ولكن تخل عنه كبار ضباطه على مقربة من مون كاسا Mont - Cassin. وقام أهل نابولى بثورة عارمة واقتحموا القصر الملكى وهرب إلى جزيرة تقع عند مدخل خليج نابولى. ودخل الجيش الفرنسى العاصمة نابولى فى ٢٢ فبراير ١٤٩٥ وسط مظاهر الحفاوة البالغة.[2] وتوج ملكا فى نابلى ذاتها.

على أن هذا التقدم السريع والحفاوة الكبيرة التى قوبل بها شارل الثامن سرعان ما تحولت إلى كراهية بعد أن استقر الحكم الفرنسى وبدأ فى فرض الضرائب الفادحة لمواجهة نفقات الاحتلال، واستفاق الإيطاليون إلى أنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وهكذا واجه شارل الثامن أزمة داخلية إذ أدرك الإيطاليون سريعًا أن الوقت قد حان لكى يتحدوا ضد الغزاة، وأدرك شارل الثامن أن الغزو كان سهلًا ولكن الاحتفاظ بالأراضى المفتوحة أصبح من أشق الأمور.

وبينما كان شارل الثامن يحلم بأن إيطاليا أصبحت فى يده، إذ بحلف يتكوّن ضد فى شمال إيطاليا تحت زعامة البنادقة Venetians.[3]

---

[1] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص٤٤.

[2] عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص١٨٢.

[3] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٦٩.

وأدت الانتصارات السريعة التي أحرزها شارل الثامن في إيطاليا إلى قيام تحالف دولي ضد فرنسا، فتكتلت الولايات الإيطالية لكي تتخلص من السيطرة الفرنسية فتكونت في مارس ١٤٩٥ حلف البندقية، وكان أعضاء هذا الحلف هم البندقية وميلان والبابا اسكندر السادس وماكسمليان الأول ملك أسبانيا، ويلاحظ أن لوفيكو سفورزا حاكم ميلان الذي استنجد بملك فرنسا وشجعه على الزحف الفرنسي أن توفى منافسة في حكم الدوقية فجأة [جان جلياوز] فخلا الجو أمامه وانتفت بذلك مبررات التدخل العسكري الفرنسي. أما بالنسبة للأمبراطور ماكسمليان فقد ساءه هذا الكسب السياسي والعسكري الذي تالته فرنسا في شبه الجزيرة الإيطالية أما فرديناند الكاثوليكي فقد كانت له ادعاءات في عرش نابولي.[1]

علم شارل الثامن بهذه المحالفة - وكان في نابولي في ذلك الوقت، ولكنها كانت مفاجأة أليمة إذا كان مركزه أصبح في غاية الحرج. وأدرك شارل أن الموقف يزداد خطورة وتعقيدا إذا مكث في إيطاليا، فقرر العودة إلى فرنسا وخرج من نابولي في ٢٠ مايو ١٤٩٥، والتقى الجيش الفرنسي عند انسحابه عند فورنو Fornovo ولكنه تمكن من مواصلة الانسحاب إلى فرنسا. ولقد كانت هذه المعركة كسب لا شك فيه للقضية الإيطالية، لأنها خلصت البلاد من الاحتلال الفرنسي، أو حالت على أقل تقدير دون جعل إيطاليا منطقة نفوذ فرنسية وأخليت نابولي والمراكز الأخرى من الحاميات الفرنسية.

وعندما مات شارل الثامن في ابريل ١٤٩٨ لم يكن لفرنسا شئ من المكاسب الإقليمية في إيطاليا. أما حلف البندقية فقد تفككت عراه بعد أن حقق هدفه. لأن الخلافات بين الدول الأعضاء في الحلف عادت أعنف ما تكون بعد خروج الفرنسيين من شبه جزيرة إيطاليا.[2]

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص١٠٧.

(٢) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص١٠٨.

وبعد ذلك فقد تولى الحكم فى فرنسا، ودوق دورليان تحت اسم لويس الثانى عشر Louis xII وكانت توليته حدثًا مهمًا فى تاريخ إيطاليا، فلم يكن كسلفه يدعى ملكية نابولى، بل كان يدعى ملكية ميلان أيضًا ومن ثم أخذ فى الإعداد لحرب جديدة. فى ذلك الحين كانت الظروف السياسية فى إيطاليا تشجع على الغزو، فقد انحل حلف البندقية، ورجعت الخلافات القديمة إلى ما كانت عليه وانحازت البندقية إلى فرنسا بسبب أطماعها فى ميلان.

وعلى ذلك ففى أغسطس ١٤٩٩م عبرت القوات الفرنسية جبال الألب مرة أخرى، ونزلت فى سهول لمباردى دون أن تلقى مقاومة، ومرت فى بلاد بيدمنت بتصريح من دوق سافوا. وانضم إلى الفرنسيين خمسة آلاف من السويسريين أرسلتهم المقاطعات السويسرية التى تحالفت مع لويس الثانى عشر. ولم يلق المهاجمون إلا مقاومة بسيطة. وفى الوقت نفسه كانت قوات البندقية تزحف من الشرق على ميلان. ففر لودفيكو إلى الامبراطور ماكسمليان. وسلم الأهالى مدينة ميلان للفرنسيين. وفى مدى شهر استولى الفرنسيون والبنادقة على أراضى ميلان كلها بدون استثناء.

على أن لودفيكو لم يلبث أن عاد إلى ميلان بجيش كبير لتخليص بلاده. وأرغم الفرنسيين على إخلاء ميدان العاصمة، والتخلى عن فتوحاتهم بسرعة تفاديا للاشتباك، على أنهم عادوا فتمكنوا من أسر لودفيكو، واحتلوا العاصمة من جديد، وبذلك أستتب لهم الأمر فى ميلان.

وقد كان ذلك ما شجع لويس الثانى عشر على إعادة فتح نابولى، فعقد مع فرديناند الكاثوليكى معاهدة غرناطة فى نوفمبر ١٥٠٠م التى اتفقا فيها على إرسال حملات مشتركة. واقتسام نابولى. وقد توزع فى ذلك بتحالف ملك نابولى فردريك مع الأتراك العثمانيين. وبناء على هذه المعاهدة رحف الفرنسيون على نابولى من الشمال، فى حين زحف الأسبان من الجنوب فسقطت العاصمة نابولى فى أيدى

الفرنسيين من غير قتال فى يوليو ١٥٠١ ووقع ملكها أسيرًا، وأرسل إلى فرنسا، وبقى بها أسيرًا حتى مات فى سنة ١٥٠٣.[١]

على أن الخلاف على تقسيم نابولى لم يلبث أن دفع بالحليفتين الفرنسى والأسبانى إلى الحرب. وفى هذه الحرب منى الفرنسيون بالهزيمة واستولى الأسبان على العاصمة نابولى فى مايو ١٥٠٣، وسلمت آخر معاقل الفرنسيين فى جايتا Gaeta فى يناير سنة ١٥٠٤م، واضطر الفرنسيون فى مارس ١٥٠٤م إلى الاعتراف بامتلاك الأسبان لنابولى، وأصبحوا لا يملكون فى إيطاليا سوى ميلان.

على أن الظروف السياسية لم تلبث أن اضطرت الفرنسيين إلى التخلى عن ميلان أيضًا. ففى ذلك الحين أعتلى البابا يوليوس الثانى البابوية خلفًا للبابا اسكندر السادس فى عام ١٥٠٣، وكان يطمع فى استرداد أملاك الكنيسة، وبسط نفوذ البابوية على إيطاليا كما كان فى الوقت نفسه يخشى من امتداد نفوذ البندقية إلى أملاكه فعمل على تكوين حلف ضد البندقية فى كمبراى سمى حلف كمبراى Leaugue of Cambaria فى ديسمبر سنة ١٥٠٨. وقد تكون هذا الحلف من كل من البابا وفرديناند الكاثوليكى، والأمبراطور ماكسمليان ولويس الثانى عشر. وبعض الولايات الإيطالية، فرارا، وأوربينو ومانتوا فى حين بقيت فلورنسة على الحياد.

وقد تمكن الجيش الفرنسى من إلحاق الهزيمة بالبنادقة فى معركة أجناديللو Agnadello فى ابريل ١٥٠٩م، فكادت البندقية تشرف على الهلاك حتى فكرت فى الاستنجاد بالدولة العثمانية.[٢]

على أنه فى تلك اللحظة انفضت المحالفة ضد البندقية، فقد رأى البابا أنه حصل على المدن التى يريدها، فى إقليم رومانيا وهى رافنا: وريمينى Rimini وفاينزيا Faenza ولم يعد بالتالى - مبررًا لاستمرار الحرب ضد البندقية، وفى الوقت نفسه اعتبر وجود البندقية ضرورة لدفع خطر الأتراك على المسيحية وعن إيطاليا وعن

---

[١] عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، جـ ١، ص١٥٧ - ١٥٨.

[٢] عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، جـ ١، ص١٥٩.

أوروبا، فعقد الصلح مع البندقية في ابريل سنة ١٥١٠م. وبذلك انفرط عقد محالفة كمبراي.

وقد أثار هذا التحول غضب ماكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، ولويس الثاني عشر ملك فرنسا اللذين اعتبرا هذا التصرف من جانب البابا لونا من ألوان الضرر والتخلي عن القضية التي حارب من أجلها. وقرر الامبراطور والملك المضي في الحروب. وقد رد البابا عليهما بإعلان عزمه على طرد هؤلاء المتبررين من إيطاليا وظهر البابا أمام الإيطاليين بطلًا من أبطال القومية الإيطالية ووقف إلى جانبه في هذه المرحلة البندقية وأسبانيا. ولكن استدعى لويس الثاني عشر الكرادلة الفرنسيين المقيمين في روما وبدأ في الأفق انقسام ديني خطير يهدد كنيسة روما. وفي ١٠ أكتوبر ١٥١٠ قامت الجيوش الفرنسية بمحاصرة البابا في مدينة بولونا في شمال إيطاليا حيث كان يقيم. ولكي يتخلص من هذا الموقف الحرج طلب الصلح كسبا للوقت وتراجعت الجيوش الفرنسية مرة أخرى في مايو سنة ١٥١١م واضطر البابا إلى التقهقر إلى روما أمام الفرنسيين، وأخطأ الفرنسيون عندما توقفوا عن مطاردته إلى روما واتخذوا بدلا من ذلك تدبيرا آخر هو دعوة مجلس الكرادلة في بيزا ليعلن عزل يوليوس الثاني من البابوية[1] ووجه الخطأ في ذلك أن هذه الحركة الانفصالية في الكنيسة ساعدت على تقوية مركز يوليوس بدلا من إضعافه. وقد استطاع البابا أن يستميل إليه الأعوان ليعقد محالفة جديدة – في هذه المرة موجهًا ضد فرنسا هي – الحلف المقدس [Holly League] الذي تألف في أكتوبر سنة ١٥١١م من البابا وملك أسبانيا فرديناند الكاثوليكي وهنري الثامن ملك انجلترا والسويسريون المرتزقة وجمهورية البندقية، ثم انضم إلى الحلف بعد قليل الأمبراطور ماكسمليان وكان غرض هذا الحلف المقدس] في الظاهر المحافظة على سيادة الكنيسة والقضاء على الحركة الانفصالية التي أوجدها مجلس الكرادلة في بنزا وأما غرض الحلف الحقيقي فكان استيلاء البابوية على المدن والأقاليم التي تطمع

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص١١٢.

فى امتلاكها أو فى استرجاعها (مثل بولونا وفرارا .. إلخ] ثم استيلاء فردناند على مملكة نافار حتى تستكمل أسبانيا حدودها الطبيعية فى الشمال وخوفا من أن تقع نافار تحت نفوذ وسيطرة فرنسا، ثم طرد الفرنسيين من إيطاليا[1] ونص فى قرار إنشاء الحلف ضد فرنسا على الإجراءات التنفيذية الآتية:-[2]

أولا: يقوم ملك أسبانيا بمهاجمة فرنسا فى جبهتين فى شمال إيطاليا وفى إقليم نافار فى أقصى الحدود الجنوبية الغربية لفرنسا، وبذلك يضطر لويس الثانى عشر ملك فرنسا إلى تشتيت قواته المسلحة.

ثانيًا: يتكون جيش الحلف من ٣٦ ألف مقاتل.

ثالثًا: يدفع البابا ودوج البندقية كل شهر عشرين ألف من العملة الذهبية المسماه دوقا Ducats لمساندة المجهود الحربى.

رابعًا: تقدم جمهورية البندقية أربع عشر سفينة وتقدم أسبانيا اثنى عشر قطعة من أسطولها البحرى.

خامسًا: يتولى القيادة العامة لقوات الحلف المقدس نائب ملك أسبانيا فى نابولى واسمه ريموندى كارادانو Ragmond de Cardano.

ونجح الحلف المقدس فى تحقيق أغراضه، فاخلى الفرنسيون ميلان ماعدا قلقها وتساقطت أملاك فرنسا فى شمال إيطاليا وعبرت فلول الجيش الفرنسى جبال الألب فى طريق عودتها إلى فرنسا واستولى الأسبان على نافار ١٥١٢. وإذا كان يوليوس الثانى يستعد لطرد البقية البرابرة من إيطاليا، وهم السويسريون والألمان والأسبان ويستعد للاستيلاء على نابولى من أسبانيا عندما عاجلته المنية فى فبراير ١٥١٣، وعند فشل الفرنسيون فى استرجاع ميلان، وأنزل بهم الإنجليز بعض الهزائم فى فرنسا الشمالية ذاتها عقد لويس الثانى عشر الصلح مع البابا الجديد ليو العاشر ثم

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص٩٩.

(٢) عمر عبد العزيز عمر دراسات فى التاريخ الأوروبى والأمريكى الحديث، ص١١٣.

م أسبانيا والأمبراطور، وأخيرًا مع ملك انجلترا في أغسطس ١٥١٤. وتوفى لويس الثاني عشر في أول يناير، وبوفاته انتهى الدور الأول في الحروب الإيطالية.[1]

وبقى هذا الدور كما شاهدنا فشلت فرنسا في أن تبسط سيطرتها على إيطاليا بل خرجت هي نفسها من شبه الجزيرة الإيطالية. وذلك بينما نالت أسبانيا بفضل سياسة فردناند ودهائه، مواقع ثابتة في شبه الجزيرة فثبتت أقدامها في نابولي، واقتسمت ميلان مع السويسريين، هذا إلى جانب أنها استولت على نافار في حدودها الشمالية، أما البابوية فقد امتلكت روما ثم ظفرت بالسيطرة على فلورنسة عندما رجعت إلى الحكم في فلورنسة مرة أخرى أسرة مديتش Medici وهي أسرة البابا ليو العاشر فكان من نتائج ذلك أيضًا أن فقدت فرنسا إمارة فلورنسة التي ظلت موالية لها مدة طويلة.[2]

المرحلة الثانية [١٥١٥ - ١٥٥٩].

أطماع فرانسو الأول ملك فرنسا، تولى فرانسوا الأول عرش فرنسا في سنة ١٥١٥ بعد وفاة الملك لويس الثاني عشر، وكان الملك الجديد من أسرة فالوا، واستهوته شبه الجزيرة الإيطالية طوال سنوات حكمه ميدانا عسكريا يصول فيه ويجول على غرار سلفيه الملك شارل الثامن والملك لويس الثاني عشر، وتذرع بحقوق له موروثة في دوقية ميلان. ولم يجد له في هذه المغامرة الإيطالية من حليف سوى جمهورية البندقية، بينما تحالفت ضده الامبراطورية الرومانية المقدسة وأسبانيا والبابوية. واستخدم هؤلاء الحلفاء الجنود السويسريين المرتزقة. وكان هؤلاء السويسريون يرابطون في ميلان ويشكلون خطرًا داهمًا على الفرنسيين. وقد حشد فرانسوا الأول جيشًا جرارًا، كان قوامه أربعين ألف جندي يؤيدهم سلاح مدفعية رهيب.

---

(1) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص٩٩، عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص١١٤.

(2) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص٩٩.

استطاعت القوات الفرنسية عبور جبال الألب في سرعة وكفاية جعلتا المؤرخين الفرنسيين يحاولون تشبيه فرانسوا الأول بهانيبيال، وقد أوقع فرانسوا الأول هزيمة منكرة بالحلفاء في موقعة مارينيان Marignan بالقرب من ميلان في ١٣ سبتمبر سنة ١٥١٥، وقد دامت هذه المعركة يومين كاملين، ولكن لم تشترك في هذه المعركة قوات فرديناند ملك أسبانيا، ولا قوات مكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبدأ أن فرانسوا الأول أوفر حظًا من سلفيه الملك شارل لثامن والملك لويس الثاني عشر، لأنه استهل حكمه بهذا الانتصار الرائع واستولى على ميلان وبجانب هذا الكسب الإقليمي فقد اسفرت هذه المعركة عن عدة نتائج هامة، نذكر منها ثلاثا:[1]

أولا: اتفاق بولونا Le Concordat de Bologne عقدها فرانسوا الأول مع البابا العاشر اتفاقا في أغسطس سنة ١٥١٦، وبمقتضاه تعهدت فرنسا بدفع الأموال الكنسية إلى البابا، إذ كانت فرنسا قد توقفت عن دفعها منذ سنة ١٤٣٨، كما تقرر في هذا الاتفاق تخويل ملوك فرنسا الحق في تعيين رجال الدين في المناصب الكنسية العليا في فرنسا. وصارت هذه الأمور طوال الثلاثة قرون حتى نهاية القرن الثامن عشر عندما قامت الثورة الفرنسية.

ثانيًا: سلم فربورج الدائم

كان الجنود السويسريون قد تلقوا درسًا قاسيًا في موقعة مارينيان، واستطاع فرانسوا الأول أن يعقد معهم في نوفمبر ١٥١٦ معاهدة تقرر فيها عقد سلم دائم وتعهد السويسريون بألا يشتركوا في أي حرب ضد ملك فرنسا في مملكته أو في ميلان أو أي إقليم أخر تابع له.

ثالثًا: عقد معاهدات أخرى: حقق فرانسوا الأول بفرنسا تفوقا ونفوذا في شمال إيطاليا. فقد عقد في أغسطس ١٥١٦ معاهدات مع الامبراطور ماكسمليان الأول ومع البندقية كفلت له الاحتفاظ بميلان وجنوة، وأصبحت له سيطرة تامة في

---

(١) عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، طـ، ٢٢٤ - ٢٢٥.

إقليم لمباردى فى شمالى إيطاليا، كما عقد معاهدة نويون Noyon سنة ١٥١٦ مع شارل أرشيدوق النمسا ووارث عرش أسبانيا منذ وفاة ملكها فرديناند، وقد جدد فيها وعده بأن يتزوج أميرة فرنسية، وأن يكون صداق هذا الزواج الجزء الخاص بمملكة نابولى الذى يدعيه لنفسه فرانسوا الأول.[1]

وفى هذه المرحلة جد من الحوادث ما جعل النضال يخرج من دائرته الضيقة فى إيطاليا، كى يصبح نزاعًا كبيرًا بين أسرتى الهايسبرج الجرمانية والفالوا الفرنسية من أجل الزعامة والسيطرة.

فقد توفى الامبراطور ماكسمليان فى يناير ١٥١٩، وكان لابد من اختيار امبراطور جديد يملأ كرسى الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ومع أن تاج هذه الامبراطورية يقى قرونا عدة من نصيب الأسر الجرمانية، فقد طمع كثيرون بالفوز بتاج الأمبراطورية. من هؤلاء فرانسوا الأول ملك فرنسا وهنرى الثامن ملك انجلترا ثم شارل ملك أسبانيا وحفيدا الامبراطور ماكسمليان من زوجته مارى صاحبة برجنديا. وانحصر الترشيح بين هؤلاء الثلاثة. وكان شارل ملك أسبانيا من أسرة الهايسبرج وكان لهذه الحقيقة أثر حاسم فى انتخابه على يد الدايت Diet أو المجلس الأمبراطورى فى ألمانيا إمبراطوريًا فى يونية ١٥١٩. ثم توّج شارل فى إكس لاشابل فى أكتوبر سنة ١٥٢٠م.[2]

ولكن اختيار شارل الخامس للامبراطورية كان خطر يتهدد فرنسا من ناحية ويتهدد مصلحة التوازن الدولى فى أوروبا من ناحية أخرى؛ وذلك أولا: لأن أملاك الامبراطورية الجديد كانت تشمل برجنديا بإقليميها الأراضى المنخفضة (الترلندية) وكومتية برجنديا أوفرانشى كومتيه Franche Comte – وهذه على حدود فرنسا الشمالية الشرقية والشرقية. وخشيت فرنسا من أن يطوقها الهايسبرج من كل جانب، وبخاصة عندما ظلوا أصحاب النفوذ فى ألمانيا بحكم منصب الأمبراطورية.

---

(١) عبد العزيز الشناوى أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٢٢٥.

(٢) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٠١؛ عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٧٢.

وثانيا: أن شارل الخامس أراد أن يربط بين أملاكه المختلفة في الأراضي المنخفضة، وفرانس كومتيه من ناحية وبين أسبانيا من ناحية أخرى على أن يتم ربط هذه الأملاك على حساب فرنسا، وذلك بتقسيم هذه الدولة بصورة تضمن انحلالها فلا تستطيع معارضة سياسته وأغراضه. وعلى ذلك فقد إستمال شارل الخامس أعداء الملك الفرنسي والدول التي تطمع في امتلاك مقاطعات هامة في فرنسا، فتحالف مع هنري الثامن ملك انجلترا، لقاء أن ينال هنري الثامن بيكارديا ونورمنديا في فرنسا الشمالية ليطمئن شارل الخامس على حدود أملاكه في الأراضي المنخفضة. ثم أنه عقد اتفاقا مع دوق بربون أحد نبلاء فرنسا الثائرين على ملكهم فرانسوا الأول وذلك في عامي ١٥٢٢ – ١٥٢٣ على أن ينحاز بربون إلى جانب شارل الخامس في النضال المتوقع في نظير أن يحصل بربون على مملكة مستقلة في فرنسا الجنوبية الغربية بضم مقاطعتي دوفينيه Dauphine وبروفنس Provence. ومصلحة شارل الخامس في ذلك هي أنه أولا يضمن سلامة حدود ممتلكاته في برجنديا، وثانيا يربط بين برجنديا وأسبانيا بفضل وجود "مملكة" تكون خاضعة لنفوذه باعتبار أنه صاحب الفضل في تأسيسها.[1]

وعلى ذلك فقد بدأ الحرب بين شارل الخامس وفرانسوا الأول منذ ربيع ١٥٢١، وفي هذه الحرب اضطر فرانسوا إلى الجلاء عن لمبارديا وفقد ميلان، ثم انهزم هزيمة كبيرة في بافيا في فبراير ١٥٢٥، ووقع في الأسر فأرسل إلى أسبانيا حيث أرغم هناك على توقيع معاهدة مدريد في يناير ١٥٢٦ تنازل بموجبها عن أراضي فرنسية واسعة: من ذلك دوقيه برجنديا – [وهي غير كومتيه برجنديا أو فرانس كومتيه، ويفصل بينها نهر الرون، وتقع الدوقية ضمن الحدود الفرنسية) ثم تعهد فرانسوا الأول بالتنازل عن كل ادعاءاته في ميلان ونابولي وفلندرا وأرتوا. ثم تعهد

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٠٣، عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوارن التاريخ الأوروبى الحديث، ٧٣.

بمساعدة نافار. وأعطى ولدين من أبنائه رهينة؛ وتعهد بأن يتزوج من شقيقه شارل، ملكة البرتغال (الأرملة) وبذلك أطلق سراحه فعاد إلى فرنسا ١٥٢٦.

ولكن هذه الهزيمة البالغة سرعان ما حركت مخاوف بقية الدول من زيادة سطوة أسرة الهايسبرج في أوروبا فتألف ضد الأمبراطور حلف كونياك في مايو ١٥٢٦ وكان أعضاؤه: فرانسوا الأول، البابا كلمنت السابع البندقية، ميلان، فلورنسة،انجلتره، وذلك لتخليص إيطاليا من سيطرة شارل الخامس وإعادة التوازن الدولي إلى نصابه في أوروبا الغربية، فيتجدد القتال. وفي أثنائه ثار جنود شارل بسبب تأخر رواتبهم، فنهبوا روما في مايو ١٥٢٧، وحاصروا البابا في قلعة سان انجلو. ومع أن فرانسوا الأول أحرز بعض الانتصارات وأمكنه تخليص البابا من الأسر، إلا أنه انهزم في النهاية واضطر إلى عقد صلح من الامبراطور في كمبراي في أغسطس ١٥٢٩، وبمقتضاه خرجت فرنسا من إيطاليا. وعادت السيطرة في شبه الجزيرة إلى الامبراطور. وبذلك يكون قد اخفق حلف كونياك في الغرض الذى تألف لتحقيقه.(١)

وعلى الرغم ما أحرزه شارل من انتصارات متلاحقة على فرنسا، إلا أن تطور الأحداث في بلاده، وقيام حركة الإصلاح الديني وما كانت تتطلبه من تفرغ ومجابهة أضعف قدرته على الاستمرار، وفي الوقت نفسه كان فرانسوا الأول ملك فرنسا يتصل بالبروتستانت الألمان لمساعدتهم وإثارتهم ضد عدوه شارل رغم أن فرانسوا كان كاثوليكيا متعصبا.

ومن ناحية أخرى كانت فرنسا على وشك الانهيار بعد الهزائم التى منيت بها لولا انشغال الامبراطور بمجابهة حركة الإصلاح الديني في ألمانيا. وعندئذ توافرت الأسباب والظروف لعقد الصلح بين الدولتين في كامبراى كما سبق القول، وحدثت بعض التطورات حيث أن شارل الخامس غادر إيطاليا سنة ١٥٣٠. بعد أن توَّجه البابا رسميًا، وكان آخر امبراطور في تاريخ أوروبا يتوَّج على يد البابا، واتجه إلى ألمانيا

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية ١٠٢ - ١٠٣، عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، طـ، ص١٦٨ - ١٦٩.

لمحاولة القضاء على البروتسنت الخارجين على الكاثوليكية، وقضى هناك عامين [١٥٣٠ - ١٥٣٢] انشغل أثناءهما بالمشكلات الداخلية والخارجية، وكان أخطرها وصول الأتراك العثمانيين إلى الأراضى المجرية، واحتلال معظمها واستعدادهم بعد ذلك لمهاجمة فينا. واضطر الامبراطور إلى مهادنة البروتسنت فعقد معهم اتفاق فى نورمبرج ١٥٣٢ وبذلك تفرغ للخطر الخارجى حيث قاد جيشا كبيرا استطاع به طرد الأتراك العثمانيين الذين تقهقروا أمامه.

وفى نهاية العام عاد إلى إيطاليا حيث قابل البابا، ثم عقد معاهدات دفاعية مع معظم الولايات الإيطالية ماعدا البندقية ثم غادرها إلى أسبانيا فى ربيع ١٥٣٣.[١]

وعلى الرغم من المعاهدات الدفاعية التى عقدها فى إيطاليا فإن مركزه فيها لم يكن آمنًا، فإن ملك فرنسا فرانسوا الأول، كان يرنو إلى الانتقام وعدم التقيد بمعاهدة كمبريه، ولذلك رأى أن يقوى ساعده بالتحالف مع البروتسنت فى ألمانيا، ومع السلطان العثمانى. ورغم أن الحكومة الفرنسية كانت تضطهد البروتسنت فى فرنسا نفسها. إلا أنها وجدت من مصلحتها أن تتصل البروتسنت. فى ألمانيا وتساعدهم ضد الامبراطور. وفى الوقت نفسه قام الملك بالاتصال بالبابا الذى كان فى واقع الأمير يميل لملك فرنسا ويرغب فى إعادة ميلان وجنده للتاج الفرنسى. إلا أن وفاة البابا كلمنت السابع عام ١٥٣٤، وانتخاب البابا الجديد بول الثالث حرم فرنسوا من الوعد الذى قطعه البابا كلمنت على نفسه، وتحسن موقف الأمبراطور شارل.[٢]

وكان فرانسوا الأول قد اهتم بإعادة بناء القوات المسلحة البرية، ونال سلاح المشاة من الملك عناية خاصة بعد أن كان الاهتمام من قبل موجهًا إلى سلاح الفرسان، وأهم من هذا كله. نجح فرانسوا الأول فى التقريب بين الشعب والجيش وحدث التحام بين هاتين القوتين، واكتسب الجيش الفرنسى مزيدا من الطابع الشعبى الوطنى. ولما بدأ القتال زحف الجيش الامبراطورى على فرنسا من ناحية

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٧٨.

(٢) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ٧٩.

الجنوب الشرقى، ولكنه لم يحرز انتصارًا ذا قيمة واضطر إلى الانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة.

مضت العمليات العسكرية بين قوات فرنسا وقوات الأمبراطورية، تدور فى ضراوة بالغة، وتكبدت الدولتان خسائر فادحة. دون أن تنال إحداهما انتصارا حاسمًا. وتدخل البابا بول الثالث لوقف العمليات العسكرية بعقد هدنة بين المتحاربين. ولكن نجد أن هناك عوامل ساعدت على التقريب بين العاهلين، فقد كان الإمبراطور يعتقد أن ملك فرنسا هو العاهل الوحيد الذى يستطيع أن يقوم بدور الوسيط بينه وبين الأتراك العثمانيين لعقد هدنة بين هذين الجانبين. وكان البلاط الملكى الفرنسى يضم شخصيات قوية ذات تأثير قوى على الملك، وكانوا يرون أن تحالف فرنسا مع الأتراك العثمانيين يحمل فى طياته خطرًا على المسيحية. وكان الشعور الدينى عند هؤلاء المستشارين قويًا يفوق الاعتبارات السياسية، وفى نظرهم يجب أن تكون السياسة والدبلوماسية فى خدمة الدين المسيحى، وقد خلصوا إلى أن ضرر التحالف مع العثمانيين أكثر من نفعه. وكان الدوق دى مونتمورنسى Montorency على رأس هذا الفريق، وكان من أنصار إنهاء الحرب مع الامبراطور، فلما صدر فى ١٠ فبراير ١٥٣٨ مرسوم ملكى بتعينه فى منصب الكونستابل خطت قضية السلام خطوات كبيرة نحو التقدم.

وتم عقد الهدنة فى نيس سنة ١٥٣٨ وتقرر فيها وقف العمليات الحربية لمدة عشر سنوات. وأن يحتفظ كل من الباهلين بالأراضى والأقاليم التى فى حوزته وقابل الرأى العام فى فرنسا نبأ عقد الهدنة بمظاهر الابتهاج واعتبرها مقدمة لإبرام صلح نهائى.[1]

على أن هذه الهدنة لم تستمر أكثر من أربع سنوات، ففى عام ١٥٤١ قتل السفير الفرنسى حينما كان يعبر ميلان فى طريقه إلى القسطنطينية، وفى السنة التالية

---

(١) عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ٣٠٠.

١٥٤٢ أعطى شارل الخامس دوقية ميلان إلى ابنه فيليب، فنشبت الحرب بين الفريقين عام ١٥٤٢. وفيها تحالف هنرى الثامن ملك انجلترا مع شارل الخامس.

وقد انتصرت القوات الفرنسية فى بيدمنت، ولكن قوات كل من شارل الخامس وهنرى الثامن تمكنت من إخضاع لوكسمبرج كما توغلت قواتهما فى فرنسا حتى هددت باريس. على أنه نظرًا لعدم اطمئنان شارل الخامس لحليفه هنرى الثامن، ولرغبته فى فض التحالف بين فرانسوا والعثمانيين. عرض على فرانسوا الأول الصلح وتم ذلك بمعاهدة كرسبى Crespy فى سبتمبر ١٥٤٤ وبمقتضاها تركت الفتوح التى حصل عليها الطرفان بعد هدنة "نيس" وتنازل شارل عن ادعاءاته فى نابولى وعن سيادته على الفلاندز وأرتوا، واتحد الطرفان فى الدفاع عن المسيحية ضد العثمانيين وإعادة السلم والوحدة للكنيسة ضد البروتسنانت.

على أنه فى مارس ١٥٤٧م توفى فرانسوا الأول وخلفه على العرش ابنه هنرى الثانى وبدأت الحروب الإيطالية تأخذ طابعًا آخر، ويرجع ذلك إلى ظهور الحركة اللوثرية، كما أن النزاع على إيطاليا كان من أهم أسباب استئنافها.[1]

هنــرى الثـانــى

وقع هنرى الثانى تحت تأثير أسرة جيز Guise الفرنسية. وكانت هذه الأسرة تثبت لبيت انجو Anjou صاحب الأملاك القديمة فى إيطاليا وفى بيت المقدس فكان لهذه الأسرة أطماع واسعة. أضف إلى هذا أن مارى لورين شقيقة دوق جيز والكاردينال شارل تزوجت من جيمس الخامس ملك اسكتلندة واستأثرت بكل سلطة فى اسكتلندا بعد وفاة زوجها لصغر سن ابنتها مارى استيورات. وكانت سياسة أسرة جيز استئناف الحرب مع الامبراطور صاحب النفوذ الواسع فى إيطاليا. واعتمدت على الروابط العائلية لتقوية المحالفة بين فرنسا واسكتلنده فى أثناء هذا النضال. وكان مما شجع هنرى الثانى على تجديد الحرب أن البابا بول الثالث كان على خلاف مع الامبراطور نشأت المسألة الدينية وذلك عندما طلب الامبراطور سرعة

---

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث طـ، ١٧٢.

النظر في مسألة الإصلاح الضروري للكنيسة الكاثوليكية واصدر النظام [أو العقيدة] المؤقتة Interim سنة ١٥٤٨ لإنهاء النزاع الديني في ألمانيا، وكان هذا النظام المؤقت يشتمل على بعض التساهل المحدود إرضاء للبروتسنت فغضب البابا الذى أراد قبل أي شئ آخر تعريف وتجديد العقيدة الكاثوليكية ذاتها. وزيادة على ذلك فقد ازعج البابا بول الثالث توطيد النفوذ الأسباني في لمبارديا. فقد ضمت أسبانيا بارما دبياكنذا Piacanza إلى دوقية ميلان وذلك بعد أن اغتيل حاكم بارما وبياكنزا الذي كان ابنا غير شرعي للبابا نفسه (١٥٤٧) فأخذ البابا يتفاوض مع ملك فرنسا لاستئناف القتال في إيطاليا.[1]

غير أن هنري الثاني في هذه الآونة كان مشغولا بالحرب مع انجلترا. وسبب هذه الحرب أن البلاط الاسكتلندي الكاثوليكي [والخاضع لنفوذ ماري لورين الفرنسية] امتنع عن تنفيذ خطوبة ماري استيورات إلى ادوارد السادس ملك انجلترا الدولة البروتستنية. فارسل الإنجليز جيشا هزم الاسكتلنديين في موقعة بينكي Piankie (١٠ سبتمبر ١٥٤٧) فاحتمت اسكتلندا في فرنسا، وعقدت ماري لورين خطوبة ابنتها إلى فرنسا، على الدوقان أو ولي العهد فرانسوا ابن الملك الفرنسي (أغسطس ١٥٤٨). فانذرت هذه الخطوبة باحتمال أن ينضم التاج الاسكتلندي إلى التاج الفرنسي، فقامت الحرب بين انجلترا وفرنسا واستمرت هذه الحرب حتى مارس ١٥٥٠. وخسر الإنجليز في هذه الحرب ثغربولوني في فرنسا الشمالية، في نظير حصولهم على مبلغ من المال من فرنسا، وكان لهذا الانتصار أثر كبير في تشجيع هنري الثاني بعد ذلك على القيام بعمل حاسم ضد الامبراطور شارل الخامس.[2]

ورأى هنري الثاني ألا يدع الأمور تسير في مصلحة غريمه - شارل الخامس - فعمل على إثارة الأمراء البروتسانت ليعاودوا السعي في مقاومة الامبراطور واتصل بهم في الخفاء وقدم لهم المعونات المالية رغم أنه كان متعصبًا للكاثوليكية، وعقد

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٠٤ - ١٠٥.

[2] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٠٥.

معهم معاهدة يقدم لهم بموجبها نفقّات الحرب في مقابل موافقتهم على أن تستولى فرنسا على تول ومتز وفردان وهي مدن على الحدود يتكلم معظم سكانها الفرنسية، وبذلك يمتد نفوذها إلى الألزاس واللورين.

وفي فبراير سنة ١٥٥٢ قام هنرى الثانى بالهجوم على الحدود الألمانية، فعبرت قواته نهر الميز واستولت على فردان وتول ومتز، واشتركت جيوش الأمراء الألمان المتحالفين معه في الحرب ضد الامبراطور. واضطر شارل الخامس إلى شن حملة مضادة لانتزاع متز – وهي اقوى حصن من حصون الحدود في اللورين – فحاصرها بقوات أتى بها من ألمانيا وأسبانيا، إلا أن هذه القوات باءت بالفشل، فاسقط في يده. ولم يستطع احتمال الكارثة. وتعب من طول الحروب التى خاضها، وبعد تفكير عميق، قرر أن يتنازل عن عرش الامبراطورية الرومانية التى تشمل ألمانيا والنمسا لأخيه فردناند. وعرش أسبانيا الذى كانت تتبعه الأراضى المنخفضة والممتلكات الأسبانية في العالم الجديد لابنه فيليب الذى سبق أن زوجه مارى تيودور ملكة انجلترا وهو زواج سياسي يضمن وقوف انجلترا في صف أسبانيا. ولقد تم التنازل الرسمي في أكتوبر ١٥٥٥. وقضى بقية حياته في أسبانيا حتى مات ١٥٥٨.[1]

وهكذا انقضت أحلام شارل الواسعة ولم يستطع تحقيقها إلا جزئيا وما لبثت أن تبددت أمام مقاومة فرنسا من جهة، وأمام انقسام ألمانيا إلى قسمين بسبب انتشار العقيدة اللوثرية من جهة أخرى. ولذا لم تستطع ألمانيا أن تقف صفا واحدا أمام الغرب في الساعة الحرجة، وأخيرا بسبب الوفاق الفرنسي العثماني، الذى اضطر الريخ الألماني إلى الحرب على جبهتين وكان انقسام هذه القوى الألمانية قاضيا على الأحلام.

إن انقسام امبراطورية شارل إلى قسمين نمساوي وأسباني لم يضعف، كما كان قد يظن، قوة آل هابسبورج، بل أنه زادها. ولهذا السبب نفسه كان شارل يؤمل

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٨١.

أن يرى نجاح ابنه في الحقل الذى اخفق فيه. ففي عدة مناسبات كانت جهود النمسا وأسبانيا تنضم إلى بعض. وكان توزيع التبعات يخفف عن كاهل الأمبراطور بعض الضغط ويجعل هذه التبعات سهلة على ورثته. إلا أن نقص الموارد المالية ظل فادحًا كما في السابق. وهذا ما أصطدم به فيليب الثاني كأبيه، ونجت منه فرنسا في أحرج ساعاتها في عهد فرانسوا الأول وهنرى الثاني.

أما هنرى الثاني على ما عرف عنه من جلد في أيام الشدائد وميوعه في الأوقات العادية، فقد تجمعت حوله المؤثرات والدسائس وانقاد لها فمن ذلك أن زوجته كاترين ميدتش كانت عدوة إلى كوزم ميدتش الذى يحكم فلورنسا، وكان يساورها القلق الإيطالي. وكانت خليلته ديانا بواتيه توحى إليه بكثير من الأمور وتملي عليه نصائحها الثمينة حينا والسيئة حينا آخر، وكذلك مونمورانس، يطل فكرة السلام التي لم يتخل عنها أبدًا، كان يحاول الحفاظ على ثقة الملك به بجميع الوسائل، ولم يكن آل جيز أقل طمعًا من مونمورانس، بل كانوا ينازعونه تسيير المصالح ويرغبون بالحرب بقدر ما يرغب منافسهم بالسلام، وكان البابا بولس الرابع نابولي القلب والأصل ولذا كان خصمًا لدودًا لأسبانيا. وكان أخ البابا كارلو كاردينالا طموحًا جشعًا لا يقل عن قيصر بورجيا. وأخير عما نوئيل فيليبز دوق سافوا كان رجل حرب، وقد عز عليه أن يرى بلاده محور نزاع بين الدول المجاورة فأراد أن يحافظ على سلامتها الصالحة.[1]

وكان جرانفيل مستشار شارل الذى يصغي إليه ويعمل بنصحه، يوجه سياسة فيليب الثاني في الأراضي المنخفضة. وكانت ماريا تيودور ملكة انجلترا وزوجة فيليب الثاني تساند تعصب زوجها للكاثوليكية ولذا لم يعملا شيئا من جهة فرنسا وفكرا أن تبقى بسلام. وقد عمل مونمورانس كل ما في وسعه لصيانة هدنة فوسيل.

غير أن البابا وابن أخيه فكرا بما يخالف ذلك، فقد وجدا بغيتها في فرانسوا دوق جيز، فلمحا له بنابولي، وفي هذه المرة نرى البابا بشخصه يشعل نار الحرب في

---

[1] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص٧٠.

إيطاليا. أما هنري الثاني فكان حائرا، ثم انقاد إلى حليفه الحبري. وبينما كان جيز مندفعا في طريقه إلى نابولي اجتاح الأسبانيون فرنسا من الشمال، وانتصروا على الفرنسيين في واقعة سان كانتان، وبدا طريق باريس مفتوحا أمامهم. غير أنهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من هذا النصر، لأن دوق جيز رجع في هذه الأثناء بعد أن أسر مونمورانسي، وغسل عار الاخفاق بحصار كاليه وفتحها عنوة ١ – ٦ ديسمبر ١٥٥٨[1].

معاهدة كاتوكمبرسيس ١٥٥٩

ولهذه المعاهدة أهمية كبيرة حيث تقرر فيها:

أولا: في الحدود الشمالية الشرقية الفرنسية

أعادت فرنسا مارينبرج Marienburg وتيونفيل Thionville ودامفلير Damvillers ومونتوميدي Montmedy واستبقى فيليب هزدن Hesden وهذا في نظير أن تحصل فرنسا على "سان كانتان، وهام Ham ولوكاتليس La Catelet وتيرونان Terounanne وفي الوقت نفسه أرجعت فرنسا إلى اسقف ليبج Liége بلدتي بوفين Béauvines وبويون Bouillon.[2]

ثانيا: في إيطاليا:

تنازلت فرنسا عن كل ادعاءاتها في شبه الجزيرة الإيطالية وسلمت بالنظام الذي أرسى قواعده من قبل شارل الخامس للحكم الأسباني في إيطاليا، فظلت أسبانيا محتفظة بكل ميلان في شمالي إيطاليا ونابولي في جنوبيها. وبذلك أخلت فرنسا الطريق أمام أسبانيا لإحكام سيطرتها الفعلية على شبه الجزيرة الإيطالية. كما وافقت فرنسا على التنازل عن سافوي وبيدمنت إلى القائد العسكري الذي كان يقود الجيش الأسباني واجتاح به شمالي فرنسا سنة ١٥٥٧، وأوقع بالفرنسيين هزيمة

---

(١) نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص٧١.

(٢) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٠٩.

ساحقة بالقرب من مدينة سان كانتا. هذا القائد هو دوق سافوى ويسمى عمانوئيل فيليبرت Emmauuel Philibert. وقد اهتمت المعاهدة بأمر تزويجه. إذ نصت على أن يتزوج هذا الدوق من أخت ملك فرنسا - واسمها مرجريت - ويكون الصداق الذى تقدمه العروس إلى زوجها هو تنازل فرنسا عن دوقية سافوى. وكانت تشمل إقليمى سافوى وبيدمنت. ويعتبر هذا الدوق هو المؤسس الحقيقى لدولة بيدمنت وهو الذى جلب لها الاستقلال. وكانت تسمى أيضًا مملكة سردينيا. وقد قامت هذه الدويلة إلى حد كبير وبمضى الأيام بدور الدولة الحاجزة بين فرنسا وشبه الجزيرة الإيطالية. وستقوم بدور حاسم وقيادى فى حركة النضال الوطنى لإتمام الوحدة السياسية لإيطاليا فى القرن التاسع عشر.[1]

وكان تنازل فرنسا عن سافوى وبيدمنت خسارة كبيرة ومثار منافسة بين الباحثين الذين وجدوا صعوبة فى تفسير أو تبرير هذا التنازل. لقد كانت سافوى وبيدمنت بمثابة بوابة كبيرة تتسلل منها فرنسا إلى شبه الجزيرة الإيطالية.

وكانت فرنسا قد استطاعت قبل إبرام المعاهدة وبفضل وجودها فى سافوى وبيدمنت أن تحتل عددًا من المدن الإيطالية فى شمالى غرب إيطاليا. وقد قيل فى تبرير هذا التنازل إن فرنسا كانت فى حاجة ماسة إلى السلم لتسترد أنفاسها من حروب مضنية استطال أمدها. كما قيل إن الانقسام الدينى فى فرنسا بين الكاثوليك والهيجونت - وهم بروتستنانت فرنسا - كان قد تفاقم خطره وبات يتطلب تركيزا من اهتمام هنرى الثانى لمواجهته. ومهما يكن من أمر فقد تقرر فى المعاهدة أن تحتفظ فرنسا بمدينتى تورين Turin وكاسال Casal وبعض أماكن لفترة زمنية كضمان لتنفيذ المعاهدة.

والواقع أن ما قررته المعاهدة بخصوص الوضع السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية كان نصرًا رائعًا لأسبانيا بقدر ما كان إخفاقًا مزريًا بالنسبة لفرنسا.[2]

---

[1] عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٣٣٧.

[2] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٣٣٧ ٣٣٨.

ثالثًا: احتفظت فرنسا لنفسها بالثلاث اسقفيات التى استولى عليها هنرى الثانى وهى متز وتول وفردان، على أن تظل من الناحية الأسمية تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة، وقد كان لهذا الكسب الفرنسى أثره فى المستقبل. عندما أقدمت فرنسا على احتلال إقليم اللورين كله بعد قرنين من إبرام تلك المعاهدة.[1]

رابعًا: قررت المعاهدة أن تحتفظ فرنسا بثغر كاليه ليضع سنين ثم يعاد فى وضع هذا الثغر.

خامسًا: لم تشأ فرنسا المطالبة بأى تعويض لحليفها ملك نافار، وتزوج فيليب الثانى من اليزابيث ابنة هنرى الثانى ملك فرنسا فى حين تزوج دوق سافوى من مرجريت أخت ملك فرنسا. ولكن فى أثناء احتفالات الزواج قتل هنرى الثانى حينما كان يقوم بأعمال الفروسية فى ١٠ يوليو ١٥٥٩م.[2]

وتعتبر معاهدة كاتوكمبرسيس فاتحة عهد جديد فى العلاقات الدولية فى أوروبا. فقد كانت خاتمة حروب طاحنة استمرت نيرانها مدى أربعين عامًا بين فرنسا وأسبانيا، إلا أن المؤرخين المعاصرين فى فرنسا اعتبروا هذا الصلح كارثة حلّت بفرنسا، وأن هنرى الثانى كان متساهًلا فى حقوق وطنه بمنح الملك الأسبانى فيليب شروطًا سخية فى الوقت الذى كان الأخير فيه قد تعب من الحرب، وكان محتمًلا أن يفشل عن مواصلتها، ولكنهم كانوا يقرون تكالب الملك الفرنسى على الصلح أنه كان شديد الرغبة فى أن يتفرغ لمكافحة الخارجين على الكاثوليكية فى فرنسا عندما انتشرت حركة الإصلا الدينى.

والواقع أن الحروب الإيطالية التى انتهت بمعاهدة كاتوكمبرسيس قد عاصرتها حروب دينية انتشرت بين كثير من الشعوب الأوروبية، وبقيت مستمرة هنا وهناك حتى عام ١٦٤٨، هو العام الذى انتهت فيه حروب الثلاثين عامًا بعقد معاهدة وستفاليا.[3]

---

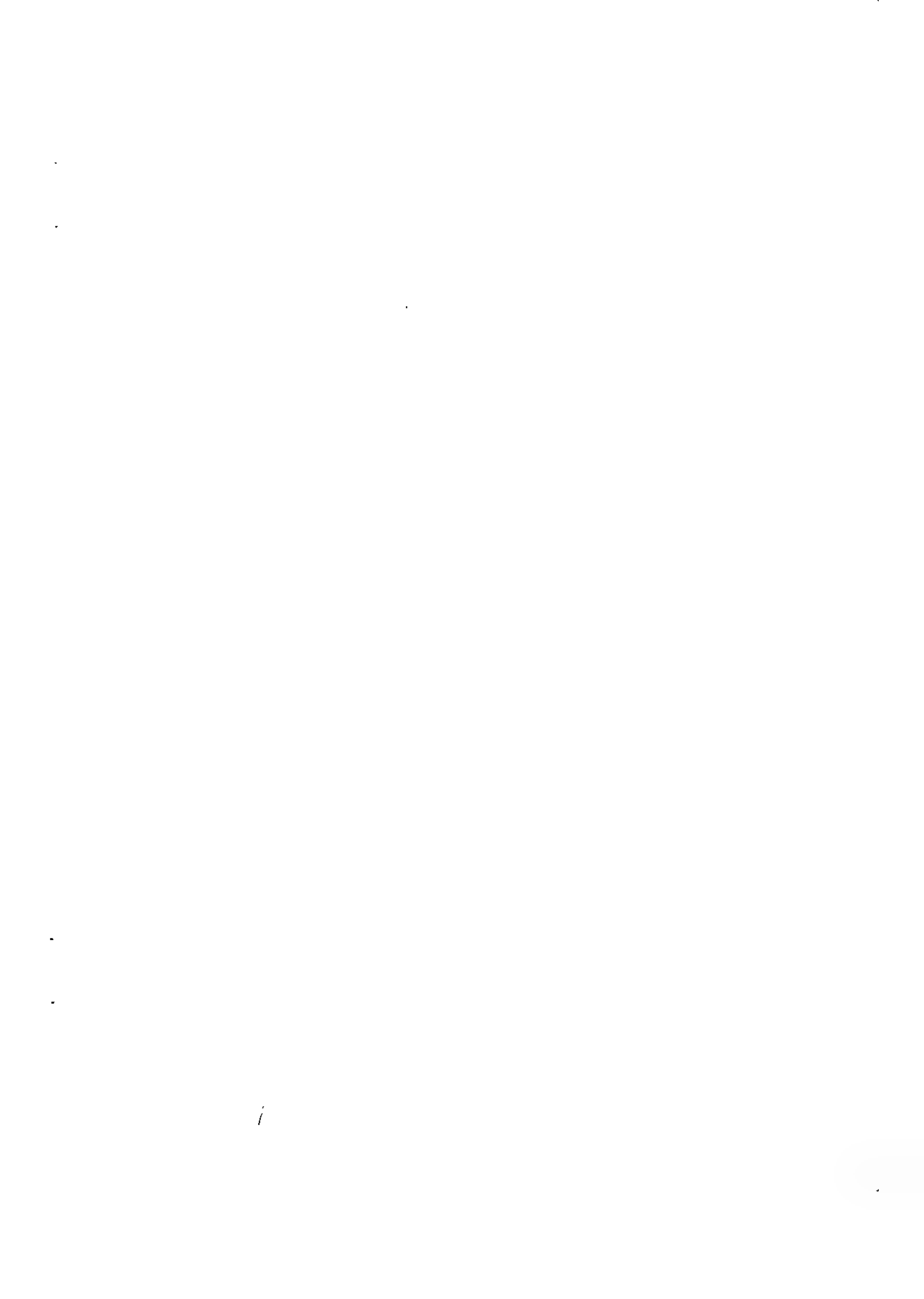
(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٨٣.

(٢) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، ص١٨٠.

(٣) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٨٣.

الفصل الخامس

حركة الإصلاح الدينى



من الآراء الشائعة أن حركة الإصلاح الديني حدثت في أوروبا مفاجأة وأن الكنيسة الكاثوليكية عند حدوثها كانت تعيش في هدوء واستقرار. ولكن الحقيقة في كلا الحالين خلاف ذلك. فالكنيسة الكاثوليكية كانت معرضة من أيام نشأتها الأولى إلى إخطار موعة يمكن تقسيمها إلى قسمين:-

أخطار القسم الأول هي التي تعرضت لها الكنيسة في عصورها الأول مثل الجدل الذي أثير حول طبيعة المسيح [فالأريوسية - أتباع أريوس Arius تقول أن المسيح محدث مخلوق ومشابه لله فقط، والأثنانيوسية - أتباع اثنانيوس Athnasins تقول أن المسيح لا يشبه الله فقط، بل إنه مماثل لله في جميع صفاته] ومثل انتشار الإسلام، ووقوع القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين الذين استمروا يهددون أوروبا زمنًا طويلًا، ومثل هجوم البرابرة الوثنيين من اسكندناوة. ولكن هذه الأخطار بدلا من أن تضعف الكنيسة كانت من عوامل تماسكها وقوتها حتى تتمكن من مقاومة هذا الضغط الموجه ضدها من الخارج.

وأما أخطار القسم الثاني فقد ظهرت بمجرد أن أخذ ضغط الأخطار الخارجية عن الكنيسة يخفف، ويمكن إيجاز هذه فيما يلي:-[1]

١- قيام حركة الألبجنس Albigensian movement نسبة إلى بلدة ألبي Albi في مقاطعة لا نجدوك بفرنسا - وكانت هذه حركة هدامة، لأن أصحابها نفوا وجود إله واحد وقالوا بوجود قوتين متنافستين إحداهما للخير والأخرى للشر، وانشأوا لهم نظامًا أكليروسيا خاصًا، وهددوا سلطة الكنيسة الكاثوليكية، حتى أمكن القضاء على هذه الحركة في بداية القرن الثالث عشر.

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١١٣.

٢- انتقال البابا كلمنت الخامس من روما إلى أفنيون فى بروفنس فى بداية القرن الرابع عشر (١٣٠٩) وخضوع البابوية لنفوذ فرنسا مدة الأسر البابلى Bablonic Captivity مدة سبعين عامًا، إلى أن رجعت البابوية إلى روما (١٣٧٧) فقدت الكنيسة كثيرًا من صفة الزعامة العالمية التى كانت لها.

٣- وعند رجوع البابوية إلى روما، حدث الانقسام العظيم Grand Schism (بسبب وجود بابا فى روما وآخر فى أفنيون) واستمرت الانقسامات مدة طويلة بين الكرادلة ورجال الدين حتى عام ١٤٤٧. فكانت البابوية عامل تفكك يعرض الكنيسة ذاتها إلى خطر الزوال، بدلا من أن تكون البابوية عامل قوة يضمن وحدة الكنيسة وبقائها. وكان من أهم آثار المساوئ التى نجمت من هذه الحوادث، خصوصًا حادثى الأسر البابلى والانقسام العظيم، أن سلطة البابوية نفسها صارت منذ هذا الوقت المبكر موضع نقاش من جانب فريق لا يستهان به من رجال الكنيسة أنفسهم.

٤- من الأخطار المادية التى ساعدت على تضعضع الكنيسة الكاثوليكية أثناء حوادث الأسر البابلى والانقسام العظيم انتشار وباء الطاعون المعروف باسم الموت الأسود Black Death الذى اجتاح أوروبا فى القرن الرابع عشر (١٣٤٨ - ١٣٥٠) فأهلك مئات الألوف من الأنفس، وفنيت مجتمعات بأسرها، وانقطعت الصلة بين المجتمعات المختلفة خوفًا من نشر العدوى عند الانتقال من مكان إلى آخر. فكان من أثر ذلك أن قضى فى بعض الجهات على طوائف من الأديرة بأكملها، وأن تفكك ذلك النظام الاجتماعى الذى قام على الإقطاع فى أوروبا، وقد حدث هذا التفكك نتيجة لتعزيز الشعور المحلى ثم الشعور القومى على أساس الانفصالات المحلية وأدى تعزيز الشعور المحلى بدوره إلى نمو وانتشار تعاليم دينية جديدة معارضة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية.

٥- وكان أصحاب هذه التعاليم الخطرة الجديدة هما (جون ويكلف John Wycliff ١٣٣٠ - ١٣٨٤) فى انجلترا [ويوحنا هوس John Huss (١٣٧٠ - ١٤٥٠) فى بوهيميا وخالفت تعاليمها تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. ورفضت بعض

العقائد الكاثوليكية، ونادت بوجوب الرجوع إلى الكتاب المقدس وحده والاحتكام إلى الضمير في جميع المسائل الدينية كما هاجمت هذه التعاليم ذلك السلطان الدنيوي الى استأثر به رجال الدين، وتلك الثروة الطائلة التى تمتعوا بها؛ وأخيرا رفضت هذه التعاليم سيطرة البابوية.

٦- وعندما حاول رجال الدين الكاثوليك معالجة هذه المسائل وإزالة المساوئ التى أضعفت نفوذ الكنيسة وهددت كيانها، عقدوا المجالس الدينية لإدخال الإصلاح اللازم للكنيسة من داخل الكنيسة وبواسطة الكنيسة ذاتها؛ ولكن محاولتهم لم تنجح. بل إن آخر هذه المجالس وهو المجلس الدينى الذى عقد فى بال Basle فى سنة ١٤٣١ أراد أن يضع القرارات التى تصدرها المجالس الدينية فوق قرارات البابا، وأراد أن يحد من سلطة البابوية فى النهاية عندما اعتلى كرسى البابوية تقولا الخامس في سنة ١٤٤٧م فدعم سلطانها. ولكن هذا الانتصار كان معناه من ناحية أخرى أولا: أن حركة المجالس الدينية قد فشلت فى إدخال الإصلاح المطلوب من داخل الكنيسة وبواسطة الكنيسة، وثانيا أن سيطرة الكنيسة الروحية تضعضت وبدأت الكنيسة الكاثوليكية تفقد من هذا الحين زعامتها الدينية، تلك الزعامة التى تمتعت بها أجيالا عديدة وهى تسيطر منفردة على العالم المسيحى فى كل أوروبا الغربية.

وعلى ذلك شعرت أوروبا، فى الأجيال الأخيرة من القرون الوسطى، باضطراب فكرى وقلق روحى عظيم، وكان وجود الكنيسة الكاثوليكية تحت سلطة البابوات بحالتها السيئة التى سبق وجنبها من عوامل هذا الاضطراب بدلا من أن تكون من أسباب تهدئة النفوس المضطربة. ذلك أن السيطرة التى تمتعت بها الكنيسة، من الوجهة النظرية على الأقل، كانت قد فقدت كما فقدت الكنيسة كل أساس أخلاقى (أدبى وروحى) تعتمد عليه ويبرر الغرض من وجودها. وفى هذه الحالة انصرف الناس من الكنيسة كى يبحثوا فى مكان آخر عن الهدوء الروحى والطمأنينة الفكرية التى ينشدونها، وتولد شعور ملح بالرغبة فى الإصلاح. حقيقة كانت هذه الرغبة مهمة ولكنها على كل حال كانت تريد إصلاحًا يعيد إلى الكنيسة

وإلى وحدة العالم المسيحى تلك القيم القديمة التى تمكن من عودة الهدوء والسكينة إلى النفوس القلقة والحائرة.[1]

كان من نتائج تلك العوامل مجتمعة أن فقدت الكنيسة المكانة العالية التى كانت قد تبوأتها، واهتز الأساس الروحى والأخلاقى الذى أقامت عليه نفوذها بل جبروتها فى العصور الوسطى، وبات المسيحيون فى دول غربى أوروبا يتحدثون عن ضرورة إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التى ظهرت بين رجالها وتطوير نظمها وتنظيم علاقاتها مع أرجاء العالم المسيحى.

كان هناك اتجاهات لإصلاح الكنيسة. الاتجاه الأول هو أن يقوم رجال الكنيسة أنفسهم بإصلاح الكنيسة من المفاسد التى لوثتها. يسمى هذا الاتجاه الإصلاح من الداخل. وكان قوام هذا الاتجاه عقد المجامع الكنيسة تباعًا وعلى فترات متقاربة. وكان على رأس المطالبين بإصلاح الكنيسة دون الخروج عليها و يوحنا روكلن [١٤٥٥ – ١٥٢٢] وارزمس Didie Erasmes [١٤٦٧ – ١٥٣٦]، أما الأول فقد أثار بكتاباته وانتقاداته تفكير المثقفين، وأصبح له أتباع وتلاميذ يبحثون فى مساوئ الكنيسة ومثالها، وينتقدون ما تفشى على يد الكنيسة من بدع وخرافات ونجحوا فى تهدئة الرأى العام بفكرة الإصلاح الدينى.[2]

أما ديزيديريوس ايرازموس Desiderius Erasmes فهو إنسانى، وهو الزعيم المعترف به لحركة الاستنارة فى أوروبا حتى أيام فولتير، وقد نادى بإصلاح عيوب الكنيسة، وأسهم فى إثارة الرأى العام ضد البابوية والكنيسة، وإن لم يستهدف هو أيضًا الانفصال عن الكنيسة أو الانشقاق عنها.

وتتمثل أهميته، من ناحية الإصلاح الدينى فى ترجمته إلى اللغة اللاتينية القسم اليونانى من الكتاب المقدس، أى الانجيل أو العهد الأعظم، وأرفق مع هذه الترجمة النص اليونانى القديم الأصلى، فكشف بهذه الترجمة الصحيحة ما فى

---

(1) محمد أحمد أنيس، عصور النهضة الأوروبية، ص١١٦.

(2) عبد الحميد البطريق عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٨٩.

الترجمة اللاتينية القديمة للكتاب المقدس، والتى راجعها القديس جيروم فى القرن الرابع، واعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية The Vulgate، من أخطاء فى بعض مواضعها. وبذلك لم تعد نسخة الانجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع شيئا مقدسا.[1]

وقد كان تأثير ذلك على الفكر المسيحى عظيمًا. فإذا كان فى وضع الرجل العلمانى أن ينفذ من وراء اللغة اللاتينية، وهى اللغة الرسمية للاكليروس، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس، وهما العبرية التى كتب بها العهد الجديد. أو الإنجيل. وإذا كانت نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية والمعتمدة من الكنيسة الكاثوليكية، وقد فقدت دراستها، فقد كان لابد أن تظهر فكرة الإنسان يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة القسس.

ومع فشل الكنيسة فى إصلاح نفسها بنفسها، وعدم استجابتها لرغبات المصلحين، انتقلت حركة الإصلاح الدينى إلى مرحلتها الثانية، وهى مرحلة فرض الإصلاح من الخارج. وهذه المرحلة لا تقتصر فقط على إصلاح الكنيسة بل وإصلاح العقيدة ذاتها، وكان على رأس هذه الحركة مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ – ١٥٤٦) وأولريك زونجلى ulitich Zingli ويوحنا كلفن John Calvin.[2]

حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا

مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ – ١٥٤٦)

نشأ فى ميدنة ايزليبين Eisleben فى سكسونيا فى أسرة قروية فقيرة وعاش عيشة بائسة، وكان أبواه يقسوان عليه. كما تأثر بشبح الخوف الذى كان متسلطًا على الأذهان إذ ذاك بسبب الفوضى الأخلاقية والدينية التى انتشرت عندئذ. تلقى دراسة القانون فى جامعة "إرفورت Erfurt" وحصل على الماجستير فى القانون من نفس الجامعة فى عام ١٥٠٥. ولكنه لم يلبث أن انصرف عن هذه الحياة العلمية،

---

[1] عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم المعاصر جـ١، ١١٤ – ١١٥.

[2] عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم المعاصر جـ١، ١١٤ – ١١٥.

ودخل فى سلك الرهبان المعروفين بجماعة سانت أوغسطين فى "ارفورت" وفى ذلك الدير أشبع رغبته فى التأمل والتفكير فى تخليص الروح. وبعد عامين التحق بجامعة فتنبرج Wittenberg ليتم دراسته الدينية. وكانت تلك الجامعة أحدث وأصغر جامعات ألمانيا. فقد انشأها منتخب سكسونيا عام ١٥٠٢م وفى ذلك دليل على حماسة ألمانيا للحركة العلمية. ولم تكن الجامعة لحداثة عهدها من الجامعات المشهورة. وقد استطاع لوثر بما جبل عليه من مثابرة وقوة أن يجعل لها مكانة عظيمة فيما بعد. أصبح فى عام ١٥١٢ أستاذًا للاهوت فى الجامعة. ونجح نجاحًا عظيمًا فى مهمته فى التدريس والوعظ.[1]

وقد كانت السنوات التى قضاها فى هذه الحياة الدينية، ملآى بدراسته المستفيضة لعلم اللاهوت وبأعمال التقشف وتعذيب النفس، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من حالة القلق التى كانت تساوره إلى أقصى الحدود، إلى أن توصل بعد اطلاعاته العديدة إلى أن "الإيمان" هو خير وسيلة لتخليص الروح و"أن التبرير يكون بالإيمان وحده "أى أن الإيمان المطلق برحمة الله وسيلة إلى الخلاص من عقابه. كانت هذه العقيدة أساسًا للثورة الدينية التى بشر بها، وكانت تضمن الغاء نظام الكنيسة الذى ساد أيام العصور الوسطى حيث كان الاعتماد كله يقوم على الاستمرار والتقاليد الدينية وأعمال البرالتى تقوم بها المنشآت الدينية. فكانت الكنيسة هى المتسلطة على أرواح الأفراد وحياتهم اليومية. وما من شئ كان يمكن من القضاء على تلك السلطة أكثر من عقيدة لوثر التى نادى بها. وقد رفضته عقيدته المشار إليها إلى مصاف أئمة المصلحين الدينيين، فهو قد وجه اهتمامه نحو مسألة الغفران وابتذال الكنيسة، فى جمع المال عن طريق بيع صكوك الغفران، إذ أصبحت مسألة الغفران تشترى بالمال بعد أن كانت ترتجى أو يتوصل إليها بالتوبة والاعتراف والصوم.

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، طـ١، ص١٠٠.

بلغت مسألة بيع صكوك الغفران مبلغًا مزريًا حقًا عندما أصبحت معركة فى سبيل الحصول على المال يقوم بها "جون تتزل John Tetze" الواعظ الدومينيكانى لحساب كبير أساقفة "ماينز Mainz" والبابا فى كل من Mainz و Magdburg" وكان البابا يشجع تلك العملية لأنه كان فى حاجة إلى المال لبناء كنيسة سان بطرس فى روما. دفعت تصرفات "تتزل" هذه لوثر إلى تعليق احتجاجه على هذه المسألة على باب كنيسة "فتنبرج Wittenburg فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧م.[١]

وعبثا حاول البابا أن يجعل لوثر يتراجع عن أرائه. وأخذت الحركة الدينية تنمو بسرعة عجيبة، ولا سيما ألا احتجاج لوثر قد لاقى هوى فى كثير من النفوس التى رحبت بمهاجمة تلك "التجارة المقدسة" فطرد "تتزل" Tetzel من وظيفته ولم يعد أى ميدان لبيع هذه الصكوك، وطلب البابا "ليو العاشر يومئذ" من رئيس جماعة سانت أغسطين أن يضطروا مارتن لوثر إلى التقهقر والتراجع عن أفكاره الثورية. وفعلا نوقش لوثر فى مجمع "هيدلبرج" Heidelberg فى مايو سنة ١٥١٨م ولكنه فم يتقهقر مطلقا عن مبادئه، بل استمر فى حركته العدائية للكنيسة فى روما التى رأت أن تقبض عليه ولكن رعاية منتخب سكسونيا له كان لها أثرها فى حمايته.[٢]

وقد توصل مارتن لوثر فى عام ١٥٢٠م إلى الاستنتاجات التالية:

أن كل مسيحى معمد قسيس وأن روما هى بابل وأن البابا هو المسيح الدجال، وأنه يجب السماح للقسيس بالزواج ون الطلاق أمر شرعى. ثم أتم لوثر خصومته مع روما حتى عزت على كل علاج برسائله الثلاث المشهورة – الأولى نداء بالألمانية وجهه إلى العلمانيين حثهم فيه على تولى إصلاح الكنيسة بأنفسهم بعنوان "إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحى؛ والثانية رسالة باللاتينية وجهها إلى رجال الفقه الدينى بعنوان" مقدمة عن الأسر البابلى الكنسى "De Captivitate Bably Ecclesiae Praeludium"

---

(١) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ط١ ص١٠١.

(٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ط١، ص١٠١.

والثالثة رسالة غريبة بعنوان "فيما يمس الحرية المسيحية" وجهها إلى ليو العاشر في الظاهر على أنها نداء للسلام eirenicon. وقال مخاطبًا البابا بصدد هذا كله" وذلك لأنك ترى ما يسمى بهيئة الكهنوت الرومانية التي لا تستطيع أنت ولا غيرك أن تنكر أنها أفسد من بابل وسدوم، ولقد أظهرت احتقاري حقًا وأنتابني الغضب لأن الشعب المسيحي يخدع تحت شعار أسمك وأسم الكنيسة المسيحية؛ لهذا قاومت، وسأظل أقاوم ما وجد فيَّ عرق ينبض بروح الإيمان" وقد يعذر أي إنسان إيطالي حين لا يرى في مثل هذا التصريح مظهر للمصالحة – فكان أن أصدر ليو قرار بحرمان الثائر في ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ بحرق القرار علنًا[1] فأعلن البابا حرمانه من رحمة الكنيسة. ولكن مع هذا الحرمان من رحمة الكنيسة تمكن لوثر من المضي في دعوته، وقد ساعدته بعض العوامل نذكر منها التأييد السياسي والديني الذي لاقاه مما كفل له الحماية. فقد انتشرت كتاباته كما انتشرت كتابات "الريك دي هاتن ulrich de Hutten" وغيرهما باللغتين اللاتينية والألمانية. والفضل يرجع إلى اختراع الطباعة في نشر تلك المؤلفات وإليها يرجع الفضل في دعوة "هاتن Hutten" الألمانيين إلى السلاح ضد روما في عام ١٥٢٠م. وقد وصل لوثر في تلك الآونة إلى منزلة لم يكن يحلم بالوصول إليها، فقد كانت تسعة أعشار ألمانيا كما ذكر أحد أتباع البابا "الياندر Aleindre" ينادون بحياته، بينما العشر الباقي الذي لم يكن يتبعه كان ينادي بسقوط روما.

أصبح لوثر بطلا شعبيا، لأنه كان يعبر عن شعور الألمان في الرغبة في معارضة روما البغيضة إلى نفوسهم.[2]

وعندئذ طلب البابا من الامبراطور شارل الخامس (١٥١٩ – ١٥٥٥) أن يقتص من لوثر وأن ينفذ قرار الحرمان الصادر ضده. فعقد الأمبراطور مجمعا في فورمز Diet of Worms في يناير ١٥٢١ لمناقشة لوثر في آرائه. وطلب إلى لوثر

---

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٠٢.

(٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص١٠٢.

أن يسحب ما كان قد كتبه، ولكنه أجاب بأنه لن يسحب شيئا ما لم يكن متعارضا مع نصوص الكتاب المقدس أو المنطق الواضح فصدر قرار فورمز Edict of Worms بطرد لوثر خارج القانون وإهدار دمه.

وكان بسبب قرار فورمس أن اضطر لوثر إلى الالتجاء إلى قلعة وارتبرج Wartburg تحت حماية فردريك الثالث ناخب سكسونيا ومؤسس جامعة وتنبرج. وقد أقام في هذا المخبأ لمدة عام تقريبا، ترجم خلاله الانجيل إلى اللغة الألمانية. وكان لهذه الترجمة أثر كبير في إحياء الأدب الألماني، كما أنها جعلت إطلاع عامة الناس على كتابهم المقدس أمر سهلا ميسورا.

وفي أثناء اختفاء لوثر في قلعة وارتبرج، انتشرت حركة الإصلاح الديني في ألمانيا عندما صار يروج لهذا الإصلاح أتباعه وتلاميذه، ثم حدث أن أخذ بعض المتحمسين يتطرفون في دعوتهم، مما أدى إلى وقوع الاضطرابات والثورات وجعل حركة الإصلاح تقترن بالعنف والثورة في كل مكان تقريبا.[1]

وكان منشأ هذا التطرف أن ألمانيا وقتئذ كانت تمر بأزمة اجتماعية واقتصادية وروحية نجمت عن انهيار العصور الوسطى بجميع ما كانت تنطوي عليه تلك العصور من مبادئ اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية في القرن الخامس عشر وأواخر هذا القرن خصوصا. وحينما بدأت الحركة اللوثرية كحركة احتجاج علنية ضد مساوئ ومفاسد الكنيسة في سنة ١٥١٧ كانت الأعصاب في حالة توتر شديد في ألمانيا كلها. فالطبقة المتوسطة وهي التي سلبت منها ثروتها منذ أن بدأت السلسلة الفقرية الاقتصادية تنتقل تدريجيا إلى أوروبا الغربية، كانت تواجه مشكلة خطيرة، هي مشكلة التفوق بين فقرها الناجم من انتقال مراكز الثروة إلى الغرب وبين أملها في استعادة المركز الاجتماعي المحترم الذي كان لها في العصور الوسطى عندما كانت ألمانيا وأوربا الوسطى لا تزال غنية عموما ولذلك تغلب على هذه الطبقة التذمر والغضب من الأوضاع الجديدة وزيادة على ذلك فإن الفقر الذي أصاب الطبقة

---

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٤٥٦.

المتوسطة لم يلبث أن أدرك أيضًا طبقة الفرسان Knights فى ألمانيا (صغار النبلاء) التى تتألف من المقاتلين والمحاربين فى العصور الوسطى. وعندما انحلت أو تفككت ألمانيا فى بداية العصور الحديثة إلى إمارات محلية تحت سيطرة الأمراء فقد الفرسان أهميتهم القديمة، ونزلت مرتبتهم إلى مجرد مقاتلين يعتمدون فى عيشتهم على النهب والسلب، والنهب، فامتلأت نفوس الفرسان لذلك بالضجر والتذمر أيضًا. أضف إلى هذا أن الأمراء لم يكن فى استطاعتهم الاطمئنان على سلامة إماراتهم، كما كثرت مطالبهم المالية لسد نفقات الإدارة وغيرها فى هذه الإمارات المتعددة، ثم اشتد تذمرهم عندما وجدوا أغلب موارد الأرض فى إماراتهم، وقد صارت فى يد الكنيسة الكاثوليكية، وهى كنيسة أجنبية عنهم وتعين للوظائف الكبرى من روما مباشرة، أو تملأ هذه الوظائف بالرجال الذين يرسلون إليها عبر جبال الألب من ألمانيا الأموال الطائلة لانفاقها على شئونها (أى الكنيسة) المحلية فى روما. وأما طبقة الفلاحين فى ألمانيا بهذه أيضًا كان لا يقل تذمرها عن تذمر بقية الطبقات، وخصوصًا عندما وقع على طبقة الفلاحين هذه عبء المطالب المالية بأجمعها لسد حاجات الأمراء والفرسان والطبقة المتوسطة عمومًا.[1]

ومع أن جميع هذه الطبقات كانت تنظر إلى وجود الامبراطورية والكنيسة على أنه دعامة النظام الذى ترتجون منه الخير والمنفعة المادية والروحية فقد تعذر على هذه الطبقات أن تعقد آمالها على هذا النظام منذ أن تضعضعت الامبراطورية والكنيسة فى القرن الخامس عشر. وعلى ذلك فقد كانت الأفكار فى ألمانيا فى حالة اضطراب شديد عندما ظهر مارتن لوثر بدعوته الاصلاحية، وتوقعت هذه الطبقات المختلفة أن تجد فى الدعوة اللوثرية السبيل الصحيح لتحقيق الأغراض التى تريدها. وهكذا فإنه عندما انثلم تصدع الكنيسة الكاثوليكية على يد مارتن لوثر كان من المتوقع أن يشتط المؤيدين لحركته الاصلاحية فى الخروج على الأنظمة

(1) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٢٤.

الموجودة، واختلطت مطالب الطبقات المختلفة الاقتصادية بدعوة الإصلاح الدينية المجردة، فنشأ من ذلك جميعه أمران:

أولا: حدوث الاضطرابات الواسعة في ألمانيا في هذه الفترة، أثناء لوثر في عزلته في وارتبيرج.

ثانيًا: خروج لوثر من عزلته حتى يدعو إلى ضرورة القضاء على هذه الاضطرابات والثورات، ويطلب تحرير الدعوة إلى الإصلاح الديني من الأغراض الأخرى التي كانت في نظره تلصق بالإصلاح الديني المجرد شوائب كثيرة يجب أن يكون هذا الإصلاح بعيدًا عنها.[1]

وأما هذه الحركات الثورية المتطرفة فأهمها ثلاث: المطالبون بإعادة التعميد، وحركة الفرسان، وثورة الفلاحين.

المطالبون بإعادة التعميد Les Ansbsptistes

طالبت هذه الطائفة بعدم الاكتفاء بتعميد الأطفال. والتعميد Le Baptéme هو تغطيس الطفل في الماء ثلاث مرات على اسم الثالوث المقدس وهو الأب والابن والروح القدس. وقالت هذه الطائفة إن تعميد الأطفال وهم في سن مبكرة لا يتمشى مع تعاليم الانجيل. وطالبت في سنة ١٥٢٥ باعادة تعميدهم مرة أخرى حين يبلغون الحلم. وكانت حجة أفراد هذه الطائفة في اعادة التعميد أن أركان الحياة الدينية الصحيحة لا تتوفر إلا في التعميد المتأخر. وقد اطلق على رجال هذه الطائفة Les Ansbatistes أي المطالبون بإعادة التعميد أو "المعمودية") ونادوا بأراء أخرى غير إعادة التعميد وإن ظلت التسمية الأولى عالقة بهم. ومن هذه الآراء لا يجوز لمسيحي أن يشهر السلاح في وجه مسيحي، لا يجوز لمسيحي أن يقاضي أخاه المسيحي، بل يجب أن تسوى المشكلات بينها بالتراضي، تحريم أداء اليمين، وقد بدأت هذه الحركة أول الأمر في جنوبي ألمانيا ثم اتخذت أصحاب هذه الحركة مدينة مونستر Monster مركزًا لنشاطهم، وانضم إليهم آلاف

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٢٥.

الفقراء والسذج والبائسين، وامتدت الحركة إلى أنحاء شتى من أملاك الامبراطورية. وتطرف بعض زعماء الحركة، فنادى أحدهم بالشيوعية، وتعدد الزوجات، وجعل من نفسه قدوة لأنصار الحركة، فكانت له ست عشرة زوجة. ولذلك يطلق عليهم بعض المؤرخين شتى الأسماء: منها الفوضويون Les ansrchistes بلاشفة عصرهم Les Bolchevistes وكانوا لا يمثلون أي نظام ثابت محدد للعقيدة الدينية والعبادة، وقد تطرفوا في حركتهم ولجأوا إلى أعمال العنف، ووقعت اضطرابات دامية عرضت الحركة اللوثرية وأنصارها للخطر. وقد تعاونت السلطات المدنية وعلى رأسها الأمراء البروتسنانت مع الهيئات الدينية في سحق هذه الحركة وضرب القائمين بها دون شفقة ففي بافاريا على سبيل المثال - وضعت السلطات الحاكمة نظامًا موحدًا لمعاملتهم. فكل من انتمى يومًا ما إلى هذه الطائفة ثم نبذ آراءها وتخلى عنها كان يكتفي بضرب عنقه. أما من يظل على ولائه للطائفة متمسكًا بآرائها فإنه يحرق حيا. وسحقت الحركة في إقليم التيرول وفي سويسرا وهولندا وغيرها، أما في مدينة مونستر - معقل القائمين بهذه الحركة - فقد تخلصت منهم في يونيو ١٥٣٥م. ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين إلى القول بأن المطالبين بإعادة التعميد كانوا بمثابة اليسار بين المتطرفين في الحركة اللوثرية.[1]

٢- حرب الفرسان Les Guerre des Chevaliers.

كان الفرسان يكونون طبقة تختلف كل الاختلاف عن بقية أفراد الشعب، فقد كان الفارس يمتلك اقطاعية صغيرة من الأرض يتوسط قصره المشيد على هيئة معقل أو قلعة، ولا يعترفون بالسيادة ألا للامبراطور نفسه، ولم يكن لأحدهم مقعد في الديت الألماني، ومن هنا كان عليهم أن يعتمدوا على قوتهم وتضامنهم لكي يحتفظوا بمراكزهم ضد أمراء الولايات من جهة، وضد الامبراطورية من جهة أخرى. ولكنهم في نهاية العصور الوسطى كانوا قد فقدوا ما كان لهم من هيبة وسلطان بعد انحلال العهد الاقطاعي، وقد دفعهم سوء حالهم إلى التعويض عما وصلوا إليه بمحاولة إظهار القوة والبطش، فكان بعضهم يهاجم أراضي الفلاحين لنهب

---

[1] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٣٩٠ - ٣٩١.

محصولاتها، أو يبتز الأموال من التجار، فلما ظهرت الحركة اللوثرية، رأوا انتهازها كفرصة لاسترداد نفوذهم وثرائهم عن طريق ما نادى به لوثر من تحرير الكنيسة من أملاكها.[1]

لذلك قاموا بثورة عارمة مستغلين الإصلاح الديني فهاجموا الكنائس والأديرة ودمروا ما كان بها من تماثيل ونفائس وطردوا الرهبان والأديرة وكان أبرز الفرسان الثائرين أولرخ فون هتن ulrich Von Hutten الذى تزعم حركة التأييد القومي لمارتن لوثر ضد البابا، باعتبار البابا غريبا عن الوطن يبتز الأموال من ألماني بدون وجه حق. وفي الوقت نفسه اتخذ الفرسان تلك الثورة وسيلة أخرى للتخلص من سلطان اعدائهم من الأمراء.

وقد ساعد هتن في حركته فارس شهور آخر اسمه فراترفون سكنجن Sickingen وهو الذى بدأ بحرب الفرسان عندما نشب الخلاف بينه وبين أحد رؤساء الأساقفه، وكان من الطبيعي أن يهب الأمراء لمساعدة الأسقف، ولذلك لم يقوم سكنجن على الصمود أمام أسلحة الأمراء الحديثة وهزم ثم قتل تحت انقاض قلعته، واضطر الفارس الآخر هتن إلى الفرار إلى سويسرا حيث توفي بعد فترة وجيزة(١٥٢٣).[2]

وفشلت حركة الفرسان بعد أن تمكن الأمراء من دك حصونهم فخسروا الحرب وحرموا من امتيازاتهم السياسية التي تبقت لهم، واستبعدوا منذ هزيمتهم كعامل هام في الحياة الألمانية.

وقد تأثرت الحركة اللوثرية بهذه الأحداث، وعلى الرغم من أن لوثر نفسه لم يكن موافقًا على استعمال القوة لتأييد حركة الإصلاح الديني، وعلى الرغم من تصريحاته المتكررة بمعارضة الثورة المسلحة، إلا أنه اعتبر في نظر البابا وفي نظر السلطة الألمانية مسئولا عما جرى كله، كذلك أصبح الأمراء الألمان من أعداء الثورة، وكان ذلك إيذانًا بحدوث انقسام بين طبقات الشعب الألماني.[3]

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٩٨.

[2] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص٩٨.

[3] نفس، ص٩٩.

٣- ثورة الفلاحين ١٥٢٤: Peasans War

قامت هذه الثورة فى التيرول واستريا وفرانكونيا وسوابيا وهى عبارة عن سلسلة من الثورات الأخيرة بالذات تميزت بأنها أشد عنفًا وأكبر خطرًا.

وكان الفلاحون قد استمالتهم دعوة لوثر إلى الحرية الإنسانية والإخاء الجرمانى، فاعتنقوا هذه الآراء وأعجبتهم مهاجمة لوثر لرجال الكنيسة الذين كانوا يشكون منهم مر الشكوى، بسبب إسرافهم فى فرض الضرائب والرسوم تحت مختلف الأسماء والفئات. ويلاحظ أن لوثر كان يفاخر بأنه ينحدر من أبوين اشتغلا بالفلاحة، وكان يدرك المظالم التى تنهال عليهم.

وعلى ذلك فعلى الرغم من أن بعض المؤرخين يرون أن الفلاحين الألمان لم يكونوا فى وضع اقتصادى واجتماعى أسوأ من وضع غيرهم من الفلاحين فى دول غرب أوروبا، حيث كانوا قد بدءوا فى تحرير أنفسهم من حالة القنية، وكان الرخاء الماى قد بدا فى طريقه إليهم، فإن دعوة لوثر أحدثت فيهم من الأثر مما أحدثته الأفكار الحرة التى أشعلت الثورة الفرنسية فى استثارة الفلاحين إلى الثورة.

وقد بدأت ثورة الفلاحين فى دوقية بادن متخذة طابع الاحتجاج على الإسراف فى فرض نظام السخرة، ثم انتشرت فى الجنوب الغربى من ألمانيا، وفى الحوص الأعلى لنهر الراين، وحوض الدانوب الأعلى، ثم امتدت شرقًا فى إقليم التيرول وسالزبورج وكارينتيا Carinthia فى النمسا، ثم اتجهت صوب الشمال فى أراضى سكسونيا مسقط رأس لوثر.

وقد وضع الفلاحون بيانا بمطالبهم فى مارس ١٥٢٥، طالبوا فيه بالغاء رق الأرض، وتحديد القيمة الإيجارية للأراضى تحديدا عادلا، وقصر ضريبة العشور على الحبوب فقط، وتحديد الخدمات الاقطاعية التى يؤديها الفلاحون للأمراء الإقطاعيين، وتقرير حق صيد الأسماك فى الأنهار والقنوات التى يعملون فى فلاحتها. وحق صيد الحيوانات فى الغابات، ومنح كل جماعة الحق فى اختيار وتعيين القسس فى الكنائس والأساقفة فى الأبرشيات. وقد طالب الفلاحون بأن تنظر مطالبهم فى

ضوء الكتاب المقدس مطالبين بإبراز الدليل من الإنجيل على أنهم أرقاء، وقالوا: "لن نكون بعد اليوم عبيدا، لأن المسيح جعلنا أحرارًا".

ولم تلبث هذه الحركة أن اتخذت طابعًا شيوعيًا على يدتوماس مونزر Monzer، حاكم "تزميكاو" وزعيم الأنابابتيين والذى نصب نفسه زعيما للفلاحين منذ أقام فى إحدى مدن ألمانيا، وهى مدينة مولها وسن Mulhausen مجتمعا شيوعيا يقوم على الغاء الملكية الفردية، والمساواة المطلقة بين الأفراد وشيوعية الملك، ودعا إلى إقامة مجتمع مسيحى جديد يقوم على أساس المساواة المطلقة وشيوعية الملكية، وهو ما يقتضى التخلص من الأمراء ورجال الدين على بكرة أبيهم[1].

ولقد أدت هذه الاضطرابات والحركات الثورية إلى خروج لوثر من مخبأة، حيث راح يدعو إلى ضرورة القضاء على هذه الاضطرابات والثورات، ويطلب تحرير الدعوة إلى الإصلاح الدينى من الأغراض التى كانت فى نظره تلصق بالإصلاح الدينى المجرد شوائب كثيرة يجب أن يكون هذا الإصلاح بعيدًا عنها.

وفيما يتعلق بالذين يريدون إعادة التعميد، فقد خطب فيهم لوثر ودعاهم إلى التزام الهدوء والحكمة. وامتنع عن تأئيد حركة الفرسان بسبب الشدة والعنف الذى أتصفت به حركتهم. كما أن الأمراء (كبار النبلاء) سرعان ما اتحدوا فيما بينهم كى يدفعوا عنهم خطر حركة الفرسان بالقوة المسلحة. ثم أن حركة الفرسان هذه لم تجد أى عطف من جانب الفلاحين الذين كرهوا الفرسان بسبب ما أنزله هؤلاء بهم من إرهاق شديد.

وأما ثورة الفلاحين، فقد قاومها لوثر بكل شدة، لأن المطالب التى أرادوا تحقيقها، وهى مطالب مادية واقتصادية واجتماعية، والمبادئ التى نادوا بها، كانت فى نظر لوثر مطالب ومبادئ لاتمت بصلة لحركته الإصلاحية الدينية، ومن شأنها أن

---

(1) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، جـ١، ص١٢٦ - ١٢٧.

تعرض هذه الحركة الإصلاحية إلى أكبر الأخطار. فوصف لوثر بأنهم "الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء" وكانت هذه الثورة لذلك من أهم الأسباب التى جعلته يخرج من مخبأه، وأخذ لوثر يخطب فى الناس ويطلب من الأمراء أن يعملوا القضاء على هذه الثورة. وسرعان ما اجتمعت قوة كبار النبلاء وصغارهم (الفرسان) ضد ثورة الفلاحين. واخفقت هذه الثورة تماما عندما انهزم الثوار فى مايو ١٥٢٥ وأعدم زعيمهم توماس مونزر مع غيره من كبار قادة الثورة.

وبالقضاء على هذه الحركات الثورية – وخصوصا الفلاحين تخلص لوثر من أكبر الأخطار التى هددت مذهبه الجديد فى بداية انتشاره.[١]

على كل حال، فلم يلبث لوثر بعد القضاء على ثورة الفلاحين أن أخذ يتفرغ لبناء صرح كنيسته الجديدة ومذهبه الجديد، فأعلن إلغاء الديرية والرهبنه وتزوج من الراهبة كاترين فون بورا Von Bora فى سنة ١٥٢٥، وراح يشرع فى وضع أسس العقيدة.

وعندئذ طلب الأمراء الكاثوليك من الامبراطور شارل الخامس التدخل فى الأمر. على أنه من سوء حظ الكنيسة الكاثوليكية عموما أن الامبراطور لم يكن متفرغًا لهذه المشكلة، ذلك أن اللوثرية انتشرت فى ألمانيا فى وقت هدد فيه الأتراك العثمانيين أملاك الامبراطورية فى النمسا والمجر، وفى الوقت نفسه لم تكن علاقات شارل الخامس بالبابا علاقات تحالف ثابتة فى أثناء نضاله مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، فكان البابا ينحاز إلى الامبراطور تارة وإلى فرانسوا الأول تارة أخرى. وقد أثرت هذه الأسباب على معالجة شارل الخامس للحركة اللوثرية.[٢]

موقف الامبراطور من الحركة اللوثرية:

إذا كان لوثر قد فقد تأييد بعض فقراء ألمانيا بسبب موقفه المعادى لثورة الفلاحين فهو قد كسب تأييد من هم أقوى، ونعنى بهم الأمراء ومنهم من اعتنق

---

(١) السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص٤٦٢ – ٤٦٣.

(٢) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، جـ ؛ ص١٢٩.

مذهبه في صراحة مثل "جان الثابت Jean Le Constant منتخب سكسونيا وأخو فردريك الذى لم يعتنق المذهب الجديد، واكتفى بحماية لوثر وإيوائه، كذلك فيليب Philippe أمير مقاطعة "هس كاسل Hesse - Cassel" ثم دوق "مكلنبرج Meck Lenburg" ودون "بوميرانيا Pomérania وكثير من المدن الألمانية.

ولكن أهم من هذا كله في تلك الفترة كان اعتناق البرت صاحب براندنبرج Albert of Brandenburg" وكان رئيسا لطائفة الفرسان التيولوتيين Knights of Teutnic order اللوثرية، وتحويله بروسيا الشرقية من مقاطعة كنسية إلى مقاطعة زمنية وراثية تحت سيطرة بولندا، كما عقد معاهدة صداقة مع منتخب سكسونيا.[1]

ومن المعروف أنه قد تم عقد اجتماع ورمز سنة ١٥٢١م. واتخذت عدة قرارات منها حرمان لوثر من حقوقه المدنية والدينية، وكذلك حرق مؤلفاته، لم يحرك الامبراطور بعد ذلك ساكنا ليقضي على اللوثرية إلا في عام ١٥٢٦ عندما دعا للاجتماع في سباير Speier على أن هذا الاجتماع دعي لبحث المسألة الدينية وتنفيذ القرار الصادر بحق مارتن لوثر بطرده خارج القانون (ومعنى ذلك إهدار دمه).

واجتمع مجلس سبيير حيث أصدر قرارا في غير مصلحة الكنيسة الكاثوليكية. نص على أن لكل أمير الحق في أن يسلك السبيل الذى يراه صالحا في موضوع قرار ورمز وهو في ذلك أنه أصبح لكل أمير الحق في اختيار المذهب الديني الذى يروق له في ولايته. وأصبح لأتباع مذهب لوثر مركز شرعي معترف به سرعان مااستغلوه. واستولى الأمراء الذين اختاروا المذهب اللوثرى في مقاطعاتهم على أملاك الكنيسة في بلادهم وطردوا رجال الدين الموالين للبابا والذى رفضوا قبول المذهب الجديد".[2]

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ ١ ص١٠٦.

[2] عبد الحميد البطريق عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٠٢

وقد ساعد الموقف السياسى فى ألمانيا على إصدار هذا القرار، فقد كان البابا كلمنت السابع على رأس حلف كونتن عام ١٥٢٦، الذى تكون لطرد قوات الامبراطور من إيطاليا، أضف إلى ذلك أن الأمبراطور كان فى أشد الحاجة إلى المال بجمعه من رعاياه في كل مكان، ويريد كسب الوقت بأى ثمن ليتفرغ للمعركة الدائرة مع الأتراك العثمانيين الذين كانت قواتهم تجتاح المجر.

ثم تغير الموقف السياسى عندما هاجمت قوات الأمبراطور روما ونهبتها وأسرت البابا الذى لم يربدًا من مهادنة الامبراطور وقبول الصلح الذى تعهد فيه الامبراطور بالعمل على قمع الحركة اللوثرية.[1]

تفاقم الموقف فى ألمانيا بالنسبة للكاثوليك، لأن الزمن كان حليفًا قويًا لأتباع لوثر. ورأى الامبراطور شارل الخامس ان يخطو خطوة أخرى لحل المشكلة الدينية التى باتت تهدد البلاد الألمانية بانقسام دينى مذهبى خطير، فوجه الدعو لعقد المجلس الامبراطورى مرة أخرى فى مدينة سبيير فى مارس ١٥٢٩ وهو الذى يطلق عليه دايت سبيير الثانى، Deuxiéme Diéte de Spire وشرح الامبراطور موقفه من المسألة الدينية، فأعلن إصراره على تأييد الفكرة القائلة بعقد جمعية وطنية لدراسة هذه المسألة ابتغاء تجنب البلاد التعرض لأخطار الانقسام الدينى المذهبى، وابدى رغبته فى ألا تطرأ تعديلات جديدة على الموقف حتى تنعقد هذه الجمعية المرتجاة وألا يسمح لأحد باستخدام القوة أو العنف لحمل الغير على اعتناق عقيدة غريبة أو خاطئة أو لتغيير النظم والتقاليد التى عليها المسيحيون عبر القرون المتعاقبة.[2]

ولكن وضح تخبط المجالس الامبراطورية في سياستها وقرارتها. فقد تراجع دايت سبيير الثانى عن القرارات التى سبق أن اتخذت فى مجمع سبيير الأول. وسحب من حكام المقاطعات الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده كل

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث. ص١٠٢.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة. ص٤٠١.

منهم فى مقاطعته، وجعل قرار ورمز الصادر فى سنة ١٥٢١ بإعدام لوثر والقضاء على الحركة اللوثرية نافذة المفعول، مع أن هذا القرار اعتبر لاغيًا فى ضوء قرارات مجمع سبيير الأول. واتخذت قرارات أخرى كان من بينها السماح للكنائس اللوثرية التى أقيمت فى المقاطعات الألمانية بالبقاء وأداء رسالتها، وعدم السماح بمصادرة أموال الكنيسة سواء الأموال الثابتة أو المنقولة. وتقرر أن يسمح بإقامة القداس فى المقاطعات اللوثرية وفق النظام الكاثوليكى. ويلاحظ أن هذه القرارات قد صدرت بأغلبية الآراء. بينما صدرت قرارات مجمع سبيير الأول بإجماع الآراء.[١]

وقد احتج معظم الحاضرين من اللوثرين وأعلنوا احتجاجهم، ومن هنا سمى أتباع مارتن لوثر "بالمحتجين" أى البروتسنانت، تلك التسمية التى لم تلبث أن شملت سائر المذاهب المسيحية غير الكاثوليكية.[٢]

وبعد ذلك تقرر عقد مجلس أوجزبرج ١٥٣٠ الذى تميز بتوجيه الدعوة إلى الأمراء البروتسنت للاجتماع مع أندادهم من الأمراء الكاثوليك فى محاولة لفض النزاع والوصول إلى تفاهم يرضى الفريقين. كان ذلك فى عام ١٥٣٠م. وهو العام الذى عقد فيه صلح كامبرى Cambari والذى أراحه مؤقتًا من حروبه ضد ملك فرنسا. لذلك استطاع الحضور بنفسه إلى ألمانيا ورأس المجلس فى أوجزبرج، وكان موقف الامبراطور فى هذا المجلس موقف الحيرة والتردد، فقد تمسك كل فريق بأرائه. وكان موقف الأمراء ورجال الدين الكاثوليك متعصبًا وأخذوا يهيبون بالأمبراطور أن يضرب بيد من حديد على أيدى البروتسنت. إلا أن الامبراطور لم يكن فى وسعه أن يستجيب لهذا الرأى. وإلا أن يتعرض لاستقلال الولايات الألمانية. إلا أنه كان متأثرًا على أى حال بمن حوله من رجال الدين الكاثوليك وظهر فى موقف المعارض للبروتسنت.

---

[١] نفسه، ص٤٠١ - ٤٠٢.

[٢] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص١٠٧.

ولقد طلب إلى ممثلى البروتسنت أن يتقدموا للامبراطور بأرائهم ومشاكلهم كتابة. فقام بهذه المهمة أحد زعماء البروتستنتية. وهو فيليب ميلانكتون Melanchton ساعد مارتن لوثر الأيمن. وقد وضع ميلانكتين مبادئ العقيدة اللوثرية فى صيغة معتدلة غاية الاعتدال، وقد سميت باعتراف أوجستانا Confessio Augustana أو الاعتراف العظيم. وقد بذل الامبراطور ما فى وسعه لمحاولة التقريب بين الطرفين، ولكن ظهر أن الشقاق بينها أعمق مما كان يتصور. فقد وضع كبار الزعماء الكاثوليك وثيقة مضادة فنهدا فيها آراء البروتستنت. وأعلن الامبراطور موافقة على ما جاء فيها.[1]

وفى أواخر سبتمبر ١٥٣٠ انفض المجلس بعد أن أعطى الامبراطور مهلة قصيرة للبروتسنت ليفكروا فى الأمر ويقلعوا عن آرائهم حقنا للدماء. وكان قد يئس من إستعطاقهم أو إيقاع الشقاق بينهم ولم يبق أمامه إلا أن يسلك سبيل الشدة. ولذلك صدر قرارا بتخطئة معظم عقائد اللوثرية ودعوة الناس إلى التنحى عن المذهب المبتدع وإلا عوقب أنصاره أشد العقاب.[2]

أدركت المقاطعات البروتسانتية الأخطار المحدقة بها سبب تهديدات الامبراطور وقراراته التى دلت على تحيزه الصارخ للكاثوليكية، فرأت توحيد صفوفها وتكوين حلف يضمها جميعا فى وحدة عسكرية لمواجهة الأخطار وقد أمسك فيليب حاكم مقاطعة هس – ولقبه لاند جريف – زمام المبادرة ودخل فى مفاوضات مع المقاطعات الألمانية البروتستانتية. وفى فبراير ١٥٣١ عقد حلف شمالكد – وهى مدينة تقع فى مقاطعة هس Hess نفسها – وضم هذا الحلف حناناخب سكسونيا Jean Electeur de Saxe وابنه وحفيده. وما لبث أن انضم تباعا كثير من الأمراء ومن اليهم من الحكام إلى حلف شمالكد الذى انتظم أيضا عددا من المدن الألمانية الهامة. وروعى فى هذا الحلف التمثيل الإقليمى لألمانيا، فقد اشتمل على

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٠٤.

(٢) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٠٤.

الأقاليم الشمالية والجنوبية وكذلك من أنصار زونجلى Zwingle المصلح الدينى السويسرى الذى اتخذ من مقاطعة زيورخ Zurich مركزا لحركته الإصلاحية ولم يكن حلف شمالكد الأول من نوعه في تاريخ ألمانيا، فقد حفل تاريخها سواء فى العصور الوسطى أو فى العصور الحديثة بالمعاهدات السياسية والاقتصادية والأحلاف العسكرية تعقد فى نطاق الدولة الرومانية المقدسة.[1]

وقد قام هذا الحلف على أساس دينى بحت. وقد وقع حادث بشع دفع حلف شمالكد دفعة قوية إلى الأمام، فإن بروتستانت ألمانيا قد أثارتهم الهزيمة التى تعرض لها إخوانهم البروتستانت فى سويسرا ومصرع زونجلى الزعيم السويسرى البروتستانتى فى معركة كابل Cappel الثانية فى الحادى عشر من أكتوبر ١٥٣١ وقيام الكاثوليك بتقطيع جثته إلى أربعة أجزاء وحرقها. وقد أشاعت تلك الهزيمة وعملية التنكيل بالجثة مخاوف البروتستانت فى ألمانيا، وجعلتهم يستشعرون الخطر على حركتهم وأنفسهم من انتقام وحشى قد يتعرض له على يد كاثوليك ألمانيا والأمبراطور الذى يناصرهم.

وفى ديسمبر ١٥٣١ تم وضع دستور الحلف، وقد حدد أهدافه ونظم العلاقات بين أعضائه واجتماعاتهم وطريقة أخذ الأصوات. واستهدف عقد اتحاد تعاهدى une Féderation يربط بين المقاطعات والمدن الأعضاء فى الحلف بعروة وثقى ولذلك استبعدت قيام دولة متعاهدة .Une Cofederation d' Etat ونص على تنظيم جيش ثابت يتكون من سلاحى الفرسان والمشاه، وأن يشترك فى قيادته كل من ناخب سكسونيا وحاكم هس. وعلى هذا النحو استكمل البروتستانت تنظيماتهم الدينية والعسكرية والسياسية. فأصبحت لهم عقيدة محددة مدونة فى اعتراف أوجزبرج، ولهم كنائس خاصة بهم يقام فيها القداس وفق طقوسهم الدينية، ولهم تنظيم سياسى وعسكرى، وتتابع انضمام المدن الألمانية إلى هذا الحلف.[2]

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٤١٠ - ٤١١.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصوز الحديثة، ص٤١٣ - ٤١٤.

على أن الامبراطور كان يرى في ذلك الحين أن وسائل الشدة والبطش في قمع الحركة البروتستنتية سوف يؤدى إلى تمزيق وحدة الصف الألماني. ورأى أن مراعاته للبابا قد أضلته عن سبيل الصواب وأوقعته فيما لا يفيد السياسة الحكيمة لجمع كلمة الشعب، ولذلك لم يبذل أى مجهود لتنفيذ مراسيمه بالقوة ضد البروتستنية، إذ كان أى إجراء من هذا القبيل يهدد بقيام حروب أهلية خطيرة في الوقت الذى كان الأتراك العثمانيين يدقون أبواب المجر.

لذلك قرر دعوة مجلس الديت في مدينة نورمبرج La Diéte de Nurmberg عام ١٥٣٢، وكانت مناقشات هذا المجلس ثم قراراته أكثر ميلًا إلى التفاهم وبعدًا عن روح البطش والتعنت، فقد أصدر قرارات أطلق عليها "سلام نورمنبرج" تدعو إلى وقف جميع المشاحنات والحروب الأهلية الدينية داخل الامبراطورية فإن عدو المسيحية المشترك يتوقف طرده على تحقيق السلام في الامبراطورية".

وقد كان صلح نونبرج عاملا آخر نجم عنه انتشار البروتستنتية إذ انضمت إلى المذهب الجديد مدن أخرى هى أجزبرج وفرانكفورت وهمبرج وهانوفر. وقبل البروتسنت دعوة الامبراطور لتوحيد الصف أمام العدو المشترك وأمد أمراؤهم بالعون العسكرى حتى تم انسحاب الأتراك العثمانيين نهائيا عام ١٥٣٢م.[1]

وعندئذ شكل الأمراء الكاثوليك حلفا ضد البروتسنت عرف باسم حلف نورنبرج Nuremberg League سنة ١٥٣٩، فعقد الامبراطور مجلسا في رايتزون Ratisoin سنة ١٥٤١م لحل الخلاف سلميا، ولما فشل في تحقيق هدفه أعلنت الإمارات الألمانية فاتبرج Wartburg وبادن Baden وهيس Hesse وبراندبرج Brandeburg انضمامها إلى المذهب اللوثرى واحدة وراء الأخرى، فعقد البابا مجلسًا دينيًا في ترنت Trent لبحث الخلافات الدينية، ولكن الكاثوليك سيطروا على المجلس، كما رفض البروتسنت قبول الدعوة وحضور المجلس، وأخذ

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٠٦.

الامبراطور يعد العدة للقضاء على الانقسام الديني الذى هدد ممتلكاته، بالقوة، ولكن مارتن لوثر مات فى ١٧ فبراير ١٥٤٦، وانقسم البروتسنت بعد وفاته، فانحاز موريس دون سكسونيا إلى جانب الامبراطور فخسرت جيوش البروتسنت بذهابه قائدًا مدربًا، وحلت بها الهزيمة فى موقعة مهلبرج Muhlberg فى ابريل ١٥٤٨، ووقع قواد الجيش البروتستنتي فى الأسر، وباتت ألمانيا بأسرها تحت رحمة الامبراطور.

وفى مايو ١٥٤٨ دعا الامبراطور المجلس الامبراطوري للاجتماع فى أوجزبرج، وعرض عليه النظام الذى أراد فرضه على البروتستنت والكاثوليك، وينطوى فى جوهره على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية مع بعض التسامح لإرضاء البروتستنت فى مسائل زواج القسس، وتناول القربان، والتبرير بالإيمان، وقد سمي هذا النظام بالنظام المؤقت Interim ، ولكنه اضطر إلى استخدام الجنود لتنفيذ النظام المؤقت فى ألمانيا الجنوبية، فى حين قاومت البروتستنتية بزعامة مدينة مجدبرج Magdburg فى ألمانيا الشمالية، واحتج موريس دون سكسونيا على النظام المؤقت، وعاد إلى صفوف البروتستنت، فاكتسبوا بعودته قوة جديدة.

ولكن الحوادث سارت لصالح البروتستنت بسبب انشغال الامبراطور بمسألة الوراثة فى أملاكه وانضمام الأمراء البروتستنت إلى هنرى الثانى ملك فرنسا فى معاهدتى شامبورد Chambord (١٥٥٢). وفى عهد شارل الخامس إلى أخيه فردناند بالتوسط فى عقد معاهدة باساو Passau فى يوليو ١٥٥٢ التى نصت على دعوة المجلس الامبراطوري فى بحر ستة أشهر لتسوية جميع المسائل المختلف عليها نهائيًا.[1]

وقد قرر الأمبراطور توجيه دعوة فى مدينة أوجزبرج سنة ١٥٥٥ وتم توقيع معاهدة عرفت بصلح أوجزبرج ومن ضمن بنودها على النحو التالي:-[2]

---

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، جـ١، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) زينب عصمت راشد ، تاريخ أوروبا الحديث، ص١٠٨ - ١٠٩.

١- قرر صلح أوجزبرج الحرية الدينية للأمارات اللوثرية، وتعهد الامبراطور والمنتخبون والأمراء بأن يتركوا الولايات البروتستنتية تؤدى شعائرها الدينية بكل حرية وبألا يتعرضوا لهم بأى أذى. كما قرر ذلك الصلح أن يحترم الأمراء البروتستانت والمقاطعات البروتستنتية الحرية الدينية للأمراء والمقاطعات التى ما زالت مخلصة للدين لقديم ألا وهو الكاثوليكية.

٢- ونص ذلك الصلح فى قراراته على عدم الاعتراف بأى مذهب آخر غير المذهبين المذكورين. وهكذا لم يعترف هذا الصلح بمذهبى "كلفن وورونجلى".

٣- نص ذلك الصلح على أن يسمح للرعايا الراغبين فى الانتقال من ولاية إلى أخرى ببيع ممتلكاتهم دون التعرض لهم بسوء.

٤- نص هذا الصلح على أن تبقى الأراضى التى أغتصبت من الكنيسة الكاثوليكية قبل عام ١٥٥٢ فى يد مغتصبيها، بينما تعاد تلك التى اغتصبت بعد ذلك التاريخ إلى حالتها الأولى، وكان الغرض من ذلك النص المحافظة على أملاك الكنيسة الكاثوليكية.

لم يكن هذا الصلح إلا هدنة مؤقتة بين الطوائف البروتستنتية والكاثوليكية، ومع ذلك فقد كان كسبا عظيما للبروتستنتية، إذ أنها ضمنت للولايات البروتستنتية ولو إلى حين - السلام فى علاقاتها مع الولايات الكاثوليكية والامبراطور. ولكن هذا الصلح لم يمنح الفرد حرية العقيدة وإنما منحها الولاية عامة، ومع ذلك فقد اعترف ببعض الحرية للفرد، ذلك عندما نص الصلح على تسهيل عملية انتقال الفرد من ولاية إلى أخرى، كما أن هذا الصلح لم يمنح المذاهب البروتستنتية الأخرى كمذهب كلفن وزونجلى الحرية الدينية مع أن مذهبها كان قد اعتنقه كثير من الألمان وسكان الامبراطورية. وقد كان ذلك النقص فى شروط الصلح باعثا على استئناف الصراع الدينى وتحويل ألمانيا فى القرن السابع عشر إلى ميدان للنضال الدولى كما كانت

الحال فى إيطاليا فى القرن السادس عشر. كما نتج عن هذا الصلح ازدياد نفوذ الأمراء على حساب الأمبراطور أن أصبح لهم حق تقرير مصير ولاياتهم الدينى.[1]

وقد انتشر الإصلاح الدينى فى أوروبا الشمالية وفى ألمانيا الشمالية والجنوبية فى حياة مارتن لوثر نفسه، ثم فى انجلترا التى توطدت دعائم الإصلاح الدينى فيها على أسس لوثرية فى جوهرها، كما انتشرت اللوثرية فى الدانمارك والسويد.

ويرجع السبب فى عدم ذيوع اللوثرية فى كل أوروبا إلى صعوبة فهم العقيدة اللوثرية، خصوصا فيما يتصل بتناول القربان، والتبرير بالإيمان. واعتماد لوثر على تعضيد الأمراء، مما جعل السواد الأعظم من الناس ينفضون من حوله. وعدم اهتمام لوثر بتجديد وتعريف العقيدة الجديدة، وعدم اهتمامه بنشرها فى خارج ألمانيا".[2]

حركة زونجلى:

لقد فشل أباطرة الرومان فى أواخر العصور الوسطى فى أحكام السيطرة الفعلية على المقاطعات السويسرية. ومع أن الاتحاد السويسرى الذى تشكل أثر هزيمة القوات الامبراطورية كان من حيث القانون الدولى العام يخضع لسيادة الامبراطورية الأسمية، إلا أنه بقى محروما من ممارسة سيادته فى الشؤون الدولية حتى تحقق الاستقلال التام لسويسرا فى معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ التى اختتمت بموجبها الحروب الدينية التى وقعت فى أوروبا على مدار قرن من الزمن.

وعلى الرغم من أن الاتحاد السويسرى قد تشكل، إلا أن المقاطعات السويسرية لم يكن يربط بينها رباط متين. إذ كان على رأس هذا الاتحاد مجلس أعلى يطلق عليه اسم الدايت الفيدرالى (La Deité Fédérale) لذلك تمتعت الولايات وخاصة الجبلية منها بحرية تامة فى تصريف شؤونها الداخلية. فى حين أنه

---

(1) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، جـ١، ص١٠٩.

(2) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم المعاصر، حـ ١، ص١٣٥.

قامت في مقاطعات المدن الكبيرة كزيورخ وبرن وبال الأنظمة الأليجاركية المتعددة.

لقد مهدت الأوضاع السياسية والإجتماعية إذن في المقاطعات السويسرية خلق بذور حركة معادية للكنيسة الكاثوليكية. كما كان لانتشار أفكار الحركة اللوثرية أثر مهم في ازدياد الاستياء العام من تصرفات رجال الدين في المناطق السويسرية. فبدأت بعض المقاطعات ومنها زيورخ قد أخذت منذ القرن السادس عشر تشهد نشاطًا تجاريًا وصناعيًا مرموقًا، فقد أصبح من المستحيل أن يتلاءم هذا الانتعاش الاقتصادى وتطلعات طبقة التجار من مصالح رجال الدين الذين أعلنوا عن تمسكهم بجميع الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها سابقًا.[1]

ومع أن دعوة زونجلى Zwingil (١٤٨٤ - ١٥٣١) قد اتخذت شكلًا دينيًا خالصًا فى المقاطعات السويسرية إلا أنها فى جوهرها تعتبر حركة سياسية اجتماعية وقومية فى آن واحد. وزونجلى بدأ حركته هذه بهجوم شديد على نظام المرتزقة الذى تفشى بين السويسريين الذين أخذوا ينخرطون فى جيوش دول أوروبا حتى ولو كان ذلك على حساب مصالح اتحادهم، حتى أطلقوا عليهم لقب "قاهروا الملوك" وذلك للسمعة الحربية الحسنة التى تمتعوا بها فى معاركهم التى خاضوها فى أوروبا. وقد أعلن زونجلى قائلا "أنه من العار أن تهدر دماء السويسريين فى غير مصلحة قومية". ومن أقواله أيضًا فى مهاجمة نظام المرتزقة: "إذا قام جندى أجنبى واحتل بلادك بالعنف ودمر حقولك وأشجار العنب، وسلب ماشيتك واعتقل أسيادك، وقتل أولادك الذين هبوا لحمايتك. واعتدوا على فتياتك ووطأ زوجتك بقدميه وأشعل النار فى منزلك وصرع خدامك العجز غير عابئ بتضرعك إليه، إلا تتضرع إلى الله أن تنشق الأرض لتلتهمه .. ولكن إذ قمت بنفس العمل تجاه غيرك تقول هذه

---

(١) محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى "عصر النهضة"، ١٢٧ - ١٢٨.

هى الحرب! وإلا فما معنى أن تكون محاربًا؟ ولكن أوريد أجاب عن ذلك بقوله: "فى الحرب لا يعتبر الرجل أكثر من ضفدعة".[1]

وفعًلا أخذت معظم المقاطعات السويسرية على أثر دعوة زونجلى تمتنع عن تقديم الجنود المرتزقة بعد أن أشتدت الحاجة إليهم أثناء حروب شارل الخامس وفرانسوا الأول.

لم يكن زونجلى يقل حماسة عن لوثر فى مهاجمة عملية بيع صكوك الغفران وعبادة الصور والتماثيل ومهاجمة دفع ضرائب العشور الكنسية. وتحت تأثير كتاباته وخطاباته التى اشتهر بها فقد انتشرت الحركة البروتسنانتية فى سويسرا انتشارًا واسعًا. وانضمت إلى زيورخ مقاطعات برن ثم مقاطعة بال حتى أصبح عدد المقاطعات التى تدين بالبروتسنانتية ست مقاطعات أطلق عليها اسم المقاطعات المصلحة (Les Cantons reformes) ومعظم السكان فيها من التجار والصناعيين. بينما المقاطعات المتبقية وعددها سبع مقاطعات فقد أطلق عليها اسم المقاطعات الكاثوليكية (Les Cantons Cathollque) حيث كان معظم السكان فيها من العاملين فى الزراعة والرعى مما أفقدهم الاتصال المباشر بدعاة الحركة البروتستانتية من جهة ومتابعة الجدل الفقهى الذى انغمس فيه سكان المدن المواكبين لثقافة العصر.

وأمام تحدى الكاثوليك وإحراقهم أحد أتباع المذهب البروتستانتى تشكل الحلف المسيحى من البروتسنت يقابله الاتحاد المسيحى للكاثوليك بمساندة النمسا التى كانت تتوق إلى استعادة أمجاد أسرة الهابسبرج فى سويسرا أو على الأقل استرجاع بعض الأراضى التى كانت قد فقدتها سابقًا. وكادت الحرب الأهلية أن تقع فى سويسرا لولا الوساطة التى قام بها زعيم مقاطعة كلاريس Claris واسمه ايبلى Aebill وهو أحد أتباع زونجلى. وفعًلا عقد صلح كابل (Cappel) عام١٥٢٩ وفيه تقرر حرية كل مقاطعة فى اعتناق المذهب الى تختاره مع وجوب إلغاء الحلف الذى

---

[1] محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى، ص١٢٨ - ١٢٩.

عقد بين الكاثوليك والنمسا حفاظًا على استقلال سويسرا وعدم إتاحة الفرصة أمام أية دولة أجنبية للتدخل فى شؤونها الداخلية. وقد أعطت هذه المعاهدة اعترافًا مطلقًا بالمقاطعات البروتستناتية ومركزًا قانونيًا لاتباعها مما أتاح الفرصة لتنظيم صفوفهم والعمل على التبشير بمذهبهم الدينى.[1]

ولقد حاول زونجلى أن يقيم علاقات وطيدة مع الحركة اللوثرية فى ألمانيا وأن تقيم اتحادا بين المقاطعات الألمانية والمقاطعات السويسرية التى اعتنقت المذهب البروتسنانتى. ولكن المحاولة فشلت نتيجة للخلافات التى قامت على بعض المسائل الهامة وذلك على أثر الاجتماع الذى تم بين زونجلى ولوثر. كما أن محاولات زونجلى لإقامة علاقات سياسية مع فرنسا فى عهد فرانسوا الأول قد فشلت أيضًا. وعندما أمعن فى سياسة التعسف ضد المقاطعات الكاثوليكية اشتعلت الحرب الأهلية فى سويسرا وانزل الكاثوليك الهزيمة بالجيوش البروتسناتينية فى معركة كابل ١٥٣٢ التى قتل فيها زونجلى على أثر هذه الهزيمة عقد صلح بين الطرفين على أن يتعهد كل منهما بترك الآخر يعيش فى أمن وسلام معتنقًا العقيدة التى يختارها على أن تلتزم المقاطعات البروتستناتية يدفع نفقات الحرب وإعادة الأراضى الكاثوليكية المصادرة. كما أجاز الصلح للمقاطعات الكاثوليكية أيضًا تحويل بعض المناطق القريبة إليها إلى الكاثوليكية. وهكذا توقف انتشار المذهب البروتسنتى فى سويسرا على أثر صلح كابل حتى ظهر كلفن.[2]

ومع مقارنة سريعة بين زعيمى الحركتين الإصلاحيتين لوثر زونجلى يتضح أن كلاهما هاجم بيع صكوك الغفران الذى تقره البابوية. وأن كلاهما لم يعتمد فى حركته على طبقة العامة الواسعة. فلوثر وقف مع الأمراء بعنف ضد ثورة الفلاحين فى ألمانيا، وزونجلى لم يعط أهمية للفلاحين والرعاة المنتشرين فى جبال سويسرا ووديانها، مما أفقد حركتهما الطابع الشعبى. وبينما كان زونجلى فى تفكيره

---

[1] محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى، ص١٢٩.

[2] محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى، ١٢٩ - ١٣٠.

ديموقراطيا إنسانيا عمل أن تكون الكنيسة مؤسسة تضم جميع المسيحيين. فقد اعتبر لوثر أن الحاكم يجب أن يجمع بيديه السلطتين الروحية والزمنية. ومع ذلك فإن الحركتين يعتبران جوهرا وطابعا: حركتان دينيتان اجتماعيتان لهما صلة قوية بالناحية القومية في كل من ألمانيا وسويسرا.[1]

ب- حركة كالفن في جنيف

انتقلت زعامة حركة الإصلاح السويسرية إلى برن، ثم إلى جنيف، وهي مدينة كانت تقع خارج الاتحاد السويسرى ولا يزيد عدد سكانها على ١٣ ألف؛ ولكن قيض لها بسبب موقعها الجغرافي (وكانت تقع على حدود أربع دول) وأكثر من هذا بسبب ارتباطها بأحد الزعماء الدينيين العظام في العالم، أن تكون عاصمة البروتستانتية الغربية، وعلى رأس المدن التي اجتمعت بها الأقليات المضطهدة من معتنقي هذه العقيدة لعدة قرون.[2]

ولقد كانت جنيف تناضل منذ ثلاثين عاما للتخلص من سيطرة دوق سافوى وأميرها الأسقف، واتخذ النضال شكل حرب أهلية مريرة. وأطلق خصوم حزب "حكومة الكنيسة بواسطة الأساقفة". على الحزب اسم المماليك. أما حزب الأحرار فقد عرف باسم Eidgenossen (بمعنى الرفاق الذين أدوا القسم) وما لبث هذا الاسم – في شكله الفرنسي المعروف بالهيجونت – أن طبق آفاق أوروبا. ولكن جنيف استطاعت تحقيق حريتها في النهاية (أكتوبر ١٥٣٦) مستعينة بمساعدة برن المدينة البروتستانتية. وأصبحت على استعداد للاحتفال ببعض الدعاة الفرنسيين الذين كانوا ينشرون التعاليم الإنجيلية عبر إقليم الشعور Pays de Vaud وكانت برن تشجعهم على ذلك. ولم يكن ثمة من هؤلاء الدعاة من كان أقوى أثرا من وليم فارل William Fares الذى كان يتقد حماسة، وهو الذى أقنع باحثا فرنسيا كان

---

[1] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٥٠ – ١٥١.

[2] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٥٠ – ١٥١.

يتجول في رحلة خاصة ثم القى رحاله في جنيف في عام ١٥٣٦، أقنعه بأن يتوقف في هذه المدينة ويستبدل إلى الأبد بحياة البحث العلمي، حياة الخدمة الكهنوتية.

هذا الباحث هو جون كوفان John Cauvin وكلفن وهو ابن موثق عام، ولد في نويون Noyon في بيكاردي في عام ١٥٥٩ - وكان قد قفز إلى حيز الشهرة - حين نشرت له ثلاثة بحوث تستحق الإعجاب: الأول تعليق علمي على كتاب سنيكا "عن التسامح De Clementia" والثاني مقالة أكاديمية كتبها بقدر من الحماسة للتعاليم الإنجلية بحيث اضطر إلى الرحيل عاجلا عن باريس، والبحث الثالث مدخل إلى الدراسات الإنجيلية بعنوان "مبادئ الديانة المسيحية Christianae Religionis instituto وقد نشره في بال وأهداه إلى الملك فرانسوا الأول.[1]

ولن نجد من هو أقل شبهًا بمارتن لوثر من هذا الشاب الفرنسي. كان كلفن ينتمي إلى الطائفة العليا من الطبقة الوسطى، وكان يغشى مجالس النبلاء من الرجال والنساء فلا يحس ضيقًا، وكان قد اعتصر كل ما استطاعت باريس أن تقدم له من العلوم الإنسانية وكل ما قدمته له أورليان ودبورج Bourges من علوم القانون. ولم يكن في كلفن شئ من طباع لوثر: فلم يكن منه شئ من حيويته الدافقة، ولا من مرحه والمعيته، خشونته ودعابته، خياله الملتهب وروحه "المدرسية الضيقة، إيمانه الريفي الساذج بالخرافات ونقده لذاته لدرجة غير عادية. أما المصلح الفرنسي فكان هادئًا متحفظًا، مشرق التفكير والتعبير، دائم التفوق على كل من تصدى لمجادلته، وذلك بفضل ما لديه من ذخيرة حاضرة من المعارف عن آباء الكنيسة والإنجيل، كما كان ممتلكا لتلك الميزة العظيمة التي لا يعرفها إلا أولئك الذين شقوا طريقهم حتى وصلوا إلى معتقدات راسخة آمنوا بها دون أن تبدو عليهم صراع داخلي. وكان في تفكيره يمتاز بالبساطة الجادة، مما منحه سلطانا على أصحاب العقول الرخوة المترددة.. ومن الممكن وصفه بأنه بطل من أبطال الرياضة - لا رياضة الجسم، ولكن رياضة الفكر - أو أنه قديس مجرد من النوازع العاطفية أو قد يقال عنه أنه قد ولد

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٥١ - ١٥٢.

موجها للضمير. ولقد كرس جهده ليجعل من جنيف جمهورية إنجيلية وأن يقود حزب الإصلاح – أو الهيجونت – في فرنسا.[1]

نجح كالفن في عصر وفي بلد كانا يطلبان العودة إلى المسيحية، بسبب بسيط وهو أنه كان أشد رجال جيله استمساكا بالمسيحية، وكان كلفن مسيحيا، بسيطا مترفعا في حياته الخاصة، مسيطرا ساميا في أهدافه. ولقد سخر كل قواه الجسمية والعقلية في محاولة هدفها أن يعيد إلى العالم مسيحية القرون الثلاثة الأولى التي كون عنها بأسلوبه الذهني الهادئ المتوثب صورة مقنعة. كانت مراسلاته شديدة الوفرة، ومن المدينة التي اتخذها وطنا له أخذ يبث النصائح الروحية لكل هيئات الهيجونت في فرنسا: فهو يثبت إيمان المتشككين ويهز الكسالى ويشجع من وهنت روحهم المعنوية ويؤنب المتخلفين. ولكن لا ورعة المسيحي ولا نشاط قلمه الذي لا يهدأ كان كفيلا بأن يجعل منه قوة في فرنسا لولا ما كان عليه من قدرة فائقة من التراكيب المنطقية، مع إشراق العبارة ووضوحها وإيجاز العرض وحاسة الاتزان – وهي وحدها الصفات الكفيلة بأن تمكن فرنسيا أريبا أن مسموع الكلمة في فرنسا.[2]

وكان كلفن – محقق سنيكا وناشر مؤلفاته – رواقيا كأستاذه، فهو يؤمن بوجوب إتباع الفضيلة لذاتها دون أمل في جزاء أو خوف من عقاب. وهذا المثل الأعلى الرواقي الذي طورته تعاليم الإنجيل جزء لا يتجزأ من العقيدة الكلفينية. وكذلك لم ينل من نفوذها الأدبي ذلك المبدأ الآخر الذي نادت به العقيدة وهو مبدأ القدرية: بمعنى أن بعض الناس قدر لهم سلفا أن يحيوا حياة سرمدية، بينما أعد للآخرين عذاب مقيم، وهو مبدأ لم يكن كلفن ليعثر عليه في الإنجيل، ولكنه استنبطه من تعاليم القديسين بولس وأوجسطين.

عاش كلفن في جنيف من ١٥٣٦ – ١٥٦٤ باستثناء فترة ثلاث سنوات من ١٥٣٨ – ١٥٤١. وفي جنيف شكل طرازا جديدا من الدولة الثيوقراطية فرضت

---

(١) فيشر أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٥٢.

(٢) فيشر أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٥٢.

نفوذها على روح الكنائس "الإصلاحية" وتكوينها فى جميع أنحاء العالم. وسرّ التنظيم الذى وصفه كلفن ما أهتدى إليه من أنه خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحية كان الذين لا يستحقون رحمة الله يحرمون من مائدة العشاء الربانى. لهذا عزم على إحياء هذه القاعدة القديمة، فيقصر الامتياز الاسمى بالانتماء إلى الكنيسة على المتعبدين الذين يثبت إيمانهم ويمنحون فى تقواهم. ولم يثبط من همته أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون إشراف دقيق شاق على الحياة الخاصة للفرد. وقد رحب بفرض شروط يخضع بمقتضاها رجال الدين والعلمانيون على حد سواء لرقابة صارمة. ورغم أن دعوة السلطة العلمانية لتأييد النظام الروحى كانت مما يناقض تعاليمه فإنه كان مقتنعًا بأن من واجب الحاكم فى جنيف أن يعضد من الكنيسة. وأية تضحية لا يمكن تبريرها فى سبيل رد الناس إلى التقوى؟ لهذا انشئ فى جنيف مجلس أعلى، بعض أعضائه من العلمانيين وبعضهم الآخر من الكهنوت، مهمته فرض طائفة من الجزاءات على كل من يتراخى فى سلوكه الشخصى وفى معتقداته الخاصة. كان الموت عقوبة الزنا والتجديف والهرطقة. وهكذا أضحت حكومة جنيف العابسة، المنقية عن أخطاء الناس، الشديدة البطش، وقد اتخذتها بلاد أخرى نموذجا تحتذ به – أصبحت مصدر قسوة ومكابدة للناس فى العالم الجديد والقديم على السواء أما فى جنيف ذاتها فقد تسبب فى حرق سرفيتوس Servetus الموحد unitraian وقد اشترك كلفن فى إصدار قرار الحرق ووافق عليه.

وأنه لمن دواعى عظمه كلفن أنه لم يكن فقط قطب الرحى فى حركة أوروبية واسعة، بل أنه كذلك قد جعل من جنيف – فى نطاقها الضيق المحدود، ضد كل ما يمكن تصوره من العراقيل – المدرسة الكبرى لعقيدة الإصلاح. وقد افتخر فى خطاب وجهه إلى الخريجين من رعاة الكنيسة فى جنيف بأنه فى خلال الفترة الطويلة التى قضاها يلقن تعاليم الإنجيل، لم يقدم قط على مسخ أى نص من نصوص الكتاب المقدس. وبفضل جهوده أصبحت جنيف مدينة على ثقافة عالية بل أنها غدت كذلك، وبوجه أخص منذ إنشاء الجامعة عام ١٥٥٩ مركزًا لتدريب الرعاة

البروتستانت أو الهيجونت. وحين حل كلفن بجنيف كانت مدينة شديدة الصخب منقسمة على نفسها، يشيع فيها الفساد، فخلفها من بعده "اسبرطة" بروتستانتية وروحا لكل ما فى الحركة الإنجيلية لذلك العهد من جرأة وإخلاص وإمعان فى التعصب.[1]

كانت الكلفينية أكثر إشكال الإصلاح البروتستانتى اتساع مدى وأعمقها تأثيرا، فقد خلفت الكنيسة البروتستانتية فى فرنسا. وشكلت الجمهورية الهولندية. وقبلها الاسكتلنديون ديانة قومية لهم. وقبل وفاة كلفن كانت المقاطعات البروتستانتية فى سويسرا الشرقية قد قبلتها، كما قبلتها البلاتينات، واعتنقها معظم المجربين الذين خرجوا على روما. وحتى فى انجلترا، حيث كان عليها أن تواجه تيارا جارفا من الروح المحافظة، كان لها أثرها البارز فى المواد التسع والثلاثين التى تؤلف العقيدة التى أقرتها الكنيسة القومية، وكان هذا الأثر من الوضوح لدرجة أن الملكة اليزابيث على قلة عطفها على جنيف، قد وقع عليها قرار الحرمان باعتبارها كلفنية. ومن بعد ذلك أصبحت الكلفينية قوة غالبة فى السياسة الإنجليزية. ولكن ذلك لم يستمر إلا فترة وجيزة فى عهد البرلمان الطويل الأمد، ولم يحدث إلا بقوة السلاح، لا نتيجة لتغيير فى مشاعر الشعب، حتى إذا عادت الملكية إلى انجلترا تقهقرت الكلفينية مرة أخرى وأصبحت عاملا ثانويا وإن كان جنيف لم تلق ترحيبا فى بلاط شارل الثانى الطروب، فإنها بالذات كانت طلبة سكان المناطق الساحلية فى أمريكا الشمالية حيث ظل نفوذها العميق على الكنيسة والدولة – خاصة فى مستعمرات نيوانجلند – منذ رحلة السفينة ماى فلور maylower فى عام ١٦٢١ حتى أواسط القرن التاسع عشر. وأثارت تعاليمها الجامدة الخشنة تيارين متباينين ولكل منهما مميزاته الخاصة من تفاؤل البرجمانى المبنى على التفكير الذى يحث على العمل الإيجابى، والمثالية المتطرفة عند رجل العلم المسيحى الذى ينكر وجود الألم والشر.[2]

---

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٥٤.

(٢) هربرت فيشر، فى أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٥٥.



الفصل السادس

فرنسا وحركة الإصلاح الدينى

كانت أسرة فالوا تحكم فرنسا عند بداية العصور الحديثة، وقد تربع على عرش البلاد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أقدر ملوك هذه الأسرة لويس الحادي عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣) الذي يرجع إليه الفضل في تدعيم التاج والقضاء على نفوذ الإشراف وتثبيت الحدود الفرنسية عن طريق القوة والعناية بتكوين جيش ملكي قوي – وحكم البلاد حكمًا فرديًا بعد أن عطل المجلس النيابي الذي كان قائما وهو مجلس الطبقات، التي لم يجتمع طول مدة حكمه سوى مرة واحدة، فكان الملك يصدر المراسيم. ويسنّ القوانين على مسئوليته الخاصة، وقضى على الحقوق المكتسبة لعدد كبير من المدن وعلى استقلالها المجلس في إدارة شئونها، وكان وحده يعقد المعاهدات ويقرر الشئون الخارجية لفرنسا.

وقد زجت فرنسا نفسها في السياسة الأوروبية بمشروعها الذي بدأه ملكها شارل الثامن بغزو الأراضي الأوروبية عام ١٤٩٤، وبذلك زرعت بذرة الصراع بين ملوك أسرة فالوا وأباطرة أسرة الهابسبورج في محاولات لمنع تسلط الأسرة الأخيرة على القارة الأوروبية، ومع انشغال ملوك فرنسا الذين تولوا العرش بعد ذلك بالحروب الإيطالية، إلا أنهم لم يفضلوا تدعيم عروشهم ضد الإشراف وضد النزاعات الإقليمية في البلاد، وأصبحت السلطة الملكية أكثر تحكمًا وأشد قوة.[1]

ولكن في خلال الحروب الدينية التي أثارتها طائفة الهيجونت في فرنسا، تزعزت هيبة التاج فترة من الزمن، وخبا الشعار الذي يرفعه الملك فرانسوا الأول في قوله "ملك واحد، ودين واحد، وقانون واحد".

ولكن بعد أن أعتلى هنري الرابع العرش وعاد السلام عام ١٥٩٤ استطاع الملك بفضل وزيرين نابغين متتاليين الكاردينال ريشيليه والكاردينال مازاران

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٤٥ – ١٤٦.

Mazarin. أن تستعيد الملكية مكانتها ومهابتها وقوتها وتجلت تلك القوة بأحلى مظاهرها في عهد الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٨ – ١٧١٥). حيث كان له الفضل الأكبر في ازدهار النفوذ الفرنسي في القارة الأوروبية بأكملها.[1]

* لم تؤثر الدعوة البروتستنية، في المجتمع الفرنسي كما أثرت في ألمانيا وسويسرا بسبب قلة تأثير رجال الدين على البلاط الملكي. إذ أن فرنسوا الأول ملك فرنسا، استطاع أن يحصل في عام ١٥١٦، من البابا ليو العاشر على حق تعيين الأساقفة والرهبان في مملكته. فيكون بذلك قد حقق ما طالب به لوثر بعد ذلك بعام بوجوب خضوع السلطة الدينية إلى السلطة الزمنية.[2]

تأرجحت سياسة فرانسوا الأول تجاه البروتسنت وملاحقتهم بحسب مواقف البابا من خصمه شارل الخامس. إلا أنه لم يؤيد الانفصال عن روما لكونه من جهة متمسكًا بوحدة الإيمان في مملكته ومعارضًا لأية حركة ثورية ضد السلطة القائمة، ومن جهة ثانية أن أكثرية الشعب الفرنسي بقيت كاثوليكية محافظة نظرًا لتماسك النظام الإقطاعي وشدة تسلط الإقطاعيين. لهذا نجحت البروتستنانتية في الجنوب الفرنسي حيث دعا إليها تجمع النبلاء المجردين من السلطة ومن الذين ناؤوا تحت عبء دفع الضرائب التي لا تحتمل ومن الطامحين السياسيين، وبورجوازي المدن الذين كانوا يواكبون حركة العصر الفكرية ويجدون في الحركة الجديدة إمكانية الحد من السلطة الإقطاعية الجائرة وأنظمتها المتعارضة مع طموحها الاقتصادي.

إن قوة النظام المركزي الذي عرفته فرنسا قبل عهد فرانسوا الأول لم تسمح بالدرجة الأولى بانتشار العقيدة البروتستاتينية في فرنسا بينما كان تفسخ السلطة في المانيا والأراضي المخفضة ومجمل شمال القارة الأوروبية مسؤلا إلى حد بعيد عن هذا الأنتشار. ففي حين مثلت الكاثوليكية عند الأسبان سلاحا لتحرير بلادهم من

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ١٤٦.

(٢) عبد الحميد البطريق عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ١٤٦.

"الكفرة" فقد بقيت سيطرة البابوية على أيطاليا مع تفسخ السلطة فيها عنصرا هاما لمنع عملية انتشار الأفكار الدينية "والهرطقات الجديدة"

لقد اشتد موقف فرانسوا الأول من البروتستنانت بعد أن وصلته أنباء ثورة الفلاحين في ألمانيا. فأصدر القوانين الصارمة وانشأ المحاكم لملاحقة الهرطقة في بلاده وأصبح واضحا لمعاصرية أنه لم يتسامح مع الحركة الجديدة إلا كونها سلاحا يرفعه بوجه البابوية التى كانت تحاول بين فترة وأخرى كسب ودشارل الخامس في إيطاليا. لذلك فبعد أن عقد سلما مع شارل الخامس سنة ١٥٣٨ تخلى عن استرضاء البروتستانت حتى خارج حدود مملكته الذين كان يمدلهم العون لإشغال خصمه بالحركات الداخلية المعارضة.

ومع أن الحركة البروتستناتيية قد تأخر انتشارها فى فرنسا عن غيرها من المناطق التى اعتنقتها إلا أنها شكلت جزءا أساسيا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر من تاريخ فرنسا. إذ أن معظم الاحصاءات التى تناولتها المصادر المعاصرة أشارت إلى الكنائس الكلفينية فى سنة ١٥٦٣ قد تجاوز عددها فى فرنسا الألفى كنيسة. لهذا باتت الفترة التى عاشتها فرنسا حتى سنة ١٥٩٨،تاريخ صدور مرسوم نانت، فترة مشاكل وقلاقل داخلية أدت إلى انقسام حاد فى المجتمع الفرنسى الذى كان حتى تلك الفترة أكثر المجتمعات تماسكا. ولابد هنا من الإشارة إلى مشكلة وحدة الأمة الفرنسية التى طرحتها الحركة البروتسنتاتية على بساط البحث.[١]

واصل الملك هنرى الثانى (١٥٤٧ - ١٥٥٩) لما بدأه أبوه فرانسوا الأول من اضطهاد للبروتسنت بقصد القضاء عليهم واستئصال شأفتهم. فكان يأمر جنوده بمهاجمتهم وهدم منازلهم وحدثت مذابح راح ضحيتها آلاف من البروتسنت وبلغت حركة الاضطهاد حدا لا يطاق حتى أن عددا كبيرا من زعماء الحركة حكم عليه بالموت حرقا، ومع ذلك لم يستطع الملك وأعوانه أن ينزعوا العقيدة من نفوس

---

(١) محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى، ص١٤٤ - ١٤٥.

المؤمنين بها، بل إن حركة البطش والاضطهاد التى لاقاها الهيجونت زادت عن عطف الجماهير على المضطهدين وانتشر المذهب الجديد بين طبقات الشعب من الفلاحين وأصحاب المهن والمثقفين، إلى جانب العدد الكبير من الأشراف الذين اجتذبتهم الحركة البروتسنتية، لا لاغاتهم بها فحسب بل لأنها ممتلكات تمنحهم الفرصة والذريعة للكفاح ضد التاج، ثم يحيى أملهم فى الاستيلاء على الكنيسة.[1] وعندما توفى هنرى الثانى (١٥٥٩ – ١٥٦٠) ابنه فرانسوا الثانى (١٥٥٩ – ١٥٦٠) وكان لا يبلغ السادسة عشر، بدأ الانقسام الذى كان يخشاه الملك المتوفى.

والسبب فى ذلك أن فرانسوا الثانى وقع تحت تأثير زوجته (مارى ستيورات) وكان شقيقى والدتها (مارى لورين زوجة جيمس الخامس ملك اسكتلندة) وهما فرانسوا دوق جيز وشقيقته شارل كاردينال اللورين من كبار زعماء الكاثوليكية فاستأثرت أسرة جيز الكاثوليكى بكل سلطة، وقبلت الملكة الوالدة كاترين دى مديش هذه السيطرة، الأمر الذى أغضب الأسر البروتستنتية النبيلة وأهمها أسرة بربون وأسرة مونتمور نسى فأخذ هؤلاء يدعمون صلاتهم بقادة الإصلاح، واتخذت الكلفنية صبغة سياسية وثورية خطيرة إلى جانب صبغتها الدينية. فكان النضال على السلطة هو منشأ الحرب الأهلية أو الحرب الدينية فى فرنسا.[2]

وبدأ الاضطرابات عندما حاول الهجونت "أتباع الكلفينية، القضاء على نفوذ أسرة جيز واختطاف شخص الملك ودبروا مؤامرة للهجوم على مقر الملك فى امبواز Ambise فى مارس ١٥٦٠. ولكنهم اخفقوا وأوقع أعوان جيز والملك مقتلة عظيمة بالهجونت ومثلوا بهم تمثيلا فظيعا حتى هلك منهم عدد كبير (حوالى ١٢٠٠ نسمة) ولكن هذه الفظائع التى حدد ارتكابها بداية لاضطراب الدينى فى فرنسا سرعان ما أثارت الشعور العام ضد أسرة جيز وأتاحت الفرصة للملكة الوالدة (كاترين مديشى) حتى تطالب بالاعتدال فعينت لهذه الغاية فى منصب الوزارة ميشيل لوبتال

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٤٩.

[2] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٥٤.

Michel L.Hopital أحد الساسة المعروفين بالحكمة والمهارة، ثم لم يلبث أن توفى فرانسوا الثانى، فتولى أخوه شارل التاسع العرش (١٥٦٠ - ١٥٧٤) وكان صبيًا لا يزيد عمره على العاشرة فصارت كاترين مديشى وصية على العرش، وبدأت فى تنفيذ سياستها.[1]

وكانت كاترين ميديشى تريد إرضاء البربون (البروتسنت) وجيز (الكاثوليكى) معًا، ولو أنها أرادت كذلك أن تستميل إليها الهيجونت حتى تقلل من شأن أسرة جيز. وغرضها من هذه الخطة أن توازن بين الأسرتين حتى تستطيع أن تستأثر هى بكل سلطة فى النهاية. واعتمدت فى تنفيذ هذه الخطة على أشد خلصائها (ميشيل لوبتيال) الذى توخى الاعتدال هذه كان مصيرها الفشل فى عصر لا يعرف التسامح الدينى.[2]

فقد بدأت كاترين مديشى تعمل للتوفيق بين البروتسنت والكاثوليك فمنعت الهيجونت من إقامة شعائرهم بطريقة علنية، ومنعت فى الوقت نفسه تعطيل عبادتهم إذا هم أقاموها فى داخل منازلهم. وجمعت الفريقين فى مؤتمر انعقد بواسى Poissy فى سبتمبر ١٥٦١ للتوفيق بينها ولكن دون جدوى وعندئذ أصدرت مرسوما فى يناير ١٥٦٢ أباح للبروتسنت العبادة فى خارج المدن المسورة فقط ومنعهم من إقامة شعائرهم فى داخل المدن. ولكن هذا المرسوم أغضب الكاثوليك والبروتسنت على السواء. البروتسنت لتسامحه المحدود والكاثوليك بسبب هذا التسامح نفسه. وبقيت الأمور متحرجة إلى أن حدث فى أول مارس ١٥٦٢ أن كان فرانسوا دون جيز يمر فى طريقه إلى باريس بمدينة فاسى Vassy وهى إحدى المدن المسورة - فشاهد جماعة من الهجونت يتعبدون فى داخلها فأمر بإطلاق النار عليهم وقتل وجرح منهم كثيرون. وكان لهذه المذبحة (مذبحة فاسى) آثار سيئة لأنه بمجرد ذيوع الخبر فى الأقاليم، قامت مذابح عديدة تشبهها فى عدد من المدن الأخرى، وقتل

---

[1] نفسه، ١٥٥.

[2] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٥٥.

من الهجونت خلق كثير، وانتقم هؤلاء من القساوسة الكاثوليك كما خربوا الكنائس وعبثا حاولت كاترين مديش التأثير عليهم لقبول أى اتفاق سلمى. وعندئذ أصدرت مرسومًا فى يوليو ١٥٦٢ أعلن عصيان الهجونت وطردهم خارج القانون. وعلى هذا النحو قامت الحروب الدينية فى فرنسا.[1]

وقد اتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة من الأجانب إلى حد كبير، بل أنه تميّز أيضًا بأنه كلما قامت الحرب أعقبها السلام بعد وقت قصير. وليس سبب ذلك توقع الطرفين تسوية يقبلانها حقًا، ولكنه يرجع إلى عوامل أخرى كفراغ أيدى المحاربين من المال أو مقتل قائد أو حدوث تخاذل أو ضعف مفاجئ فى الشعور الذى كان لا يزال كامنًا بوحدة فرنسا باعتبارها كنزا. لا يجوز تبديده بسهولة، وهو الشعور الذى كانت تخالطه الأحقاد الدينية أو الشخصية العنيفة لذلك العصر.

هذه الأسباب تفسر كيف أن فرنسا كانت مضطرة إلى خوض حروب أخرى قبل أن يحسم النزاع بين الكاثوليك والهيمونت.

ولم يتورع كلا الطرفان عن الالتجاء إلى المعونة الأجنبية، ولىّ الكاثوليك وجوههم شطر أسبانيا، على حين ولى الهيجونت وجوههم شطر انجلترا، بل لقد ذهبوا فى الحرب الأولى إلى حد وضع الهافر فى أيدى الانجليز ووعدهم بكاليه، ومع ذلك فإنهم لم يعقدوا قط حلفًا مع دولة بروتستناتينية: فإن الصدع القائم بين اللوثرين الألمان والهيجونت الفرنسيين كان يعز على الراب. حقا لقد شارك لوثريون من الألمان فى الحروب الفرنسية، ولكن أكثرهم كان يقاتل فى صفوف الكاثوليك لا الهيجونت.[2]

وفى الحرب الأولى كانت كل المقدمات تشير إلى توقع انتصار الكاثوليك: فهم قد تسلطوا على الملك والملكة، وضمنوا تعضيد باريس، ومساعدة طائفة من

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٥٦.

[2] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٨٨ ١٨٩.

المرتزقة الأسبان والألمان ممن مهروا فى القتال - هذا إلى استيلائهم على روان ثم انتصارهم أخيرا على قوات كولينى وكونديه فى درية (فى نورمندية) ولكن هذه الميزات تبددت فجأة حين خر فرانسوا جيز صريعا على يد سناك أمام أسوار أورليان.

ولكن الهيجونت لم يغيروا شيئا من هذه الجريمة، فقد عزى مقتل فرانسوا جيز إلى كولينى، وأصبح لدى أسرة القتيل دافع للثأر أقوى بكثير من قوة معتقداتها الدينية.

ثم تلت ذلك سنوات أربع تخللها سلام غير مستقر جابت كاترين وأولادها خلاله ربوع الأقاليم وتيقظت شكوك حزب الهيجونت حين تمت فى بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) مقابلة بين كاترين وأختها ايزابيلا ملكة أسبانيا التى كان يصحبها دون الفا. وكان من الواضح أن غرض كاترين الأساسى هو السعى لتزويج ابنتها مارجريت بدون كارلوس Don Carlos بن فيليب الثانى ملك أسبانيا، ولكن نوقشت أيضا فى هذا الاجتماع مسائل أخرى، وبخاصة تعاون فرنسا وأسبانيا ضد الأراضى المنخفضة. وفى ذلك ما يكفى لإثارة مخاوف كولوينى أنشط محركى حزب الهجونت؛ وحين علم أن الفا يزحف صوب الأراضى المخفضة على طول حدود فرنسا الشرقية على رأس جيش أسبانى ممتاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية، شعر الأميرال أن الوقت قد حان لتحرير البلاط من المؤامرات الأسبانية. ووضعت خطة لاختطاف شارل التاسع، وكان فشلها معجلا بنشوب القتال من جديد.[1]

ويمكن اعتبار الحربين التاليتين سلسلة واحدة من العمليات إذ لم يفصل بينهما سوى صلح لونجيمو Lonjumeau القصير الأمد (١٥٦٨) ولهاتين الحربين أهميتهما لعوامل ثلاثة: ففى هذه الفترة بالذات برزت لاروشل لأول مرة باعتبارها حصنا بحريا بروتستانتيا عظيما قادرا على أن يصمد للحصار، وفى هذه الفترة برز هنرى نافار ابن الملك انطوان، وهو الذى قدر له فيما بعد أن يصبح هنرى الرابع ملك فرنسا - باعتباره قائدا بروتستانتيا. ولكن أهم ما يلفت النظر فى خصائص هذه الفترة أن النصر النهائى كان من نصيب كولينى، وذلك رغم سلسلة متلاحقة من

---

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث ١٨٩.

الانتصارات الكاثوليكية وأسر كونديه ومقتله فى جرناك وتغطية ساحة مونكتور الملطخة بالدماء بحوالى ستة آلاف جثة من الهيجونت. ولقد قام هذا القائد المحنك بتقهقر رائع من اللوار صوب الجنوب، ثم كون جيشا جديدا زحف به على باريس حيث وجد البلاط خلوا من كل قوة، فأرهب أعدائه وسيطر على الملك وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا. وكان شارل التاسع الذى قامت على تنشئته مربية بروتستناتيتية على استعداد للتفاهم.[1]

اعترف صلح سان جرمان (أغسطس ١٥٧٠) أكثر من أى وقت مضى بأهمية حزب الهيجونت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها فى فرنسا. وسمح لكبار النبلاء - كما كان الحال من قبل - بأن يقيموا الصلوات طبقا لمذاهب الهيجونت فى قلاعهم لكل من يرغب فى حضورها، ونص على بقاء شعائره العبادة البروتسنتاتينية فى كل المدن التى تمارس فيها فعلا، وفى مدينتين فى كل مقاطعة إدارية فى فرنسا، ووضعت ضمانات لمنع المظالم التى تتخذ شكل القانون، كما وضعت فى يد الحزب - لمدة سنتين - أربع أماكن لها أهمية حربية عظيمة، وذلك ضمانا لتنفيذ المعاهدة وهذه الأماكن هى: لاروشل ومنتوبان Montauban وكونياك Coynac ولاشاريته La Charite.[2]

وهكذا انفسح أمل جديد أمام الهيجونت. فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية فى دفاعها عن القضية الكاثوليكية وبفضل نفوذ آل جيز إلى حد كبير على استعداد للالتجاء إلى أسبانيا طلبا للمعونة. فجاء كولوينى الآن يمهد الطريق لانقلاب سياسى كامل. كانت خطته أن يضمن حماية بنى ملته فى فرنسا عن طريق إشعال حرب قومية ضد أسبانيا فى الأراضى المنخفضة. ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تتزعمه فرنسا وتسنده كل من انجلترا وهولندة وتسكانيا والبندقية وربما الأتراك العثمانية، القصد منه إقرار السلام فى البلاد وضم الفلاندر وآرتو إلى أملاك التاج الفرنسى، وكانت المعاهدة الدفاعية التى وقعها كولينى مع انجلترا فى ابلوا فى ١٩ ابريل ١٥٧٢ الحجر الأول فى البناء الدبلوماسى الجديد.[3]

---

(١) نفسه، ١٩٠.

(٢) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٩٠.

(٣) نفسه، ص١٩١.

وبين التدابير التى اتخذت فى هذه الفترة التى ارتفع فيها نفوذ الهيجونت مشروع قدر له أن يؤثر تأثيرا قويا فى الموقف الداخلى فى فرنسا. فقد تمت المباحثات فى أمر زواج أبرم الفعل (١٨ أغسطس ١٥٧٢) بين مرجريت فالوا أخت الملك وهنرى نافار، وكان هذا الزواج المختلط الأول من نوعه، فلقى المقت الشديد من كل كاثوليكى، وتساءل الناس: فى أى طريق تسير فرنسا فى ظل ملكها ضعيف العقل وقائدها الهيجونتى؟ اتسير فى طريق تنتهى بها إلى منازلة أعظم القوى الكاثوليكية فى أوروبا؟ أم فى طريق يفضى إلى وقوعها فى قبضة ملك بروتستنانتى؟ كانت كاترين من الالمعية بحيث استبانت ما طرأ على الجو السياسى من تغيير: فقد كانت تعلم أن الأغلبية العظمى من الشعب الفرنسى لا تزال مخلصة للعقيدة القديمة رغم أن ما يقرب من ثلث النبلاء أصبحوا من الهيجونت. كانت تخشى الحرب وسطوة أسبانيا ونفوذ كولينى على ابنها، كما كانت تخشى أن يوجه آل جيز ضربتهم إذا ما بقيت ساكنة، ومن ثم ينتزعون لأنفسهم السيطرة على فرنسا، وكات من الحذق بحيث أدركت أن حربا تشنها فرنسا للاستيلاء ولو على شبر من أراضى الفلاندر لن تحظى بعطف الحكومة الإنجليزية لأمد طويل. لكل هذا قر قرارها على تدبير مقتل كولينى. ولكن الهجوم عليه فشل، ولم يكن الجرح الذى أصابه على يد كاثوليكى مسلح بالغا (٢٢ أغسطس ١٥٧٢) ومن ثم أصبح مركز الملكة الوالدة دقيقا. وكانت باريس مزدحمة بالهيجونت الذين أتوا إلى العاصمة لشهود حفلات الزواج الملكى، وقد استشاطوا غضبا للاعتداء على زعيمهم موضع حبهم وتقديرهم العميقين. وحتى لا يتطور الأمر من سئ إلى أسوأ، صممت الملكة على إعادة الكرة ليس ضد كولينى وحده فى هذه المرة ولكن ضد الزعماء البروتستانت. وانخدع الملك الضعيف بقصة مؤامرة يدبرها الهيجونت. وأمكن اقناعه بالموافقة.[1]

وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس – وهو يوم القديس بارثلميو – أعطت إشارة القيام بالمذبحة الكبرى التى قتل فيها بطريقة وحشية بضعة آلاف من الهيجونت

---

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٩٢.

وزعمائهم، ولم تقتصر المذبحة على باريس بل هوجم الهيجونت فى الأقاليم أيضا، وقد نفذت هذه المذبحة الوحشية آل جيز الذين انتظروا هذه الفرصة طويلا حتى ينتقموا لأنفسهم شر انتقام، وقد لاقى "كولينى" حتفه فى المذبحة وأرسل رأسه إلى البابا الذى أمر بنقش ميدالية تخليدا لتلك الذكرى التى اعتبرها سعيدة وموفقة.

أما هنرى دوق نافار فقد نجا من الموت عندما عرض عليه فى البلاط الملكى أن يختار بين الإعدام والعودة إلى الكاثوليكية فقبل الكاثوليكية انقاذا لحياته وكذلك فعل "كونديه".

وكانت تلك المذبحة صدمة كبرى لآمال البروتسنت لا فى فرنسا وحدها بل وفى أوروبا كلها. على أن تلك المذبحة لم تزد من بقى من الهيجونت إلا تحمسا وإصرارا وقرروا ألا يستسلموا لليأس مصممين على مواصلة الكفاح فى سبيل عقيدتهم وكيانهم حتى آخر رجل منهم، وبدلا من أن تحث المذبحة جماعة الهيجونت كانت مقدمة لحرب أخرى، ولذلك لم يتوقف النضال مدى عشرين عاما أخرى.[1]

لم تسفر مذبحة سان برتلميو عن انتهاء متاعب كاترين ميديش من ناحية الهيجونت. لأن هؤلاء ازدادوا تصميما على المقاومة بعد المذبحة، وتحصن من نجا منهم حصن لاروشيل المنيع. وبذلك بدأت الحرب الدينية الرابعة.

وفى هذه الحرب الرابعة حاصر الكاثوليك لاروشيل ثمانى شهور ولكن من غير نتيجة، واضطر الملك إلى عقد سلام لاروشيل ونيم Nimes ومونتبان Montauban كما اعترف لهم بحرية العقيدة واستعادوا أملاكهم المصادرة واسترجعوا وظائفهم ومرتباتهم التى حرموا منها: وهكذا خرج الهجونت من هذه الحرب، وبعد مضى عام واحد تقريبا على مذبحة سان برتلميو، مززى الجانب أكثر من أى وقت مضى. وتوفى شارل التاسع فى مايو ١٥٧٤. واعتلى العرش هنرى الثالث ولكن قبل وفاة شارل التاسع كانت قد بدأت منذ فبراير ١٥٧٤ الحرب الدينية الخامسة.

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٥٤ - ١٥٥.

ولكن مما يجدر ذكره أن تحولا كان قد طرأ على موقف الهجونت أنفسهم منذ سنة ١٥٧٣ عندما أدركوا بعد مذبحة سان برتلميو أنه بات من المتعذر إنشاء دولة كلفينيةفي فرنسا على نمطالدولة التى انشأها زملائهم الكلفيينون في اسكتلندا. فأخذوا يعملون من هذا الحين للاطمئنان على استقلالهم الديني والعيش في أمان ومن غير اضطهاد من جانب الدولة الكاثوليكية وقد أثر هذا التحول في جماعة من المعتدلين الكاثوليك الذين رأوا فيه وسيلة لانهاء الحروب الدينية وإعادة السلام إلى فرنسا على أساس إعطاء الهيجونت الحياة الدينية المستقلة التى ينشدونها في نطاق الدولة الكاثوليكية الفرنسية، والقضاء على جميع الاضطرابات سواء كان منبع هذه الاضطرابات التعصب الكاثوليكي أو البروتسنتي وأما هؤلاء الكاثوليك المعتدلون فيعرفون باسم (السياسيين) Les Politiques ومن زعمائهم دامفيل Damville من أقرباء كوليني الكاثوليكي. ونال المعتدلون أو السياسيون كذلك تأييد شقيق الملك الدوق دالنسون d'Alencon وكان من أثر ظهور هذه الجماعة، أن قوى جانب الهجونت الذين انضم إليها هنرى نافار، وكان قد اعتنق الكاثوليكية أثناء مذبحة سان برتلميو حتى ينجو فارتد إلى الكلفنية. وكان ائتلاف السياسيين والهجونت سببا في تكوين جيش من الفريقين اشتبك مع قوات الملك هنرى الثالث والكاثوليك في معارك الحرب الخامسة منذ فبراير ١٥٧٤م.[1]

ولكن النصر في هذه الحرب الدينية الخامسة كان من نصيب الكاثوليك وعندئذ فضلت كاترين مديشي حريا على عادتها أن تعقد الصلح. فتوسط دالنسون شقيق الملك الأصغر في ذلك فابرم صلح "بوليو" Beaulieu أومسييه Monsieur وهو اللقب الذى حمله دالنسون في مايو ١٥٧٦ وكان هذا الصلح في مصلحة الهيجونت وزعمائهم هنرى نافار والبرنس كونديه ومن مصلحة دالنسون نفسه، فحصل دالنسون على دوقيةانجو. وهنرى نافار على حكومة جويين Guyenne، وكونديه على بيكاردى وبمقتضاه كذلك الغيت كل الأحكام السابقة التى صدرت

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٦٠.

ضد الهجونت وحصل هؤلاء على ثمانى مدن. يلجأون إليها وأعطوا حق العبادة فى أى مكان يريدونه عدا باريس وفى البلاط الملكى فاثار هذا الصلح غضب الكاثوليك وقامت الحرب الدينية السادسة.[1]

لهذا تكون اتحاد كاثوليكى أو الحلف الكاثوليكى union Catholique ويسمى أيضا بالحلف المقدس Saint - Ligue - يرعاه البابا وملك أسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية فى فرنسا.

وفى عام ١٥٨٤ توفى الأخ الأصغر للملك، وكان أصغر أبناء كاترين والأخ الوحيد لهنرى على قيد الحياة. ولما كان الملك لم ينجب نسلا، فلا مناص من أن يكون هنرى نافار الوريث التالى للعرش. وأصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسيين أن "الجمهورية خير من تولى ملك من الهيجونت" واصبح هنرى الثالث لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز يؤيدهم إذ ذاك مثل هذا الشعور الحماسى الدافق، أحنى الملك رأسه، ومضى فى حماية السفاكين، تحيط به شبكة من المؤامرات، بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقية على فرنسا الكاثوليكية، وظهر مدى ضعف الملك فى يوم المتاريس La Journée des Barricades (١٢ يوليو ١٥٨٩) حين رفضت باريس فى ولائها لهنرى دون جيز - أن تسمح لقوات الملك بالدخول إلى المدينة، كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين أصدر مجلس طبقات الأمة فى اجتماعه فى بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين - سلسلة من القوانين التى كان من شأنها - لو نفذت - أن تؤدى إلى إفلاس الخزانة وحرمان الحكومة من آخذ مقومات سلطتها. ولقد حاول الملك أن يتخلص من هذه المهانات فلجأ إلى الاغتيال: فقتل دوق جيز كاردينال اللورين فى قلعة بلوا قرابة عيد ميلاد عام ١٥٨٨م على يد بعض أتباع الملك.

---

(١) محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٦١.

وكانت الملكة الوالدة العجوز على فراش الموت حين حمل إليها أحب أبنائها الخير قائلا كما يروى "الآن غدوت ملك فرنسا، لقد قتلت ملك باريس فكان جوابها "أرجو الله أن يكون ذلك، حقا، ولكن هل تأكدت من المدن الأخرى"[1].

وأعلنت العصبة الكاثوليكية خلع هنرى عن العرش وحاولت أن تحكم العاصمة والبلاد كان عدد كبير من الفرنسيين يتزايد يوما بعد آخر – وهم ليسوا من الهجونت ولا من أتباع العصبة يتجهون بأفكارهم إلى هنرى نافار وارث العرش بحكم القانون، وكان مقربا إلى الشعب وكان بروستينيا بعكس قريبه كاثوليكيا. ووجد ابنا العم أن مصلحتها المشتركة تدعوهما إلى مهاجمة الكاثوليكية، تلك العصبة التى خلعت أحدهما وأعلنت أن الآخر لا يستحق العرش، ولكن بينما كانت جيوشهما تقف خارج باريس، خر الملك صريعا على يد يعقوبى "جاك كليمان Jacques Clement أول أغسطس ١٥٨٩ وبذلك انتهى حكم أسرة الفالوا الطويل فى فرنسا، وانفتح الصراع المباشر بين هنرى نافار و"العصبة".

وحكمت باريس باسم العصبة لجنة من ستة عشر بإشراف دوق مايين Mayenne الأخ الأصغر لهنرى جيز. وقد فرضت نظاما من الإرهاب يشبه لجنة الأمن العام عام ١٧٩٤. ويستند المدافعون عن تلك اللجنة إلى أنها صانت لفرنسا عقيدتها الكاثوليكية وهى أكثر ملاءمة للناس من البروتستانتية، وأن الجرائم التى ارتكبها كرهت الناس فى النزعات الجمهورية مدى قرنين من الزمان. وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن إعادة الملكية الوراثية من شأنه أن يقلل من فرص الانقسام، ولما كانت البلاد لا تقبل حكم أميرة أسبانية ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الأمة، فإن الكتلة الرئيسية الارستقراطية الفرنسية قد التفت حول الأمير البوربونى. ولكن التعصب كان لا يزال حادا بلغ من حدته أن هنرى – حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستناتية فى كنيسة

[1] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٩٣.

سان دنيس (٢٥ يوليو ١٥٩٣) - اضطر إلى الانتظار مدى ثمانية شهور خارج أسوار باريس قبل أن يتمكن من التغلب على مقاومة المدينة.[١]

وأصدر مرسوم نانت الذى منح الهيجونت حقوقا سياسية مساوية لحقوق الكاثوليك، ولكنه لم يضمن لهم على أى حال الحرية التامة فى ممارسة عقائدهم الدينية. منح المرسوم حق ممارسة عقيدة الإصلاح للنبلاء الذين يملكون حق محاكمة المجرمين (الأسياد من علية القضاة) وللمواطنين فى عدد معين من المدن والبلدان، ولكنه حرمه فى جميع المدن الأسقفية أو التابعة لرؤساء الأساقفة، وفى البلاط الملكى وفى باريس، وكذلك فى نطاق عشرين ميلا حول العاصمة. وفتحت أبواب الوظائف العامة أما الهيجونت وانشئت المجالس النيابية المختلطة وفى البرلمان الأربعة (فى باريس، وتولوز وجرينوبل وبوردو). وحصل الهيجونت على بعض المدن المحصنة، واعترف بهم إلى حد ما كحزب سياسى مسلح. ولم يسجل البرلمان مرسوم نانت الا بعد تأخير طويل. وإن كان المرسوم لم ينشئ شيئا مثل "كنيسة حرة داخل دولة حرة"، فإنه قد اعترف قانونيا بنوع من التسامح لم يكن بعد معروفا بطريقة رسمية فى أى مكان آخر. وفى معاهدة فرفان (٢ مايو ١٥٩٨) مع أسبانيا، إعادة جميع الفتوح إلى فرنسا.[٢]

وإتباع الإجراءات العاملة على تحسين الحالة المالية والرفاهية العامة، التى تدهورت وبخاصة على يد روسنى فيما بعد دون سلى (١٥٦٠ - ١٦٤١) مشروع خيالى ينسب للملك أو إلى سلى لتأسيس جمهورية مسيحية عالمية فى أوروبا، تشتمل على ست ملكيات وراثية (فرنسا - انجلترا، أسبانيا، دانيمرال، السويد، لمبارديا) وخمس ملكيات انتخابية (الامبراطورية البابوية بوهيميا) وأربع جمهوريات (سويسرا - إيطاليا، البندقية بلجيكا) التى من المحتمل أن تصبح حلفا ضد سلطان أسرة الهابسبورج العظيم ومع ذلك فإن هذه الخطة العظيمة كانت سابقة لمشروعات

---

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث. ١٩٤.

(٢) وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ٤، ترجمة محمد زيادة، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٠٣٨ - ١٠٣٩.

متأخرة لتنظيم أوروبا دوليا. مسألة وراثة إقليم كليف جوليش، وهنرى الرابع يؤيد مطالب برندبرج وسط الاستعدادات العظيمة للحرب قتل هنرى فى باريس ١٦١٠ (١٤ مايو) على يد رفياك المتعصب.

أما الفترة العصيبة (١٦١٠ – ١٦٤٣)، فإنه بعد مقتل هنرى فقد تولى (لويس الثالث عشر) ابنه فى التاسعة من عمره، وصاية أمه عليه ميرى مديش بعزل سلى من منصبه، أصبح كونسينى الإيطالى يسيطر على مقاليد الأمور، بلغ لويس الثالث عشر سن الرشد فى ١٦١٤ ولكنه فى الواقع كان طوال حياته تحت قيادة الآخرين. واجتمع مجلس طبقات الأمة ١٦١٤، آخر اجتماع قبل الثورة فى ١٧٨٩. وقبض على كونسينى وقتله، نفى الملكة إلى بلوا (١٦١٧) الملك تحت نفوذ صفيه دوق لونيس. عن طريق وساطة أرمان جان دوبلتيس (١٥٨٥ – ١٦٤٢) كردينال دوق ريشيليو، ابرمت معاهدة بين لونيس والملكة الأم (١٦١٩) وبدأت حرب أهلية جديدة حيث ناضل الملك مع النبلاء والهيجونت بعد وفاة لونيس (١٦٢١) وتسيطر على الشئون مارى مديش وصبغها ريشيليو لم يلبث أن ساد نفوذ الأخير، فتشاجرت الملكة معه.[1]

وأصبح ريشيليو (١٦٢٤ – ١٦٤٢) له نفوذ على الملك منذ ذلك الحين كاملا. دبرت عدة مؤامرات ضده حرض عليها جستون أدرليان أخو الملك.. وقامت ثورة الهيجونت (١٦٢٥) تحت زعامة دوق روهان ودوق سوبيس. وحاصر ريشيليو لاروشيل (١٦٢٧ – ١٦٢٨) على الرغم من إرسال انجلترا ثلاثة أساطيل لمساعدة الهيجونت، سلمت المدينة فى ٢٨ أكتوبر ١٦٢٨، بعد مقاومة فيها بطولة استمرت أربعة شهرا. هزيمة دوق روهان وإخضاع الهيجونت إخضاعا تاما؛ لم يعد الهيجونت بعد ذلك حزبا سياسيا مسلحا، وإنما مجرد مذهب له حريته الدينية، ودارت الحرب مع أسبانيا فى إيطاليا؛ إخضاع سافوى، وريشيليو على رأس الجيش. وفى عام ١٦٣١ عقد معاهدة شيراسكو: تنازلت فرنسا عن كل فتوحاتها فى إيطاليا، ولكن بمقتضى معاهدة سرية مع فيكتور أمديوس دوق سافوى تم التنازل لفرنسا عن بنيرول (كان

---

[1] وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ٤، ص١٠٣٩.

المفاوضان فى هذه المعاهدات؛ الأب جوزيف وهو موضع ثقة ريشيليو ومزران المبعوث البابوى.

وواجه ريشيليو العديد من المؤامرات منها مؤامرة مارى مديش الأخيره لخلعه وفشلت هذه المؤامرة، ثم فشلت مؤامرة جستون ودوق منتمرنسى، وأعدم. وفى عهده اشتركت فرنسا فى حرب الثلاثين عاما (١٦٣١ - ١٦٤٨). وتأسست الأكاديمية الفرنسية.

وعلى الرغم من أنه لم يكن مديرا ماليا طيبا، فإنه ساعد نوعا من أن يزيد من نفوذ البيرقراطية الملكية (عمال الملك) على حساب النبلاء، والهيجونت والبرلمانات. ومع ذلك فإن عظمته الحقيقية تظهر فى ميدان السياسة الخارجية. أعاد لفرنسا نفوذها فى إيطاليا والأراضى المنخفضة وألمانيا، وكذلك أقام هذا النفوذ فى السويد. وقد كان عمله هو الذى وضع أساس سلطة لويس الرابع عشر، كما أصبح الأساس التقليدى لسياسة فرنسا الخارجية.[1]

---

[1] وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ٤، ص١٠٤٠.

الفصل السابع

الإصلاح الكاثوليكى أو انتعاش الكنيسة الكاثوليكية



حققت البروتستانية مكاسب كبرى، واكتسحت أمامها الكاثوليكية، فإن ثلاثة أرباع ألمانيا قد نبذت ولاءها لكنيسة روما، وقطعت انجلترا علاقاتها التى كانت تربطها بروما، واعتنقت الدانمرك والسويد والنرويج الحركة اللوثرية، وانتقلت حركة الإصلاح الدينى إلى فرنسا وهولندا، واجتذبت الآراء الجديدة جموعًا غفيرة من سكان بولندا وبوهيميا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن شبه الجزيرة الإيطالية لم تخل من أنصار يؤيدون البروتستاناتية قلبًا وقالبا. وفى خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحى فى أوروبا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونبذ ولاءه للبابا.

هال الكاثوليك هذا الانتشار السريع الذى حققته البروتستانية وما تفرع عنها من مذاهب. كانت البابوية هى صرح المسيحية الشامخ فى أوروبا وتثير فى نفوس أتباعها ذكريات عزيزة عطرة: فهى القوة الوحيدة فى غربى أوروبا التى استطاعت حماية التراث الرومانى وسط الفوضى التى عمت أوروبا عقب سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى أواخر القرن الخامس الميلادى وهى القوة التى أثارت الحروب الصليبية وجعلت أوروبا تتدافع فى موجات بشرية متلاحقة نحو الشرق منذ القرن الحادى عشر وعلى مدى قرون متعاقبة ابتغاء تنصيره واستغلاله، وإنشاء كيانات سياسية كاثوليكية فى ربوعه، ثم غدت البابوية فى القرن السادس عشر الأمل المرتجى فى إذكاء الوعى الصليبى بين شعوب غربى أوروبا لمواجهة الخطر الإسلامى ممثلا فى الأتراك العثمانيين الذين روعوا هذه الشعوب بزحفهم الخاطف على قلب أوروبا ثم باستيلائهم على جزيرة رودس وغيرها من القواعد العسكرية والجيوب الصليبية فى حوض البحر المتوسط. فكان الرأى العام المتحمس لكنيسة روما، والذى يتقد تعصبًا، لا يطيق أية حركة انفصالية عنها تؤدى إلى إضعافها، وهذا الرأى العام نفسه، لم يكن يهتم ببقاء الكنيسة القسطنطينية منفصلة عن كنيسة روما، لأن الغالبية العظمى من رعايا الكنيسة الشرقية أصبحوا خاضعين لحكم الأتراك

العثمانيين من ناحية، وكان المجتمع الأوروبى لا يعرف كثيرا عن دول شرقى أوروبا من ناحية ثانية.

ولما استفاق الكاثوليك على الحقيقة التى كانت مروعة بالنسبة لهم، وهى انتشار البروتستنانية فى أوروبا طولا وعرضا، أدركوا أنه لم يعد فى الإمكان تأجيل إصلاح الكنيسة الكاثوليكية الذى طالما تنادى إليه المصلحون من قبل ظهور لوثر ومن بعده. واتخذت البابوية منذ حوالى منتصف القرن السادس عشر إجراءات عملية لإصلاح الكنيسة. وكان هذا الإصلاح هو رد الفعل لحركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وغيره من المصلحين. ولذلك يطلق على حركة الإصلاح الكاثوليكى عبارة La Contre Reforme أى حركة الإصلاح الدينى المضاد، كما كان يطلق عليها فى بعض المصادر الثورة الدينية المضادة فى القرن السادس عشر، ويطلق عليها البعض الآخر الانتعاش الرومانى الكاثوليكى أو رد الفعل الرومانى الكاثوليكى.[1]

إن الإصلاح الدينى الذى تطلع إليه المخلصون من أتباع كنيسة روما – وهو الذى يطلق عليه الإصلاح الدينى المضاد – كان يختلف اختلافا تاما عن الإصلاح الدينى الذى بدأ فى ألمانيا على يد لوثر ثم امتد إى أصقاع أخرى فى أوروبا. لقد كان الإصلاح الأخير حركة ثورية تناولت أساس العقيدة ونظم الكنيسة وطقوسها، وأوجدت هذه الحركة الثورية عددا من الكنائس فى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وغيرها قامت على أساس المبادئ التى تنادى بها لوثر وزونجلى وكلفن وغيرهم. كانت هذه الكنائس مستقلة استقلالا تاما عن كنيسة تختلف عن نظم وطقوس الكنيسة الكاثوليكية. من ناحية ثانية، كما كانت هذه الكنائس الجديدة لا تجمع بينها رابطة الوحدة من ناحية ثالثة. فهذا الإصلاح الدينى كان له الطابع الثورى والطابع الانفصالى معا.[2]

---

[1] عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطع العصور الحديثة، ص٥١٨ – ٥١٩.

[2] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥١٩ – ٥٢٠.

أما الإصلاح الديني المضاد فكان يهدف إلى تطهير الكنيسة الكاثوليكية مما لحق بها من ضروب الفساد فى أنظمتها وسلوك رجالها على أن يمتد الإصلاح فيشمل البابا ومن دونه من جميع فئات رجال الدين أو حسب التعبير اللاتينى الذى ترد على السنة دعاة الإصلاح فى ذلك العصر du Capite et in memberis "أى الرأس والأعضاء". وقد عرفنا قبل ذلك أن النصف الأول من القرن السادس عشر، كان البابوات يطلق على عدد منهم "بابوات النهضة" حرفهم ضياء النهضة ووجهها الباسم المشرق عن الاهتمام برسالة الكنيسة، وعاشوا حياة حفت بها أسباب المجون والعشق، وزجوا بأنفسهم فى غمار السياسة الإقليمية فى إيطاليا حينًا وفى السياسة الدولية حينًا آخر سعيًا وراء تحقيق أمجاد ومغانم شخصية لهم ولعائلاتهم. وقد شغلتهم هذه الحياة الخاصة والعامة عن حشد جميع الطاقات للوقوف فى وجه الحركة اللوثرية وهى لا تزال فى مهدها. وكانت هناك حوادث مشينه فى البلاط البابوية تتصل باستغلال النفوذ والتلاعب فى أموال الصدقات والرشا والمحاباة وتعيين الأقارب فى الأجهزة البابوية، وكانت أصابع الاتهام فى معظم الحوادث تشير إلى البابا وإلى المقربين إليه.[1]

ولم يكن الأساقفة أرقى خلقًا أو أفضل مسلكا من البابوات ولم يقيموا فى مقار اسقفياتهم بل عاشوا بعيدين عنها حياة طليقة من كل قيد، يأتيهم رزقهم رغدًا من الإيرادات الضخمة التى تحصل عليها كل أسقفية. وامتد الجشع المادى والانحراف الخلقى إلى طائفة القسيسين فعاشوا حياة بعيدة عن روح الدين. كان القسيس الواحد يسيطر على عدة أبرشيات ويستولى على إيراداتها لنفسه الأمر الذى قضى على العدالة فى شغل المناصب الدينية وعصف بمبدأ تكافؤ الفرص. وفشا المجون والفسق بين عدد كبير جدًا منهم حتى أصبح أمرًا عاديًا أن يكون للقسيس عشيقة لإرضاء مطالب جسده بدلا من أن يعمل على الاستعلاء بالغريزة إلى ما هو أسمى ومع ما يتفق مع رسالته فى الحياة. ولم يهتم القسيسون بالناحية الشكلية أو المظهرية

[1] عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٤٢٠.

فسمحوا لأنفسهم بارتداء الملابس المدنية. وابتعدت المؤسسات الديرية عن حياة التقشف والورع والزهد وأقبل الرهبان على ألوان شتى من المتع يفترقون منها بأوفى نصيب، وتحول رؤساء الأديرة إلى شخصيات سياسية وباعدوا بين أنفسهم وبين المثل العليا والمبادئ الديرية.[1]

وحدث إجماع في الأوساط الكاثولية على أن المجتمع الكنسي يتضح بهذه الصورة المعتمة من الانحلال والفساد، وكانت هذه الأوساط ترى إصلاح الكنيسة عن طريق القضاء على هذه المساوئ ابتغاء الإبقاء على وحدة الكنيسة واسترداد مواقعها التي فقدتها واستعادة المكانة السامية التي تبوأتها البابوية في العصور السابقة، ولكنها كانت حريصة على ألا يؤدي الإصلاح المنشود إلى اضعاف سلطة الكنيسة أو المساس بشخص البابا فهو نائب المسيح على الأرض وخليفة القديس بطرس، فلم يكن هدف حركة الإصلاح الديني المضاد هدفًا ثوريًا هو الإطاحة بالكنيسة والبابوية، إذ كانت حركة اتسمت بالطابع المحافظ الذي يحرص على إبقاء القديم على قدمه مع الاهتمام بإصلاح النظم الكنسية وتجنب إدخال تغييرات أساسية في العقيدة. وهكذا كانت نظرة الكاثوليك إلى إصلاح كنيستهم: العمل على إيجاد إدارة أمينة مخلصة على درجة عالية من الكفاية والنزاهة والالتصاق بالدين.[2]

ولقد اتضح لكل العقلاء من الكاثوليك منذ زمن بعيد أن الكنيسة قد أضحت كومة عالية من المفاسد. سلم البابا أدريان السادس بالحاجة إلى الإصلاح، وكان قبل قد كتب عن كثير من الأمور المشينة التي استشرت في البلاط البابوي ذاته، كما اعترف بذلك الداء المزمن الذي استشرى في كيان الكنيسة برمتها بحيث كان من العبث إخفاؤه. نفس النغمة ترددت بشكل أكثر تجسيمًا في وثيقة تستحق الاهتمام "(عن الإصلاح الكنسي المتعلق بنظم الكرادلة Constitutium quarindam

---

[1] نفسه، ص٤٢٠.

[2] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٢١.

Cardinalium emendenda ecclesia. قدمت إلى البابا بول الثالث في عام ١٥٣٨. هذه المفاسد الصارخة كانت أوضح في البلاط البابوي ومدينة روما منها في أي مكان آخر.[١]

كان البابا يتمتع بسلطان مطلق. فقد وقف – معتزا بتقاليد طال عليها الأمد في السلطة المطلقة – يقاوم بعناد أي اقتراح يرمي إلى أن يتم إصلاح الكنيسة على أيدي مجالس قومية أو أن يطلق أيدي المجامع المسكونية للكنيسة في إخضاع الملاحدة أو تعريف صلاحيات الكرسي المقدس أو تحديدها. فقد كان للكنيسة في القرن الخامس عشر تجربة من تلك المجامع، وقد اعتبرتها شرا ينبغي تجنبه، ولا يسمح به إلا إذا تلقت تلك المجامع أوامرها من روما.[٢]

مجلس ترنـــت:

ومع ذلك، فبعد كثير من التسويفات والاعتراضات دعى مجمع ديني إلى الانعقاد في ترنت Trent، فكان مرحلة حاسمة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وذلك رغم أن أعضاءه لم ينتظموا في حضور جلساته، وأن هذه الجلسات أجلت عدة مرات استمرت إحداها عشر سنوات. وخرجت الكنيسة في آخر الأمر بتعاليمها وقد تحددت ونظامها وقد توطد، وصلواتها وقد أثرتها روعة موسيقى بالسترينا. وقد دخلت البابوية المجمع عرضة للكثير من الاحتمالات، وخرجت منه منتصرة في كل قضية. وبدلا من أن تضطر إلى التنازل مرضاة للوثرين، أصرت على أن تضع مبادئ العقيدة على رأس موضوعات المناقشة واستطاعت – بفضل ما كان لها في أشخاص القساوسة الإيطاليين من أغلبية طيعة – أن تحصل خلال الجلسات الأولى على قرارات قاطعة بصدد المسائل الأساسية الثلاث: سلطة نصوص الإنجيل، ومبدأ التبرير بالإيمان وحده، وطبيعة القربان المقدس – وهي المسائل التي فصلت العالمين اللوثري والكاثوليكي كلا عن الآخر. وبهذه القرارات ضيعت البابوية نهائيا على الامبراطور أمله الذي

---

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ١٦٩.

(٢) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث ١٦٩ – ١٧٠.

طالما راوده فى أن يهتدى إلى خطة لتسكين ثائرة رعاياه اللوثرين ورسمت خطًا بينًا عميقًا وواضحًا فصل بين العقائد الكاثوليكية والبروتستنانتية، ووضع بذلك حدًا لمحاولات التوفيق، وبدأ عهدا من الصراع الصريح بين الجانبين. ولقد قال بعض المؤرخين الكاثوليك إن الكنيسة بهذه القرارات قد "طبعت نفسها بطابع عصر متسم بالتعصب واستدامت روح الفساد." ولم تراجع قط بعد ذلك تلك التشريعات التى خرج بها مجمع لم ينتظم حضور أعضائه وكان يتكون فى أساسه من قساوسة إيطاليين يخضعون للبابوية – وهى باقية إلى اليوم باعتبارها عقيدة الكنيسة الكاثوليكية.[1]

وقد تعرّض المجمع المسكونى لأزمات عنيفة وتوقفت أعماله هذه عدة مرات بلغت فى إحداها عشر سنوات، واهتز مركزه اهتزازت شديدًا، وكادت أن تتبدد الآمال التى علقها عليه أنصار البابوية، مما جعل هذا المجمع من المجامع الفريدة فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، فقد استمر ثمانية عشر عامًا (١٣ ديسمبر ١٥٤٥ – ٤ ديسمبر ١٥٦٣) وعاصر خمسة بابوات تعاقبوا على كرسى البابوية فى هذه الفترة. ولقد وضح من أول الأمر أن المجمع يتضمن كتلتين رئيسيتين هما الكتلة البابوية وقوامها مندوبو البابا ورجال الدين الإيطاليين، ثم الكتلة الامبراطورية وتتكون من رجال الدين الأسبان وكانوا يمثلون اتجاها سياسيا معينا أقرب إلى تأييد الأمبراطور شارل الخامس منهم إلى مناصرة البابا بول الثالث. ويلاحظ أن رجال الدين الأسبان على الرغم من تعصبهم الشديد للمذهب الكاثوليكى، إلا أنهم كانوا ينظرون شذرًا إلى البابوية خشية تدخلها فى الشئون الدينية فى أسبانيا وتغلغل نفوذها فى إدارة الكنائس الأسبانية، كما كانت الكتلة الامبراطورية تشمل ممثلى بروتستانت ألمانيا. وتشابكت الدوافع السياسية مع العاطفة الدينية فى نفوس رجال الدين الفرنسيين، ولذلك كانت تغمرهم رغبة قوية فى دعم الكنيسة الجاليكانية. وهى الكنيسة الفرنسية، وودوا لو استطاعوا تقليم أظافر البابوية وعدم التمكن لها فى التغلغل فى الشئون الدينية لفرنسا. ولذلك كان البابا يعتمد فى هذا المجمع المسكونى على الأساقفة

---

[1] هربرت فيشر، أصول التاريخ الحديث، ص١٧٠.

الإيطاليين، وكانت الكتلة البابوية أوفر عددًا من التجمعات الأخرى، كما كانت تعتمد في تمويلها ماليًا على كنيسة روما.[1]

كان من أولى الأزمات التي واجهها المجمع المسكوني في ترانت المناقشات الصاخبة بين أنصار الكتلة البابوية وأعضاء الكتلة الامبراطورية حول جدول أعمال المجمع وترتيب المسائل التي يتضمنها هذا الجدول وأيهما أحق بالأولوية في العرض والمناقشة والتصويت. كانت هناك مسألتان رئيسيتان تفرضان نفسيهما فرضا على المجمع: المسألة الخاصة بتحديد العقيدة الدينية، والمسألة الخاصة بإصلاح نظم الكنيسة. كان مندوبو البابا يرون البدء بالمسألة الأولى، واعترض رجال الامبراطور خشية أن يؤدي تحديد العقيدة إلى سد الطريق أما أي صلح أو تقارب بين الكاثوليك والبروتستانت، وخضع المجمع لشتى أنواع التيارات المتضاربة.[2]

وشعر البابا أن مناقشات المجمع لا تسير على الوجه الذي كان يبتغيه، فأوغر إلى أعضاء الكتلة التي تناصره بأن يطلبوا نقل المجمع إلى مدينة أخرى إذا كان مثل هذا النقل يتيح لهم جوًا مناسبًا للمناقشة دون أن يتعرضوا لضغط خارجي. واتخذ هؤلاء من انتشار وباء الحمى في مدينة ترنت في ربيع ١٥٤٧ ذريعة إلى نقل المجمع إلى مدينة بولونا Bologne في إيطاليا وهي أقرب إلى روما من المدينة السابقة. ولما عرض اقتراحهم ظفر بأغلبية كبيرة. وانتقل إلى بولونا أعضاء الكتلة البابوية بينما ظل في مدينة ترانت أعضاء الكتلة الامبراطورية. وعقد المجمع جلساته في المدينة الجديدة، ولكنه لم يستطع أن ينجز عملا ذا قيمة كبيرة. وقد زاد هذا النقل من شقة الخلاف بين البابا والأمبراطور الذي أثار نقل المجمع إلى بولونا وطالب بإعادته إلى مقره الأول من ترانت. وأراد البابا أن يخفف من فوره غضب الامبراطور فعرض مدينة أخرى ينتقل إليها المجمع هي فرار Ferrare لأن حاكم

---

[1] عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ٥٣٨ - ٥٣٩.

[2] نفسه، ص٥٣٩.

فرار كان يعتبر تابعا للامبراطور على أساس أنه يحكم مودينا Modena، ولكن رفض الامبراطور هذا العرض وقدم فى يناير ١٥٤٨ احتجاجا شديد على نقل المجمع من ترانت.

واتخذ الامبراطور إجراء هاما حين عرض على المجلس الامبراطورى – الدايت – فى ١٥ مايو ١٥٤٨ النظام المؤقت لحسم الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت وكان ينطوى على بعض التسهيلات إرضاء للبروتستانت واعتبر الكاثوليك هذا العمل إجراء غير ودى نحوهم. كما نظرت إليه الدوائر البابوية على أنه اعتداء صارخ على سلطة البابا وتدخل من الامبراطور فى مسائل العقيدة الدينية وهى من أخص اختصاصات البابا.

وبذلت محاولة لنقل المجمع إلى روما ولكنها لم تنجح. وفى هذه الأزمة طلب أعضاء الكتلة البابوية إلى البابا أن يعفيهم من عضويتهم فى المجمع أو يسمح لهم بالمضى فى عملهم دون أن تطغى السياسة على المسائل الدينية التى يناقشها المجمع. وأصدر مرسوما مؤرخا فى ١٧ سبتمبر ١٥٤٩ بإيقاف جلسات المجمع.[1]

وعاود المجمع اجتماعاته حيث اجتمع المندوبون الإيطاليون فى المكان والزمان المحددين فى ترنت سنة ١٥٥١ ولكن أثار ملك فرنسا عقبات فى طريق المجمع، وأحتج على اختيار مدينة ترنت مرة أخرى لتكون مقرا لاجتماعات المجمع. وبنى احتجاجه على أسانيد مكرورة كان من بينها أنها مدينة امبراطورية، أى داخل نطاق الامبراطورية الرومانية المقدسة فهى لا تمثل المدينة المحايدة. ولم يلبث أن قرن احتجاجه بإجراءات عنيفة وتهديد أشد عنفا: منع رجال الدين الفرنسيين من الاشتراك فى المجمع، واستدعى إلى فرنسا الأساقفة الذين كانوا موجودين فى مدينة ترنت، ثم طرح أمام المجلس الملكى فى باريس تشريعا خطيرا هو تأسيس كنيسة فرنسية مستقلة تماما عن كنيسة روما ولا تدين بالولاء للبابا فى روما.

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٣٠.

ولم يكن مثل هذا المشروع جديد على أوروبا فقد نفذت انجلترا مشروعا على غراره حين قطعت، علاقاتها بكنيسة روما.[1]

وأما ضغط الامبراطور وصل إلى مدينة ترانت مندوبون عن الأمراء الألمان البروتسنت. ولكن انطوى سلوكهم وتصرفاتهم بمجرد وصولهم على قدر كبير من التحدي والتعالي. رفضوا التقليد المعتاد وهو القيام بزيارة لمندوبي البابا في المجمع. وفي فيض لا يتقطع من التصريحات أعلنوا أن الإنجيل دون سواء هو الأساس وهو الفيصل في تفسير العقيدة الدينية. وطالبوا بتأكيد القرارات التي صدرت عن المجمعين المسكونين اللذين عقدا في مدينة كونستانس وفي مدينة بال – وصرحوا بأن سلطة المجامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات. وقد أبدى البابا جيل الثالث الكثير من ضبط النفس والمصابرة إزاء هذه التصريحات التي تتابع صدورها من المندوبين البروتستانت. وبات واضحًا أن الاتفاق بين البروتستانت والكاثوليك أمر بعيد المنال إن لم يكن في حكم الاستحالة.

وعلى الرغم من هذا العقبات فقد واصل المجمع المسكوني عقد جلساته بعض الوقت وبحث موضوعات شتى، وفي أثناء المناقشات طلب بعض مندوبي الأمراء البروتسنانت استدعاء فقهاء المذهب البروتستنانتي لسماع آرائهم في بعض النقاط، واستجاب المجمع لهذه الرغبة، وأرسل إليهم يدعوهم لحضور الجلسات وأرفق بالدعوة أمانا شخصيًا لكل فرد منهم وحدد لهم جلسة ٢٥ يناير ١٥٥٢ لعرض آرائهم. وحل هذا التاريخ دون أن يحضر أحد من الفقهاء البروتسنانت إلى ترنت، فبعث إليهم المجمع المسكوني دعوة أخرى وأرفقها بأمان شخصي جديد، وأرجأ اجتماعه لجلسة ١٩ من مارس ١٥٥٢.[2]

وبينما كان الموقف في ترنت يموج بشتى التيارات إذا بالحرب تشتعل في ١٢ فبراير ١٥٥٢ بين الامبراطور شارل الخامس وبين هنري الثاني ملك فرنسا. وفي

---

[1] عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص٥٣٣.

[2] عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص٥٣٤.

هذا الوقت العصيب يكشف عن خبيئته الأمير موريس ناخب سكسونيا حليف الأمبراطور، فإذا هو ينقلب عليه ويرتد إلى صفوف البروتستانت ويتحالف مع هنرى الثانى ملك فرنسا – وأخذت قواته مع قوات الأمراء الألمان تزحف زحفًا خاطفًا وتطارد الامبراطور فى إقليم التيرول وتملك الفزع الأمبراطور فهرب إلى شمال إيطاليا خشية أن يقع أسيرًا فى يد ملك فرنسا أو الأمير موريس. وأصبحت مدينة ترنت مهددة بالغزو من قوات الأمير موريس على أساس أنها مدينة واقعة فى نطاق الامبراطورية. ورأى المندوبون الألمان فى هذا الموقف الخطير فرصة للكيد للمجمع المسكونى فغادروا مدينة ترنت، وبقى بها المندوبون الإيطاليون الذين عقدوا إجتماعًا فى ٢٨ من ابريل ١٥٥٢ قرروا فيه تعطيل جلسات المجمع لمدة سنتين حتى ينجلى الموقف، وصدق البابا على قرار التعطيل. ولكن استطالت فترة تعطيل المجمع عشر سنوات من ١٥٥٢ إلى سنة ١٥٦٢.[1]

وتنقسم القرارات التى استصدرها مجلس ترنت أثناء هذه المدة الطويلة إلى قسمين أحدهما يتعلق بنظام الكنيسة – وقد قررت هذه استعمال اللغة اللاتينية فى الصلاة وحرمت زواج القساوسة ومنعت أن يجتمع عدد من الأسقفيات فى يد شخص واحد، وحددت سن الذى يشغل منصب الأسقف بما لا يقل عن الثلاثين عامًا، وجعلت سن القساوسة خمسة وعشرين سنة، وحتمت إنشاء وفتح المدارس اللازمة لتعليم رجال الدين واجباتهم الدينية، ثم تناول المجلس سلطة البابوات فقرر أن البابا هو خليفة الرسل والسيد المسيح وله بسبب ذلك السلطة العليا فى الكنيسة الكاثوليكية.

وأما القسم الثانى من القرارات فكان متعلقا بتحديد العقيدة الكاثوليكية. فتم هذا فى جميع المسائل المختلف عليها وخصوصًا فى مسألة سر الشكر أو الأفخار سيتا، كما رفض المجلس عقيدة التبرير بالإيمان اللوثرية، ونفى مذهب القدرية الذى أتى به كلفن، ونص على بقاء أسرار الكنيسة السبعة، ورفض ما كان يدعو إليه اللوثريون

---

(1) عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٣٧.

والكلفينيون من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده فى تفسير العقيدة، فتقرر أن عقائد الكنيسة تستند إلى الكتاب المقدس، ثم إلى ما أو أوجنية التقاليد القديمة، وقرر المجلس أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية Vulgate هى وحده النسخة المعتمدة فقط.[1]

وهكذا دل هذا كله على وجود انتعاش حقيقى فى الكنيسة الكاثوليكية التى استطاعت ليس فقط أن تزيل المساوئ التى ضج من وجودها أتباعها ومؤيدوها أجيالا طويلا، بل تمكنت من تحرير العقيدة ذاتها من جميع الشوائب التى التصقت بها، وتعريفها فى صراحة ووضوح ضمن حدودها القديمة المرسومة بشكل ساعد الكنيسة الكاثوليكية على مواجهة المذاهب المصلحة من جهة، ومما كان من نتيجته جميعه من جهة أخرى، أن انتقلت الكنيسة من كنيسة العالم المسيحى أى كنيسة العصور الوسطى إلى عداد الكنائس الحديثة التى صارت فى مقدورها التوفيق بين واجباتها الدينى فى العالم الحديث وبين مقتضيات الظروف التى استجدت فى هذا العالم الحديث من حيث تعدد الكنائس المصلحة، ونمو الشعور الوطنى القومى، وظهور الدولة الوطنية الحديثة أو الدولة المستقلة.

وأما أدوات نشر العقيدة الكاثوليكية الصريحة، ومقاومة العقائد المصلحة الأخرى، ومحاولة بسط سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على أوروبا من جديد فكانت ثلاثا: جماعة الجزويت أو اليسوعيين والفهرس ومحاكم التفتيش.

الجزويت أو اليسوعيين:

كانت الكنيسة، عند كل أزمة تهددها بالخطر، تلتفت إلى نفسها وتستجمع قواها. ويتمثل رد الفعل عندها بإنشاء الطرق الرهبانية، فمن ذلك أن رهبان كلونى واللورين فى القرن الحادى عشر فى عهد بابوية جريجوار السابع، أخذوا على عاتقهم إصلاح الكنيسة عندما عمت فيها المساوئ والمفاسد. وفى القرن الثالث عشر لقى البابا اينوسان الثالث مساعدة الفرنسيسكين فى مكافحة الهرطقة التى انتشرت فى

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٤٠ - ١٤١.

الحواضر المدنية، ومساعدة الدومينيكيين الذين أقروا نظرية السلطة البابوية وشرعية العقوبة بالموت ضد الهراطقة، ونظموا محاكم التفتيش.

وفي هذه المرة، أي في القرن السادس عشر الذي تشكو فيه الكنيسة أزمة الانحلال الأخلاقي، ظهرت طرق جديدة أخرى: فمن ذلك أن الفرنسيسكيين جددوا طريقتهم وانتظموا تحت اسم الكبوشين ١٥٢٦ نسبة إلى الاسكيم الذي يضعونه على رؤوسهم. ومن الطرق التي تأسست حديثا طريقة التياتين ١٥٢٤ (بالنسبة إلى أسقف تيانو الكاردينال كارافا الذي أصبح فيما بعد بابا باسم بولس الرابع) وطريقة الأوزاتورين (١٥٤٨) الذي أسسها فيليب نيري. وقد أحدث من ١٥٢٤ إلى ١٦٤١ ما لا يقل عن خمس عشر طريقة ترمي إلى بعث الحياة الدينية وتثقيف الأكليروس وتعويده على النظام والتقى والصلاح والقيام بأعمال الإحسان[1] على أن الطريقة التي كتب لها أن تلعب دورًا هامًا في التاريخ هي طريقة اليسوعيين التي أسسها اجناطيوس لويلا.

أجناطيوس لويلا: ولد على الأكثر في آخر العام ١٤١١ من أسرة نبيلة أسبانية من بلاد البتكنس (الباشك) في قصر لويلا الذي يحمل اسمه في التاريخ. دخل في خدمة الملك فرديناند مرافقا ثم جنديًا، وأصابه في الدفاع عن قصر بامبلون ضد الفرنسيين في ٢٠ مايو ١٥٢١ جرح اضطره للعدول عن الحياة العسكرية. وكان في فترة استشفائه يطالع الكتب الدينية، فأعجب بالقديسيين فرانسوا أسيز ودومينيك، مؤسس طريقتي الفرنسيسكيين والدومينكيين وهما من طرق المتسولين. وأحب اجناطيوس أن يقلدهما ويكون جنديا للمسيح. وفي ٢ فبراير ١٥٢٨ ذهب إلى باريس وأقام فيها ست سنوات. وهناك ظهر تأثيره في نفوس رفقائه. فقد جمع حوله ستة طلاب ثم ذهبوا معًا إلى قابلّة القديس دوني في حي مونمارتز ونذروا أن يقودوا بالفضائل الرهبانية الثلاث يزوروا القدس، ويرصدوا أنفسهم لسلام الأرواح. وإذا استحال الحج إلى الأراضي المقدسة فإنهم يقدمون خدمتهم للبابا. وقضوا

---

[1] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص١٦٧.

سنتين لإتمام دراستهم الكنسية. ولم يستطيعوا الذهاب إلى فلسطين، وبعد أن قاموا بالوعظ والإرشاد فى أراضى البندقية قرروا أن يخدموا البابا وأطلقوا على أنفسهم "جمعية اليسوعيين" ١٥٣٧. وبعد ثلاث سنين من تأسيس هذه الجمعية أى فى ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ اعترف البابا بولس الثالث بهذه الجمعية ووضع أعضاءها تحت حماية الكرسى الرسولى. وفى ٢٣ ابريل ١٥٤١ انتخب اجناطيوس جنرالا لها وأقسم يمين الولاء والطاعة بين يدى البابا.[1]

وكانت أنظمة الجزويت صارمة شبيهة بالأنظمة العسكرية، فكان كل فرد ينضم إليها الخضوع لأوامر رئيسه، وأن يطيع تلك الأوامر طاعة عمياء وكأنه لا يملك فى نفسه شيئا وأن يرى فى رئيسه المباشر العصمة الكاملة التى تتصف بها الكنيسة المقدسة، وأن يحلف يمين الطاعة لأوامر البابا دون تردد، وقد كان لظهور هذه الجمعية فى الوقت الذى تداعت فيه سلطة البابا فى أوروبا أكبر الأثر فى إحياء سلطان الكنيسة وإعادة النفوذ الروحى إلى البابا. كذلك نجح الجزويت فى الوقوف إلى حد كبير فى وجه تيار البروتستنية المتدفق، وخصوصا فى فرنسا وبولندة وممتلكات أسرة الهابسبرج وأوقفوا المد البروتستنتى فى إيطاليا وأسبانيا اللتين ظلتا على ولائهما للكنيسة الكاثوليكية، ثم كان لهم الفضل فى تدعيم موقف أولئك الذين تمسكوا بعقيدتهم الكاثوليكية فى ألمانيا وانجلترا واسكتلندا.

وقد لعبت جماعة الجزويت دورا هاما فى الحياة العامة المسيحية وتدخلوا فى السياسة خدمة للكنيسة وقد لاقوا نجاحا فى هذا السبيل فكان بعضهم مستشارين ووزراء ذوى نفوذ، على أكبر مجال نجحوا فيه هو اهتمامهم بالتربية والتعليم. وأشرفوا على مئات المدارس فى أوروبا. وأمكنهم بما وضعوه لها من حسن النظام وكمال الرعاية أن يجتذبوا إليها الآباء الذين كانوا يتسابقون على إلحاق أبنائهم بها. وعندما توفى اجناطيوس لويلا ترك بعده مائة مدرسة وعدد من المعاهد الدينية، ثم لم يمض قرن ونصف على تأسيس هذه الجمعية حتى أصبح لها ما يزيد عن سبعمائة

---

[1] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص١٩٨.

مدرسة، وبلغ من شدة تأثير الجزويت أنهم سيطروا على عقول رجال الأجيال التى تلت ظهور جمعيتهم، ولم يكن أمرهم قاصرًا على النهوض بالمذهب الكاثوليكى ونشره وسيادته فى أوروبا، بل كان لأقدامهم ومثابرتهم وحماستهم اليد الطولى فى نشر الكاثوليكية فى مجاهل الأمريكتين والشرق الأقصى والجزر النائية.(١)

وقد تميزت الجزويت عن غيرهم من الكاثوليك أنهم يقدسون الكنيسة نفسها باعتبارها مؤسسة آلهية فى حين كان الكاثوليك أنفسهم قد بدأوا فى ضوء حركات الإصلاح والفكر ينظرون إلى الكنيسة من زاوية الإطار القومى.(٢)

كان الكفاح ضد البروتسنانت وصولا إلى القضاء على حركتهم هو الهدف الأول لجماعة الجزويت، ولذلك لم يكد يصدر المرسوم البابوى فى سنة ١٥٤٠ بإنشاء جمعيتهم حتى اتجهوا فى ذات السنة نحو وادى الراين وبدا تغلغلهم السلمى لرد البروتسنانت إلى حظيرة كنيسة روما ونجحوا فى شغل كراسى الأستاذية فى جامعة انجولشتاد Ingolostadt فى أقليم بافاريا سنه ١٥٤٩ وكان إهتمامهم منصبا على كراسى الأستاذية المخصصة لعلم اللاهوت بطبيعة الحال. وكانت جمعية الجزويت تضم نخبة ممتازة من رجال اللاهوت والمؤرخين ومن إليهم من كبار العلماء فى شتى المعارف الإنسانية. وفى سنة ١٥٥١ أعادوا تنظيم جامعة فينا لتكون أقدر على خدمة أغراض الجمعية وأسست الكلية الجرمانية فى مدينة روما لإعداد صفوة ممتازة من الجزويت يدربون بعناية للعمل فى ألمانيا ضد البروتسناتينية، وأسسوا أيضًا الكلية الرومانية وتتابع نجاح الجزويت. ففى خلال سبعة عشر عامًا من سنة ١٥٥٦ إلى ١٥٧٢ أسسوا مراكز لهم فى أمهات المدن الألمانية مثل كولنى ميونيخ، تريف، ماينز، أوجزبرج، يوزن وغيرهما، ثم ركزوا جهودهم فى خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة من القرن السادس عشر (١٥٨٥ - ١٦٠٠) على إنشاء العديد من الكليات الخاصة بهم فى ألمانيا والأراضى المنخفضة وسويسرا، ومع ذلك فقد

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث ١٣٨، ١٣٩.

(٢) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٣٩.

كانت مراكزهم الرئيسية فى المدن الأربع، فينا كولنى تريف وانجولستات، وكان يوضع بها مخطط العمل التنفيذى سواء فى الحقل التربوى والتعليمى، أو مساندة الجهود التى تبذل فى ألمانيا لمقاومة الحركة اللوثرية.[1]

وفى البرتغال عظم تأثيرها فى عهد جان الثالث، وفى أسبانيا انشأت كليتها التى كانت بمثابة حصن منيع للدين الحنيف، إلى جانب جامعة سالامنكا.

وفى إيطاليا كان تأثيرها عظيما وعميقا حتى أن عقليتها الاستبدادية التى فرضتها على القلوب والأفئدة، خنقت كل تفكير حر وجعلته يتقيد بالشكل أكثر من تقيده بالجوهر.

وفى فرنسا لاقت مقاومة الجاليكانية (أى الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية) والبرلمان وهذا لم يمنع تأسيس ما لا يقل عن ١٤ كلية فى المملكة كانت أداة لاستبداد هنرى الرابع.

وهكذا استطاعت جمعية اليسوعيين، بفضل الجهود التى بذلتها، أن ترد إلى الكنيسة روح النظام والدين الحنيف، وتبعث فيها عمويتها وقوة شمولها. وحاولت أن تخضع الدولة إلى سلطة ر وما، وقامت بنشر الثقافة المتينة، إلا أنها كانت تراقبها وتسهر على منع كل تشبث يؤدى إلى التحرر الفردى. وفرضت سيطرتها الكلية، حتى أنها قضت على الحركة الإنسانية حيثما كتب لها النجاح والظفر. وإذن فقد كان عمل الجمعية اليسوعية خدمة المصلحة الكاثوليكية العامة وخدمة الكنيسة وخدمة البابا.[2]

الفهرس: Index

وكان من الأمور التى تركها مجلس ترنت عند انتهائه فى سنة ١٥٦٣ ليتصرف فيها البابا نفسه بما يتفق والمبادئ الكاثوليكية التى أقرها هذا المجلس، اختيار فهرس كامل بأسماء الكتب التى تريد الكنيسة تحريم قراءتها على رعاياها. ولم يكن هذا العمل شئ جديد، لأن الباباوات من أواخر القرن الخامس عشر كانوا يعاقبون

---

[1] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٦١ - ٥٦٢.

[2] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص٢٠٠.

الطابعين والناشرين والمشترين والقارئين الذين يتداولوا الكتب المهرطقة. ومنذ سنة ١٥١٥ فرضت الرقابة الكاملة على جميع ما ينشر ويقرأ في روما والولايات البابوية ومنذ سنة ١٥٤٣ أخذت على عاتقها محاكم التفتيش هذه الرقابة. ثم صار إعداد فهارس بالكتب المحرمة في لوفان وكولونيا وباريس (جامعة السوربون) وكان أول الفهارس البابوية ذلك الفهرس الذى أذاعه البابا بول الرابع سنة ١٥٥٩ Index Libroium Prohibitouim وكان من ضمن الكتب المحرمة في الفهرس رسائل وكتب المصلحين مثل لوثر وزونجلي وكلفن. ولقد نقد مجلس ترنت هذا الفهرس بقصورة ونقص محتوياته وعلى ذلك فقد اعد فهرس جديد في سنه ١٥٦٤ ثم تكررت مراجعة هذا الفهرس مرات متعددة حتى سنة ١٥٩٦ واستمر معمولا بهذا الفهرس الأخير مع بعض إضافات عليه من وقت لآخر إلى أواسط القرن الثامن عشر.

وكان لنشر هذه الفهارس آثار ظهرت على وجه الخصوص بين الأمم الجنوبية في أوروبا، فما لا شك فيه أن حرمان الأمم التى بقيت بها الكاثوليكية قوية في أسبانيا والبرتغال وبافاريا وإيطاليا وبلجيكا من الإطلاع على ثقافة وعلوم الأمم الشمالية البروتستنية قد عطل تقدم الحضارة، لأن العمل بهذه الفهارس كان حائلا دون انتشار العلم والمعرفة. كان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها أداة الكنيسة الأخرى وهى محاكم التفتيش في تعقب الخارجين على الكاثوليكية واضطادهم.[1]

محاكم التفتيش L. Inquistion

أصدر البابا بول الثالث قرارا بتأسيس محاكم التفتيش في روما سنة ١٥٤٢. ولم يكن إنشاء هذه المحاكم أمرا جديدا. فقد ظهر الميل لأضطهاد المخالفين لعقائد الكنيسة وتعاليمها في العصور الأولى، ولو أن محاولة تطبيق هذا الاضطهاد بصورة منظمة لم يبدأ إلا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر بسبب انتشار الآراء المهرطقة في أوروبا الغربية، وخصوصا في فرنسا الجنوبية، وخوف الكنيسة على كيانها

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٤٣ - ١٤٤.

ذاته. وقد نجحت الكنيسة كما سبق أن عرفنا في القضاء على حركة الالبجنس في بداية القرن الثالث عشر (١٢١٣). ثم استمرت المحاكم الأسقفية في تعقب المهرطقين. وفي القرن الثالث عشر أنشأ الباباوات محاكم تفتيش عهدوا إلى الدومنيكان والفرنسيسكان بمحاكمة المهرطقين في هذه المحاكم وبقيت المحاكم الأسقفية ومحاكم التفتيش (البابوية) تقوم بعملها جنبًا إلى جنب إلى القرن الخامس عشر ونجحت محاكم التفتيش البابوية في عملها في أوروبا الوسطى.[1]

وقد لقيت محاكم التفتيش دفعة قوية على عهد البابا بول الرابع ونظر إليها على أنها وسيلة فعالة يجتث بها بذور الديانات والمذاهب التي تتعارض مع المذهب الكاثوليكي. وهي المذاهب التي يحلو للمؤرخين الأوروبيين ان يطلقوا عليها هرطقة. جاراهم في هذه التسمية بعض الباحثين المصريين وهي هرطقة من وجهة نظر الكاثوليك. ولكنها ليس كذلك من وجهة نظر أتباع لوثر أو كلفن أو زونجلي أو غيرهم من قادة الإصلاح الديني. ومما يذكر عن تحمس البابا بول الرابع على أيدي المخالفين لكنيسة روما.[2]

وكانت محاكم التفتيش في أسبانيا تحاكم الأفراد الذين هم على خلاف في العقيدة الدينية مع المسيحية وهم اليهود والمسلمون. وفي نطاق هذا الاختصاص لم تكن محاكم التفتيش قد أصبحت بعد أداة من أدوات الإصلاح الديني المضاد وسوف تكتسب هذه الصفة بعد مضي خمسين عامًا على دخولها أسبانيا حين أخذت تحاكم أيضًا الأفراد المسيحيين الذين هم على خلاف مذهبي مع المذهب الكاثوليكي. وكان تسلل أنصار الحركة اللوثرية إلى أسبانيا موضع ألم عميق في نفس الملك فيليب الثاني بالذات، وهؤلاء كانوا يلقون أشد العذاب من محاكم التفتيش قبل إحراقهم أحياء. وكانت تحاكم كذلك الكاثوليك الذين تحوم الشبهات حول إخلاصهم للمذهب الكاثوليكي، وكانت تنظر إلى أفراد هذه الفئات جميعًا على أنهم

---

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٤٤.

[2] عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص٥٧٨.

كفرة يجب استئصال شأفتهم من المجتمع الأسبانى وتطهيره تمامًا من هذه العناصر. وعلى هذا الأساس فإن محاكم التفتيش الأسبانية - من وجهة النظر الكاثوليكية البحتة المتعصبة وبتعبيرها غير الموفق - قد حفظت للمجتمع الأسبانى "النقاء الدينى" وبمعنى آخر عملت هذه المحاكم على فرض وحدة دينية مذهبية مسرفة فى تعصبها بحيث لم يكن فى الاستطاعة إيجاد مكان بجانبها لديانات أخرى أو لمذاهب مسيحية أخرى غير المذهب الكاثوليكى.[1]

وبجانب هذه الأهداف الدينية البحتة قامت محاكم التفتيش بخدمة الأهداف السياسية لملوك أسبانيا حين تقرر منذ سنة ١٤٨٢ أن يكون من اختصاص هؤلاء الملوك تعيين قضاة محاكم التفتيش وموظفيها، فأصبحوا من الناحية الفعلية مندوبين للتاج يحتفظون له بمشاعر الولاء. وكان التاج يعهد إليهم بتنفيذ أغراضه وتحقيق أهدافه، واعتبرت محاكم التفتيش همزة الوصل بين التاج وبين الكنيسة، كما كانت هذه المحاكم من أهم الوسائل التى استخدمها التاج فى مراقبة رجال الكنيسة ومعرفة مدى ولائهم للسلطة الملكية. وعلى هذا النحو تطورت أوضاع محاكم التفتيش فى إسبانيا فأصبحت أداة طيعة لينة فى أيدى الملوك يحركونها أنى شاءوا ويدفعون بالخصوم إلى الوقوف أمامها لمحاكمتهم بتهمة الإلحاد والكفر. وما كان أسهل من إلصاق مثل هذين الاتهامين بالخصوم السياسيين وغيرهم فتصدر الأحكام فى سهولة وسرعة ويسر متمشية مع أهداف دوائر القصر الملكى فى مدريد. وعلى هذا الأساس فإن محاكم التفتيش فى إسبانيا قد عملت على "النقاء" السياسى أو تطهير الحياة السياسية فى أسبانيا من العناصر المعوقة لتوطيد دعائم الحكم الملكى الاستبدادى وساعدت على أن تسير أجهزة الحكم وأدواته طوعًا أو كرهًا فى تناسق نحو هدف واحد هو تدعيم سلطة التاج الأسبانى.[2]

---

[1] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٨٠.

[2] عبد العزيز الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٨٢.

وبالنسبة لفرنسا فقد قامت معارضة قوية في عدة مدن منها تولوز، ألبي، ناربون كاركاسون ضد محاكم التفتيش في القرن الثالث عشر لم يهدئ من حدتها سوى تدخل فيليب الجميل، الذى وجد فيها فرصة للتدخل وفرض سلطته الزمنية عليها. مما وضعه بمواجهة البابا بونيفاس الثامن الذى أدان جميع حجج ملك فرنسا.

أما في إنجلترا فإن إجراءات محاكمة جان دارك قد أثبتت مدى استخدام السلطة الزمنية لمحاكم التفتيش. فقد حصل الحكام الإنجليز من الكنيسة نفسها على إدانة صريحة بحقها وقد أعلن أسقف بوفه Beauvais نفسه عن سلطة الحكام الإنجليز المباشرة عندما اعترضت جان دارك على الحكم، مصرحًا "أن الملك قد أمر أن أتهمك وقد فعلت ذلك[1].

أما نشاط محاكم التفتيش في الأراضي المنخفضة - بلجيكا وهولندا - وكانت تتكون من سبع عشر ولاية خاضعة لأسبانيا - وأراد فيليب الثانى ملك أسبانيا تعقب الخارجين على الكاثوليكية في ممتلكاته. وكان هذا العاهل أكثر ملوك أوروبا تحمسًا لنشر المذهب الكاثوليكي. سخر موارد بلاده لهذا الغرض الديني، وانتهى به تحمسه إلى اعتقاده أنه مبعوث العناية الإلهية للقضاء على كل عقيدة دينية تخرج على المذهب الكاثوليكي. واتخذ من محاكم التفتيش أداة فعالة لاقتلاع بذور البروتستانتينية من الأراضى المنخفضة. واستحثهم على مواصلة عملها بنشاط وعدم مبالاة، وكثر إحراق كل فرد تحوم حوله شبهة الخروج على المذهب الكاثوليكي فضلًا عن إحراق البروتسانت. وقد أثارت هذه المحاكمات البروتسانت والكاثوليك معًا في الأراضى المنخفضة، واجتمع حوالي خمسمائة من النبلاء الكاثوليك والبروتسانت ووقعوا على ميثاق لمقاومة محاكم التفتيش والعمل على إلغائها والتضامن فيما بينهم للدفاع عن أنفسهم ضد الاضطهاد الديني. وفد منهم يتكون من حوالي ثلاثمائة عضو إلى مارجريت دوقة بارما وحاكمة البلاد يطلبون منها إلغاء محاكم التفتيش، ولكنها رفضت أن تستمع إلى شكاية "الشحاذين" وهو اللقب الذى

---

[1] محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي، ١٥٥.

أطلقته عليهم، فكان هذا الرفض سببا فى اشتعال الثورة فى اغسطس ١٥٦٦، وقد أسفرت هذه الثورة عن استقلال هولندا عن أسبانيا.[١]

وقد بدأت حركة إصلاح الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا من إقليم بافاريا سنة ١٥٦٤ على يد الدوق البرت الخامس فقد أغلق أراضى المقاطعة فى وجوه البروتسنانت وأجر جامعة انجولشتاد على تغيير خطط الدراسة فيها ومناهجها إلى ما يتمشى مع العقيدة الكاثوليكية. وأحرق جميع الكتب التى تتعارض مع هذه العقيدة، واضطر عدد كبير من البروتسنانت إلى النزوح من بافاريا لأن البرت الخامس جعل التعليم فى مراحله المختلفة فى يد الجزويت، وحقق الجزويت نصرًا آخر حين حولوا منطقة باد Bade التى كان يحكمها البرت الخامس من ميونخ بصفته وصيًا أو قيمًا على حاكمها الصغير مارجريف فيليب Margrave Philoppe إلى منطقة كاثوليكية لحمًا ودمًا. وسرعان ما نهج حكام ألمان آخرون عديدون نهج البرت الخامس. وبهذه الطريقة استردت الكنيسة الكاثوليكية عددًا كبيرًا من رعاياها السابقين فى ألمانيا الجنوبية وكذلك فى النمسا. ويلاحظ أن الأمراء الألمان الكاثوليك الذين أخذوا بحركة الإصلاح الدينى المضاد لم يستخدموا فى حركتهم سوى الحق الذى خوله لهم القانون العام المعمول به فى ذلك الوقت فى ضوء المبادئ التى جاء بها صلح أوجزبرج الدينى فى سنة ١٥٥٥. ويقول الشناوى أنه من الإنصاف أن تقرر أن جهودهم فى هذا السبيل قد أثمرت بفضل أحد كبار أعضاء جماعة الجزويت وهو العلامة الهولندى بير كانيزيوس Pierre Canisius (١٥٩٧) فقد ظل دؤوبا على نشر دعوته خمسين عامًا على ضفاف نهرى الراين والدانوب دون أن يصبه كلل أو وهن أو استكانة. وكان له جولات حقق فيها انتصارًا للكاثوليكية فى كولنى وسيطر على التعليم فى النمسا سيطرة فعلية محكمة.[٢]

---

[١] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٨٦.

[٢] عبد العزيز محمد الشناوى، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص٥٨٧.

وقد نجحت محكمة التفتيش الرومانية هذه فى القضاء على البروتستنتية فى إيطاليا من جهة، كما نجحت فى إذكاء روح التعصب فى الكنيسة ويحدد تأسيس هذه المحكمة فى سنة ١٥٤٢، بداية عهد الإصلاح الكاثوليكى فى أضيق معانيه أى الإصلاح المستند على استخدام وسائل العنف والشدة والقوة التعسفية لإرجاع الكنيسة إلى مكانتها الأولى، وذلك بالقضاء على الذين يريدون الإصلاح الكاثوليكى على أساس التسامح والتساهل مع البروتستنتية من جهة، ثم بالقضاء على اتباع البروتستنتية أنفسهم من جهة أخرى.[1]

[1] محمد أحمد أنيس، عصر النهضة الأوروبية، ص١٤٥.

الفصل الثامن

أسبانيا وثورة الأراضى المنخفضة

آلت هذه الأراضي إلى أسبانيا عندما ماتت ماري البرجندية زوج الأمبراطور ماكسمليان في عام ١٤٨٢، وكان قد تزوج منها في عام ١٤٧٧، وقد أصبحت الأراضي المنخفضة عند وفاة زوجة تحت وصايته وحكمها نيابه عنه ابنه فيليب، وقد تزوج فيليب هذا في عام ١٤٩٦ من "جوانا" الأسبانية فورث ابنهما شارل عرش أسبانيا باسم "شارل الأول" ملحقا بها الأملاك البرجندية وأهمها الأراضي المنخفضة. ثم انتخب امبراطورًا للامبراطورية الرومانية المقدسة باسم "شارل الخامس"

ونتج عن هذا الإرث البرجندي أن أصبحت أسبانيا ترقب باهتمام بالغ كل ما يقع في بريطانيا وفرنسا وغرب أوروبا بصفة عامة؛ وإن كان لهذا الإرث مساوئه بالنسبة لآل هابسبورج أنفسهم وبالنسبة لألمانيا والأمبراطورية، فقد وزع جهود الأباطرة ووجهها نحو غرب أوروبا، بينما كانت مصالح الامبراطورية الرئيسية تقع في شرق أوروبا حيث تقع فينا مفتاح الباب الشرقي لها. وكثيرًا ما تعرضت العاصمة فيينا لغارات الأتراك العثمانيين والمجريين والسلاف وغيرهم.[1]

وبرزت أسبانيا في النضال الأوروبي الكبير الذي أثاره الإصلاح البروتستانتي أكبر نصيره للكاثوليكية. فبينما استقر في شمال ألمانيا لون من ألوان البروتستانتية وبينما كان لونا آخر يخوض في فرنسا معركة حياة أو موت، كانت أسبانيا ممتنعة وراء حدودها الجبلية الصلبة كاثوليكية من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. ففي أسبانيا ارتبط الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ونشرها بنمو الأمة ومجدها على نحو لا تجده في أي مكان آخر في أوروبا. كان الرهبان والراهبات والقساوسة يشكلون جانبًا كبيرًا من السكان، واعتبرت محاكم التفتيش - وكانت تحت رقابة التاج - إجراء وقائيا ضروريا. وكان المشهد المثير لتنفيذ أحكام الحرق علنًا (١٨ أكتوبر ١٥٥٩) الضربة

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص١٢٩.

الأولى فى حملة القمع التى وجهت ضد العقائد الجديدة التى جاءت من ألمانيا إلى أسبانيا، وهى حملة لم تثر سوى احتجاجات متقطعة عقيمة. وقد بلغ من نشاط محاكم التفتيش الأسبانية – بتشجيع من فيليب الثانى – أن الهرطقة – وكانت لا تزال إذ ذاك فى أسبانيا نبتًا جديدًا لم يألفه الناس قد اجتثت من جذورها قبل نموها. ومنذ ذلك الوقت غدت الكنيسة الكاثوليكية بمأمن من الأخطار، وتمتعت بهيمنة على التعليم وثبتت لكل تحد كانت ثورة ١٩٣١ حين جاء التحدى لها من جانب حركة نبعت من أسبانيا ذاتها وأيدتها – فيما يبدو – أغلبية الشعب الأسبانى.[١]

وكان فيليب الثانى حاكما كاثوليكيا متدينًا شديد التمسك بواجباته، وكان يرى أن أسمى رسالاته فى الحياة أن يستأصل الهرطقة من جذورها فى البلاد التى يحكمها وأن يأخذ يناصر عقيدة آبائه فى شتى ربوع العالم.

وكان قوة أسبانيا كامنة فى جيشها القائم، ولم تكن بأوروبا قوة مشاة أكثر مرانًا أو نظامًا أو حنكة فى الحرب من مشاة الأسبان المشهورين الذين قدر لهم أن تكون إيطاليا ميدان تدريبهم. ولقد هرع نبلاء الأسبان إلى الانتظام فى صفوف الجيش معتقدين أنهم لم يندموا على الانخراط فى السلك العسكرى تحت سماء إيطاليا. وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر كان ملك أسبانيا يتمتع بخدمة أمهر الضباط فى أوروبا – وكان نفر منهم – مثل ألفا – من النبلاء الأسبان، بينما كان آخرون من الإيطاليين، ومن بينهم أعظم قواد ذلك العصر الستندرو فارنيز Alessandri Farnese دوق بارما. وهكذا كان من دواعى فخر السياسة الأسبانية أنها استطاعت أن تجتذب إلى خدمة التاج الأسبانى بعضًا من أعلى الكفايات من أشد عائلات إيطاليا اعتزازًا بأصولها النبيلة.[٢]

على أن قوة أسبانيا البحرية كانت أقل خطرًا. فهى من ناحية دولة بحر متوسط، ثم هى دولة محيط أطلنطى من ناحية أخرى. وكان يواجها فى البحر

---

[١] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٩٩ – ٢٠٠.

[٢] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص٢٠١.

المتوسط عبء تطهيره من الأتراك العثمانيين، ومساعدة البندقية وفرسان مالطة في وقف تقدم الزحف البحري المطرد لأسطول السلطان. وكانت هذه التبعات ثقيلة ومرهقة. فهذا العدو السريع الحركة كان من قواعده في الجزائر وتونس - يشن الغارات على جزائر البليار وشاطئ بلنسية. وكانت الدولة العثمانية الطموح التي وطدت مركزها في استانبول، تعتمد على بحارة من اليونان ومصدر تهديد مستمر لسلامة إيطاليا. حينئذ نشأ على مياه البحر المتوسط الهادئة على مر القرون - شكل من أشكال الحرب لم يكن يتناسب على الإطلاق مع مناخ المحيط الأطلنطي. فالسفن الواطئة التي تدفعها. المجاديف (Galleys) وهي السفن القديمة من أيام الجمهورية الرومانية والامبراطورية الرومانية، كانت لا تزال تستعمل، وطريقة التجديف صوب العدو والاشتباك معه، ثم حسم المشاة المعركة بالتلاحم بالأيدي على صفحات البحر، كانت لا تزال متبعة أيام فيليب الثاني لم تتغير عما كانت عليه في أيام إجزرسيس وبومبي وأعظم معركة بحرية في البحر المتوسط في القرن السادس عشر - وهي معركة لبانتو Lepanto (١٥٧١) التي أوقع فيها دون جوان النمسوي - أخو الملك فيليب - هزيمة ساحقة بالجيش العثماني، كانت معركة بين هذا النوع من السفن وبين السفن ذات المجاديف ولكن لم يترتب على هذا أن يحصل الرجال الذين مرنوا على القتال في هذه السفن على أية خبرة تكون عونًا لهم في تسيير السفن الشراعية عابرة المحيطات أو الغلايين (Galleons) التي أصبحت جزءا لا غنى عنه في القوة البحرية الأسبانية، بل العكس من ذلك، غدا استخدام النوع القديم من السفن، أي السفن الواطئة ذات المجاديف، في وقت أصبحت لا تتمشى مع روح العصر، غدًا أمرًا شديد الضرر. واصبح بإمكان أسطول مزود ببحارة في المحيط أو في بحر المانش أن يثق في قدرته على دحر عدو لا يزال أسير خطط حربية تقوم على حشو البنادق من الأمام، وهي الطريقة التي كانت متبعة في حرب السفن الواطئة.[1]

---

[1] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص٢٠١.

ومما عرقل جهود أسبانيا فى ذلك الوقت أنها - بسبب اضطرارها إلى الحرب فى جبهتين - كانت مضطرة إلى أن تستخدم فى نفس الوقت طرازين من سفن القتال: أحدهما قديم غاية القدم، والآخر حديث جدًا، وأن كثيرًا من بحارتها قد تدربوا على الطريقة القديمة. ولكن كان من الممكن التغلب على هذه العراقيل لو قيض للمشرفين على شئون أسبانيا أن يلهموا التقدير الواعى لقيمة القوة البحرية فى القتال. ومن العجيب أن أسبانيا - برغم المصالح الضخمة التى تكونت لها فى العالم الجديد - لم تبذل جهدًا مستمرًا لكسب السيطرة فى المحيط الأطلنطى. ومن المؤكد أن تحرر الجمهورية الهولندية من السيطرة الأسبانية يرجع إلى حد كبير إلى ترك الثوار يسيطرون على البحر دون منازع.[1]

ولكن ضعف أسبانيا كان فى اضطراب ماليتها لم توجد فى القرن السادس عشر حكومة أوروبية ذات اقتصاد قوى، ولكن إسبانيا ضربت مثلا فريدًا لبلد يمتلك مساحة واسعة من الكرة الأرضية فى كلا العالمين القديم والحديث. وفى متناول يديه أغنى الموارد المعدنية المعروفة حينئذ، ومع ذلك فهو فى حاجة مستمرة إلى المال، وهو غالبًا عاجز - لفقره المدقع - عن القيام بأبسط أعباء الحكومة. وأسباب هذا التناقض يرجع بعضها إلى سياسة عامة لا وعى فيها ولا ذكاء، وبعضها إلى جهل بالقوانين الاقتصادية وإلى نظام ضرائبى فاسد، ولا يقل عن ذلك أثرًا فقدان أى وقف جدى لأعمال المضاربة والتبذير. ولم يكن باستطاعة الملك أن يجمع الكثير من الأموال من أسبانيا نفسها - فاكليروس - برغم ثرائهم العريض - كانوا يعفون من الضرائب، وفى قشتالة كان النبلاء غالبًا عرضة لإجراءات ابتزاز من وقت لآخر، ولكنهم بسبب ما جرت عليه العادة لوقت طويل كانوا يعفون من المساهمة فى موارد التاج المنتظمة؛ وفى أراجونة أقر الكورتيز مبلغًا ثابتًا من المال ولكنه غير كاف بالمرة. ولما كان الانتهاب شائعًا فى المستعمرات الأسبانية، فلم يكن يصل إلى الخزائن الملكية سوى جانب صغير من الثروة التى كانت تجمع من المكسيك وبيرو. ولكن إذا كان

---

(1) نفسه، ص٢٠٢.

فى الوسع علاج خراب الذمم بفرض رقابة أشد صرامة، فإن أخطر من ذلك أن النظام المالى العام فى الامبراطورية الأسبانية كان يقوم على نظرية خاطئة خاصة فيما يتعلق بالتجارة – إذ أن رضائها كان يتطلب أن يوفر لها أقصى ما يمكن القيام به من التبادل الدولي للبضائع. أما أسبانيا فقد اتبعت فعًلا خطة الحماية فى أضيق صورها وأشدها إسرافًا. ولم يكن فى أسبانيا إذ ذاك أى علم أو صناعة؛ وعلى حين أنها كانت عاجزة عن أن ترسل إلى مستعمراتها ما كانت هذه الأخيرة تحتاج إليه، فإنها حرمت عليها المتاجرة مع الدول الأخرى. وكان من المتوقع أن تنتهى هذه السياسة إلى إحدى نتيجتين لا ثالث لهما: أما عرقلة التقدم المادى فى المستعمرات أو تشجيع التهريب على نطاق واسع. وقد أدت هذه السياسة فى الواقع إلى كلتا النتيجتين – هذا فى الوقت الذى عرقلت فيه خرائب داخلية لا حصر لها تجارة إسبانيا وزراعتها. كما اثقلت كاهلتها كذلك ضريبة الكابالا alcabala وهى ضريبة كانت تفرض بنسبة ١٠٪ على المبيعات حتى أنه من العسير أن نتصور وجود وسيلة أخرى دبرت خيرًا من هذه لتشل الرخاء الاقتصادى عند شعب من الشعوب.[١]

وإذا كان من الممكن استخراج القليل من المال من إسبانيا. فلم يكن يتوقع منه شئ فى إيطاليا – وترتب على هذا أن تكون الأراضى المنخفضة هى مصدر الدخل المادى الأكثر قابلية للتوسع. وقد غدت انتورب إذ ذاك من أغنى المدن التجارية فى العالم، ولم تكن تعترض نشاطها القيود التى كانت تفرضها طوائف الحرف (Guilds) وغدت مركزًا عظيمًا للمعاملات الدولية، وبزت بسهولة بروج وغنت فى الثروة وحرية المواصلات، كما غدا لها – بفضل نمو التجارة بالمحيطات – ميزة على الفلاندر باعتبارها مركزًا للأعمال المصرفية. وكانت امستردام – وهى إحدى مدن الهانسا – تسير بخطى واسعة نحو التقدم، وقد نمارخاؤها – الذى كان مستمدًا فى الأصل من صيد الأسماك – بفضل الثروة النامية

---

[١] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص٢٠٢.

للدول الأوروبية القريبة من ساحل الأطلنطي. وهكذا أنزعت الأراضي المنخفضة بالثراء، فكانت القلب المالي للامبراطورية الأسبانية.[1]

وكانت انجلترا – التي حكمها فيليب بعض الوقت بصفته زوجًا للملكة ماري مرتبطة بالأراضي المنخفضة – التي كانت بالنسبة لأسبانيا أرض الذهب – بروابط المبادلات التجارية منذ أمد بعيد. وكان فيليب – كأبيه من قبل – يدرك تمامًا قيمة انجلترا كحليف وصديق. كان يقدر قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة إلى رعاياه الفلمنك والنتائج السيئة التي تترتب على وقف هذه التجارة، كما كان يعلم أن إنجلترا تستطيع لو ناصبته العداء – أن تعرقل المواصلات البحرية بين أسبانيا والأراضي المنخفضة، وأنها تستطيع – لو وهبته صداقتها أن تحمي المواصلات أحسن حماية، ولكنه كان كاثوليكيا مخلصًا، وكان يقدم الدين على أي اعتبار آخر. واحتفاظه بصداقة انجلترا يتوقف – في النهاية – على العقيدة التي يعتنقها أهلها.[2]

وأصبحت الأراضي المنخفضة المحور الرئيسي الذي تدور حوله السياسة الأسبانية. ومن الغريب أن الأراضي المنخفضة كانت تختلف عن أسبانيا تمام الاختلاف، فبينما كانت أسبانيا لا تزال اقطاعية أرستقراطية كانت الأراضي المنخفضة قطرًا مكونًا في غالبيته من مدن عديدة تعيش على التجارة. ونجحت أسبانيا إلى حد بعيد في توطيد الحكم المركزي فيها، بينما كانت الأراضي المنخفضة تتكون من سبعة عشر ولاية مستقلة لكل منها دستورها الخاص؛ حتى لتكاد كل منها تكون جمهورية مستقلة بشئونها الخاصة، كذلك كان شأن الحياة السياسية في ذلك الوقت. وقد نشأ عن صراع الإسبان مع العرب وعن طبيعتهم الخاصة ان أصبحوا شعبًا متعصبًا لكاثوليكيته، فقد تميزت أسبانيا بتعصبها الشديد الذي عرفت به منذ حكمها العرب.[3]

---

(1) نفسه، ص٢٠٣.

(2) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي، ص٢٠٨.

(3) زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص١٣٠.

وكانت الأراضي المنخفضة كاثوليكية كذلك في غالبتها وبقيت على هذه الحالة حتى انتهاء الصراع بينها وبين أسبانيا، ومع ذلك فقد كان يسود ربوع الأراضي المنخفضة الحرية والتقدم، كما كانت الآراء الحديثة تلقى ترحيبًا، وأخذت اللوثرية تنتشر بين ربوعها. لذلك كانت العلاقات بين الشعبين من أصعب المشاكل القائمة، وقد يقال أنه من الممكن حل هذه المشكلة لو منحت تلك الولايات استقلالا داخليا واسعًا، وحريات قومية، ولكن لم تكن هذه الآراء التقدمية التي تدفع إلى التسامح معروفة بعد (أي في القرن السادس عشر). فكان منح الشعوب المحكومة بعض الحرية والاستقلال الداخلي يفسر على أنه ضعف من الحاكم. ولم يكن فيليب الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨) المستبد المتعصب ليقبل أن تنعت أسبانيا بالضعف عندما تصل إلى هذه الدرجة التي تمنح فيها شعب الأراضي المنخفضة حريته واستقلاله الذاتي، لم يكن فيليب الثاني المغرور بسلطانه، المتصف بصلابة الرأي ليقبل ذلك العمل، مع أن الحكومة كانت تقتضيه أن يعمل على استمالة هذه الولايات الغنية بدلا من تنفيرها بوسائل الغش والخداع وتسليط رجال الدين عليها التماسا لجعلها خاضعة له خضوعًا تامًا. فوسائل السلم قد نجحت في النهاية في الإبقاء على الولايات الجنوبية من الأراضي المنخفضة (بلجيكا) تابعة لأسبانيا، تلك الوسائل التي رفض فيليب الثاني بادئ الأمر أن يستعين بها على استمالة هذه الولايات جميعًا.[1]

وقد كانت الأراضي المنخفضة من الميادين التي اندلعت فيها الثورات التي اختلط فيها النضال الديني بالنضال السياسي. وكانت ثورتها أعظم كارثة. جلّت بأسبانيا في عهد فيليب الثاني. فقد أفضت إلى حروب طاحنة إلى تكبيدها خسائر كبيرة من الأموال والأرواح.

وكانت الأراضي المنخفضة أو البلاد الواطئة تشتمل على سبع عشرة مقاطعة حصل عليها في القرن الخامس عشر أدواق برجندية. ثم أصبحت تابعة للتاج الأسباني بزواج الأمبراطور مسكمليان ماري البرجندية، ثم ورثها عنه حفيده شارل

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص١٢٠.

الخامس ثم ابنه فيليب وهي ولو أنها كانت جزءًا من الامبراطورية إلا أنها لم تخضع لسلطانها المطلق. لما فطر عليه أهلها من حب الحرية والميل إلى الاستقلال. ولذلك كانوا يتعرضون للاضطهاد وخصوصًا في عهد شارل الخامس الذى استغل مواردهم في سد حاجة الامبراطورية.

وكان أهم هدف يسعى إليه زعماؤها وحكامها هو توحيد حكومات تلك المقاطعات ولكن كان يحول دون ذلك ما كان بين الشمال والجنوب من الاختلافات الدينية والسياسية والعواطف القومية، إذ كان سكان المقاطعات الشمالية يدينون بوجه هام بالمذهب البروتستنتي ومعظمهم من الجنس التيوتوني. وينزعون إلى الحكم الديمقراطي بينما كان الجنوب يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في روما. وينتسبون إلى الجنس الكلي. ويميلون إلى أوتوقراطية الحكم.[1]

وعندما آلت الأراضي المنخفضة إلى فيليب الثاني كانت فكرة الاتحاد المشترك وضرورة قيام كيان واحد للأراضي المنخفضة تتسلط على أذهان عدد كبير من المفكرين. وقد سنحت الظروف لهذه الفكرة أن تنمو وتتطور وتصبح ثورة هدفها التخلص من الحكم "الأجنبي" أو الأسباني في بلاد الأرض المنخفضة.[2]

وقد عاش فيليب هناك فترة طويلة من عمره امتدت حتى عام ١٥٥٩ كان همه أثناءها تدبير الوسائل للقضاء على المذهب البروتستنتي لأنه كان يعتقد أن توحيد الملك لن يتأتى إلا بتوحيد الدين.

وكانت أول أخطائه السياسية أنه عند مبارحته الأراضي المنخفضة لم ينصب عليها حاكما من أبنائها. بل عهد إلى أخته مرجريت دوقة بارما. (١٥٥٩ – ١٥٦٧). وعين موظفي الحكومة من الأسبان ووضع فيها قوات أسبانية. فساء ذلك أهل البلاد. وتجمعت عوامل الثورة في ذلك العهد الذى اتسم بالبطش والغلظة. وكانت السلطة الحقيقية في يد الكردينال جرانفلا Granvalle. البرجندي الذى كان حائزا على

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ص١١٩ – ١٢٠.

[2] نفسه، ص١٢٠ – ١٢١.

ثقة الملك فيليب الثانى ومشهورًا بجوره وشدته. وقد بدأت المتاعب فى الأراضى المنخفضة عندما اتسعت دائرة الحروب التى خاضتها أسبانيا واضطرت إلى مطالبة البلاد التابعة لها بالمساهمة بالمال والرجال بما يزيد عن طاقتها. كذلك اتسعت سلطات محاكم التفتيش التى كان والده قد أدخلها من قبل فى الأراضى المنخفضة، وقد ترتب على ذلك اتساع نطاق تلك المحاكم حركة سخط على الحكومة من الكاثوليك والبروتسنت على السواء.

ولما كان فيليب يتوقع قيام الثورة، دفع إلى الأراضى المنخفضة بقوات عسكرية متلاحقة مما زاد فى إذكاء الشعور القومى ضد الحكم الأسبانى، ولما شعر فيليب بالخطر شرع فى سحب تلك القوات وصرف النظر عن التمسك بما فرض على البلاط من ضرائب فادحة واضطر إلى تخفيفها، إلا أن المعارضة أخذت تقوى وتشتد وتنذر بقيام الثورة[1] لدرجة أن فيليب الثانى وعد بسحب القوات وبتخصيص المبالغ التى أراد جمعها من سكان هذه الولايات ولكن لم يلبث الأمر طويلا حتى نشأت مشكلة جديدة، عندما ظهرت الحاجة إلى إعادة تنظيم الأسقفيات فى الأراضى المنخفضة، كانت حالتها فى حاجة إلى تغيير اقتضاه أمراه:-

أولهما: أن توزيع الأسقفيات لم يكن يتفق مع الواحدات السياسية.

وثانيهما: تبعية هذه الأسقفيات لرئيس أساقفة "كولونيا" Cologne "وريمس" Reims.

وإذا كانت الولايات قد رحبت بإعادة تنظيم الأسقفيات وإصلاح الأوضاع المتعلقة بتبعيتها، إلا أنها لم ترحب بمسلك أسبانيا فى الإصلاح؛ ذلك لأن ملك أسبانيا كان يريد أن يجعل من حقه فى تعيين الأساقفة الجدد وسيلة لتحويلهم إلى أعوان خاضعين لأسبانيا، فيراقبون بالتالى الأهالى مراقبة دقيقة، وينشئون فى أراضيهم ما يماثل محاكم التفتيش[2] وقد تزعم المعارضة وليم أورانج وهو بروتسنتى

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٢١.

[2] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص١٣٤.

النشأة اعتنق الكاثوليكية عند التحاقه بخدمة الامبراطور شارل الخامس. ولكنه ظل متعلقًا بالبروتستنتية، ويريد تخليص بلاده مما سماهم (بالحشرات) الأسبانية. ولقد انعدم كل تفاهم بين أورانج وفيليب منذ أن قرر الأخير القضاء على البروتستنتية. ولكن أورنج اعتصم بالصمت ولذلك سمي (بالصامت) The Slient وأخذ يعمل في مثابرة وهوادة لتقويض دعائم الحكم الأجنبي في بلاده. وكان من الذين تزعموا المعارضة إلى جانبه الكونت اجمونت Count Egmont، وكان يملك ضياعًا واسعة، وقد قاد جيوش أسبانيا بشجاعة فائقة، وأظهر تفوقا عظيما في كل من موقعتي Gravelines st Quentin كان كريما محبوبا صريحا، ولكنه اتصف بالغرور والاميرال هورن Hoorn وكلاهما كاثوليكي.[1]

ناضل حزب المعارضة كي يقضي على حكومة الأراضي المنخفضة، وقد أثار ذلك فيليب لدرجة عظيمة. ولكنه وجد من الضروري أن يرضخ للأمر الواقع، وأن يحني رأسه للعاصفة فاستبعد جرانفيلا Granvella عام ١٥٦٤، وتحقق بذلك أحد مطالب المعارضة. وقد ظنت مرجريت عندئذ أن في استطاعتها أن تحكم – بعد اقصائه – بالعدل وأن تصلح من شئون الأراضي المنخفضة. ولكن كانت المقاومة في هذه الآونة قد انتقلت إلى دائرة أوسع وظهرت فيها روح جديدة. ويرجع ذلك التطور إلى أن المذهب الكلفني بدأ يتوغل داخل الأراضي المنخفضة متخذًا طابعا ثوريا مليئا بالتعصب. ووجدت تعاليم المذهب الجديد ترحيبا لدى الكثير من النفوس نظرًا لأنها كانت مكتوبة بالفرنسية مما جعلها مفهومة لدى الغالبية العظمى من السكان، كما أنها كانت تنادي بالحكم الذاتي المستقل وتؤيد مقاومة الحكام الذين يضطهدون الأفراد. لذلك انسجمت هذه التعاليم مع حركة المقاومة التي كانت قائمة في الأراضي المنخفضة ضد أسبانيا.[2]

---

(١) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٤٩.

(٢) زينب عصمت راشد المرجع السابق، ص١٣٥.

ولم يكن عزل جرانفيلاليشي فيليب الثانى من عزمه فى المضى فى سياسته فقد أخذت محاكم التفتيش تعمل بعنف، كما أخذت قوانين الاضطهاد Palacards تنفذ بدقة. وزاد عليها فيليب الثانى بأن فرض على سكان الأراضى المنخفضة أن يوافقوا على مبادئ مجلس ترنت عندئذ قدم الثائرون بايعاز من وليم أورنج احتجاجًا على هذا الاضطهاد وسلمه اجمونت mgmont بيده للمل فى يناير سنة ١٥٦٥م.

ولما لم تجد هذا الاحتجاج اشتد هياج النفوس، وأخذت فئة من صغار النبلاء ومنهم "مونكس" الكلفنى Brederode الكاثوليكى تقاوم بعنف محاكم التفتيش وفى ابريل سنة ١٥٦٦ قدموا التماسا إلى الحاكم وعرفوا عندئذ بالمتسولين Gueux تسمية لحقت بهم كتلك التى لحقت ببروتستانت فرنسا بالهيجونت Huguenots.

ولما لم يجد الاحتجاج، بلغ الهياج أشده فى الأراضى المنخفضة فى هذه الفترة إذا امتنعت الحكومة عن إيقاف العمل بالاضطهادات الشنيعةو وإيقاف أعمال محاكم التفتيش. وانتشرت الفوضى فعمت الأراضى المنخفضة. ومع أن أعضاء المذهب الكلفنى كانوا قلة إلا أنهم استطاعوا بمساعدة السلطات المحلية السلبية فى موقفها أن يتمادوا فى تخريبهم وهياجهم والإخلال بالأمن. فأعدت أماكن لإقامة شعائر كلفن علنًا، وأخذ الثوار فى تخريب الكنائس الكاثوليكية لدرجة أثارت كلا من "وليم أورنج" وكونت اجمونت فهاجم الثوار بين ما هاجموا كنيسة "أنتورب" Antwerp الغنية بمخلفاتها الفنية التى ترجع إلى العصور الوسطى[1] فنفر هذا العمل الكاثوليك من الحركة وثار غضبهم عندما شاهدوا كنائسهم تمتد لها يد التخريب. فوقع الانقسام بين الكاثوليك والبروتستانت.[2]

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٣٦.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٤٩ - ١٥٠.

وانتهز فيليب فرصة الانقسام فأرسل أحد قواده المشهورين بالقسوة والصرامة وهو دوق الفا Alva مع جيش أسبانى غادر ميلان إلى الأراضى المنخفضة فى آخر ديسمبر سنة ١٥٦٦م. ثم استدعيت مرجريت بارما. وبدأ ألفا سياسة الاضطهاد والشدة ضد البروتسنت فكان من أعماله إنشاء مجلس للقضاء على الفوضى والاضطرابات عرف باسم (مجلس الدم) بسبب أعمال الإرهاب التى أثارت الشعور العام فى أوروبا بأسرها. فأعدم كثيرون من أتباع كلفن، كما أعدم اجمونت وهورن من النبلاء الكاثوليك فى يونية ١٥٦٨، حتى يرتدع بقية النبلاء. وشرع ألفا يبذر بذور التفرقة بين الشمال والجنوب، واستطاع أن يخضع الجنوب للسيطرة الأسبانية فصارت انتورب مقر النشاط الكاثوليكى، بينما كانت امستردام فى الشمال مقر النشاط البروتستنتى. وهكذا نجح ألفا فى تهيئة ذلك الانقسام الجنسى والقومى والدينى بين الجنوب والشمال، وهو الانقسام الذى ترتب عليه ظهور الدولتين الجديدتين بلجيكا وهولندا.[1]

واستمر "ألفا" يعمل على تنفيذ سياسته الغادرة ست سنوات، أحرز فى بدايتها بعض النجاح. فحكم بالموت عن طريق مجلس الدم على حوالى ١٨٠٠ نفس من الثوار والمارقين. وساهمت فى النهاية عوامل عدة لم تكن فى الحسبان فى فشله فى مهمته منها:-

١- المقاومة الشديدة العنيفة الصادقة التى واجهها من شخص التفت حوله قلوب سكان الأراضى المنخفضة وعقدت عليه أمانيها وهو الأمير أورنج، وقد حكم عليه مجلس الدم بالموت غيابيا أثناء وجوده فى ألمانيا. وقد نشر عندئذ مقالا وهو بعيد عن بلاده بعنوان "التبرير" هاجم فيه طغيان فيليب وظلمه مهاجمة سافرة، كما أنه لم يقبع فى داره بل شن غارات مختلفة على الأراضى المنخفضة. ومع أن قواته كانت أقل عددًا وتنظيمًا من قوات "ألفا" وهزمت أكثر من مرة إلا أنها كلفت "ألفا" نفقات باهظة.

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٥٠.

فى تلك الأثناء اعتنق أمير اورنـج الكلفينية، وأظهر إخلاصًا عميقا لها، كما تميز بـروح تسامح دينية غير عادية، بل وغير مألوفة فى ذلك العهد. نجح فى أن يهاجم جيش ألفا وينزل به خسائر كثيرة وإن كان الانتصار فى النهاية لدوق ألفا. ثم جمع جيشًا جعل قيادته لأخيه لويس ناسو Louis of Nassau. وقد نجح هذا القائد فى بادئ الأمر فأحرز بعض الانتصارات فى فريزلاند Friesland وكان يأمل فى الحصول على معونة الهيجونت. ولكن ألفا بادر بمواجهة قواته فى "بيمنجن Jemminingen فاضطرت قوات "لويس ناسو" غير المدربة إلى الفرار أمام المحاربين المدربين من الأسبان فى ٢٢ يوليو ١٥٦٨، ونجح ناسو فى الفرار ولكن لم تستطع غالبية جنده ذلك، ولم يقتل من المحاربين الأسبان فى المعركة أكثر من سبعة. وكان واضحًا من ذلك مدى عجز الأراضى المنخفضة عن نيل استقلالها والمضى فى مقاومتها.[١]

على أن ذلك لم يثن اورنج عن عزمه وتصحيحه؛ ففى سبتمبر ١٥٦٨ دخل ولاية "بربانت Brabant ونازل قوات ألفا التى رفضت مواجهته، ومع ذلك فقد نزلت بقواته خسائر فادحة؛ فاضطر إلى أن يعود من حيث أتى بعد شهر دون أن ينجح فى تحقيق أى نتائج حاسمة.

وانتصر ألفا من جديد، واشتدت وطأة قسوته واضطهاداته مما جعله يقيم فى "أنفرس" تمثالا ضخما لنفسه احتفالا بهذه المناسبة: "لأنه أخمد الثورة وعاقب المتمردين، وثبت العقيدة وضمن العدالة، ووطد السلام".

على أن إجراءات ألفا الوحشية فشلت فى أن تحقق انتصارًا شاملا، وكان ألفا فى نهاية عام ١٥٦٩ يفخر بأنه قد قضى على الهرطقة واخضع الولايات، ويرى أنه لم يعد أمامه سوى أن ينفذ بقية خططه الخاصة بجعل الولايات تكفر عما تسببت فيه من اضطرابات وتساهم بدرجة كبيرة فى تنمية الموارد الملكية فى المستقبل لتنفيذ ما أراد.

---

[١] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٣٧.

٢- العامل الثاني هو فرض ضرائب جديدة، وهنا أثبت "الفا" أنه قليل الدراية بالشئون المالية إذ غاب عنه أن هذه الضرائب التي فرضها على بعض السلع الهامة من شأنها أن تعوق التجارة، ولا تحقق الغرض الذى من أجله وهو زيادة موارد الدولة. كما أثبت قصر نظر وعدم حكمة عندما أثار الجميع ضده الكاثوليك والبروتسنت على حد سواء، فاتحدوا جميعًا عند المساس بمصالحهم التجارية، هذا مع العلم بأن الكاثوليك كانوا قد أيدوا من قبل إجراءات "ألفا" التعسفية للقضاء على أعداء الكاثوليكية، ولكنهم لم يلبثوا أن رفعوا ضده راية العصيان؛ فاشتدت المعارضة فى مدريد وفى الأراضى المنخفضة، وركدت التجارة وأغلق التجار محالهم مفضلين ذلك على تأدية الضرائب المطلوبة. وامتلأت نفوس الغالبية العظمى من الشعب بالاستياء العام والكراهية البالغة تجاة شخصى "ألفا".[1]

٣- أما العامل الثالث فهو جهود الثائرين فى البحر، اضطر كثير من السكان إلى الهجرة إلى البحر وانضموا إلى ملاحى سفن صيد الأسماك وقرصان البحر، واتخذ الجميع القرصنة وسيلة للهجوم على سفن أسبانيا ويهاجمون الموانى الصغيرة الموالية لها بالأراضى المنخفضة، حيث كانوا ينقضون عليها فجأة وينتهكون حرمة الكنائس، يخربونها ويسلبون ما فيها من نفائس ويذهبون لبيعها فى ميناء دوفر على الساحل الجنوبى الإنجليزى. وكانت انجلترا فى أول الأمر تساعد هؤلاء القوم وتحميهم، ثم تنحت عن ذلك لأسباب سياسية وكان يرأس هؤلاء القراصنة وليم دى لامارك William de La March الذى هاجم بأسطوله سواحل زيلنده واستولى على ثغر بريل الحصين سنة ١٥٧٢. ويعتبر استيلاء شحاذى البحر على هذا الثغر بداية للحركات التى ترتب عليها ظهور الجمهورية الهولندية.

قام الأسبان من جديد بإجراءات انتقامية شديدة العنف فصادروا الأملاك كتدابير مقابلة لما يقوم به الثوار من عنف ونهب، ونشطت محاكم التفتيش فى إصدار

---

(١) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٣٨.

أحكام التعذيب والحرق والشنق. ولم ير ذلك الشعب إلا زيادة السخط على الأسبان وعزمهم على المضى فى الثورة على أشدها حتى يجلو آخر جندى أسبانى وكانت الثورة على أشدها فى الشمال حيث قرر نواب هولندة وزيلندة وأترخت وجلدر لاند تنصيب "وليم أورنج" رئاسة الولايات الشمالية ودعوه إلى قيادة قواتهم.[1]

لقد كان النجاح فى أول الأمر يبدو مستحيلا، إذ كان من العسير أن تتغلب حفنة من الجنود غير المدربين على جيوش دولة كبيرة كأسبانيا. ولكن طبيعة البلاد التى يحاربون فيها قد ساعدتهم مساعدة فعالة. فقد كان الثوار فى حروبهم ضد الأسبان يتجنبون الالتحام وبهم فى ميدان مكشوف بل يتحصنون داخل مدنهم المنيعة. وعندما يحاصرون يلجأون إلى هدم الحواجز والسدود التى بنيت لتقى بلادهم من البحر فتنطلق المياه منها على القوات الأسبانية المحاصرة لهم فتشتت شملها.

ومما ساعد ثوار الأراضى المنخفضة أن أسبانيا – رغم قوة جيوشها – كانت تعانى إذ ذاك من أزمة اقتصادية شديدة نتج عنها عجزها عن الانفاق على تلك القوات حتى أن كثيرا ما تمر الشهور تلو الشهور دون أن تدفع مرتبات الجنود. أضف إلى ذلك أن حروب الأراضى المنخفضة لم تكن المسألة الوحيدة التى تشغلها، بل أنها كانت منشغلة فى حروب أخرى ضد فرنسا وضد انجلترا.

لكل هذا استطاع الهولنديون الكلفينيون بصبرهم وثباتهم وصمودهم أن ينجحوا فى انتزاع جزء كبير من الأراضى المنخفضة ويؤسسوا فيه حكومة مستقلة.[2]

معاهدة غنت Ghent نوفمبر ١٥٧٦:

ومنذ ذلك الحين بدأت حروب عنيفة. وكان أظهر الحوادث فى المدة التالية إقالة دوق ألفا الذى فشلت سياسته، وتعيين جندى قدير مكانه هودي ركوسنس de Requessens الذى أحرز بعض الانتصارات، ولكنه توفى فجأة فى

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٢٥ – ١٢٦.

[2] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٢٦.

سنة ١٥٧٦، فأعطى موته الفرصة لأن تجمع الولايات الشمالية والجنوبية كلمتها، تحت زعامة أورنج، وكان السبب فى ذلك وقوع ما يعرف باسم الغضب الأسبانى The Spain Furry. وتفسيره أن الجنود الأسبان الذين تأخرت مرتباتهم لم يلبثوا أن قاموا بالثورة. وأرتكبوا الفظائع وأعمال السلب والنهب فى الولايات الشمالية (البروتسنية) والجنوبية (الكاثوليكية) على السواء. واستباحوا مدينة انتورب – فى الجنوب – فأثار هذا العمل الكراهية ضدهم. ونجح أورنج فى جمع كلمة الشمال والجنوب فى اتحاد أطلق عليه اسم (سلام غينت) The Pacification of Ghent فى نوفمبر ١٥٧٦ على أساس الاعتراف بسلطان فيليب الثانى فى مقابل طرد الجنود الأسبان من البلاد ونشر التسامح الدينى وتأليف مجلس من الولايات يقوم بأعباء الحكومة.

ولكن حلف الاتحاد بين الشمال والجنوب بدأ يتصدع فى عهد حكومة دون جوان الذى خلف ركوسنس Requesens ثم تهدم نهائيا فى عهد اسكندر فارنيز Farnese وابن مرجريت بارما. وهو الذى خلف دون جوان بعد وفاته (فى أكتوبر ١٥٧٨) فتألف بفضل سياسة التفرقة التى اتبعها (اتحاد اراش) union of Arrass من الولايات الجنوبية للدفاع عن الكاثوليكية واضطر أورنج لتأليف حلف جديد من الولايات السبع الشمالية عرف باسم اتحاد أوترخت union of utrecht فى يناير سنة ١٥٧٩ على أساس الدفاع عن حريات هذه الولايات ضد أسبانيا وعلى أساس حرية العبادة فى كل ولاية ولو أن الولايات بقيت تعترف أسميًا بسلطان فيليب الثانى. وهكذا انقسمت الولايات إلى قسمين منفصلين لم يمكن التوفيق بتاتا بين مصالحها بعد ذلك[1] وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ورغم ما أبداه خيرة مؤيديه من أسف شديد، قرر أن يطلب المساعدة الفعالة بسبب كونه وريثًا للعرش الفرنسى وخاطبًا معروفًا ليد ملكة انجلترا. ولكنها كانت مضاربة فاسدة: فانجوا كان خئونًا، وجيشه عاصيًا وحمايته مكروهة، ولهذا لم ينتج خير من تدخله القصير الأمر. ولكن

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٥٢.

القدر كان يدخر للهولنديين في حربهم ضد أسبانيا حليفًا أقوى، لن يلبث قبل مضى وقت طويل حتى يحيط اللثام عن خلال مدهشة.

في ذلك الوقت كان مبدأ الاغتيال السياسي أمرًا مقررًا على مدى واسع خصوصًا وأنه - وإن لم يكن الأسلوب الوحيد - كان يزكيه بعض الأعضاء الأسبان في طائفة اليسوعيين. لهذا ليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة حين تقرر حكومة أسبانيا أن تزيح غريمها العنيد القوى من طريقها باغتياله. وأعلنت الامبراطورية أن الأمير خارج على القانون (١٥ مارس ١٥٨١) وأنه عدو للجنس البشرى، ووعدت بالمال والأراضي والألقاب من يأتي برأسه. ولكن آلهة النقمة تلازم سياسة الاغتيال السياسي: فقد تخر الضحية صرعى، ولكن القضية تبقى بشد أزرها دم الشهيد. ففى ١٠ يوليو أطلق شاب برجندى متعصب يدعى بلتزار جرار Balthazar Gérard الرصاص على أورنج في بهو الأمير Prinzohor في دلفت Delft، ولكن رغم أن وليم في ذلك الوقت لم يكن يزيد على الحادية والخمسين من العمر، فإن مقتله جاء متأخرًا جدًا. فقبل ذلك بثلاث سنوات (٢٦ يوليو ١٥٨١) كان ممثلو برابانت والفلاندر وأوترخت وجلدر لاند Guelderland وهولندة وزيلندة قد احتموا في لاهاى ووقعوا صكًا (Act of Abjuration) أقسموا فيه اليمين على خلع ولائهم للتاج الأسباني. وهكذا فرغم وفاة وليم أورنج في تلك الآونة يمخض الاضطراب والعاصفة عن دولة من صنع يديه قامت بالفعل، وكان من المقرر لها أن تملأ البحار بسفنها وتبنى في الشرق امبراطورية مفرطة في الغنى، وتتحدى أساطيل انجلترا وجيوش فرنسا، وتكسب امتنان الجنس البشرى باعتبارها ملجأ للحرية الفكرية وموطنًا لمدرسة من الرسامين أثروا ثقافة أوروبا على الدوام بما راعوه في رسومهم - بدقة ورقة - من بدائع الخيال الهادئة.[1]

واصطنعت الدولة الجديدة لنفسها دستورًا كان يبدو لكل ناظر أنه لا يصلح مطلقًا لجو السياسة الأوروبية العاصف. فقد كانت الدولة الجديدة عبارة عن اتحاد من

---

[1] هربرت فيشر، المرجع السابق، ٢١٤.

سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة. لكل منها برلمانها المحلي وحاكمها التنفيذي المنتخب Stad tholderوحقها فني المشاركة بنصيب مباشر في الإشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية. وللاتحاد مجلس للنواب من اثنى عشر عضوا، وهو ينظر في الشئون التي تعني الاتحاد كله ويعين القائد العام للجيش والقائد العام للأسطول. ولكن لما كانت هذه الهيئات المركزية لا تتمتع بالسيادة الحقيقية، بل تتمتع بها المجالس المحلية السبعة، فلم يكن ثمة ضمان دستوري يضمن تماسك الجمهورية كما يضمن الاستمرار والحيوية في إدارة شئونها. ففي أية لحظة كان بإمكان فلاحي فريزيا وقسس أونزخت أو نبلاء جلدر لاند أن يعرقلوا بأصواتهم - إذا ما أرادوا - الخطط التي جهد في حبكها أرستقراطيون المدن التجارية. على أن الجمهورية لم ينقذها من هذه العواقب السيئة التي ترتبت على هذا القصور في جهازها السياسي سوى عوامل ثلاثة من التجانس الفعلي بين سكان هولندة. وتفوق هولندة على سائر المقاطعات - وأهم من هذين العاملين المكانة الخاصة التي أعطيت عن طواعية لزعيم بيت أورنج خلال الخمسين عاما الأولى الدقيقة لاستقلال هولندة.[1]

وقد ساعد الهولنديون على الاحتفاظ باستقلالهم أن فيليب كان منشغلا عنهم بمتاعبه التي لا تنتهي في أملاكه الأخرى. وذلك بالإضافة إلى حربه مع انجلترا وتدمير أسطوله الكبير (الأرمادا) ١٥٨٠م واضطراره إلى إرسال النجدات إلى الكاثوليك في فرنسا. وكذلك انشغال حاكم الأراضي المنخفضة اسكندر بارما ما بين حين وآخر بحملات يأمره بها فيليب للسير بها نحو فرنسا مما يضطره للغياب عن البلاد فترات من الزمن.

وظلت الحرب مستمرة بين الهولنديين بقيادة "موريس أورنج" وبين الأسبان الذين كانوا يرزخون تحت أعباء الحرب التي يخوضونها في الميادين الأوروبية العديدة والتي أدت إلى تحطيم اقتصاديات بلادهم. فلم يكن هناك بد من

---

[1] نفسه، ص٢١٥ - ٢١٦.

التسليم بالأمر الواقع فيعترفوا بهزيمتهم. ولذلك عرضوا فى عام ١٦٠٩ على جمهورية هولندة هدنة طويلة الأمد مدتها أثنتا عشر سنة. والواقع أن هذه الهدنة تعتبر اعترافًا ضمنيًا باستقلال هولندة. وعلى أثر انقضاء هذه المدة اندلعت الحرب مرة أخرى واستمرت كذلك حتى تم توقيع معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨م والتى تضمنت اعتراف أسبانيا والامبراطورية باستقلال هولندة نهائيًا.

ولقد كان لنجاح الثورة الهولندية وانتصارها على دولة من أعظم الدول الأوروبية قوة أثره الكبير فى نفوس الشعوب المناضلة من أجل استقلالها وقوميتها ومعتقداتها، وكان له فضل كبير فى حفظ وتقوية كيان المذهب البروتستنتى. ومنذ أن تم لهولنده الاستقلال أخذت تخطو خطوات واسعة فى سبيل العمران والتقدم وازداد عدد سكانها بنزوح أعداد كبيرة من البروتستنت من سكان الولايات الجنوبية التى بقيت مدة طويلة تحت الحكم الأسبانى كذلك هاجر إليها أعدادًا أخرى من بروتسنت ألمانيا وفرنسا، ولما ازداد عدد السكان فى بعض الجهات اتخذوا البحر وسيلة للعيش، واتخذوا القوارب سكنًا لهم، وأدى زيادة عدد السكان إلى تجفيف بعض المستنقعات فى داخل بلادهم.[1]

ولما كان الجانب الأكبر من الشعب الهولندى يعنى بالتجارة والصناعة وركوب البحر، فقد كان يجتمع على وجهة نظر واحدة فى الشئون الخارجية، وعلى فهم مشترك لحاجيات هولندة ومصالحها. زال النظام الاقطاعى وحل محل النبيل والكاهن فى أهميتها رجال الطبقة الوسطى من سكان المدن. وكان الأرستقراطيون فى المدن يسيطرون عليها والمدن بدورها كانت تسيطر على الجمهورية. وشاءت الأقدار – إلى حد ما – أن تقع المراكز الرئيسية للتجارة والعلم فى داخل مقاطعة واحدة، الأمر الذى عاون كثيرًا على من البلاد الاستقرار والقوة. فإن امستردام وروتردام وولفت ودوردر ختخ Dordercht وليدن (مقر الجامعة الهولندية) ولاهاى العاصمة السياسية للدولة) تقع جميعها فى هولندة. ولم يحدث فى أى مكان آخر فى

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٣١.

أوروبا أن تركز فى رقعة واحدة من الأرض هذا الحشد من السكان والقوة التجارية، ولم يحدث فى أى مكان آخر أن عولجت شنون التجارة بمثل هذه المهارة أو فهم الناس من الحياة الحضرية بمثل هذا الاتقان. ولما كان لهولندة قصبة السبق بين المقاطعات السبع، فقد تزعمت امستردام مدنها وبزت منافساتها فى الصيرفة والتجارة وحجم أسطولها واتساع نشاطها الاستعمارى. وهكذا عوضت القوة المستمدة من التفوق الاقتصادى الحكم المركزى الذى كان يفتقر إليه الدستور. ومن الوجهة النظرية بقيت حريات الأقاليم مصونة لم تمس. ولكن من الناحية العملية كانت السياسة التى تلقى تأييدًا من حكام امستردام الأثرياء كفيلة بأن تستهوى أعضاء الاتحاد الآخرين الأقل من هولندة شأنًا.[1]

وازداد التوسع الهولندى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وأصبح أسطولهم التجارى من أقوى الأساطيل الأوروبية مما جعلهم يتحكمون فى بحر الشمال، ويجوبون بحر البلطيق، وينافسون الأسبان والبرتغال فى احتكار التجارة فى جزر الهند الشرقية والغربية. وفى سنة ١٦٠١ تأسست شركة الهند الشرقية الهولندية بقصد احتكار التجارة فى الشرق الأقصى، وأدى نشاط تلك الشركة إلى تأسيس امبراطورية استعمارية هولندية فى أرخبيل الملايو. وظلت الجمهورية الهولندية تتمتع بالثروة والرخاء حتى منتصف القرن السابع عشر، وبعد ذلك ظهرت قوات استعمارية فرنسية وانجليزية تحاول الدخول مع هولندة فى تنافس شديد كان من أثره أن بدأت الامبراطورية الهولندية فى الضعف والانحلال.[2]

---

(١) هربرت فيشر، المرجع السابق، ص٢١٦.

(٢) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٣١.

الفصل التاسع

انجلترا فى القرن السادس عشر

عصر أسرة تيودور
(١٤٨٥ - ١٦٠٣)

يبدأ تاريخ الشعب الإنجليزى كأمة حديثة منذ فتح التومنديون بلادهم عام ١٠٦٦ بقيادة وليم الفاتح دوق نورمندية، وقد استوطن النورمنديون البلاد وتناسلوا مع أهلها الإنجليز، ومن امتزاجهم نشأ الشعب الإنجليزى الحديث تحت حكم ملوك أقويا لم يقتصر حكمهم على انجلترا فقط بل أصبحت نورمندية تابعة للتاج الإنجليزى منذ أن اتخذ وليم الفاتح انجلترا مقرًا له، ثم اتسعت الأملاك الإنجليزية فى فرنسا وأدى ذلك إلى ما يعرف باسم "حرب المائة سنة" وهى الحرب التى كان لها أبعد الآثار فى تاريخ الدولتين، والتى يرجع أصلها إلى تصميم ملوك انجلترا على البقاء فى ممتلكاتهم الفرنسية، وإلى عزم ملوك فرنسا على إجلاء الإنجليز عن بلادهم، وأخيرا لم يستطع الإنجليز الاحتفاظ بالأراضى الفرنسية التى كانت تابعة لهم لأن الشعب الفرنسى نفسه أخذته العزة القومية وثار ضد الاحتلال الإنجليزى وتجلت قوته الوطنية فيما قامت به جان دارك من بطولة نادرة، إذ تألبت بفضل حماستها وتضحيتها جميع القوى التى طردت الإنجليز من الأراضى الفرنسية وبعد عامين فقط من جلاء الإنجليز عن فرنسا شبّت بإنجلترا نفسها حرب أهلية وهى حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) وهى الحروب التى سميت بهذا الاسم، إشارة إلى الوردة البيضاء شعار آل يورك والوردة الحمراء التى كانت شعار آل لانكستر، وهما أسرتان تنتميان إلى أصل واحد ولكنهما تنازعا على العرش.[1]

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبى الحديث، ص١٨٣ - ١٨٤.

وقد فاز آل يورك فى حرب الوردتين عام ١٤٧١، إلا أن ملكهم (ريتشارد الثالث) لم يكن موفقًا فى حكمه، وأغضب الشعب بارتكاب أفعال منكرة منها قتل ابنى أخيه ادوار الرابع، فاستطاع هنرى تيودور من أسرة لانكستر أن يكتسب تأييد الشعب وينتزع العرش من أسرة يورك ويؤسس أسرة تيودور القوية التى قدر لها أن تقود البلاد حقبة من الزمن كانت مليئة بالمصاعب الدينية والسياسية. وقد اعتلى هنرى تيودور الحكم باسم هنرى السابع.[1]

هنرى السابع (١٤٨٥ - ١٥٠٩)

كان أول أعماله سحبه ايرل وارويك ابن دوق كلارنس، وثبت البرلمان الأول (١٤٨٥) عرشه وعرش ورثته.. وعلى الرغم من أن القيود التقليدية القائمة منذ العصور الوسطى لوضع حد لسلطة التاج كانت لا تزال قائمة نظريًا، فإن هنرى قد ذهب شوطًا بعيدا فى تنمية سلطان الملك المطلق: فأقام المحكمة الإدارية التى أصبحت تعرف فيما بعد باسم "قاعة النجم" ١٤٨٧، وألغى الجيوش الاقطاعية الخاصة، وانشأ نظامًا ماليًا ناجحًا وإن كان استبداديًا (ابمبسون، وادلى "موتوترفوك"). وفى عام ١٤٨٧ ترك ايرك واريك (سيمنيل) المطالب بعرش انجلترا إلى الشواطئ الإنجليزية، ولكنه هزم فى ستوك فى (١٦ يونيو ١٤٨٧) وأصبح أحد المساعدين فى خدمة الملك.[2]

وشهدت الفترة من ١٤٨٨ – ١٤٩٩ محاولات بركن واربك، أحد الفلمنكيين لخلع هنرى وقد تظاهر بأنه دوق يورك. نفاه شارل الثامن فى صلح ايتابل (٩ نوفمبر ١٤٩٢) الذى انهى الحرب التى اشترك فيها هنرى بسبب ضم شارل لإقليم بريتانيا (١٤٩١)؛ واستقبلت دوقة برجنديا واربك فى فلندرزا استقبالا حارًا، وهى أخت ادوارد الرابع، ثم فر إلى اسكتلندا بعد نفيه من فلندرز، واعترف فيها بادعاءاته. فغزا ولاربك وجيمس الرابع ملك اسكتلندا انجترا فى ١٤٩٦. وفى ١٤٩٧ نشبت ثورة هائلة فى كورنوول نتيجة لفرض البرلمان إحدى الضرائب. وقد ألغيت على أثر

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٨٤.

[2] وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ٤، ص٩٩٥.

هزيمته بلاكهيث (٢٢ يونيو ١٤٩٧) وإعدام القواد (فلاموك). وفى سبتمبر ١٤٩٧ تم الصلح مع اسكتلندا. وقبض على داريك فى الحال وسجن فى البرج، وفر منه، ولكن ألقى القبض عليه من جديد، ودبر هروبًا آخر مع ايرك وارويك، فاعدم كل من بركن وارويك (١٤٩٩).[١]

وقد شهد عهده دستور دورجيدا (قانون بواينجز) وينص على الآتى:-

١- لا يجوز للبرلمان الأيرلندى الانعقاد دون موافقة ملك انجلترا.

٢- لا يمكن تقديم أى قرار للبرلمان الأيرلندى دون موافقة الملك.

٣- تصبح جميع القوانين الحديثة المصدق عليها من البرلمان الإنجليزى سارية المفعول فى أيرلندا.

كما أنه تم توقيع المعاهدة التجارية العظمى، وهى معاهدة تجارية مع الأراضى المنخفضة، تمنح الإنجليز والفلمنكيين امتيازات متبادلة، وتنص على ضرائب محددة. وفى عام ١٥٠٢ تم زواج كبرى بنات هنرى مرجريت من جيمس الرابع ملك اسكتلندا.[٢]

هنرى الثامن (١٥٠٩ – ١٥٤٧).

فى عام ١٥٠٩ بدأ هنرى الثامن نموذجا كاملا لشباب من أمراء النهضة ماهرًا فى كل رياضيات الرجال. اتصف بشهوة فائقة للصيد وللقمار وعشق النساء ومبارزة الفرسان، وامتزج فيه هذا كله بتذوق لصحبة المثقفين من الرجال وبخيال داعية – وإن لم يسترسل فيه كثيرا – تضم إحدى المقاطعات الفرنسية ووضع التاج الامبراطورى على رأسه. وما أن اعتلى هنرى العرش حتى تزوج كاترين الأرجونية، وتكبره بست سنوات، كانت أرملة أخيه الأكبر آرثر الذى توفى فجأة فى لدلو Ludlow فى سن السادسة عشر بعد زواج دام أربعة شهور. وفى عام ١٥٠٣ أصد ر البابا بوليوس الثانى (١٥٠٣) فتوى أقرت الزواج من أرملة أخ متوف، وذلك رغم النص الرسمى للفتكوس Leviticus (الجزء الثالث من العهد القديم).[٣]

---

[١] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص٩٩٥ – ٩٩٦.

[٢] وليم لانجرن المرجع السابق، جـ٤، ص٩٩٦.

[٣] هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ص١١١.

وقد أغرم الملك - عدا مقاتن البلاط والصيد - بأميرين لم يعرفا كثيرا فى الملوك الإنجليز حتى ذلك الوقت. كان هنرى مغرما بالبحر فبنى الأحواض البحرية الملكية فى وولتش Woolwich ودتفور Deptford وانشأ ترنتى هاوس Trinity House وهى مدرسة لإعداد رجال البحر، وأشرف بكل دقة واهتمام على بناء أسطول ملكى ووضع أساس قوة انجلترا فى البحر. وكان أول ملك انجليزى له أسطول بمعنى الكلمة على أحدث طراز. وحين أنزلت السفينة "برنس مارى" إلى البحر فى عام ١٥١٩، حضر الاحتفال كل رجال البلاط، أما هنرى - فقد سلك مسلك أهل البحر: لبس سترة البحار وسروالا مصنوعًا من قماش مذهب، وسلسلة ذهبية نقش عليها "الله وعدلى Diet et Mon droit" وعلقت فيها صفارة كان يبعث فيها سفيرا مرتفعا كأنه صوت النفير". وفى هذه وفى شئون كثيرة أخرى كشف الملك عن مزاج الشعب الإنجليزى وتمشى مع روحه.

أما الأمر الثانى الذى شغف به الملك فهو المسائل الدينية التى كانت قد أصبحت - كما أصبح الاقتصاد فى أيامنا - أساسًا لدراسة السياسة. قرأ فلسفة توما الأكوينى وناقشها، بل أنه كتب بحثا نشر فى عام ١٥٢١ ردا على لوثر كان من نتيجته أن أنعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامى العقيدة Fedei Defenser، وكلما تقدمت السن وازداد اهتمامه بنفسه نما شعوره بالثقة فى عقيدته إلى حد أن أصبح يعد نفسه فى كل المسائل العليا الخاصة بالعقائد الدينية القاضى الفرد الذى لا ضرورة لغيره، الوثيق الصلة بغايات الله وموضع سره. كانت وجهات نظره متمشية مع البابوية، وفى كثير من المسائل الأساسية كالقداس أو تحريم الزواج على رجال الدين كان شديد التمسك بالعقيدة التقليدية. وحين اشتبك فى حرب خارجية لأول مرة كان هدفه نصرة البابا يوليوس الثانى ضد لويس الثانى عشر ملك فرنسا، وأحرز نصرًا فى معركة سبرز Spurs ثم نصرًا آخر أشهر فى فلودن فيلد Flodden Field - وهما

الانتصارات اللذان أعاد لإنجلترا سمعتها كدولة مهيبة الجانب في أوروبا، بالرغم من أن أهميتها لم تبق قائمة.[1]

أما الشعب الإنجليزى فكان - على عكس ملكه، وعلى عكس الشعب الاسكتلندى - غير مبال للبحوث الدينية. وقليل من البلاد من تأثر - كانجلترا - هذا التأثر الطفيف بالهرطقة أو عرف عنه مثل هذا الإخلاص لروما. وكانت حركة اللولاردزا استثناء قريب العهد، ولكنها كانت حين اعتلى هنرى العرش قد فقدت تأثيرها على الجامعات وأهل الريف وغدت عقيدة حفنة مبعثرة من الرجال المغمورين رقيقى الحال الذين يمتهنون حرفا متواضعة في بعض أزقة لندن أو يحرقون الشجر لصنع الفحم في غابات الساحل في تشلترنز Chilterns. ولم يبد البارونات وأهل الريف في انجلترا كبير اهتمام بالمسائل الكبرى التى دار حولها الجدل وكانت تشغل اهتمام الناس في القارة الأوروبية، كالمسائل المتعلقة بالقدرية أو التبرير بالإيمان. وكان الرجل الإنجليزى العادى يكن في قرارة نفسه ولاء غريزيا للأمور المتواضع عليها وخاصة القداس والطقوس الكاثوليكية. أما في الجامعات، حيث كان يتلقى موظفوا الدولة تعليمهم - وبالأخص في جامعة كمبردج - فقد ظهرت حركة دينية سببها الاتصال باللوثرين وكتاباتهم. ولكن هذه الآراء التجديدية كانت في أوائل عهد هنرى الثامن مقصورة على صفوة من أهل الفكر الأكاديمى.[2]

ورغم أن الشعب الإنجليزى يغلب عليه طابع المحافظة، فإنه كان أيضا بصفة عامة لا يميل إلى رجال الدين، ويصدق هذا بصفة خاصة على العلمانيين في لندن والمدن التجارية. وكانت الطبقة التجارية قد بدأت تتحدى التى تعتمد عليها الكنيسة الإنجليزية العتيقة واسعة السلطان، وكان الجبلليين Ghibellines الإنجليز يحقدون على ما يتمتع به القسس من امتيازات وما يحوزون من أملاك. كان يسوؤهم أن يعفى رجال الدين من التشريع الجنائى الذى يخضع له أفراد الناس في الوقت الذى

(1) هربرت فيشر، المرجع السابق، ص١١٢.

(2) هربرت فيشر، المرجع السابق، ١١٢ - ١١٣.

يخضع فيه الناس لتشريع الكنيسة الجنائي. وتساءلوا: لماذا يفلت سافك الدماء فعلا من العقوبة إذا استطاع أن ينشد مقطوعة من المزامير واستحق بذلك أن يكون رجل دين؛ وأى حق يخول محكمة الأسقف الحكم على رجل علمانى بالحرق بتهمة الهرطقة دون أى تدخل أو مانع من جانب السلطة المدنية؟ هذه وشكاوى أخرى، وإن كانت قد لقيت بعض العناية فى التشريع فى عام ١٥١٢، هى التى كانت موضع النقد والتجريح الشديد فى البرلمان الذى انعقد فى عام ١٥١٥.

وهناك سبب مشهور، لم يمط عنه اللثام تماما حتى اليوم، هو الذى اشعل نار الجدل. فقد وجد جثمان رتشاردهن Richard Hunne وهو تاجر وتزى، مشنوقا ومعلقا فى قصر أسقف لندن. أما الاكليروس فكانت لهم وجهة نظر أخرى. فعلى حين كان الناس فى لندن مصممين على تصديق كل ما هو مشين فى حق القسس، أصرت محكمة الأسقف المنعقدة فوق جثمان الرجل على أن التاجر كان زنديقيا لم يتب عن زندقته وأنه أقدم على قتل نفسه؛ ولهذا أحرق جسده وأعلنت مصادرة أملاكه وضمها إلى التاج. واشترك الجميع فى مناقشة هذه القضية؛ ووسط خضم من التهم المتراشقة التى أثارها موت هنّ، أثيرت كل القضايا الأساسية المتعلقة بالكنيسة والدولة وأصبحت مدار للنقاش. ولم يوقف هذا النزاع الحاد الذى كان ينذر بعواقب خطيرة إلا الإقدام على حل البرلمان.[1]

ورغم أن اتجاه الرأى العام كان فى معظمه علمانيًا لا يميل إلى الاكليروس، فإنه لم يكن ثوريا. ولم تلتهب حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا تلك المرارة الإجتماعية بين الطبقات التى اشعلت ثورة الفلاحين فى ألمانيا. حقا لقد كان ثمة أشياء معينة لم يستطع الشعب الإنجليزى قبولها، منها الضرائب الفادحة، ومنها الحرب مع الأراضى المنخفضة التى كان من شأنها أن تقضى على تجارة الصوف، ثم جاء الاضطراب بخصوص القرض الودى The Amicable Loan فى عام ١٥٢٣م، والسخط المنذر بالشر من جانب الرأى العام فى عام ١٥٢٨م، حين فكر هنرى فى

---

(1) هربرت فيشر، المرجع السابق، ص١١٤.

الدخول في حرب مع شارل الخامس - فكانت هذه الأحداث نذرا أوضحت للعاهل الثاقب الفكر حدود سلطته. ولكن طالما كانت جيوب ملاك الأراضى ومربى الأغنام وتجار الأقمشة منتفخة بعيدا عن متناول الحكومة، لم يكن هناك خطر كبير على سلطة الملك، حقا كانت توجد مشكلة اجتماعية خطيرة من وراء كل ثورة شعبية فى هذا العصر، فقد زاد اعتبار الأرض سلعة ينظر إليها من زاوية تجارية، ونتيجة للتقدم المستمر فى تجارة الأقمشة التى كانت أولى صناعات انجلترا، غدت الأغنام أكثر جلبا للربح من الحبوب، وغدا استغلال المراعى أكثر فائدة من زراعتها بمقدار النصف، وتفتحت شهوة ملاك الأراضى والمضاربين فى الأرض من سكان المدن، وأصبح من الممكن جنى مكاسب ضخمة من الأرض بوسائل متعددة:- كتركيز الممتلكات العقارية أو تسوير الأرض العامة بقصد استغلالها فى الزراعة أو الرعى أو تحويل أراضى الفلاحة إلى مزارع للأغنام. هذه الخطط كانت معروفة فى القرن الخامس عشر، أى أنها لم تكن بدعا على أى حال، ولكنها طبقت فى القرن السادس عشر على نطاق واسع أثار ضيقا وفزعا ونقاشا. فما مصير المزارع الذى حرم أرضه؟ وما مصير عمل الحراثة الكثيرين وقد استبدل بهم فى الحقل راع واحد؛ وما مصير الفلاحين الذين كانوا يزرعون بالمشاع، فانتزع منهم مورد رزقهم بتسوير الأرض وربط ملكيتها؟ إن هذه المشكلة الاجتماعية هى مشكلة طبقة ريفية فقدت ملكيتها وبيوت خربت وقرى هجرها أهلها ومتشردين يزرعون الطرقات ويهاجرون إلى المدينة زرافات ووحدانا - أصبحت هذه المشكلة خطيرة فى حد ذاتها، وزادها خطورة ارتباطها بسياسة الكنيسة التى جعلت من كل قس كاثوليكى متحمس مرشحًا ليكون قائدًا للثورة ودفعت بالرهبان إلى سوق العمل، وحطمت أجهزة العصور الوسطى التى كانت تقدم المعونات للفقراء.

وقد تكون النتائج الاقتصادية التى تمخضت عن تسوير الأرض قد بالغ فيها الكتاب المعاصرون. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الهدوء الذى اتصفت به الحياة الريفية الإنجليزية منذ القديم قد اضطرب الآن، وأن شعورًا جديدًا بالقلق قد انتشر على نطاق واسع جدًا بين فقراء الريف. وكما يحدث عادة فى فترات الاضطراب

الاقتصادى، كان الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرًا. وكانت المصالح المكتسبة من القوة بحيث كانت تستطيع أن تعرقل محاولات الإصلاح التى تقوم بها الحكومة.[1]

ويلاحظ أنه رغم كل هذه العوامل المحركة للسخط التى يمكن أن يضاف إليها الارتفاع المطرد فى أثمان ضرورات الحياة، لم تؤد القلاقل الشعبية إطلاقا إلى زعزعة مركز حكومة التودور بشكل خطير. فقد كان باستطاعتها فى كل مناسبة أن تقمع العصيان بغير مشقة كبيرة ودون أن يكون لديها جيش ثابت أو بوليس نظامى (وإن كانت قد لجأت فى عام ١٥٤٩ إلى استخدام قوة طارئة من المرتزقة الأجانب الذين تصادف وجودهم حينئذ بالبلاد). ويرجع ذلك إلى ثلاثة عوامل رئيسية. فمن ناحية كانت الثورات إقليمية محلية لم يتصل بعضها البعض الآخر؛ ومن ناحية أخرى كان النبلاء وكبار الملاك، بمنأى عن الفقراء؛ كما أن احترام التاج والأسرة المالكة كان فى الطليعة من المشاعر السياسية لدى الشعب - فإن روح الطاعة السياسية قد ازداد عمقا فى ضمير الأمة نتيجة للحرب الأسرية التى كانت لا تزال قائمة عالقة فى الأذهان والتى انتهت على ساحة بسورث Bosewrth Field.[2]

وقفت ملكية التيودور حائلا دون تجدد الصراع الأهلى فى البلاد. وقد وضعت نصب عينيها المحافظة على السلام والنظام وتطبيق العدالة وكسر غارب الطبقة الأرستقراطية وحماية الفقراء وتشجيع التجارة. وقد نجت الأسرة من أخطار تولى حاكم قاصر تحت الوصاية، وفشلت محاولة لنقض النظام المقرر لتولى العرش حين دعت ليدى جين جراى Jane Grey إلى الحكم بحركة من أكثر حركات التاريخ الإنجليزى تلقائية وأشدها مضاء. ورغم أن العرش الإنجليزى لم تعتله امرأة منذ عهد ماتلدا Matilda فقد كان يكفى لمارى أختها ولأختها اليزابيث من بعدها أن تكونا ابنتى ملك من ملوك التيودور. ولم تكن مباشرة الحقوق السياسية هى

---

[1] هربرت فيشر، المرجع السباق، ص١١٤ - ١١٥.

[2] هربرت فيشر، المرجع السابق، ص١١٥ - ١١٦.

المثل الأعلى لدى انجليز ذلك العصر؛ وانصرف همهم إلى أن تبقى أسرة التيودور حاكمة. وكان الولاء للملكية من القوة بحيث أن شكسبير استطاع أن يكتب مسرحية "الملك يوحنا King John دون أن يذكر "العهد الأعظم Manga Carta". والحق أن الملكية قد بلغت من القوة حدا مكنها - رغم أعمال الإجرام والقسوة التى اقترفها هنرى الثامن - من أن تجتاز بالبلاد هذه الفترة الحرجة من تاريخها وقد جنبتها ويلات حرب دينية.[1]

وإذا كان هنرى الثامن يعد أول من بدأ حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا فهو قد ترك شئون دولته بين يدى توماس ولزى Thomas Wolsey مدة أربعة عشر عاما (١٥١٥ - ١٥٢٩)، وكان من رجال الدين، كما كان من خلصاء الملك الذى آمن بمقدرته الفائقة، وعمله المتصل، وأقدامه على ما يمليه عليه عقله وضميره. ظل خلال تلك السنوات يحكم انجلترا بتفويض من هنرى الثامن حكما مطلقا غير منازع فيه من جانب زملائه أو البرلمان. وإذا كان من كبار رجال الكنيسة فإن أثره لم يكن وقفا على انجلترا وحدها بل تعداها إلى أوروبا كلها. استمد سلطانه من روما، ومنها كان يتوقع تحقيق كل ما يجيش بخاطره من مطامع غايتها الوصول إلى كرسى البابوية، ولذلك كان يهتم بمصير البابا، فكان من أجل ذلك حريصا ألا يقع البابا أسيرا في يد فرنسا إذ أنها لن تلبث عندئذ أن تصبغ البابوية بأغراضها، وتحول بينه وبين ذلك المنصب؛ لذلك رأى أن تتخذ انجلترا دورا هاما وظاهرا فى ذلك النزال الدولى، الذى كان قائما بين الامبراطور وفرنسا فى إيطاليا (الحرب الإيطالية). وفى عام ١٥٢١ استطاع ولزى أن يحالف الامبراطور. ولكن عندما وقعت الحرب بين الخصمين لم تفقد البابوية حريتها على يد فرنسا وإنما على يد الامبراطور. فلما وقع فرانسوا الأول أسيرا فى بافيا Pavia فى ١٥٢٥، تلاه البابا، فوقع هو الآخر أسيرا عام ١٥٢٧. وبعد ذلك بعامين أى ١٥٢٩ وقعت معاهدة برشلونه، وبمقتضاها سلبت سلطة البابا، وأصبح الأمر كله بيد الامبراطور، وعندما حان وقت انتخاب البابا لم يف

[1] نفسه، ص ١١٦.

الامبراطور بوعده الذى كا "ولزى" يستند إليه ليصل إلى كرسى البابوية. وكانت النتيجة انتهاء سيطرة ولزى على السياسة الإنجليزية، والتمهيد لتأسيس الكنيسة الإنجليكانية. أما السبب المباشر لانفصال كنيسة انجلترا عن كنيسة روما فقد كان مرجعه رغبة الملك هنرى الثامن في الطلاق من زوجه "كاترين الأرجونية" التى لم تنجب له غير بنت واحدة، أطلق عليها اسم "مارى"، ومات من حملت منه بعدها أثناء الولادة، فقال إن ذلك مرجعه إلى غضب عليه لأنه تزوج بتصريح من البابا يوليوس الثانى. أراد أن يطلق كاترين ليتزوج من "آن بولين" Anne Boleyn ولم يكن ذلك بالشئ الغريب؛ إذ كان التصريح بذلك بيد البابا، غير أن البابا فى هذه الواقعة بالذات كان أسيرًا لا يملك من الأمر شيئا. فأخذ يسّوف فى التصريح بالطلاق؛ ذلك لأن كاترين الأرجونية كانت من أقارب الامبراطور. فاقترح البابا تحت هذا الضغط أن تؤلف فى لندن محكمة يرأسها قاضيان من الكرادلة أحدهما ولزى والآخر إيطالى وهو "كمبجيو" Campeggio. وبإيعاز من الامبراطور اقترح البابا نقل هذه المحكمة إلى روما.[1]

وكانت الحوادث التى تلت ذلك زادت دلالة كبرى، ذلك أن هنرى اصطنع خطة تدل على الحنكة السياسية الفائقة: فقد دعا البرلمان إلى مساندته فى نضاله مع الكرسى البابوى. وبعد أن كان قد نجح فى حكم انجلترا بدون برلمان (باستثناء فترة واحدة قصيرة الأجل، فإنه دعا الآن اللوردات والعموم إلى وستمنستر واستبقى دورة انعقادهم سبع سنوات.وأصدر عن طريقهم اللوائح التى اقتضاها استقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما واخضاعها للتاج. قيل أحيانا إن مجلس العموم المنعقد فى عام ١٥٢٩ كان معبأ، ولكن ليس ثمة ما يدل على ذلك. قد يتوقع هنرى وله الحق فى ذلك – من مجلس مكوّن من ملاك الأراضى ومندوبى المدن، ألا يتقاعس عن مساعدته فى تحطيم الروابط المالية، والقانونية التى كانت تربط انجلترا بسلطة روحية أجنبية. ولو أنه طالبهم بإبطال القداس لما أطاعوه مثل هذه الطاعة.

---

[1] زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، ص١١٥.

ولو أنه من أتباع لوثر (كما كان الشائع بوجه عام عن آن بولين) لما استطاع التغلب على ما كان يواجهه من صعاب ولكن هنرى كان فى عقيدته الأساسية من أكبر عمد الكنيسة القديمة، واستمساك هنرى بالعقيدة الكاثوليكية كان لا يقل أهمية عن الجرأة الثورية التى دفعته - فى نطاق العلاقات الدستورية - إلى تحدى البابا والامبراطور، ولو أدى إلى أسوأ النتائج. وقد نجح الإصلاح البروتستانتى فى انجلترا لأنه تم على مراحل (جانبيه) ولأن التعديل الأول - أو الدستورى - قدم للناس باعتباره رجوعًا إلى الأيام الخوالى حين كان الملوك حقًا هم سادة الكنيسة الإنجليزية. وفى هذا أيضًا أبدى هنرى روح الدهاء المعروفة عنه؛ إذ لا شئ يقنع الإنجليزى بقبول تغيير أساس من الاعتقاد بأن مثل هذا التغيير يتمشى فى الواقع ونزعة المحافظة.[1]

وحاول ولزى أن يستصدر من روما قرار يلغى قرار البابا الأسبق يوليوس الثانى الذى أتاح زواجهما ولكنه أخفق كما عرفنا ولما كان ولزى هو صاحب الرأى فى استصدار قرار الإلغاء من روما فقد حقد عليه الملك وعزله وصادر أملاكه واتهمه بالخيانة ولكنه مات قبل المحاكمة سنة ١٥٣٠.

توماس كرمويل

ولما طالت مراوغة البابا فى مسألة طلاق كاترين تفاقم الخلاف بين هنرى الثامن والكنيسة البابوية، واختار الملك رجلا كان يعمل تحت رئاسة ولزى، ولكنه كان أصلب عودًا منه، ويعتنق مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وهو توماس كرمويل، الذى أشار على الملك بالانفصام عن كنيسة روما وفصل كنيسة انجلترا ووضعها تحت سيادة الملك، وذلك بأن يحذو الملك حذو الأمراء الألمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا كنيسة روما وانشأوا كنائس أهلية. وقد اقتنع هنرى بهذا الحل واعتبر نفسه زعيما من زعماء الإصلاح الدينى، ولكنه كان فى داخلية نفسه يهدف إلى توحيد السيادة على البلاد، إذ كانت تقتسم السيادة قبل ذلك سلطتان: سلطة الكنيسة ممثلة فى شخص البابا رئيسها الأعلى، وسلطة الملكية، وبالتخلص من سيادة

---

[1] هربرت فيشر، المرجع السابق، ص١٢٠ ١٢١

الكنيسة البابوية يستطيع تحقيق مآربه الثلاث طلاق كاترين والزواج من آن بولين. الاستيلاء على الأموال التى كانت ترسل فى الأصل إلى كنيسة روما، وتدعيم سلطانه على الدولة الحديثة بفضل سيطرته وسيادته على جميع رعاياه من علمانيين ودينيين.[1]

وهكذا ظهر الإصلاح الدينى فى انجلترا بشكل دينى وسياسى معا، وقد ترك الشعب أمر اختيار المذهب الدينى لمليكه وخضع لما يصدره من قوانين دينية. وساعد الملك على تحقيق ذلك أن البرلمان بمجلسه كان خاضعا له، يوافق على تشريعاته وظل منعقدا لهذه الغاية ستة أعوام متتالية ١٥٢٩ – ١٥٣٥ دون أن يكون لذلك سابقة. وقد عين الملك "توماس كرمويل" نائبا عنه فى الأمور الدينية، فأخذ الأخير يعمل على محو الأديرة من البلاد ومصادرة أراضى الكنيسة. وهكذا استطاع الملك أن يحقق استقلال الكنيسة الإنجليزية ويكون هو رئيسها الأعلى، واستطاع أن يحقق رغبته فى طلاق كاترين والزواج من آن بولين. وأن يملأ خزائنه بالأموال التى كانت تتدفق من انجلترا على كنيسة روما، وأن يصبح صاحب السلطان الأوحد على رعاياه من دينيين وعلمانيين.[2]

أما الشعب الإنجليزى فكان يشعر شعورا عميقا فى تلك الأيام بضرورة الإصلاح بعد أن تنبهت الأذهان إلى المساوئ العديدة فى الكنيسة الإنجليزية عندما كانت تتبع البابا مباشرة إذ كان مفاسد رجالها فى الكنائس والأديرة هى نفس المفاسد التى ثار عليها المصلحون فى ألمانيا وغيرها، وفى الوقت نفسه كان الرأى العام مهيأ لتأييد الملكية فى مسعاها لتدعيم سلطانها، إذ فى دعمها أمان من الفوضى التى عانت منها البلاد فى حروب الوردتين، وكان الناس يفضلون أن تزول سلطة البابوية وهى سلطة أجنبية وليست قومية. وساعد على تأييد حركة الإصلاح أيضا أن أحدا ممن تصدوا للمناداة بالإصلاح لم يفكر فى مهاجمة العقيدة الكاثوليكية نفسها

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٨٨.

[2] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٩٠.

أو المساس بها، بل لقد تحمس البرلمان لتأييد الملكية فى الإصلاح لأن الملك لم لم يتعرض بسوء للكاثوليكية وظل الحال كذلك، إلى أن انحازت أكثرية الشعب للمذهب الجديد وأقدم خلفاء هنرى الثامن على إدخال البروتستنتية فى البلاد.[1]

وفى تلك الأثناء ظهرت على مسرح السياسة شخصية جديدة هى شخصية "توماس كرانمر Thomas Cranmer"، الذى أولاه الملك الثقة التى أولاها ولزى من قبل. واستعان به فى حل مشكلة الطلاق التى كان يواجهها. فاقترح كرانمر عليه أن يستشير كل جامعات أوروبا فى مدى شرعية زواجه. وكانت آراء جامعات فرنسا وإيطاليا تحبذ قرار الملك الخاص بالطلاق وذلك فى نظير حصولها على بعض المال. فشجع ذلك هنرى الثامن على تحدى البابا؛ فاستعان بالبرلمان، ذلك البرلمان الشهيد فى تاريخ انجلترا والمعروف ببرلمان الإصلاح الذى ظل قائما مدة سبع سنوات (١٥٢٩ – ١٥٣٦). وفى عام ١٥٣١ سن البرلمان عدة قوانين كان من شأنها الحد من سلطان البابا الدينى فيما يتعلق بشئون انجلترا الدينية، وأثار ذلك المخلصون للسلطان البابوى أمثال "توماس مور" الذى استقال عام ١٥٣٢.

وفى عام ١٥٣٣ تزوج الملك سرا "بآن بولين" بعد أن طلق زوجه "كاترين" وعندما أصدر البرلمان قانونا يمنع استئناف قضايا الزواج والطلاق فى روما، أعلن الملك على الملأ زواجه الجديد. وأعلن كرانمر الذى أصبح رئيسا للكنيسة كانتربرى حكم الطلاق الذى لم يكن فى الاستطاعة حينئذ السماح به إلا من الكنيسة الرومانية. وتوجت بذلك "أن بولين" ملكة على انجلترا، ثم لم تلبث أن انجبت "اليزابيث" التى نودى بها ولية العهد. فأعلن البابا بطلان حكم الطلاق، وهدد الملك بالحرمان من رحمة الكنيسة إذا لم يعدل عن ذلك فى خلال مدة معينة. وهنا قام البرلمان بخطوة جريئة عندما قرر قطع جميع الروابط بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما. ففى عام ١٥٣٤ صادق البرلمان على زواج الملك من "آن بولين" وعلى عدم قانونية زواجه من "كاترين" وأعلن البرلمان أن ملك انجلترا أصبح السيد الأعلى

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٩٠.

للكنيسة الانجليكانية كما أعلن البرلمان كذلك منع إرسال الأمـوال السنوية إلى البابا. وتعرف هذه القوانين الثلاثة الهامة التى حققت استقلال كنيسة انجلترا عن كنيسة انجلترا عن كنيسة روما بقانون المعونات المالية السنوية Act of Annates وقانون الاستئناف Act of Appeals وقانون السيادة Act of Supremacy.

ومع ذلك فإن هنرى الثامن لم يكـن مـن المتحمسين لحركـة الإصـلاح الدينى بمعنى أنـه لم يرض بتغيير العقائد الكاثوليكية المعترف بها فى انجلترا من قديم، ولكنه لاقى عداء الكـاثوليك والبروتستانت على حـد سـواء. فقـد أسـاء إلى الكاثوليك بقطع الصلة بين كنيسـة انجلترا وكنيسة روما، كما أساء إلى البروتسنانت بتشبثه بالإبقاء على المبـادئ الكاثوليكية. وقد جـوزى كـل مـن جهر برأيه بالموت، ومـن بينهم شخصيتان مهمتان هما سير "توماس مور Sir Thomas More والأسقف "فشر" Fisher حين امتنعا عـن تأدية القسم بالولاء للملك كرئيس أعلى للكنيسة الإنجليزية.[1]

وظهر على مسرح السياسة "كرمويل Cromwell فقـام بـالخطوة التالية فى ذلك الإصلاح، إلا وهى حل نظـام الأديرة فى انجلترا، وكـان الغـرض مـن ذلـك مزدوجًا: القضاء على أعداء حركة انفصال كنيسـة انجلترا عـن روما إلا وهـم الرهبـان والراهبات فهم جند البابوية، وقد أساء إليهم ذلك الانفصـال. كما أراد كرمويل أن يحول كل إيرادات الأديرة الوفيرة إلى الخزينة الملكية، وتم له ما أراد على درجـات فبدأ بزيارة بعض الأديرة وأخذ معه فريقًا من موظفى الدولة، واطلع على مـا فيها من عيوب وفساد، ثم أعلن ذلك، وقرر التخلص منها. فقضى عليها نهائيًا.

وفى عام ١٥٣٩ أعلن هنرى – بصفته سيدا أعلى للكنيسة – العقائد الأساسية للإنجليز فيما يعرف بقانون المواد الست التى وافق عليها البرلمان، وتستخلص فى الاعتراف بـالوجود الفعلى فى القربان، وعـدم زواج رجـال الديـن، وفوائـد إقامـة حفلات القداس، وأهمية عملية الاعتراف، وتناول القربان المقدس بطريقة واحـدة،

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١١٥ – ١١٦.

وتقرر أن تكون عقوبة عدم الاعتراف بالمادة الأولى بالحرق، أما عقوبة عدم الاعتراف بالمواد الأخرى فكانت السجن والمصادرة أولا ثم عقوبة الموت إذا تكرر ذلك الأمر. لكن الملك ظل يعدل فى المواد المختلفة حتى عام ١٥٤٥ حيث نشر فى نهاية الأمر ما يعرف بكتاب الصلوات.[١]

الإصلاح الدينى فى عهد الملك ادوارد السادس ١٥٤٧ – ١٥٥٣:

خلف ادوارد السادس والده على العرش، وهو ابنه من جين سيمور، وكان صبيا يبلغ التاسعة من عمره، ولما كان من المسلم به فى عهد ملكية التيودور أن الملك يؤثر بنفوذه الشخصى على شئون الحكم، فقد صار واضحا أن السياسة الدينية فى المستقبل سوف ترتبط إلى حد كبير بنوع التربية التى ينشأ عليها الملك الصغير. وقد اختار هنرى الثامن قبل وفاته لتعليم ولده ادوارد معلمين من أنصار النهضة والعلوم الحديثة، كما أنه رتب مجلسا للوصاية على ولده كان أكثر أعضائه من المتأثرين بالعلوم الحديثة والذين يميلون للآراء المصلحة ولعل هنرى الثامن كان يقصد من ذلك أن لا يسيطر على الحكم فى عهد الوصاية على ولده جماعة من المتمسكين بالنظام القديم فيغيرون السياسة الدينية التى سار عليها والتى أوجدت النظام الكنسى المعروف فى عهده، ولو أنه كان من المرجح كذلك أن هنرى الثامن لابد أن يكون قد أدرك فى الوقت نفسه أن هناك نتائج محتملة أخرى لتشكيل مجلس من الأوصياء الميالين للإصلاح والمتأثرين بالآراء الحديثة. وأهم هذه النتائج إعادة النظر من جديد فى النظام الكنسى الذى وضعه والسير شوطا أبعد فى طريق الإصلاح الدينى وقد ساعدت الظروف جماعة المصلحين عندما تقرر إنشاء منصب حامى المملكة Proctector واختير لهذا المنصب شقيق والدة الملك الدوق سومرست Somerset وكان هذا من الذين يؤيدون الإصلاح ويعتنق مذهب كلفن ووجد سومرست فى رئيس الأساقفة كرانمر عضد كبيرا. وعلى ذلك سار الإصلاح الدينى فى انجلترا شوطا بعيدا حتى تناول بالتغيير العقيدة ذاتها. وأراد سومرست

---

[١] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١١٦ – ١١٧.

وكرانمر استخدام سيطرة الملك وسيادة الملكية العليا التى تقررت على الكنيسة فى إدخال هذا التغيير، أى تأييد المبدأ الذى انطوى عليه قانون السيادة العليا كما وضعه هنرى الثامن، وكان يفهمه دائمًا وذلك فى مسائل وشئون لم يكن هنرى نفسه يريد أن يتعرض لها بأى تبديل أو تعتبر جوهرى فى حياته.

وفى الفترة التى استأثر أثناءها سومرسرت بالحكومة، صار تحطيم الصور والتماثيل، وألغيت الطقوس الكاثوليكى، وألغى القداس، وأبيح زواج القسس ثم تقرر قراءة الكتاب المقدس باللغة الأهلية (الانجليزية) إلى جانب اللاتينية ووضع كتاب جديد للصلاة (١٥٤٩) The English Book of Common Prayers of 1549 يناير ١٥٤٩ (القانون الأول للعقيدة الواحدة أو المذهب الواحد The First Act of uniformity وهو يقضى بضرورة التزام شكل أو الصلاة الجديد. وهذا الكتاب الجديد للصلاة إلى جانب أنه صدر باللغة الأهلية كان أقرب من ناحية العقيدة إلى اللوثرية منه إلى الكاثوليكية. وتوعد قانون المذهب الواحد، المخالفين من رجال الدين بالعقوبات الصارمة.

وكانت حكومة سومرست تواجه صعوبات كثيرة، منها العداء المستحكم بين انجلترا وفرنسا ولو أن فرنسا كانت مشغولة وقتئذ بحروبها مع شارل الخامس ومن أهمها أو أخطرها الاضطرابات الداخلية فى انجلترا ذاتها والتى نشأت من التعقيدات الدينية غير المألوفة من ناحية، ثم من انتشار ما يعرف باسم Enclosures حركة (إغلاق الحقول) من ناحية أخرى، وسبب هذه الحركة، أن أصحاب الأرض بدلا من أن يزرعوها فضلوا أن يحولوها إلى مراع للأغنام حتى يصدروا أصوافها فأخرجوا صغار المزارعين من الأرض وأقاموا سياجا حولها. فتعطل الكثيرون من العمل وانتشرت المجاعة، وسادت الفوضى، وقامت الثورات فى الأقاليم الشرقية والغربية خصوصًا. وزاد هذه الفوضى ما كان قد سبق من حل الأديرة واستيلاء كبار الملاك على الأراضى التى كانت لها. ولما بدأ سومرست يظهر العطف على صغار المزارعين، ويوجه اللوم لكبار الملاك وينقد أعمالهم، تغير عليه النبلاء الذين عدوه مسئولا عن

هذه الاضطرابات، وتآمروا عليه، فسقطت حكومته فى منتصف أكتوبر سنة ١٥٤٩م وانتهى به المطاف أخيرا بإعدامه سنة ١٥٥٢م.

وبسقوط سومرست ألغيت الحماية Protectorate وانتقل النفوذ الأكبر إلى دوق نورثمبرلاند Northuberland، وبدأ هذا عمله بأن انهى الوصاية Regency التى رتبها هنرى الثامن، فتسلم الملك ادوارد مهام منصبه، ولو أن السيطرة بقيت فى يد دوق نورثمبرلاند.

ولكن نورثمبرلاند أشد اندفاعا فى طريق الإصلاح الدينى من سومرست ويؤيده كرانمر فى التغيير الذى أراد أن يدخله على العقيدة. فأصدر البرلمان قانونا فى سنة ١٥٥٠ يؤيد كتاب الصلاة الذى اعتمده قانون سنة ١٥٤٩، ويقضى باستبعاد واتلاف كتب الصلاة الأخرى. وفى سنة ١٥٥٢، أصدر البرلمان القانون الثانى للمذهب الواحد Second Act of uniformity، يفرض على رجال الدين باستخدام كتاب صلاة جديد أعده كرانمر بمساعدة جماعة من المصلحين والجديد فى هذا القانون أنه ينص على عقاب مخالفيه من رجال الدين والعلمانيين على السواء. وأما حملة تحطيم الصور والتماثيل فقد استمرت على شدتها. وفى سنة ١٥٥٢م كذلك أصدر البرلمان قانونا يتهم بالخيانة كل من يتصدى لمعارضة التاج ولو كانت هذه المعارضة شفوية وكان الغرض من هذا القانون تأييد سلطان الملكية.[١]

ولكن لم يلبث أن صادف نورثمبرلاند نفس الصعوبات التى صادفها سومرست من قبل، بسبب استمرار حركة إغلاق الحقول، وتذمر شطر كبير من سواد الناس من جراء التغييرات الدينية الجديدة. وزيادة على ذلك فقد أراد نورثمبرلاند تغيير الوراثة فى صالح جين جراى Jane Grey وهى حفيدة إحدى شقيقات هنرى الثامن، بدعو أن مارى واليزابيث ابنتين غير شرعيتين. وأراد نورثمبرلاند أن يزوج جين جراى هذه من أحد أبنائه. ولكن هذه المؤامرة فشلت عند وفاة ادوارد السادس فى يوليو ١٥٥٣، وانقلب ضد جين جراى أنصار الشرعية والناقمون من سواد

---

[١] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٧٤.

الشعب على نورثمبرلاند وجين جراى، التى أعلنت ملكة انجلترا فى ١٠ يوليو ١٥٥٣، وقاموا لنصرة مارى الوريثة الشرعية. فألقى القبض على نورنمبرلاند وتسلمت مارى زمام الحكم فى انجلترا.[1]

ماری تیودور ١٥٥٣ - ١٥٥٨

عندما توفى الملك ادوارد السادس، انتقل العرش طبقا لوصية والده إلى السيدة مارى التى عرفت بإخلاصها للعقيدة الكاثوليكية قولا وعملا. وقد تلقى حزب الإصلاح المتطرف تولى مثل هذه الكاثوليكية بعين الشك والنفور، إذ تنبئوا بنقض كل ما فعلوه: إلغاء الطقوس الإنجليزية وإلغاء الانجيل وعودة الكنيسة إلى الصلح مع روما، وفقدان الأساقفة البروتسنانت مناصبهم، وبذلك يتعرض كل ما اتصل بالإصلاح الدينى لأخطار شخصية خطيرة. ولقد أراد نورثمبرلاند - كما سبق أن عرفنا، أن يتجنب هذه الشرور، ويضمن بقاءه متمتعا بالسلطان، فعزم على تعديل وراثة العرش. ولكن المؤامرة فشلت، إذ فضل الشعب الإنجليزى مارى تيودور على جين جراى حفيدة مارى الأخرى التى كانت أختا لهنرى الثامن وزوجة لدوق سفولك. ثم حدث ما كان متوقعا أعيدت العبادة القديمة، وأعيد رسميًا ارتباط الكنيسة بروما، وعفى رسميا على آثار الإصلاح الدينى، وذلك باستثناء شئ واحد وهو أن برلمان مارى نفسه لم يجسر على المساس بالمصالح المكتسبة الكبيرة التى تمخضت عن توزيع ثروة الأديرة.

ورغم أن رجال البرلمان لم يكونوا يأبهون عادة للمسائل الدينية (كما يدل على ذلك موافقتهم على السياسة التى اتخذت فى عهد ادوارد ثم موافقتهم على سياسة أخرى مخالفة فى عهد مارى) فإن الناس فى انجلترا كانوا يحسون بإحساسين عميقين لم يجدا فى هذه السيدة المتعصبة لمبادئها السامية، المنكودة الطالع مما يشبعهما أو وجدا ما يعترصهما. وأول هذين الإحساسين هو العاطفة القومية. فقد تزوجت مارى بمطلق رغبتها فيليب ملك أسبانيا، ورغم أن عقد الزواج كان من صنع

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٧٤ - ١٧٥.

الأسقف جاردنر الذى بذل أقصى ما أمكنه من المهارة واضحا نصب عينيه المحافظة على استقلال انجلترا، فإنه زوجها كان غير محبوب: فلم يكن هناك يمن يكن المحبة للملك الأسبانى أو لحاشيته أو لفكرة أن انجلترا تابعة لبلد أجنبى. بل لقد قامت ثورة ضد هذا الزواج تزعمها توماس يات Thomas Wyatt ولكن قضت عليها شجاعة الملكة نفسها. وحين علم الناس أن الزواج لن يعقب وليا للعهد اتجهت أفكار الشعب إلى الأميرة اليزابيث التى لم تكن من صلب إسبانى أو زوجة لأسبانى، بل كانت انجليزية أو ويلزية من الناحيتين: فهى ابنة آن بولين وهنرى الثامن، وهى ثمرة ذلك الزواج الذى ترتب عليه فصم الرابطة بين انجلترا وروما، وفتح الباب واسعا أمام المد الكبير لحركة الإصلاح الدينى.[1]

وقد تولت اليزابيث الحكم عام ١٥٥٨م وظلت تحكم حتى سنة ١٦٠٣ وكانت الرغبة فى حل المشكلة الدينية من أشد الأمور إلحاحا فى ذلك الوقت، فقد كانت الأحوال الدينية فى انجلترا يضطرب اضطرابا شديدا منذ خمسة وعشرين عاما قبل توليها الحكم، فتارة يتغلب أنصار العقيدة الجديدة، وتارة أخرى يتغلب أنصار الكاثوليكية واستشهد الكثيرون من معتنقى العقيدتين، وإن كان ذلك لا يصل إلى من استشهد فى سبيل العقيدة فى جهات أخرى من أوروبا أثناء حركة الإصلاح الدينى. لم تكن مهمة اليزابيث هينة؛ ذلك لأن الشعب الانجليزى لم يكن راضيا عما حدث فى عهد مارى يتودور من تعصب للكاثوليكية وإعادتها بحذافيرها، كما أنه لم يرض عن خطوات الإصلاح الدينى التقدمية التى وضعت فى عهد ادوارد السادس، لذلك كان عليها أن تتخذ طريقا وسطا بين الأمرين لتكسب إلى جانبها غالبية الشعب الإنجليزى.

وقد ساعدها على تأدية تلك المهمة الصعبة بنجاح عدة عوامل من أهمها:[2]

---

(١) هربرت فيشر، المرجع السابق، ١٢٧.

(٢) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١١٩.

١- إن اضطهادات ماري وتحمسها الزائد للكاثوليكية قد عملت على زيادة البروتستنتيين تعلقًا بالعقيدة الجديدة مما جعل الفريق البروتستنتي متفوقًا على الفريق الكاثوليكي.

٢- كان لانتشار الطبعة الإنجليزية للكتاب المقدس أثرها في ازدياد أتباع الدين الجديد، إذ تبين للجميع أن في استطاعتهم أن يحلوا مشاكلهم الدينية دون الاستعانة بأحد، وكان الدين الجديد يدعو إلى ذلك.

٣- كانت الرغبة في قطع الصلة بكنيسة روما قوية في النفوس ولم يكن طبيعيًا أن يتأتى لإنجلترا ذلك إذا استمرت انجلترا كاثوليكية.

٤- أضعف من جانب الكاثوليك أن قضيتهم قد أصبحت قضية الأجانب فماري وزوجها فيليب الثاني وكلاهما كان أجنبيا في نظر الشعب – قد عملا في حماسة على إعادة الكاثوليكية؛ ولذلك لقيت اليزابيث ولاء عظيمًا لأنها كانت انجليزية ومؤيدة للعقيدة البروتستنتية.

وتم لأليزابيث ما أرادت دون استخدام وسائل العنف أو الشدة وساعدها على ذلك أن منصب رئيس أساقفة Canterbury كان شاغرا بموت "بول Pole" فاحلت محله ماثيوباركر Mathew Parker وقد عرف باعتدال آرائه البروتستنتية واتبعت الملكة ذلك بإصدار أوامرها عن طريق البرلمان بأن تؤدى الصلاة والعقيدة والأوامر كلها في الكنيسة باللغة الإنجليزية، واجتمع البرلمان في عام ١٥٥٩ وقرر النظام الديني الجديد على النحو التالي:-[1]

١ – إلغاء قانون ١٥٥٤ فأدى ذلك إلى إعادة ذلك الانفصال الذي قرره هنري الثامن بين كنيسة انجلترا وروما.

٢- وقانون السيادة Act of Supremacy ويمنح الملكة السيطرة على الشئون الدينية إلى جانب سيطرتها على الشئون المدنية.

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١١٩ - ١٢٠.

٣- Act of univormity ينص على استخدام الكتاب الثانى للصلوات الذى صدر فى عهد ادوارد السادس عام ١٥٥٢م.

اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣)

نشأت بروتستنتية وكان وزير خارجيتها سير وليم سيسيل بارون برلى ١٥٧١م، أما حامل أختام الملكة سيرينكولاس بيكون، وبدأت عهدها بإلغاء تشريعات مارى الكاثوليكية وإعادة التصديق على قوانين هنرى الثامن الخاصة بالكنيسة؛ قانون السيادة Act of Superemacy وقانون توحيد العبادة Act of uniformity تنقيح كتاب الصلوات. وفى ٢ ابريل ١٥٥٩م عقدت معاهدة كاتوكمبرسيس مع فرنسا، تتنازل فرنسا عن كاليه لانجلترا بعد ثمان سنوات:- اتخذت مارى زوجة فرانسوا الثانى ملك فرنسا عند اعتلائه العرش لقب ملكة انجلترا واسكتلندا. فرضت موافقة اسكتلندا معاهدة برويك يناير ١٥٦٠ بين اليزابيث والمصلحين الدينيين الاسكتلنديين. وتم محاصرة القوات الفرنسية فى ليث. وعقدت معاهدة ادنبرة بين انجلترا وفرنسا واسكتلندا فى ٦ يوليو ١٥٦٠، وتم سحب التدخل الفرنسى فى اسكتلندا. واتخذت الدولة الاسكتلندية إقرار العقيدة. وعودة مارى إلى اسكتلندا ١٥٦١ بعدة وفاة فرانسوا الثانى، حيث تورطت فى نواع مع الكلفنيين (جون نوكس).[1]

وفى عام ١٥٦٣ تم اتخاذ المواد التسع والثلاثين بدلا من المواد الاثنتين والأربعين التى أذاعها كرانمر. وتم إنشاء الكنيسة الانجليكانية (كنيسة انجلترا - الكنيسة الأسقفية) وهى كنيسة للتوفيق بين وجهات النظر فى معظمها بروتستنتية من حيث عقائدها (وإن كان الكثير من المواد التسع والثلاثين غامضا. ولكن من حيث تنظيماتها الكهنوتية تشبه الكنيسة الكاثوليكية: وطقوسها فى جوهرها كاثوليكية رومانية مترجمة إلى الإنجليزية. وأراد عدد كبير من المخالفين أو المنشقين: أى البيورتان - حتى ذلك الحين لفظ واسع المعنى غير مضبوط يشتمل على طوائف

---

[1] وليم لانجر - المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٠٤ - ١٠٠٥.

مختلفة – أراد تطهير الكنيسة واستبدال طقوسها القائمة بطقوس المسيحية الأولى البسيطة. الانفصاليون، وهم البيورتان الذين انفصلوا عن الكنيسة الأنجليكانية تمامًا لتنظيم كنائسهم الخاصة، البرسبتاريون: وهم البيورتان الذين سعوا إلى استبدال نظام القسس والمجامع الدينية بنظام الأساقفة داخل الكنيسة الانجليكانية، والبراونيون من البيورتان اليساريين المتطرفين دينيا، وهم نواة المستقلين أو المذهبيين المتأخرين. وكان البراونيون والكاثوليك وحدهم بين الطوائف الدينية في عهد اليزابيث التي لا تتمتع بسياسة التسامح الديني للملكة داخل نطاق الكنيسة الانجليكانية. وعلى ذلك فإن اليزابيث لم تتسامح إزاء الكاثوليك والبراونيون ولكنها اضطهدتهم والاتحاديين طبعا (الذين انكروا مبدأ الثالوث).[1]

وكذلك لقى هذا النظام الأنجليكاني معارضة شديدة من جانب الكاثوليك المتعصبين الذين كانوا أشد خطرا على الملكية من البيورتان والانفصاليين لأنهم صاروا يتآمروا على حياة الملكة للتخلص منها والقضاء بذلك على النظام الأنجليكاني وصاروا يعتمدون في مؤامراتهم على فيليب الثاني ملك أسبانيا وعلى البابا في روما. وكذلك انحازت اليزابيث إلى تعضيد البروتستانت في الأراضي المنخفضة والهجونت في فرنسا. وكان من الواضح أنه لا مفر من اشتباك البروتستنتية والكاثوليكية في نضال عنيف وحاسم: البروتستنتية بزعامة انجلترا والكاثوليكية بزعامة أسبانيا: ولم تلبث الحوادث التالية أدت إلى قيام هذا النضال وكان في مقدمة هذه الحوادث توتر العلاقات بين اليزابيث وبين اسكتلندا وملكتها ماري ستيورات.[2]

وماري ستيورات هذه هي من حفيدات هنري السابع تزوجت من فرانسوا الثاني ملك فرنسا – كما سبق أن عرفنا – وعادت إلى اسكتلندا بعد وفاة زوجها منذ سنة ١٥٦٠م، وصارت محور المؤامرات التي انغمس فيها متطرفو الكاثوليك ضد اليزابيث وذلك لتنصيب ماري ستيورات نفسها على عرش انجلترا وعزل اليزابيث أو

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٠٥ – ١٠٠٦.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٧٩.

قتلها. ولقد تعددت هذه المحاولات حتى رأت اليزابيث أن تتخلص من هذه المؤامرات بالقبض على ماري ستيورات عندما لجأت هذه إلى انجلترا تطلب الحماية من خطر ثورة قام بها الشعب والنبلاء في اسكتلندة ضدها لفشلها في الحكم لاتهامها بقتل زوجها دارنلي Darnley وأخيرًا أعدمتها اليزابيث في سنة ١٥٨٧م. وعندئذ صار الكاثوليك في انجلترا يتطلعون إلى شخص فيليب الثاني ملك أسبانيا زوج ماري ملكتهم السابقة، والذي كان يطمع في عرش انجلترا فتجددت مؤامرات الكاثوليك لاغتيال اليزابيث، وانتهز فيليب الثاني هذه الفرصة لتحقيق أطماعه فارسل أسطولا ضخمًا (الأرمادا Armada المشهورة ضد انجلترا لغزوها سنة ١٥٨٨ ولكن الملاحين الإنجليز سرعان ما أحاطوا بمراكبهم الخفيفة سفن الأسبان الثقيلة في القنال الإنجليزي في ٥ يوليو سنة ١٥٨٨م، وعاكس الريح الأرمادا التي لا تقهر فاضطرت للالتجاء كاليه، وهناك هاجمها الإنجليز هجومًا عنيفًا حتى أرغموها على الفرار في بحر الشمال على أمل الالتفاف حول الجزر البريطانية والعودة إلى أسبانيا من هذا الطريق، ولكنها لم تلبث أن تعرضت إلى عاصفة شديدة في البحر عند جزر أوركيني فتحطمت تمامًا على شواطئ اسكتلندة وأيرلندة في أغسطس ١٥٨٨م ولم تستطع سوى بقاياها القليلة المحطمة العودة إلى أسبانيا. ومن ذلك الحين خرجت سيادة البحار من يد أسبانيا.[1]

وكان من نتائج موقعة الأرمادا الآتي:[2]

١- أن أذنت شمس أسبانيا بمغيب ولاحت شمس إنجلترا بالشروق، وإن كانت لم تتحقق نتائج فور الهزيمة هزيمة فيليب على استئناف الحرب لم تنته، ولكنه أثر أن يكون استعدادات لذلك قويًا محكمًا لا يتيح لانجلترا أن تفلت منه، غير أن الظروف لم تمكنه من الأمر كما تصور؛ إذ كانت أطماعه في فرنسا تشغل باله كما

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٧٩ - ١٨٠.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٧٩ - ١٨٠.

أن عزمه على ما أراد قد اقتضاه مشروعات عديدة كلفته نفقات باهظة وقفت بأسبانيا على باب الإفلاس.

٢- تشجيع الثائرون من شعب الأراضي المنخضة في الاستمرار في المطالبة باستقلالهم، وكان الأمل في ذلك يملأ نفوسهم.

٣- اطمأنت فرنسا بعد تلك الهزيمة التي حلت بأسبانيا فأمنت خطر فيليب الثاني وكان نفوذه مؤيدًا بمساندة البابا قد تغلغل في فرنسا، وكان فيليب يومئذ رئيسا للعصبة الكاثوليكية. وتخلصت فرنسا نهائيا من هذا النفوذ بجهود هنري نافار الذي أصبح يعرف بهنري الرابع.[1]

وهنالك فريق من النقاد يوجهون اللوم إلى المملكة اليزابيث فيتهمونها بالتقصير في البذل بسخاء على تحريض من يناوئون أسبانيا في الأراضي المنخفضة وفي فرنسا. ويعجبون من أحجامها عن الاستمرار في محاربة فيليب الثاني - بعد الذي أصابه من ضعف وإخفاق - لامكان الاستيلاء على بعض المستعمرات التي كانت واقعة تحت سلطانه. وأكبر الظن أن ما ضمت دار الوثائق في بلاط اليزابيث من امتناعها عما أراد النقاد قد خفي عليهم. ثبت من تلك الوثائق أن حال انجلترا المالية لم تكن لتعين على بذل الجهود التي أشار إليها النقاد، كما ثبت أن الاصلاحات الداخلية في انجلترا قد كانت في مسيس الحاجة إلى توجيه جهود الملكة إليها، لأن ذلك قد كان أجدى عليها وأنفع لها من تشتيت الجهود في مساعدة الحركات البروتستانتية بصورة أوقع خارج انجلترا. وقد أثبتت الأيام حكمة سياسة الملكة الرشيدة في اتجاهها نحو تركيز جهودها في وضع الأسس القوية لبنا امبراطوريتها بتقوية أسطولها العظيم.

وثابت أن انجلترا لم يكن في استطاعتها أيام اليزابيث أن تبدأ بناء امبراطوريتها لفقرها إلى المال والرجال، إذ كان عدد سكانها لا يجاوز خمسة ملايين نسمة، ولهذا كله باءت محاولات "سيرولترالي Sir Walter Raleigh في تأسيس

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٢٥.

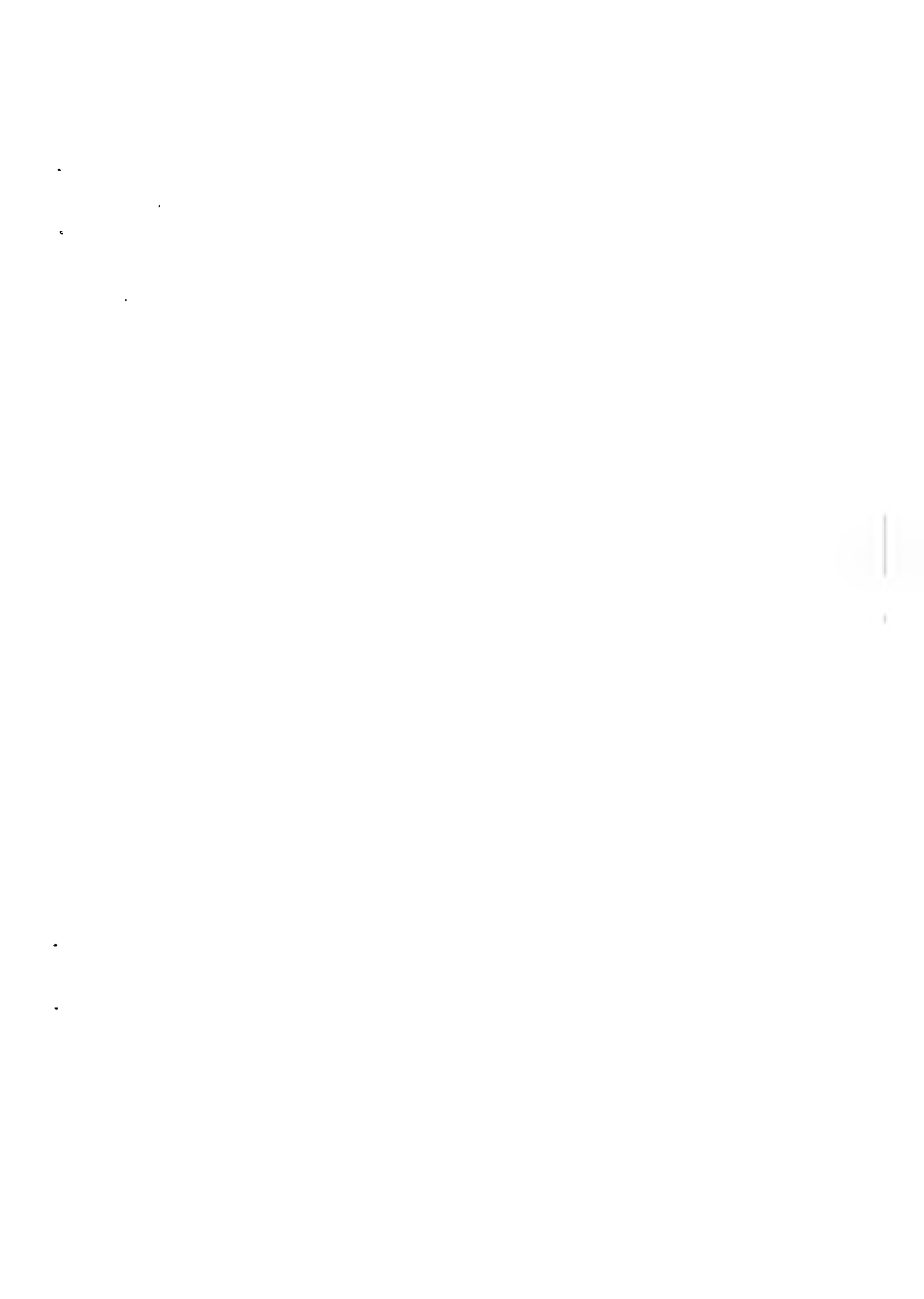
مستعمرة فرجينيا بالفشل. وفى بداية القرن السابع عشر أيام أسرة ستيورات تتحسن أمور البلاد المالية ويزداد عدد سكانها فيبدأ التفكير فى حركة الاستعمار ويساعد على ذلك الاضطهاد الدينى الذى وقع بالبيورتان فى عهد شارل الأول فيضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى أمريكا الشمالية فيؤسسون فيها مستعمرات لهم جنوبى نهر سنت لورنس عرفت باسم انجلترا الجديدة New England.[١]

وفى ٢٤ مارس ١٦٠٣ توفيت اليزابيث بعد حكم طالت مدته. وبوفاتها انتهى عهد اسرة التيودور فى انجلترا وبدأ عهد أسرة جديدة هى أسرة ستيورات Sturats وفى عهد هذه الأسرة الجديد بقيت المسألة الدينية تشغل الأذهان فى انجلترا. ولو أن النضال الداخلى فى عهد هذه الأسرة الجديدة كان نضالا دستوريا فى جوهره من أجل تقييد سلطة الملكية، وإقرار حقوق الشعوب الممثل فى البرلمان وتاريخ هذا النضال إنما هو جزء من تاريخ أوروبا فى القرن السابع عشر.[٢]

---

(١) نفسه، ص١٢٦.

(٢) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٨٠.



الفصل العاشر

حرب الثلاثين عامًا

١٦١٨ - ١٦٤٨

عاشت أوروبا أزمة خطيرة ابتداء من سنة ١٦١٨م، امتدت لمدة ثلاثين عاما، وحربا طاحنة شاركت فيها كل دول أوروبا الوسطى والغربية، وحتى دول شمال أوروبا، وبدأت هذه الحرب فى ألمانيا ولأسباب دينية، وفى شكل ثورة قام بها البروتستانت فى بوهيميا ضد الامبراطور الكاثوليكى، وكانت فى الواقع ضد أطماع الأسرة الحاكمة النمسوية، لتحويل الامبراطورية الانتخابية والاتحادية الألمانية، إلى دولة مركزية وراثية، على شكل مملكة فرنسا. وبدأت كمجرد حرب أهلية فى ممتلكات أسرة النمسا، ولكنها تحولت إلى حرب ألمانية، ثم تحولت بعد ذلك شيئا فشيئا، إلى حرب أوروبية عامة، شاركت فيها، علاوة على الدول الألمانية والنمسا كل من الدانمرك والسويد والأقاليم المتحدة، وأسبانيا، وفرنسا، التى أصبحت عنصرا فعالا فى هذه الحرب ابتداء من سنة ١٦٣٥م. ومنذ هذا الوقت طرحت مسائل أخرى علاوة على المسائل الألمانية، الخاصة بالحرية الدينية، والتنظيم السياسى للامبراطورية، وتتعلق باستقلال الأقاليم المتحدة، وتفوق السويد فى بحر البلطيق، وتفوق فرنسا فى غرب أوروبا، وكانت حرب الثلاثين عاما تعتبر مرحلة جديدة من مراحل التنافس بين فرنسا وأسرة الهابسبورج، وصراعها مع فرعيها فى كل من النمسا وأسبانيا. وإذا كانت معاهدات وستغاليا سنة ١٦٤٨ قد وجدت حلا لمعظم هذه المسائل، بعد حرب دامت ثلاثين عاما، وقضت على المشروعات النمسوية فى ألمانيا، وأكدت استقلال الأقاليم المتحدة، وتفوق السويد فى الشمال وانتصار فرنسا على أسرة الهابسبورج النمسوية، التى اضطرت إلى التنازل عن الالزاس، فإن الحرب قد استمرت لمدة إحدى عشر سنة جديدة، بين فرنسا وهابسبورج أسبانيا، وانتهت بانتصار جديد لفرنسا مع صلح البرانس، الذى أعطى فرنسا روسيليون وآرتوا.

أما الأسباب فقد كان صلح أوجزبرج سنة ١٥٥٥م قد أعطى ألمانيا، رغم نقط ضعفه سلما لفترة تزيد على ستين عاما. وفى أثناء ذلك الوقت زادت أعداد

الكلفيين فى غرب ألمانيا، ومنطقة الراين. ولما شعروا بأنهم مهددون من جانب اللوثريين والكاثوليك نظموا أنفسهم فيما بين عامى ١٦٠٣م و١٦٠٨م فى الاتحاد البروتستانتى، والذى كان أهم أعضائه هو منتخب البلاتينات وأمراء بادن وورتنبرج، وعقد هذا الاتحاد حلفا مع ملك فرنسا ومع حكومة الأقاليم المتحدة، ونتيجة لذلك قام الكاثوليك وعلى رأسهم الأمراء والأساقفة فى العام التالى ١٦٠٩م بإنشاء العصبة المقدسة التى أصبح ماكسمليان دوق بافاريا رئيسا لها، وتفاوضوا مع أسبانيا. ورغم ذلك فإن البروتستانت لم ينظموا صفوفهم، وحاول هنرى الرابع ملك فرنسا أن ينشئ فى ألمانيا حزبا يمكنه أن يقف فى وجه الامبراطور، وذلك عن طريق الوصول إلى تقارب بين اللوثريين والكلفينيين. ولكن اللوثريين رفضوا ذلك، وكان وجود عصبتين كاثوليكية وكلفينية وإنشاء كل منها لجيش يهدد بنشوب حرب، وجاء موت هنرى الرابع فى سنة ١٦١٠م لكى يؤجل ذلك لفترة ثمان سنوات.[1]

ولقد نشبت الحرب نتيجة لأسباب تتعلق بالأسرة الحاكمة فى النمسا، ونتيجة لأوضاع هذه الأسرة، ولطبيعة وطموحات أحد كبار أعضائها، وهو فرديناند الثانى. وكانت لهذه الأسرة علاوة على تاج الامبراطورية، إمارات وراثية، كان شارل الخامس قد أعطاها فى سنة ١٥٥٦م لأخيه فرديناند الأول علاوة على ممالك بوهيميا والمجر التى كانت له. وكانت الشعوب التى تسكن هذه الممتلكات غير متجانسة، وتتحدث أكثر من لغة، فكان الأهالى فى الإمارات الوراثية من الألمان، بينما كانوا تشيك فى بوهيميا ومجيار فى المجر وإيطاليين فى التيرول. وكان كل إقليم يمثل دولة قائمة بذاتها، لها عاصمتها، ونظام حكمها ومجالسها، فكان الامبراطور يحتاج لكل منها لجمع الأموال، ولجمع الرجال؛ من أجل الحرب. ولم تكن هناك رابطة توحد بين هذه الممتلكات سوى شخص الامبراطور، ووحدة الدين. وكان تقسيم الممتلكات بين أبناء فرديناند الأول من ناحية، وانتشار المذهب البروتستانتى فى كل من النمسا، وزيادة أعداهم فى الدايت وسيطرتهم على جامعة فينا، وكذلك انتشار أنصار

---

[1] جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص١١ - ١٢.

إعادة التعميد في بوهيميا، وانتشار المذهب الكلفني في المجر، يهدد أسس حكم هذه المجموعة الخاضعة لسلطة الهابسبورج. وكان اعتناق مذاهب دينية مختلفة يعبر إلى حد بعيد، عن الرغبة في التميز؛ وظهور القوميات المحلية الجديدة. ولقد ربى ماكسمليان ابنة رودلف الثاني لدى الجزويت في مدريد، وفي بلاط فيليب الثاني، وحاول أن يعمل ضد مذاهب الإصلاح بعد توليه الحكم، ولكنه واجه مقاومة عنيفة في كل من بوهيميا والمجر. وفقدت الكاثوليكية سلطتها تماما على هذين الإقليمين؛ ولم يعد لهابسبورج سوى امتيازات التاج الامبراطوري حين وصل فرديناند الثاني إلى العرش سنة ١٦١٨م.[1]

وكانت طموحات وأطماع الامبراطور فرديناند الثاني هي السبب الرئيسي الذي أشعل نار حرب الثلاثين عاما. وكان يبلغ من العمر أربعين حين وصل إلى كرسي الأمبراطورية في سنة ١٦١٨م. وكان قد تعلم على أيدي اليسوعيين في بافاريا. وحريصا على تنفيذ اتجاهاتهم، وبكل قوة، ونظر إلى البروتستانتية على أنها مرتبطة تماما بمبدأ الثورة؛ وإلى كل من يطالب بحرية العقيدة على أنه يرغب في أن ينال من سلطته. وكان يرغب في توحيد العقيدة في ممتلكاته، وفي توحيد ممتلكاته نفسها؛ ورأى أن العقيدة ووحدتها هي التي يمكنها وحدها أن تعوض ذلك التمييز في اللغات والأجناس والتقاليد، وأن تعطيه المبدأ الأساس للوحدة. وكان فرديناند قد قام منذ عشرين سنة مضت، بمحاربة البروتسنت في إماراته، استيريا في النمسا، وأغلق كنائسهم ومدارسهم وطرد رعاتهم، ثم أجبر الأهالي على العودة إلى الكاثوليكية في فترة محددة، أو ترك الإمارة. وأراد بعد أن وصل إلى كرسي الامبراطور في سنة ١٦١٨م أن يطبق ذلك على التشيك، في بوهيميا.[2]

وأمر فرديناند بهدم المعابد البروتستانتية التي كان التشيك قد أقاموها في بوهيميا. فعقد اللوثريون اجتماعا في براغ، وحين حاول مندوبي الامبراطورية يوم

---

(1) جلال يحيى، المرجع السابق، ص١٢ - ١٣.

(2) جلال يحيى، المرجع السابق، ص١٣.

٢٣ مايو سنة ١٦١٨ فض الاجتماع قام المجتمعون بالقاء أربعة منهم ومعهم أحد السكرتارية من النوافذ، من ارتفاع عشرين مترا إلى الخندق المحيط بالقصر، فسقطوا على كوم من الزبالة، وفروا وبدأت حرب الثلاثين عاما.[١]

٢- الحرب في يوهيميا وألمانيا

ولقد سنحت الفرصة لبداية النضال في يوهيميا، وذلك عندما أراد الامبراطور رودلف الثاني تأسيس حكومة مركزية قوية في ألمانيا. وكانت وسيلته إلى ذلك، القضاء على الانقسام الديني حتى يمكن القضاء على الانقسام الديني حتى يمكن القضاء على الانقسام السياسي وإنهاء الخلافات الداخلية. وحاول رودلف أن يفعل ذلك في يوهيميا.

ومملكة يوهيميا، كانت من أملاك أسرة الهابسبورج، أهلها من السلاف والتشيك والجرمان، لم تلبث أن انتشرت فيها البروتستنتية اللوثرية بدرجة اضطرت الامبراطور رودلف الثاني، بعد أن كان قد أوقع باللوثريين الاضطهادات الكثيرة مدة طويلة - اضطرته أن يمنح يوهيميا في سنة ١٦٠٩ عهدا ملكيا وافق فيه على التسامح مع البروتستنت اللوثريين ولكن كان من الواضح أن رودلف لم يمنح هذا التسامح الا مرغما. وكذلك كان الحال في عهد أخيه، الامبراطور التالي ماتياس Mathias (١٦١٢ - ١٦١٩) فقد اسيئت في عهدهما معاملة البروتسنت بالرغم من العهد الملكي الصادر بالتسامح، واتخذت الوسائل الكفيلة بالقضاء على البروتسنت تماما في يوهيميا، على اعتبار أن القضاء على كل اختلاف ديني من شأنه تدعيم سلطان الامبراطورية. فاشتد اضطهاد البروتسنت، حتى ضاقت بهؤلاء السبل. وأخيرا قاموا بالثورة في سنة ١٦١٨م فهاجموا مقر الحكومة في براج وقبضوا على الأعضاء الكاثوليك وأنصار الامبراطور ثم شكلوا حكومة جديدة من أعوانهم. وفي ٢٦ أغسطس ١٦١٩ وهو اليوم الذي انتحب فيه فرديناند الثاني امبراطورا (١٦١٩ -

---

(١) نفسه، ص ١٤.

١٦٣٨) بعد وفاة مايتاس - أعلن أهل بوهيميا خلعه من حكمهم، وأقاموا مكانه ملكا على بوهيميا رئيس الاتحاد البروتستنتي، فردريك الخامس ناخب (كونت) البلاتاين.

وحينئذ انتقلت المقاومة، من نضال محدود، إلى ثورة أهلية؛ وأما الخطوة التالية فكانت الانتقال من الثورة الأهلية إلى الحرب الأوروبية على نحو ما سوف يتضح عند تاريخ هذه الحرب التي صارت تعرف باسم حرب الثلاثين عامًا.

وهذه الحروب الطويلة تمر في أدوار أربعة: البوهيمي والبلاتايني (١٦١٨ - ١٦٢٥) The Bohemian Palatine Period، والدور الدنمركي ١٦٢٥ - ١٦٢٩ The Danish Period والدور السويدي The Swedish(١٦٣٠ - ١٦٣٥)، الدور الفرنسي السويدي (١٦٣٥ - ١٦٤٨) The French Swedish Period.

ولعل أبرز ما تمتاز به هذه الحرب أنها بدأت على شكل نضال محلي،ثم أخذ يتسع نطاقها تدريجيا حتى شملت كل أوروبا. فقد امتدت من بوهيميا إلى ألمانيا الجنوبية، ثم إلى ألمانيا الشمالية فجذبت إليها أيضًا الدول المجاورة البروتستنتية ثم أخذت دولة بعد أخرى، تخوض غمار القتال، حتى صارت هذه الحرب في النهاية حربًا غير ألمانية إطلاقا. فهو تكون إذا قد اتخذت في مبدأ الأمر مظهر نضال بين البروتستنتية والكاثوليكية، ثم انتهت أخيرا بأن صارت نزاعًا بين الأسرتين الكبيرتين الهابسبورج الألمانية، والبربون الفرنسية من أجل إحراز السيطرة في أوروبا.[1]

الدور الدنمركي (١٦٢٥ - ١٦٢٩)

كانت الدانمرك وانجلترا تتبعان سير الحرب البوهيمية بكل قلق واهتمام. وكان كرستيان الرابع ملك الدنمرك - وكان في الوقت نفسه دوقا لإمارة هولشتين. وهي ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة. وله أهداف سياسية إلى جانب تعصبه المذهبي، فقد كان يأمل في الاستيلاء على بعض الأبرشيات الألمانية ويكوّمها

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص١٩٢.

مملكة باسم ولده، وقد دخل الحرب معتمدا على تحالفه مع أنجلترا وأمراء شمال ألمانيا، وعلى ما بذله له الوزير الفرنسى ريشيليه من وعود بالمساعدة.

وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حرب الثلاثين عامًا، ورأى الأمبراطور أن البروتسنت فى هذه المرة أكثر قوة وأشد مراسًا. فاستعان بأعظم قواد ألمانيا فى ذلك العصر" والنشتين Waccenstien دوق فريدلند، المعروف بمقدرته على جمع الجند المرتزقة من مختلف جنسيات أوروبا وهم الذين يعيشون على كسب المواقع توطئة للسلب والنهب. واشترط "والنشتين" أن تكون القيادة العليا له وحده رغم أن لقوات الامبراطور قائد قدير هو "قلى" إلا أن الامبراطور كان مضطرًا لقبول شروط والنشتين لكسب المعركة ضد البروتسنت.[1]

وما لبث أن استطاع والنشتين ومن معه من قواد الامبراطورية من هزيمة ملك الدنمرك وطرد قواته من الأراضى الألمانية واحتلال معظم الأراضى الدنمركية نفسها. وحاول والنشتين بعد ذلك المزيد من التوسع نحو الساحل لتقوية دفاعه ضد أى غزو محتمل من جانب السويد وفى الوقت نفسه يستغل موارد الموانى بفرض الضرائب فيها لإعالة جيشه والإنفاق على مطالب المرتزقة من قواته وقد رفضت ميناء سترالسند" Staralsund الاذعان لما فرضه عليها واستعدت للدفاع عن نفسها فحاصرها لمدة خمسة أشهر خلال عام ١٦٢٨ ولكنها قاومته واستسلمت فى الدفاع. وساعدها أن حصارها كان بريا فقط أما البحر فكان مفتوحًا لمدها بالمساعدات عن طريق الأسطولين الدنمركى والسويدى. ولما يئس والنشتين اضطر إلى رفع الحصار عنها، وعلى أثر ذلك أدرك كل من الامبراطور، وكرستيان ملك الدنمرك أن لا مفر من الاتفاق ولاسيما أن الأخير يئس من وصول أية مساعدة فعالة من انجلترا التى وعده بها ملكها شارل الأول. أما الامبراطور فرأى أن يسارع بعقد اتفاق قبل أن يدخل ملك السويد الحرب فى صف البروتستانت.

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٧٢.

وعلى ذلك تم صلح لوبك Lubeck سنة ١٦٢٩م على أن يتنازل كرستيان عن كل ما يدعيه في الأسقفيات الألمانية على شرط أن يسترد أملاكه الوراثية وهي هولشين وشلزويج وجنلند.

وبذلك قوى مركز الامبراطور وشعر البروتستانت أنهم أصبحوا تحت رحمة الكاثوليك الذين صمموا من جانبهم على انتهاز الفرصة لتدعيم مركزهم، فحرضوا الامبراطور فرديناند على إصدار "مرسوم الإعادة Edict of Restitution خول فيه للكنيسة الرومانية استرجاع كل الأملاك التي انتزعت منها منذ معاهدة أوجزبرج عام ١٥٥٥م، وقد روع هذا المرسوم جميع البروتسنت لا في ألمانيا فحسب بل أفزع أيضا البروتسنانت في كل أوروبا، وخصوصا حكام الدول التي تخشى أطماع الامبراطور وأحلامه في إنشاء حكومة ملكية من آل هابسبورج تمد سلطانها إلى أوروبا بأسرها.[1]

وكان من بين من أوجسوا من نواياه خيفة، الفرنسيون والسويديون، وكان المسيطر على السياسة الفرنسية حينذاك "ريشيليه" ولكنه لم يكن في ذلك الحين في وضع يمكنه من التفرغ لمناهضة الامبراطورية، إذ كان ما يزال مشغولا بكسر شوكة إشراف فرنسا من جهة وقمع حركة الهيجونت من جهة أخرى، ولذلك اكتفى بتأييد المغامرة التي قام بها جستاف أدولف ملك السويد، وأمداده بالمال. وفي الوقت نفسه أجرى اتصالات مع بعض الولايات الكاثوليكية الألمانية لأثارتهم ضد الامبراطور مستغلا المخاوف التي تراودهم تجاه عزم الامبراطور على أن تكون السلطة الألمانية مركزه كلها في يده.[2]

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٧٣.

(٢) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص١٧٣ - ١٧٤.

الدور السويدى ١٦٣٠ – ١٦٣٥

في شهر يوليو سنة ١٦٣٠م، نزل جوستاف أدولف الثانى Gustavus Adolphs (١٥٩٤ – ١٦٣٢) ملك السويد على شاطئ بوميرانا. كانت الدوافع والأسباب الداعية لتدخل جوستاف الثانى هي:-

١- حماية البروتسنانت المضطهدين وإعادة دوقات مكلنبرج وأقاربه فيها، ورفض وساطته السابقة في معاهدة لوبك، وقلقه من الخطط البحرية للامبراطورية. وبالنسبة للمركز السياسي للسويد: كانت فنلندة وانجر ماتلاند واستونيا وليفونيا كلها تابعة لمملكة جوستاف، على حين كانت كورلاند داخله في دائرة النفوذ السويدى. ولذا كان استيلاء السويد على بروسيا وبوميرانا كفيلا بأن يجعل البحر البلطى بحيرة سويدية. عقد جوستاف معاهدة فرعية مع فرنسا (ريشيليو) وطرد القوات الامبراطورية من بوميرانا واستولى على فرانكفورت، على نهر أودر، وتفاوض مع زوج أخته جورج وليم منتخب برتدبرج (١٦١٩ – ١٦٤٠) الذى كان خاضعا لدوقية شفارتزبرج. وأخيرا سلمت سيانداو للملك جوستاف، على حين قامت مفاوضات لتسليم وتنبرج، أما سكسونيا، وهى التى رغبت أن تكون قوة ثالثة، وأن تصبح وسيطة متمتعة بشئ من الحياد المسلح فيالامبراطورية (مجلس أمراء ليزبرج ١٦٣١) فإنها صارت بعد شئ من الصعوبة حليفا لعدو من أعداء الأمبراطورية.[1]

وفى تلك الأثناء استولى تلى فى ٢٠ مايو ١٦٣١ على مجدبرج إذ قام بابنهليم بالهجوم، على حين أحدث الجنود الجامحون التاليون للقائد تلى مذابح وحشية بالمدينة ونهبوها، وذلك على الرغم مما بذله هذا القائد لوقف تلك الفوضى. ثم اشتعلت النيران فجأة فى أماكن متعددة بعيدة بعضها عن بعض. ودمرت المدينة كلها عدا الكاتدرائية (ولم يكن ذلك بأمر القائد تلى).

---

(١) وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ٤، ص١٠٨٨ – ١٠٨٩.

استولى تلي على هال وايزلبيين ومرزبرج ومدن أخرى وأحرقها. تحالف حنا جورج، منتخب ساكسونيا مع جوستاف أدولف، الذى عبر الألب عند وتنبرج على حين استولى تلي على ليزبرج، وبذلك وقف الجيش الامبراطورى وجيش السويد وساكسونيا وجها لوجه، وبلغ كل من الفريقين حوالى ٤٠,٠٠٠ مقاتل.[1]

وبناء على طلب الامبراطور فرديناند جمع ولنشتين جيشا، بعد أن منحه الامبراطور سلطات واسعة على ذلك الجيش. استرد ولنشتين براج وطرد السكسون من بوهيميا حيث فقدوا حماستهم للقتال، وكذلك تحالفهم مع السويديين.

وفى عام ١٦٣٢ تقدم جوستاف إلى نهر دانوب من طريق نورنبرج لمقابلة تلي، ودار الصراع عند رين قرب التقاء نهر لنز مع نهر دانوب وأصيب تلي بحرج قاتل وتوفى فى انجولشتاد. وذهب جوستاف إلى أوجزبرج، وحاصر ماكسمليان دون جدوى فى انجولشتاد، وما زال يقاتل حتى حمل ميونيخ على التسليم. وعندئذ تم استدعاء ولنشتين لمساعدة ماكسمليان. وقف جوستاف وولشتين وجها لوجه مدة أحد عشر أسبوعا من يوليو إلى سبتمبر، بعد أن اتخذ كل منها مواقع حصينية عند نورنبرج قاتل ولنشتين قتالا ضعيفا. شن السويديون هجوما على خنادق ولشتين، بعد أن جاءتهم نجدات بقيادة برنهارت صاحب ساكس - ويمار، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. تقدم جوستاف إلى نهر الدانوب، أما ولشتين فاتجه إلى ساكسونيا، التى صارت بذلك خالية من وسائل الدفاع، على حين زحف أرنيم عبر لوزاتيا إلى سيليسيا مع قوات سكسونيا وبرندنبرج. قامت عصابات ولنشتين بنهب ذريع. أسرع جوستاف عائدا عن طريق كترنجن وتشفينفورت، وذلك بناء على استغاثة منتخب ساكسونيا، وانضم إلى برنهار صاحب ساكس - ويمار علم جوستاف وبرتهارت أن ولنشتين بعث بالقائد بابنهيم إلى شواطئ الرين، ولذا قاما بشن هجوم على القوات الامبراطورية (المكونة من ١٨,٠٠٠ مقابل ٢٠,٠٠٠ جندى سويدى ودارت معركة لوتزن فى ١٦ نوفمبر. توفى جوستاف أدولف، على حين تم استدعاء

---

[1] نفسه، جـ٤ ١٠٨٩.

بابنهيم على عجل واشترك بخيالته فى المعركة، ولكنه أصابه جرح قاتل، وتم انتصار السويديين بقيادة برنهارت صاحب ساكس ويمار.[1]

تولى برنهارت وجوستاف هورن وبانر قيادة القوات السويدية، على حين قام اكسل اكسترنا رئيس وزراء السويد (١٥٨٣ - ١٦٥٤) بأعمال الإشراف على الشئون الخارجية. قام حلف هلبورن بين منتخبات صوابيا وفرنكونيا والرين الأسفل والأعلى من ناحية وبين السويد من ناحية أخرى. وقام برنهارت فى عام ١٦٣٣ صاحب ساكس - ويمار بحملة على فرنكونيا واستولى على بامبرج وهو خشتاد وطرد البافاريين بقيادة الدنجر، ثم انضم إلى مارشال هورن. ونال برنهارت من رئيس الوزراء التقليد بوظيفة أسقفيتى فرونبرج وبامبرج، ولقب دوق فرنكونيا، ثم احتل بلاتينات العليا. بعد أن حاكم ولنشتين فى شهر فبراير ضباطه فى براج وعاقبهم بالإعدام، وملأ مناصبهم بالمجندين الجدد، زحف على سليسيا، وحارب الساكسون وبرندنبرج والقوات السويدية، وتفاوض مع القائد ارتيم. جرت مفاوضات مع اكستيرنا.[2]

استولى برنهارت صاحب ساكس - ويمار فى شهر نوفمبر على رجنزبرج. أما ولشتين فوجد نفسه عاجزا عن الذهاب لمساعدة منتخب بافاريا، حيث ألح عليه الامبراطور فى ذلك، وقضى الشتاء فى بوهيميا. وازداد التوتر بين ولنشتين والبلاط الامبراطورى، إذ رغب الحزب الأسبانى والحلف فى إقصائه عن القيادة قام ولنشتين بمفاوضات سرية مع أهل ساكسونيا والسويد والفرنسيين، لأنه صمم على بناء مركز مستقل له مستعينا بالجيش، وليستطيع بذلك تخليص الامبراطور، بمساعدة الناخبين فى شمال ألمانيا، من سيطرة الحزب الأسبانى، وليحمل الامبراطور إذا لزم الأمر على عقد الصلح، وإعادة تنظيم الشئون الداخلية للامبراطورية. صمم ولنشتين على الثورة علنا إذا ظل الحزب الأسبانى المعادى له فى الحكم. وعلى الجملة فإنه من

---

(١) وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ٤، ص١٠٩٠.

(٢) نفسه، جـ٤، ص١٠٩١.

الصعب أن نقرر ما إذا كان ولنشتين أضمر الرغبة فى الحصول على عرش بوهيميا، وتحقيق خطط خيالية أخرى. نجح البلاط فى فينا فى إبعاد القادة الكبار (وهم بكولوميني، وجالاس، والدنجر، ومراداس وكولوريدو) عن ولنشتين على حين ظل كل من ألو وترزكا وكنسكي على القائد ولنشتين.[1]

وصدر إعلان امبراطورى فى ٢٤ يناير ١٦٣٤م اعتبر فريدلاند متآمرا على سلب العرش من الامبراطور وصدرت الأوامر لكبار ضباط الجيش بعدم الإذعان لأوامره وصدر فى ١٨ فبراير إعلان ثان، يقضى بعزل ولنشتين رسميا. وفى ٢٤ فبراير ذهب ولنشتين إلى ايجر، حيث كان عليه أن يتقابل مع برنهارت صاحب ساكس – ويمار، والقائد أرنهم. وهناك قام الضابط ويفرو فى ٢٥ فبراير باغتيال ولنشتين، نتيجة إغراء القائد الأيرلندى تبلر، وذل بعد أن تم اغتيال أصدقاء ولنشتين القريبين له. لم يأمر الملك بذلك الاغتيال، كما أنه لم يكن راغبا فيه البتة، ولكنه سلم الحكم بذلك للحزب الذى علم أنه "يرغب فى الحصول على ولنشتين حيا أو ميتا" ثم أنه كافأ القتلة بعد المؤامرة بالتكريم والهبات.[2]

وانتصر أتباع الامبراطور بقيادة فرديناند، ابن الامبراطور، ومعه جلاس والبافاريين (جنارث) على السويدين عند نورد لنجن وانعقدت معاهدة براج فى ٣٠ مايو سنة ١٦٣٥م بين الامبراطور ومنتخب ساكسونيا وبمقتضاها نال منتخب ساكسونيا لوزيتانيا بصفة دائمة، على حين أخذ ابنه الثانى، وهو أغسطين أسقفية مجدبرج مدى حياته، أما الأراضى الكنسية التى لا تتبع الامبراطور، والتى سبقت مصادرتها قبل معاهدة باساو، فإنها تظل بيد مالكيها، وكل ماعدا ذلك يبقى مدة أربعين عاما (من ١٦٢٧) وإذا لم يحدث اتفاق جديد بشأنها قبل انتهاء تلك المدد فتظل دائما على ما كانت عليه فى نوفمبر ١٦٢٧م، العفو السياسى العام عن كل الشخصيات السياسية، ماعدا أولئك الذين اشتركوا فى اضطرابات بوهيميا وبلاتينات والقيام

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٩١.

[2] نفسه، جـ٤، ص١٠٩٢.

بعمل مشترك ضد السويد. عدم السماح بحرية العبادة لأية طائفة من الطوائف الدينية عدا أتباع اللوثرية. قبول برندنبرج ومعظم الولايات البروتستنتية الأخرى الصلح.[1]

الدور السويدى الفرنسى ١٦٣٥ - ١٦٤٨م

عندما تدخلت فرنسا لم تصبح هذه الحروب حربا ألمانية. أما تقرير فرنسا التدخل تدخلا مباشرا فكان مبعثة الرغبة فى خدمة مصالحها السياسية ذلك أن انهزام البروتسنت في موقعة نوردلنجن جعل هؤلاء يرتمون فى أحضان فرنسا. وإذا كان ريشيليو قد امتنع فى الدور السابق عن التدخل المباشر فى الحرب، فالسبب فى ذلك، أن النفوذ الأكبر كان وقتئذ من نصيب السويد، وملكها جوستاف أدولف. أما الآن فقد نجم عن فشل السويد أن صار الطريق ممهد لتغلب النفوذ الفرنسى. إذا شاءت فرنسا الدخول فى الحرب، وكان واضحا أن فرنسا سوف تتمكن حينئذ من تحقيق مآربها السياسية بفضل هذا النفوذ المتفوق. وذلك ما كان يتوقعه ويريده وزيرها ريشيلو.

ثم من الأسباب التى حملت ريشيليو على التعجيل بالتدخل أنه كان هناك أمل بعد هزيمة البروتسنت فى نوردلجن، أن تنتهى الحرب فى ألمانيا، وانتهاء الحرب على هذه الصورة معناه ضياع الفرصة على فرنسا لخدمة مصالحها، والسماح بتقوية سلطان الهابسبورج فى ألمانيا، وذلك ما كانت تخشاه وتأباه فرنسا.[2]

وأما كيف كان هناك أمل فى إمكان إنهاء الحرب بعد واقعة نوردلجن فى سبتمبر ١٦٣٤م، وهى الواقعة التى انهزم فيها البروتسنت، فتفسير ذلك أن بعض الأمراء من البروتسنت وفى مقدمتهم جون جورج ناخب سكسونيا كانوا يخشون من تغلب نفوذ السويد، ومن نفوذ فرنسا على السواء فى ألمانيا، بسبب هذه الحرب التى كانت تتحول سريعا من حرب تهتم بمسألة المذهب والعقيدة إلى حرب أوروبية تهتم بالمسائل والمصالح السياسية. ولذلك فقد كان أحد آثار هزيمة نوردلنجن أيضا أن

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٩٠٣.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق ص٢٠٢ - ٢٠٣.

بادر جون جورج ناخب سكسونيا باستئناف المفاوضة مع فردناند الثانى الامبراطور، وفى مايو ١٦٣٥م توصل الفريقان إلى عقد صلح براج على تعيين سنة ١٦٣٧ تاريخا لاسترجاع الأملاك التى أخذت من الكنيسة الكاثوليكية بعد هذه السنة وذلك بدلا من سنة ١٥٥٢م التى كانت قد تحددت تاريخا لذلك فى مرسوم الاسترجاع الذى صدر فى مارس ١٦٢٩م. وبناء عليه فإن الأراضى والأملاك التى تكون فعلا يوم ١٢ نوفمبر ١٦٢٧ فى حوزة أصحابها سواء أكان هؤلاء قد استولوا عليها قبل صلح أوجزبرج فى سنة ١٥٥٥م أم بعد هذا الصلح، تبقى فى حوزة أصحابها وتستمر فى حوزتهم لمدة أربعين سنة؛ أو أنها تعاد لأصحابها إذا كان قد أخذت منهم تطبيقا للمرسوم السابق أى للمرسوم الذى صدر فى ٦ مارس ١٦٢٩ – وعلى أن تبقى فى حوزتهم لنفس المدة المنصوص عليها. وفى بحر هذه المدة يجرى الاتفاق بشأن هذه الأراضى والأملاك بالطريق الودى، أو ينظر الامبراطور فى أمرها بالطريق القانون. ومعنى هذا أن صلح براج جعل تنفيذ مرسوم مارس ١٦٢٩م يتأجل فعلا لمدة أربعين سنة. وفى ذلك ترضية للبروتسنت.[1]

وزيادة على ذلك فقد عاد التساهل فى مسائل أخرى مع ناخب سكسونيا بالنفع على الامبراطور فردناند الثانى. ذلك أن الإمارات البروتستنتية الأخرى لم تلبث أن انضمت إلى صلح براج: ماعدا ثلاث إمارات فقط بقيت إلى جانب السويد: هى إمارات هس كاسل Hesse Cassel ورتمبرج Wurtember وبادن Baden.[2]

ومما يجب ملاحظته أن صلح براج لم يشمل الكلفنين ومع ذلك فإن قبول أكثر الأمراء البروتسنت لهذا الصلح كان كافيا لأن يكفل عودة السلام إلى ألمانيا فى سنة ١٦٣٥م، لو أن المصالح الأجنبية لم تدخل على يد فرنسا لتحريك الحرب

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٠٣.

[2] نفسه، ص٢٠٤.

الثانية. ولذلك فقد أضحت حرب الثلاثين سنة فـي هذا الدور الأخير، حربًا سياسية بحتة: أساسها النضال بين أسرة الهابسبرج والبربون للسيطرة على أوروبا.

وكان للحرب في هذا الدور ميدانان: أحدهما يشغله الحرب من جانب فرنسا التي صارت تتقدم بنشاط في داخل ألمانيا الجنوبية، والآخر تشغله الحرب من جانب السويد التي صارت تتقدم من ناحية البلطيق إلى قلب ألمانيا وبذل الأمبراطور قصارى جهده لوقف هذا الزحف المزدوج، واستعان في ذلك بالمساعدة المالية التي استطاعت أسبانيا تقديمها له، ولم يكن في وسع أسبانيا غير تقديم المعونة المالية، لأن مشاكلها استغرقت نشاط جيوشها في الأراضي المنخفضة وفي إيطاليا.

أما الشعب الألماني نفسه فقد كان موقفه من هذا النضال موقف المتفرج الذي أنهكه التعب، وصار لا يعبأ إلا بأن تنتهي هذه الحرب التي لا يجد لها معنى ولا يرى لها سببًا أو مبررًا؛ وأن تنتهي عاجلًا وبأية وسيلة. وفي هذه الظروف لم يستطع الامبراطور أن يصمد في الحرب طويلًا. في أول الأمر انتصر الامبراطوريون وفي سنة ١٦٣٦م أجبروا اكسنسترنا على الانسحاب والإرتداد إلى السويد، بينما أجبروا كذلك الفرنسيين في الجنوب على الانسحاب من الراين، بل واستطاعوا الدخول في الأراضي الفرنسية حتى صاروا يهددون باريس ذاتها[1] ولكن أمد هذه الانتصارات كان قصيرًا. فلم يلبث أن تمكن الفرنسيون من إجلاء العدو عن بلادهم. واستطاع السويديون بقيادة بانر Baner أن يحرزوا نتصارًا حاسمًا في واقعة ويتستوك Wittstock في أكتوبر ١٦٣٦م ونتيجة لهذا الانتصار سقطت في قبضة السويد: براندبرج، يوميرانا، سكسونيا ثورينجيا Thuringia وجزء من فرنكونيا. ثم حدث وسط هذه الانهزامات أن توفي الامبراطور فرديناند الثاني في بداية ١٦٣٧. وكان ابنه فرديند الثالث أقل منه كفاءة ومقدرة. واستمرت الحرب فاستطاع الفرنسيون في الغرب الاستيلاء على الألزاس ثم على بريسجاو Breisgau (على جانبي الراين

(١) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٠٤.

الأعلى) فى سنة ١٦٣٩. وأما أهم الحوادث خلال السنوات الطويلة التالية فيمكن إيجازها فيما يلى: حاول البابا اربان الثانى فى سنة ١٦٣٦م أن يعقد صلحًا ينهى هذه الحرب، كما حاول أن يفعل ذلك أيضًا الامبراطور فردناند الثالث فى سنة ١٦٤٠م ولكن من غير طائل. وبين سنتى ١٦٤٢ - ١٦٤٥م تمكن السويديون بقيادة تورستسون Tirstenson الذى خلف بانر Baner بعد وفاته سنة ١٦٤١م من هزيمة الامبراطوريين وتقدموا فى زحفهم حتى باتوا يهددون فينا ذاتها.

ومن الجانب الفرنسى، تابع مزران الذى خلف ريشيليو فى الوزارة بعد وفاة هذا الأخير فى ديسمبر ١٦٤٢ نفس السياسة التى سار عليها ريشيليو فانتصر القائد الفرنسى كونديه Coude فى سنة ١٦٤٣م على الأسبان فى واقعة ركروا Rocroy واستولوا على ثيونفيل Tionvillhe وفى سنة ١٦٤٤م انتصر الفرنسيون أيضًا فى فرايبورج Freidrug ثم انتصروا فى سنة ١٦٤٥م فى واقعة نوردلنجن وقد كلفهم هذا النصر غاليًا[1] وفى سنة ١٦٤٥م غزا القائد السويدى تورسنسون Torestenson بوهيميا وزحف على فينا ولكنه اضطر إلى التقهقر، ثم تنازل عن قيادته إلى القائد الآخر رانجل Wranhel. وفى سنة ١٦٤٦م استطاع القائد الفرنسى تورين Turenne الانضمام بجيشه إلى قوات رانجل وضرب بافاريا، وفى معركة زو سمارشاوسن Zusmarshauen فى مايو ١٦٤٨ أوقع القائدان بخصمها مكسمليان البافارى هزيمة بالغة. وبعد هذه الواقعة الأخيرة خصوصًا، صار واضحًا أن الامبراطور فردناند الثالث يعجز عن متابعة الحرب منفردا. وبالفعل اضطر الامبراطور إلى قبول الصلح وكانت المفاوضات قد بدأت لعقد هذا الصلح عندما صار الجميع يشعرون بالأعياء الشديد بسبب هذا النضال الطويل. فاجتمع السياسيون للبحث فى قواعد الصلح فى وستفاليا منذ سنة ١٦٤٣م، ولو أنهم عجروا عن الوصول إلى نتيجة حاسمة.

ومع أن الحرب استمرت بعد ذلك، على نحو ما شهدنا، فقد كان الامبراطور فى هذه الأثناء يتفاوض فى أوسنابروك Osnabruck مع السويد ومع الإمارات

(١) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٠٥.

البروتستنتية، بينما يتفاوض من جانب آخر فى نفس الوقت فى مونستر Munster مع الفرنسيين والكاثوليك من أجل الوصول إلى الصلح. وأخيرًا تم التوقيع على الصلح فى مونستر من أعمال وستفاليا فى ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨م وبهذا الصلح انتهت حرب الثلاثين عامًا.[1]

صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨م:

يعتبر صلح وستفاليا من الوثائق التاريخية الهامة بسبب المسائل المنوعة التى تناولها هذا الصلح سواء كانت هذه داخلية بألمانيا أم دولية خاصة بالدول المجاورة لها، ولدرجة أن أصبح هذا الصلح، من الناحية العملية، الأساس الذى تستند عليه الدول فى أوروبا فى علاقاتها القانونية من وقت إبرامه سنة ١٦٤٨م إلى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

والمسائل الهامة التى تناولها هذا الصلح كانت وضع قاعدة جديدة للسلام بين البروتستنتية والكاثوليكية، ثم تحديد مقدار الأراضى التى حصلت عليها كل من السويد وفرنسا ثمنًا لانتصارهما على الامبراطور، وأخيرًا إجراء ترتيبات سياسية وإقليمية معينة فى داخل ألمانيا ذاتها. وفيما يلى تفصيل ذلك:-

أ- التعويضات :

نالت السويد إقطاعًا كبيرًا اشتمل على جميع أقاليم بوميرانا السفلى وروجين، وجزء من بوميرانا العليا ومدينة وسمار (وكانت قبلا ملكًا لمكنبرج) وأسقفية برمن (عدا المدينة) وفردن باعتبارها دوقيات علمانية، وعلى تعويض مقداره خمسة ملايين دولار امبراطورى. صارت السويد عضوا فى الديت الألمانى ولها ثلاثة أصوات. ونالت فرنسا سيادة مطلقة على أسقفية ومدن متز وتول وفردان (وكانت فى يد فرنسا منذ ١٥٥٢م) وكذلك بجينوول ومدينة برايزاخ وإمارتى الالزاس العليا والسفلى (التى تبعت أحد فروع الهابسبورج النمسا ويين) وحكومة عشر مدن امبراطورية فى الالزاس. احتفظت هذه المدن وولايات الالزاس الامبراطورية

---

(1) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٠٥ - ٢٠٦.

الأخرى بعضويتها فى الإمبراطورية. نالت فرنسا كذلك حقوق الحراسة على فليسبرج. ونالت إمارة هس كاسل كونتيه شاومبرج ونالت برندبرج تعويضًا عن يوميرانا (التى كانت جميعها تابعة ليرنيرنبرج تعويضًا عن يوميرانيا (التى كانت جميعها تابعة ليرنبدبرجى سابقًا بمقتضى حق الوراثة على الرغم من أن الجزء الأكبر فقط من بوميرانا العليا انقطع منها) أسقفيات هالبرشتات ومندن وكامن باعتبارها إمارات سياسية، وأسقفية مجدبرج باعتبارها دوقية، مع تحفظ هو أن تبقى فى حيازة الناخب أغسطس أمير ساكسونيا مدة حياته (ت١٦٨٠). نالت مكلنبرج أسقفيات شويرن وراتزبرج باعتبارها إمارات. نالت برترويك حق تعيين أسقف أوزنا بروك على قاعدة التبادل الدورى بين أسقف كاثوليكي وآخر انجيلي حتى سنة ١٨٠٣.[1]

ب- الشئون السياسية للامبراطورية:

نال الأمراء الألمان فى هذا الصلح قسطًا من حقوق السيادة، فصار لهم الحق فى عقد المحالفات فيما بينهم أو مع الدول الأجنبية. فأصبحت الإمارات من الناحية القانونية فى حكم المستقلة الأمر الذى ترتب عليه أن صار تفكك أوصال ألمانيا كاملا. ونال ناخب براندنبرج تعويضا عن بوميرانا الغربية التى أخذته السويد، فأعطى أسقفيات مجدبرج وهلبرشاد Halberstad ومندن Minden وكامين Camin. ثم تدعمت حقوقه الوراثية على بوميرانا الشرقية وأعيدت له السيطرة على دوقيات كليف ورافنزبرج Ravensberg وبذلك أصبح ناخب براندبرج أعظم امراء قاطبة من بروتستنية وكاثوليكية، ويلى الامبراطور فقط فى الأهمية. كما أن هذا التوسع الجديد أعطى براندبرج الفرصة لتنمو بإطراد حتى تصل إلى مرتبة المملكة (مملكة بروسيا)، ثم حتى تستطيع منافسة النمسا بنجاح والتغلب عليها وفى آخر الأمر حتى تتمكن من إحياء ذلك الاتحاد الألمانى الذى عمل صلح وستفاليا للقضاء عليه وبعثه من جديد فى ألمانيا.[2] واحتفظ ماكسمليان دوق بافاريا بإقليم

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، ص١٠٩٥ - ١٠٩٦.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٠٧ - ٢٠٨.

البلاتينات العليا upper Paltinate ويلقب الناخب فى الامبراطورية Elector.
وأما البلاتينات السفلى قد أعيدت إلى ابن فردريك الخامس الذى سبق عزله، وهو شارل لويس الذى أعطى أيضًا لقب ناخب فى الامبراطورية. وبذلك زاد عدد الدوائر أو الأصوات Electorate الانتخابية للامبراطورية واحدة فصارت ثمانية.

وكان من أثر هذا كله أن ألمانيا خرجت من هذه الحروب مفككة الأوصال ولا يربط بين إمارتها المتعددة سوى الدايت أو المجلس الامبراطورى.[1]

ج- الشئون الدينية

الاعتراف بمعاهدة باساو وصلح أوجزبرج، كما احتضن كل منهما أتباع كلفن. وصارت الولايات الكاثوليكية والبروتستنتية تقف على قدم المساواة فى جميع المسائل التى تتعلق بالامبراطورية. صار أول يناير ١٦٢٤م الحد الزمنى الذى تقاس به مسائل ملكية الولايات الكنسية وممارسة شئون الديانة، إذ يجب أن تبقى الأمور دائما على نحو ما كانت عليه فى ذلك التاريخ، ومعنى ذلك أنه تقرر الاعتراف بأن التحفظات الكنسية جديرة بالاحترام فى المستقبل. لم تمنح المعاهدات أية حقوق للبروتسنت الخاضعين فى النمسا وبوهيميا. ولكن تقرر السماح للولايات الإنجيلية التى دخلت فى نطاق الإصلاح الكاثوليكى أثناء الحرب وهى (بلاتين السفلى، فورنمبرج وبادن وغيرها) باستئناف حقوقها الدينية التى تمتعت بها سنة ١٦١٨م. احتفظ أصحاب السيادة الإقليمية بحق الإصلاح فى المستقبل فى أقاليمهم، وهو حق أجازته مذاهب أولئك الرعايا الذين لم تكفل لهم سنة ١٦٢٨م حرية العبادة، واحتفظ الرعايا فى تلك الحالات بحق الهجرة. عاد البلاط الامبراطورى، وتوزع أعضاؤه بالتساوى بين البروتسنت والكاثوليك.

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٠٨.

ضمنت فرنسا والسويد احترام معاهدة وستفاليا.[1]

وفيما ما تقدم اعتراف صلح وستفاليا بانفصال سويسرا من الامبراطورية فتأيد – بفضل قطع هذه العلاقات القديمة التي كانت تربط سويسرا قانونا بالامبراطورية – ذلك الاستقلال الفعلى الذى تمتعت به سويسرا مدة طويلة. كذلك فقد انهى هذا الصلح رسميًا الحروب الطويلة بين أسبانيا والأراضى المنخفضة الهولندية، واعترف باستقلال هولندا نهائيا.

أما عن أوروبا بعد صلح وستفاليا، فإنه يحدد صلح وستفاليا بداية طور جديد فى تاريخ الحضارة الأوروبية فقد أقر هذا الصلح، بعد فترة الحروب الدينية الطويلة مبادئ من شأنها نجاة البروتستنتية نهائيًا من الأخطار التى تهددها، وكان ذلك دليلا على أن الحروب الدينية الماضية كانت جهدًا ضائعًا. ومع أن صلح وستفاليا لم يمنح التسامح الدينى للأفراد فقد اختفى الاضطهاد الدينى من هذا الحين، وصار من الأمور الشاذة غير المألوفة وفى المائة وخمسين سنة التالية تغلغل مبدأ التسامح الدينى الشامل حتى أنه انتقل من الطبقات العليا والهيئات المثقفة. خصوصًا فى القرن الثامن عشر، إلى الطبقات الوسطى والدنيا فى المجتمع، ولدرجة أن صار مبدأ التسامح الدينى الشامل فى عصر الثورة الفرنسية من المبادى التى اعترفت بها الإنسانية قاطبة.[2]

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٩٧.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٠٩.

الفصل الحادى عشر

عصر التفوق الفرنسى (عصر لويس الرابع عشر)



فرنسا فى القرن السابع عشر (١٥٩٤ – ١٧١٥)

يبدأ عهد أسرة البربون باعتلاء هنرى الرابع عرش فرنسا عام ١٥٩٤م، وسنوضح فيما يلى الصعوبات التى اعترضت طريقه إلى عرش فرنسا، وكيف استطاع التغلب عيها. ثم نتحدث عن عصر الوزراء العظام (١٦٢٤ – ١٦٦١) موضحًا الجهود التى بذلها كل من ريشيليو (١٦٤٢ – ١٦٤٢) ومزران (١٦٤٣ – ١٦٦١) لإعلاء شأن ملكية البوربون. ونختتم حديثنا عن أسرة البربون فى القرن السابع عشر عند عصر لويس الرابع عشر.

أولا: هنرى الرابع مؤسس أسرة البربون ١٥٩٤ – ١٦١٠م

١ – هنرى نافار:

اشتهر أمر هنرى نافار Navarre فى نهاية الحروب الدينية فى فرنسا (١٥٦٠ – ١٥٩٨). كان زعيمًا من زعماء الهيجونت، وآلت إليه ولاية العهد لعرش فرنسا في عام ١٥٨٤ بعد موت أخي الملك هنري الثالث وولي عهد العرش، وكان يدعى "دوق دالنسون Duke d'Aencon ذلك لأن فروع البوربون كما يلى فرع الفالوا في أحقيته في عرش فرنسا، كما كان هنرى نافار متزوجًا من مرجريت أخت الملك هنرى الثالث من أسرة الفالوا الحاكمة، ولو كان هنرى كاثوليكيا لما كانت هنالك أى موانع لولايته العهد، ولكنه كان من أشد أنصار البروتستنتية بل كان زعيمًا للبروتسنانت منذ وفاة كل من كونديه Condé وكولينى Coligny. وكان أعضاء الاتحاد الكاثوليكى الذى كان يسيطر على شئون فرنسا على تولية هنرى نافار الحكم، ولما قتل هنرى الثالث على يد "جاك كليمان Jacques Clement وفى عام ١٥٨٩م أصبح لهنرى الحق فى أن يعتلى عرش فرنسا، ولكن كان عليه أن يغزوا

باريس التى كانت تحتلها الجنود الأسبانية لكى يصل إلى العرش الفرنسى. ولم يكن ذلك الغزو أمرًا هينًا، لأن هنرى نافار كان قد فقد ثقة الكثيرين من أتباعه الهيجونت بسبب ما تردد عندئذ من شائعات عن احتمال تغيير هنرى نافار لعقيدته، كما أن أعضاء الحزب الكاثوليكى أرادوا إنقاذ العرش من ملك بروتستانتى فأعلنوا دوق بوربون من ذو قربى هنرى ملكًا على فرنسا.[1]

لم يتبين هنرى نافار – وسط هذه الظروف المظلمةالتى عرفناها – أمَلا كبيرًا فى الاستنجاد بمعونة انجلترا، إذ كانت اليزابيث عندئذ فى حرب صريحة مع فيليب الثانى، فلم يكن غريبًا أن تبادر بنجدته، فقد بعثت إليه بقوة من خمسة آلاف مقاتل (٥٠٠٠) من الإنجليز والاسكتلنديين، على أن هنرى نافار ظفر بالنصر على قوات الحلف الكاثوليكى التى كان يقودها "مايين Mayenne فى موقعة "أركس" Arques فى ٢١ سبتمبر ١٥٨٩م قبل وصول النجدة التى كان ينتظرها، فلما بلغته تقدم لها مع بقية الجيوش نحو باريس، وكان الأمل عظيمًا فى أن يكون لعامل المفاجأة أثره فى إسقاط العاصمة الفرنسية. ولكن خبر الغزو المتوقع وصلها فى الوقت المناسب. هنالك تحول بقواته نحو نورمانديا لتخليصها من جيوش الحلف، نظرًا لأهمية المقاطعة فى الاتصال المباشر مع انجلترا وإمداداتها. فحاصرت هذه القوات "درو Dreux، ونظرًا لأهميتها بادر "مايين" بنجدتها وعند التحام الطرفين على مقربة من هذا الموقع ظفر بالنصر فى معركة "ايفرى" Ivry فى مارس ١٥٩٠م.

كانت "ايفرى" من المواقع الحاسمة فى تاريخ هنرى نافار. ويرجع الانتصار فيها إلى تفوق فرق المشاة بجيشه، كما أن هنرى كقائد لفرق الفرسان اتبع طريقة ألمانية جديدة فى القتال كان لها أثرا فى انتصاره فى هذه الموقعة. وكان لهذا الانتصار كذلك أثره فى ازدياد شعبية هنرى، وترد ما يشبه الأساطير حول إسمه؛ فأخذ الجميع يشيدون بشجاعته وإنسانيته، وتسامه، وتفوقه فى ميادين القتال. وقد عفا عن الفرنسيين الذين وقعوا فى قبضة يده، ولكنه لم يتوان فى قتل الألمان الذين

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٤٥.

انضموا لأعدائه بعد أن كانوا يعملون ضمن صفوفه؛ وكثيرا ما أظهر عطفه على فقراء الفرنسيين، كل هذه الصفات الحميدة علقت باسمه وجعلته أكثر ملوك فرنسا شعبية. وقد كان في الواقع يتمتع بكافة هذه الصفات الحميدة.[1]

كانت موقعة "ايفرى" حاسمة لدرجة أنه كان من الواضح أن باريس لن تلبث أن تخضع لهنرى، إذ ما بادر بالتقدم نحوها، وقد نوقشت أسباب تأخره في إنجاز هذا الأمر كما اختلف المؤرخون فيها. واتضح أن السبب الرئيسى أنه لم يكن في استطاعة جيشه بعد هذه الانتصارات أن يقوم بهجوم سريع على باريس، فلم تتقدم القوات لمحاصرة باريس إلا فى مايو ١٥٩٠م. وكان أعوان الحلف الكاثوليكى يختلفون فما بينهم وكان لاختلافهم يومئذ دوى، ولكن الحصار اسكتهم بعض الوقت. وقد كان المعروف أن برلمان باريس لا يرضى الاعتراف بأى قوة أجنبية ولو كان مصدرها البابا أو أسبانيا الكاثوليكية. ولكن عندما هاجم هنرى نافار باريس كان السفيران الأسبانى والبابوى يتمتعان بنفوذ عظيم. وقد أخذت جماعة الجزويت والوعاظ يثيرون حماس الشعب الديني. كان انتصار هنرى يبدو يومئذ أمرًا محققًا، فقد انتشرت المجاعة فى المدينة ومعها انتشر الوباء. وكانت باريس فى حالة أسوأ بكثيرمما كانت عليه عندما حاصرها هنرى الثالث أثناء الحروب الدينية ولكن الباريسيين كانوا يعرفون أن استسلامهم معناه تنصيب ملك من الهيجونت عليهم.[2]

لم يلبث هنرى نافار أن فقد هذه الفرصة الفريدة للاستيلاء على باريس عندما تقدمت القوات الأسبانية وعلى رأسها دوق بارما Parma من الأراضى المنخفضة؛ ذلك لأن قضية الحلف الكاثوليكى كانت فى الوقت نفسه قضي ملك أسبانيا فيليب الثاني؛ فقد كان انتصار هنرى نافار وسيطرته على الموقف فى فرنسا معناه فقدان فيليب الثانى لأطماعه فيها وربطهما بعجلة السياسة الأسبانية. وقد استطاع دوق "بارما" أن ينقذ باريس من الحصار، وكانت هذه العملية البحرية التى

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٤٦.

[2] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٤٦.

قادها من أبرع ما شاهدته الاستراتيجية وقد كشفت عن مدى تفوق قيادة دوق بارما للقوات الأسبانية. فاستولى دوق بارما على "لانيى" Lagny، وأرسل إلى باريس بعض المؤن والذخائر، وتحدى هنرى عندما أبى أن يواجهه فى قتال، فعاد عندئذ أدراجه إلى الأراضى المنخفضة.[1]

ونجت بذلك باريس من الحصار. ولكن بعد الخطر عنها جعل الانقسام يعود إلى الحلف الكاثوليكى من جديد بسبب خلو عرش فرنسا بموت الكاردينال "بوربون" أثناء حصار باريس بعد أن نودى به ليشغله، وأصبح الموقف يحتم اختيار ترشيح جديد للعرش الفرنسى. وكان أمر ذلك ليس بالشئ اليسير، فهذا فيليب يرى الفرصة سانحة فيتطلع إلى العرش الفرنسى، ومستندا فى ذلك على أن صليبه يحميه، فخطر له نفى سعيه هذا أن يجعل من نفسه حاميًا لفرنسا Protector of France، وقاوم غالبية الفرنسيين تلك الأطماع نظرًا لأن تحقيقها معناه تحويل فرنسا إلى التبعية لأسبانيا. وانقسم أعضاء الحلف على أنفسهم عندما ظهرت مطامع البعض فى العرش.

على أن مركز هنرى نافار كان مليئا بالصعوبات فهو يدين بالبروتستنتية، ولذلك لجأ إليه الكثيرون من مؤيديه من الكاثوليك يذكرونه بوعده، ويحثونه على التحول إلى الكاثوليكية، بينما أصدر البابا قرارًا ينفر الكاثوليك منه، ويدعوهم إلى الانفضاض من حوله. كما بدأ الهيجونت يشكون فى نواياه وأخلاصه لهم، ولاسيما بعد أن وصلت إليهم أخبار احتمال تحوله عن عقيدتهم. كما أعلنت جامعة السوربون أنه لن يتمكن من اعتلاء عرش فرنسا حتى ولو تحول إلى الكاثوليكية كان عليه عندئذ أن يعتمد على المساعدة الأجنبية مرة أخرى، وأية ذلك أن أرسلت له اليزابيث معونة من المال مع ستة آلاف مقاتل ٦٠٠٠ كما جاء لنجدته من ألمانيا ١٢ ألف جندى.[2]

---

(1) نفسه، ص١٤٧.

(2) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٤٧.

هنرى نافار يصبح الملك هنرى الرابع

أرهقت الحروب الدينية الطويلة فرنسا، فنضبت موارد البلاد ونزل البؤس بالشعب، ولذلك اهتم هنرى الرابع مؤسس ملكية البربون بفرنسا بوسائل الإصلاح الداخلى من حيث تنظيم شئون المملكة حتى يعود الرخاء بانعاش الزراعة والصناعة والتجارة. واعتمد الملك على مؤازرة كثيرين فى إتمام هذا الإصلاح، وكان فى مقدمة من اعتمد عليهم كان دوق صلى Sully وهو بروتستنتى - أدخل عدة إصلاحات أهمها إنقاص المصروفات العامة والموازنة بين الدخل والمنصرف، وجمع الضرائب من الأغنياء الذين كانوا معفين من دفعها فى الماضى، وتنظيم طرق جباية هذه الضرائب.[1]

وكان نظام الضرائب فى فرنسا يختلف تمامًا عنه فى انجلترا، فقد كانت أعباء الضرائب على الفرد الفرنسى العادى أكثر منها على مثله فى انجلترا، ونظام التمييز أكثر وضوحًا فى فرنسا من فى انجلترا، وبيع الوظائف أكثر أهمية ووضوحًا فى فرنسا، ولم يكن هناك برلمان منتخب ينتقد سياسة الدولة فى هذا الصدد، كما لم يستخدم ملاك الأراضى فى الأقاليم كأعوان للحكومة على تنفيذ نظامها كما هو الحال فى انجلترا، وكان المصدر الأكبر للإيراد يحصل من ضرائب "التاى" Tailles (الأرض)، وكلها ضرائب على الأرض والمنازل تفرض على الطبقات التى لا أمتيازات لها. ومن هذه الضرائب كانت تتكون نصف موارد الدولة الطبيعية. ثم يليها ضريبة الملح La Gabelle الذى احتكرت الدولة الإتجار فيه، وكان عبؤها الثقيل يقع على الطبقات الدنيا. لم يقترح "صلى" أو غير إلغاء نظام الامتيازات ولكنه قلل من أعداد أصحاب الامتيازات، وقد استطاع عن طريق إدراته المالية الحازمة أن يترك خزانة الدولة عند مقتل الملك هنرى الرابع عامرة بالأموال[2] ثم اهتم صلى بتعبيد الطرق وشق القنوات، وأستطاع بذلك أن يفيد الزراعة وأن ينهض بها. ولم

---

(1) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢١١.

(2) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ١٥٣.

يكن صلى يميل لتشجيع الصناعة والتجارة خوفا من أن ينصرف الناس عن الزراعة، فيقصروا اهتمامهم على الكماليات، ويهاجرون إلى المدن، فكان ذلك من أهم ما يعاب على سياسة صلى الاقتصادية. ولقد كان الملك أبعد نظرا من وزيره فى هذه المسألة، فأخذ يشجع الصناعة، واستعان ببعض الهجونت فى صناعة الحرير، واتسع نطاق هذه الصناعة وازدهرت على وجه الخصوص فى "بواتو Poitou"، وزاد التبادل التجارى بين فرنسا وغيرها من الدول فأصبح من صادراتها كثير من نتاج الصناعات المختلفة وخاصة فيما يتعلق بالكماليات مثل الخيوط الذهبية وألوان الزجاج وأنواع مختلفة من المنسوجات الحريرية.[1]

وقد تحقق الكثير من مشروعات الحكومة، فزاد الدخل وانخفضت قيمة الديون، وتبدلت أحوال فرنسا، فبعد أن كانت عند تولية الملك هنرى الرابع تعانى من ثقل الديون والاضطرابات المالية أصبحت عند انتهاء حكمة وقد تخلصت من ديونها وازدهرت أحوالها الاقتصادية.[2]

ومن ضمن سياسته الداخلية أنه أصدر ١٥ ابريل ١٥٩٨ مرسوم نانت، الذى منح الهيجونت حقوقا سياسية مساوية لحقوق الكاثوليك، ولكنه لم يضمن لهم على أى حال الحرية التامة فى ممارسة عقائدهم الدينية منح المرسوم حق ممارسة عقيدة الإصلاح للنبلاء الذين يملكون حق محاكمة المجرمين (الأسياد من علية القضاة) وللمواطنين فى عدد معين من المدن والبلدان، ولكنه حرمه فى جميع المدن الأسقفية أو التابعة لرؤساء الأساقفة وفى البلاط الملكى، وفى باريس، وكذلك فى نطاق عشرين ميلا حول العاصمة. وفتحت أبواب الوظائف العامة أمام الهيجونت وأنشئت المجالس النيابية المختلطة فى البرلمانات الأربعة (فى باريس، وتولوز وجرينوبل وبوردو). وحصل الهيجونت على بعض المدن المحصنة، واعترف بهم إلى حد ما كحزب سياسى مسلح. ولم يسجل البرلمان مرسوم نانت إلا بعد تأخير طويل.

---

(١) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق ٢١١، زينب عصمت راشد، المرجع السابق ص١٥٣.

(٢) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٥٣.

وإن كان المرسوم لم ينشئ شيئا مثل "كنيسة حرة داخل دولة حرة"، فإنه قد اعترف قانونيا بنوع من التسامح لم يكن بعد معروفا بطريقة رسمية في أي مكان آخر.[1]

لقد قيل عن مرسوم نانت أنه يستحق أن يعتبر تاريخا في تاريخ العالم لأنه دشن عهد التسامح والتساهل الديني وفي الواقع أن الرعايا في جميع الدول في ألمانيا وانجلترا وإسبانيا كانت مضطرة تحت طائلة النفي، إن لم يكن تحت طائلة الموت، أن تدين بديانة مليكها كانت كاثوليكية أن بروتستانتية. أما فرنسا فكانت الأولى التي تبنت نظام الحرية الدينية ولقد قبلت فرنسا بهذا النظام، لا عن احترام حقيقي لحقوق الوجدان، بل لأنها كانت مضطرة لقبوله بحكم العقل والفطنة الذين امتاز بها هنري الرابع .. على أن مرسوم نانت، وإن كان عادلا وموفقا في أحكامه الأساسية، إلا أنه لم يلق حسن القبول من كثير من الكاثوليك، حتى أن هنري الرابع بذل كل ما في وسعه من رجاء تهديد لدى البرلمانات حتى حصل على حق التسجيل لهذا المرسوم. واضطر أن يمنح الكاثوليك امتيازات، كما هي الحال في عام ١٦٠١م عندما استدعى اليسوعيين إلى العودة إلى المملكة بعد أن طردوا منها.[2]

ومنذ أن أقر مرسوم نانت ومعاهدة فيرقن السلام في الداخل والخارج انصرف هنري الرابع إلى تنظيم فرنسا وإرجاع السلطة الملكية. وكان يجد أن خير إصلاح للإدارة إنما يتخلص في تركيز السلطة في يده فأعاد تنظيم المجلس الملكي "Conseit du Roi" وكان هذا المجلس هو السند القوي لملوك فرنسا، وقد بذل ملوك أسرة الفالوا Valois من قبل جهودا عظيمة في تنظيمه لإعلاء شأنه. فزادوا من عدد أعضائه على حين خفض هنري الرابع من عددهم، كما أنه قد حد من نفوذهم، وكان الملك وحده صاحب الحق في تعيين أعضائه، كما كان يشرف ويسيطر على المجالس المختلفة كافة، المجلس الخاص، ومجلس الدولة والدولة والمالية مستخدما في ذلك سيطرته أول الأمر على المجلس الملكي. ورفض هنري

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٣٨.

[2] نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ص٢٥٧.

الرابع برغم رجاحة عقله أن يدعو مجلس طبقات الأمة للانعقاد، كما رفض أن يشرك معه رعاياه في التمرس بالقيام بأعباء الحكم.[1]

وإذا كان مجلس طبقات الأمة في عهده ضعيف الشأن فإن برلمان باريس كان يتمتع بنفوذ كبير، ولم يكن هنرى الرابع يفكر في القضاء على ذلك النفوذ، لأن رجال القانون أعضاء هذا البرلمان كانوا العون الرئيسي للملكية ضد مطالب النبلاء ورجال الدين، ولذلك لم يعمل على الحد من سلطانه. على أن هؤلاء الأعوان المخلصين للملكية أثبتوا فيما بعد أنهم خطر لا يستهان به عليها. واتخذ هنرى الرابع من الإجراءات ما يزيد من استقلال البرلمان، ولكنه بذلك مهد له السبيل إلى تحدى الملكية، فاستحدث في عام ١٦٠٤م نظاما جديدا بالنسبة للتصرف في مقاعد البرلمان الشاغرة. وقبل صدور هذا النظام كان أعضاء البرلمان يشترون مقاعدهم بالمال ولهم حق بيعها ولكن تحت شروط معينة. وكان التغيير الجديد الذى طرأ على هذه الطريقة هو إلغاء تلك الشروط، فأصبحوا أكثر حرية في بيع تلك الوظائف، وإذا مات أحد الأعضاء، ولم تبادر الدولة بالتصرف في مقعده في البرلمان فإنه يصبح ملكا لأرملته أو لورثته. وهكذا أصبحت العضوية في البرلمان نتيجة للنظام الجديد مستقلة وراثية، ولم يعد للملك أى نفوذ عليها. وكان الملك يحصل على قيمة العضوية سنويا مما يوفر له في النهاية قدرا كبيرا من المال.

وفي عام ١٥٩٩م طلق هنرى الرابع زوجته "مرجريت فالوا التى تزوجها ١٥٧٢م لأنه لم ينجب منها أطفالا، وتزوج من مارى ديمدتيشى Marie de Medici وهى من ذوى قربى كاترين ديمدتيشى فأصبح له طفل ذكر في عام ١٦٠١م مؤملا في أن يصبح من بعده ملكا، بذلك ضمن هنرى بقاء العرش في أسرته. على أن هذا الزواج الجديد قد ضاعف من تدبير المؤامرات حوله. وقيل إن محاولات اغتياله قد بلغت اثنتى عشرة مرة.[2]

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٥٤.

[2] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٥٤.

أما فى مجال السياسة الخارجية، فقد سلك هنرى الرابع بعد معاهدة فيرفن سياسة سلمية رشيدة رائدها المصلحة القومي. ولكنه كان يهتم أيضًا برفع اسم فرنسا عاليًا فى الخارج، ففى عام ١٦٠٠م حصل نزاع بينه وبين دون سافوى أدى إلى حرب قصيرة كانت منها ضم بريس ويوجبه إلى فرنسا.

واكتفى هنرى الرابع بدعم الأقاليم المتحدة السبعة فى البلاد المنخفضة والأمراء البروتستانيين ضد آل الهابسبورج فى أسبانيا والنمسا. إلا أن الأمبراطور صادر إرث آل كليف فى المنطقة الرينانية عام ١٦٠٩م، فاحتج هنرى الرابع بحرارة واشتد الخلاف حتى أن حربًا عامة بدت محتملة الوقوع فى بداية عام ١٦١٠م، وذكر صولى أن الغاية من هذه الحرب تحقيق المشروع الأكبر الذى يرمى إلى تهديم البيت النمساوى وطرح الأتراك فى آسيا، وإلى تعديل عام فى الدول لتأسيس دول متحدة حقيقية فى أوروبا، غير أن هذا المشروع الكبير لم يوجد إلا فى خيال صولى وحده، ولم نجد أى مفاوضة لتحقيقه، وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن هنرى الرابع يعتبر النضال ضد أسبانيا والنمسا ضرورة قومية، ولكنه يدرك الأخطار التى تتأتى عنه، وترد بالقيام فى الحرب، ولم يقرر ذلك عام ١٦١٠م إلا استجابة منه لداعى الهوى.[1]

أما عصر الوزراء، أو فرنسا فى عهد الملك لويس الثالث عشر (١٦١٠ – ١٦٤٣) وريشيليو (١٦٢٤ – ١٦٤٢).

عند وفاة هنرى الرابع سنة ١٦١٠ كان ابنه لويس الثالث عشر يبلغ من العمر تسع سنوات، ولذلك فإنه وضع تحت وصاية والدته مارى دى مديتشى. ولو واجهت الوصية على العرش الموقف بكل حزم، خاصة وأن زوجها كان يطلعها قبل وفاته على شئون الدولة. واستعانت بوزير لكى يسهل لها تسيير الأمور، وكان إيطاليا مما أدى إلى وقوف أبناء عم الملك الصغير ضده، وبخاصة دوق كونديه، فاتهم فى إسرافه فى الميزانيات العامة. ومع ذلك فقد كانت سياسة الوصية تسير صوب تدعيم السلطة

---

[1] نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص٢٦٣.

المطلقة للجالس على العرش. وحين اجتمع مجلس طبقات الأمة فى باريس سنة ١٦١٤م وظهر الانقسام فيه بين نواب النبلاء ونواب الطبقة الثالثة، حول مسألة إعطاء ألقاب النبل لعدد من رجال الطبقة الثالثة، وحين تقدم أعضاء المجلس ببعض الالتماسات، تقرر وقف اجتماعات مجلس طبقات الأمة، وبشكل يجعل الملك يحكم بسلطة مطلقة وسيظل مجلس طبقات الأمة معطّلا، بدون اجتماع، حتى نشوب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

ولقد واجه النظام الملكى بعد ذلك ثورة دوق كونديه سنة ١٦١٦م وحتى بعد أن فقدت مارى مديتشى السلطة فى العام التالى، دخلت فرنسا فى صراع عنيف بين الكاثوليك والبروتستانت. وأثر ذلك على طبيعة الأوضاع والقوى الموجودة، وقت وصول ريشيليو إلى الوزارة سنة ١٦٢٤م، وفى السنوات التالية لذلك. ولقد وضع ريشيليو لنفسه مبدأ هو رفض إنشاء الهيجونت لسلطة تشارك الملك سلطته المطلقة، أو تقتسمها معه. ولذلك فإن ريشيليو صمم على تدمير مجموعة الهيجونت، والتقليل من تعالى كبار الأمراء، ووضع كل الرعايا أمام واجباتهم تحت سلطة الملك المطلقة. ولقد نجح ريشيليو فى ذلك، وتمكن من إعادة قوة فرنسا الخارجية.[1]

وعمل ريشيليو بعد ذلك على تنظيم الإدارة، وعلى إنشاء جيش قوى وبحرية لها قيمتها. وبعد أن كان عدد الجيش لا يزيد سنة ١٦١٠ عن ١٠ آلاف رجل، وصل عدده إلى ٦٠ ألف سنة ١٦٢٩م، وإلى ١٤٢ ألف من المشاة و٢٢ ألف من الفرسان ١٦٤٠م.

أما البحرية، فقد زاد عدد قطعها، وأصبح هناك أسطول غربى للمحيط الأطلسى وأسطول آخر للبحر المتوسط، وأفاد ريشيليو من الأوضاع الإدارية الموجودة، وعمل على تحسينها، حتى يزيد السلطة المركزية على الأقاليم، ويقضى على النفوذ المحلى للحكام. وكانت الهيئة الرئيسية للحكومة هى مجلس الملك، أو مجلس الدولة الذى عمل تحسينها، حتى يزيد السلطة المركزية على الأقاليم، ويقضى

---

(١) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص٤٠ - ٤١.

على النفوذ المحلى للحكام. وكانت الهيئة الرئيسية للحكومة هى مجلس الملك، أو مجلس الدولة، الذى عمل ريشيليو على إعادة تنظيم منذ سنة ١٦٣٠م، وجعله يضم، ولأول مرة، وزيرًا للحربية، ووزيرًا للشئون الخارجية.

أما فيما يتعلق بالبرلمان، فإن ريشيليو قد حافظ عليه، واهتم بنوع خاص ببرلمان باريس الذى كان قد لعب دورًا هامًا فى حياة العاصمة أثناء الحروب الدينية. وإذا كان هذا البرلمان أحتج من وقت لآخر على سلطات ريشيليو، إلا أنه طوعه على العمل، ولفت نظره، أكثر من مرة، وبعد إبعاد العناصر المستقلة، إلى أن وظيفته الأساسية هى الفصل فى قضايا المتخاصمين. وهكذا أصبحت برلمانات فرنسا وبخاصة برلمان باريس، محاكم أكثر من كونها هيئات أو مجالس تشريعية.[1]

أما سياسته إزاء الهيجونت، فقد كان واضحًا أمام ريشيليو منذ أول عهده بالسلطة أن أهم ما تقتضيه العناية وبذل الجهد هى مسألة القضاء على النفوذ السياسى للبروتستانت. كان ريشيليو من القلائل الذين اشتهروا بتسامحهم الدينى، ولذلك لم يكن فى نزاعه ضد البروتستانت فى فرنسا ليتعرض لعقائدهم الدينية وإنما أراد أن يسلبهم تلك الامتيازات السياسية التى منحهم إياها "مرسوم نانت" فجعلهم قوة لا يستهان بها فى مقاومة الملكية والتصدى لها، سمح لهم هذا المرسوم بامتلاك عدد كبير من القلاع والحصون فى مدن عديدة زادت على المائة. وكانت لهم مجالسهم الخاصة التى يناقشون فيها مشاكلهم السياسية والدينية. وقد أظهروا اهتمامًا فى هذه المجالس بالاستعداد العسكرى، وكانت السلطات المناوئة للحكومة القائمة فى فرنسا تستعين بهذه القوات. فقد حدث أن استعان بها كونديه عندما نأوا الملكة "مارى ديمديتش" كما أستعانت بها الملكة الأم نفسها عندما أبعدت عن الحكم. وكان حصن "لاروشيل" من أقوى معاقلهم، لذلك وجه ريشيليو جهوده لإسقاطه، ونجح فى إسقاط الحصن فى أكتوبر ١٦٢٨م، بعد حصار دام خمسة عشر شهرا. وقد أمن ريشيليو السكان على حياتهم وأملاكهم وعلى تأدية صلواتهم بكل حرية، ولكنه انتزع منهم

---

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص٤٢.

الاستقلال الذى كانوا يتمتعون به من قبل، وجردهم من امتيازاتهم السياسية وحطم حصونهم، ومنح الكاثوليك الحرية الكاملة لتأدية شعائرهم الدينية فى تلك المواقع. واستطاع ريشيليو فى العام التالى أن يكلل جهوده ضد الهيجونت بالانتصار على زعمائهم فى جنوب فرنسا، وأن يعقد معهم ما يعرف بصلح أ"اليس" Alais سنة ١٦٢٩م، وقد جددت بمقتضاه البنود الدينية لمرسوم نانت. ونجح ريشيليو فى استراداد كافة المواقع المحصنة التى كانوا يسيطرون عليها وأن يقضى بالتالى على نفوذهم السياسى وعلى الخطر الذى كانت تتعرض له الملكية فى فرنسا من ذلك النفوذ.[1]

وكانت مهمة ريشيليو التالية إخضاع النبلاء الذين كانوا ينقمون عليه ويحاولون الإيقاع به أو اغتياله، ويعتمدون فى التآمر ضد ريشيليو على شقيق الملك جاستون Gaston دوق أورليان الذى كان العوبة فى أيديهم ولكن ريشيليو لم يلبث أن كشف هذه المكائد وأعدم الذين دبروها، واضطر جاستون إلى الخضوع خضوعًا مهينًا. وقد تعرض ريشيليو لخطر أشد عندما انقلبت عليه مارى مديتشى التى لحظت أن السلطة كادت تفلت من يدها وساءها أن الكردينال فى سياته الخارجية فى خطة معادية لأسبانيا، بينما كانت اليزابيث ملكة أسبانيا ابنة مارى مديتشى وفى المؤامرات الجديدة انضم إلى مارى مديتشى ابنها جاستون وعدد من النبلاء. ولما كان ريشيليو قد ظفر بكل ثقة الملك فقد أخفقت كل هذه المؤامرات، كما أخفقت ثورة كان قد دبرها النبلاء فى لا نجدوك. وعوقب أشهر المؤتمرين وكان دوق دى مونتمورنس من أعرق الأسر النبيلة بالإعدام، فجاء إعدامه درسًا قاسيًا لهؤلاء النبلاء. ومع أن المؤامرات استمرت تتجدد فى السنوات التالية ضد ريشيليو، فقد انتصر الكاردينال على خصومه تمامًا سنة ١٦٤٢م.

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٥٩.

ثم أن ريشيليو فى أثناء هذا الصراع كله. استطاع أن يسدد للنبلاء ضربات قاصمة أصابت نفوذهم القديم، وقضت عليه، وذلك عندما مر بهدم قصورهم الاقطاعية، وكانت هذه بمثابة حصون منيعة لهم.[1]

وفى ميدان السياسة الخارجية نجح ريشيليو فى وضع البرنامج الذى أراد به أن تحرز فرنسا التفوق السياسى فى أوروبا. وذلك برنامج اقتضى تنفيذه أن تدخل فرسا فى نضال مع أسبانيا والنمسا، أى مناصبة العداء آل الهابسبورج فى أوروبا. وعلى ذلك لم تمنع حقيقة أن ريشيليو كان كاثوليكيا من أن يتفق الكاردينال مع الدول البروتستنتية ووقع أول اشتباك بينه وبين أسبانيا عندما ثار أهل جمهورية جريسون Grisons الكاثوليك ضد حكومتهم، وكانت هذه بروتستنتية. وتقع الجمهورية بين النمسا من الشمال، والتيرول من الشرق والبندقية وميلان من الجنوب وسويسرا من الغرب. فانتهزت أسبانيا فرصة هذه الثورة واستولت على سهل فالتلين Valtelline وهو من أقاليم الجمهورية، ويقع فى جزئها الجنوبى، لأنه كان لفالتين أهمية كبيرة باعتباره حلقة اتصال بين أملاك أسبانيا فى إيطاليا وبين النمسا. فلم يلبث أن تدخل ريشيليو لموازرة الجمهورية البروتستنتية واستطاع تخليص البلاد من الجنود الأسبان، ومن جنود البابوية، وأعاد سهل فالتلين إلى جمهورية جريسون ولكن ريشيليو بسبب مشغولياته الداخلية لم يتمكن من استكمال هذا النصر فاضطر إلى عقد الصلح مع أسبانيا (معاهدة مونزون Monzon فى مايو ١٦٢٦م وكان بعد ثلاث سنوات أن تحدد العداء بين فرنسا وأسبانيا بسبب وفاة دوق مانتوا ومونتفرات Montferrat ن غير وارث للعرش. فقد كان أقرب أصحاب الحقوق فى وراثة العرش من بعده، أحد الموالين لفرنسا وهو الدوق دى نيفير Nevers، فقررت أسبانيا صاحبة النفوذ الأعلى فى إيطاليا، أن تحول دون استيلاء فرنسا على هذه الدوقية (مانتوا)، وطلبت إلى الامبراطور فردناند الثانى أن يتدخل فى المسألة، كما أنها قدمت ناحيتها مطالبًا بالعرش. وعندئذ أرسل ريشيليو الجيوش لموازرة دى زيفيير،

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢١٦.

وترأس هذه الجيوش بنفسه (١٦٢٩ - ١٦٣٠) والحق الهزيمة بالأسبان وحلفائهم وفى الصلح الذى أبرم فى شيراسكو Cherasco فى سنة ١٦٣١م تم الاعتراف بحق دوق دى نيفير فى وراثة عرش مانتوا وبقيت فى حوزة فرنسا مدينة بينيرولو Pinerolo المحصنة فى بيدمنت، وكانت فرنسا قد استولت عليها منذ مارس ١٦٣٠م - وبذلك صار لفرنسا موقع تعمل على نشر نفوذها فى إيطاليا، كما أنها استطاعت الاستيلاء على "مكان" يسهل عليها أن تجتاز منه الألب إلى سهول إيطاليا الشمالية.[1]

لم يتوان ريشيليو كذلك فى مساعدة البروتستانت فى الأراضى المنخفضة وفى ألمانيا ومساعدة ملك الدانمرك فى حرب الثلاثين عاما بالمال والرجال، كما أنه أمد الملك "جوستان أدولف" ملك السويد عندما أخذ على عاتقه حماية بروتسانت ألمانيا بالمال والرجال.

وعاون ريشيليو هولندا التى بدأت من جديد حربها ضد أسبانيا فى عام ١٦٢١م بعد انقضاء مدة الهدنة بينهما وكانت تبلغ اثنتى عشر سنة. وفى هذا سار ريشيليو على نهج سياسة هنرى الرابع، واتبع سياسة استمرت إلى أن جاء لويس الرابع عشر فلم يتبعها. أراد ريشليو بهذه الخطوة أن يحصل على أكثر من استقلال هولندا الذى كان قد تم الحصول عليه تقريبًا، لقد أراد أن يخلص مدن بلجيكا من سيطرة أسبانيا حتى يتقاسم مع هولندا شيئًا من تلك الغنائم، بل كان يطمع فى تقسيم بلجيكا بينه وبين هولندا، وإذا كان لم ينجح فى ذلك، فقد نجح لويس الرابع عشر فيما بعد عندما ضم إلى فرنسا "أرتوا" Artois ودنكرك "Dunkirk" وأجزاء من بلاد الفلاندر Flanders و"هنولت" Hainault فبقيت كلها تحت سيطرة فرنسا، وانتهت تلك الحرب الطويلة بين هولندا وأسبانيا عام ١٦٤٨م عندما اعترفت أسبانيا باستقلال هولندا فى صلح وستفاليا الذى ختم حرب الثلاثين عامًا.[2]

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢١٧.

[2] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٦٣.

عهد الوزير الأعظم مزران (١٦٤٣ - ١٦٦١)

كان لوى الثالث عشر قد أوصى بأن تكون أن زوجته النمساوية وصية على أبنها لوى الرابع عشر، وأشرك معها مجلسًا للوصاية. ولكن البرلمان قرر أن تكون الملكة الوالدة وصية بكامل السلطات، أى بدون مجلس يشاركها فى ذلك. وكانت الملكة آن عدوة للكاردينال ريشيليو، ومع ذلك فأنها عينت الكاردينال مزران رئيسًا لمجلس الدولة أو الحكومة.

وكان مزران إيطالى الجنسية، وحصل على الجنسية الفرنسية سنة ١٦٣٩ بعد أن كان من رجال البابا. وكان يختلف عن ريشيليو فى كل شئ، فبينما كان ريشيليو جنديًا، ويسير ووراءه حرس كبير، وله حاشية ملكية، كان مزران بسيطًا متواضعًا، يحادث الجميع، ويجالسهم، ولم يكن له من الحياة العسكرية أى شئ، ولكنه كان عبقريًا فى دبلوماسيته، وبدرجة تفوق ريشيليو، أما من ناحية الإدارة فكان لا يصل إلى مستوى ريشيليو.

وهكذا كان على مزران أن يواجه الأوضاع فى فرنسا بعد موت كل من "ريشيليو ولويس الثالث عشر. وكانت الأوضاع صعبة بالنسبة له: فكان الكبراء يحاولون استعادة سلطتهم، بعد أن كان ريشيليو قد أحكم قبضته عليهم. وحاول التخلص من مزران، حتى عن طريق الاغتيال. وكان الفلاحون، وهم الغالبية العظمى للشعب، يعيشون فى ظروف قاسية، نتيجة للضرائب المرتفعة التى كان يدفعونها. وكانت المالية فى وضع سئ خاصة وأن المصروفات كانت تزيد على الإيراد وبكثير. وحاول مزران أن يصلح المالية، كما حاول فرض ضرائب جديدة. وستكون هذه الضرائب أساس وقوف كل من برلمان باريس ثم مجموعة من الأمراء ضد مزران وسياسته؛ ويحاولون عن طريق هذه المعارضة فرض شروطهم على السلطة الملكية، والحصول بالتالى على جزء من سلطتهم المفقودة.[1] ومع أن - مزران - سار على سياسة ريشيليه إلا أنه اتبع وسائل أخرى فى تنفيذها، لم تعجب أمراء البيت المالك

(١) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٤٣ - ٤٤.

والنبلاء وبرلمان باريس دعامة الشعب. حتى قيل فيه "ظهر الثعلب بعد اختفاء الأسد" وذلك بسبب ما كان الجميع يلاحظونه من تباين في أخلاق ريشيليه ومزران: أحدهما يعتمد على الحزم والشدة، والثاني يعتمد على الخداع.[1]

وقد اشتد السخط على حكومة مزران بسبب الضرائب التي فرضت لتمويل الحروب العديدة التي خاضتها فرنسا خصوصا الحرب الألمانية والحرب الأسبانية التي استمرت أحد عشر عامًا بعد صلح وستفاليا. والواقع أن صلح وستفاليا كان أكبر نصر حازه مزران. ولكنه على أي حال لم يكسبه التأييد المنشود من الرأي العام الفرنسي، بل على العكس. ما أن انتهت فرنسا من الحروب التي اشتركت فيها أثناء حرب الثلاثين عاما حتى هبت العناصر المعارضة للحكومة والساخطة على سياسة مزران، تبذل جهدها لمقاومة نظام الحكم، ومن ثم ثارت قلاقل داخلية عرفت بحرب الفروند[2] Fronde.

وكان سبب هذه الحركات الثورية أن الحروب السابقة كلفت الدولة نفقات طائلة وترك ريشيليو عند وفاته خزائن الدولة خالية من المال. كما خلف دينًا ثقيًلا. وكان نظام الضرائب الصارم موضع سخط شديد. أضف إلى هذا إسراف الملكة آن النمساوية وما أنفقته الحكومة في استمالة النبلاء وشراء مساعدتهم لها. حتى استنفدت الحكومة بسبب ذلك كله إيرادات السنوات الثلاث التالية مقدمًا. وتأخرت رواتب الجند وموظفي الحكومة ولم يكن مزران خبيرا بالشئون المالية بل اعتمد في هذا على أحد الإيطاليين المغامرين الذي أخذ على عاتقه أن يملأ خزائن الحكومة، وأن يقتطع جانبا من الأموال لنفسه كذلك، ذلك بابتكار أنواع جديدة من الضرائب وإحياء الأوامر الملكية القديمة وتحصيل الغرامات من مخالفي هذه الأوامر وإنشاء الوظائف وبيعها والاستدانة بفوائد باهظة وبيع ألقاب النبل والشرف وغير ذلك من التدابير التي أثارت السخط العام وزادت في بؤس البلاد وشقائها وهيأت الأفكار للثورة ضد الحكومة.[3]

---

(1) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٠٢.

(2) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٠٢.

(3) محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٢٠.

وحدث أول اشتباك بين الحكومة والعناصر المتذمرة فى عام ١٦٤٤ وذلك عندما رفض برلمان باريس – وكان هيئة محكمة قضائية ذات حق فى تسجيل أوامر الملك، ولم يحدث أن تقرر ما إذا كان من حقه رفض تسجيل هذه الأوامر – رفض تسجيل بعض الضرائب التى اعتزم d;Emery تحصيلها. ثم تجدد النزاع بصورة شديدة فى عام ١٦٤٨ عندما رفض البرلمان تسجيل عدد من الأوامر المالية الجديدة، وقدم مطالب إلى البلاط يبغى من ورائها الإشراف على الضرائب وإلغاء وظائف المأمورين Intendants فى الأقاليم وضمان حرية الأفراد ضد الحبس من غير محاكمة – كما كان يحدث عندما يصدر الملك أمرًا أو خطابًا بذلك يعرف باسم الخطابات المبصومة أو الممهورة. وكل هذه المطالب من شأنها إضعاف سلطان الملكية. وقد أدرك مزران ذلك وأراد أن يقضى على تلك الحركة، فانتهز فرصة انتصار "كونديه" على جيش الامبراطور فى Lens فى أغسطس سنة١٦٤٨ فقبض على بعض زعماء المقاومة ضد الحكومة فى البرلمان، فقامت المظاهرات فى باريس وانضم كونديه Condi(الكردينال دى رتز Retz منذ سنة ١٦٥٢). إلى المشاغبين فاضطر مزران إلى إطلاق سراحهم وإجابة مطالب البرلمان. لكن عندما انتهت حرب الثلاثين عامًا حاصرت جيوش الملك باريس فانتشرت المجاعة فى العاصمة، ثم وقع الانقسام بين البرلمان والنبلاء لتضارب مصالح الفريقين – لأن البرلمان أراد أن يتخذ لنفسه خصائص دستورية حتى يلعب دورًا مماثلا للدور الذى كان يلعبه فى هذه الآونة البرلمان الإنجليزى – ولذلك عقد البرلمان صلحًا مع الحكومة (معاهدة رويال Reueil فى مارس ١٦٤٩م) وبمقتضاها تنازلت الحكومة عن بعض مطالبها المالية فى نظير أن يتخلى البرلمان عن الدور السياسى الذى كان يقوم به.[1]

أما حرب الفروند الثانية أضعف مبدءا وأشد خطورة وأعظم حزبًا، فقد افتتحت باعتقال كونديه Conde صاحب انتصار روكروا Rocroi ولينز Lenz وقائد جيش الوصى على العرش فى الثورة الأولى، ولم يكن فى مقدور أى رجل أو

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٢٠.

امرأة الصبر طويلا على الادعاءات التى لا تحتمل من هذا الجندى المتعجرف، على أنها كانت خطوة جريئة من جانب مزران أن يسجن رجلا له مثل القدر من الثروة والمهابة والشهرة. هنالك انفجرت البلاد فى موجة عنيفة من الغضب أتت بالقائد تورين على رأس جيش أسبانى إلى بيكارى، وأوقدت نار الثورة فى بوردو، وأدت فى النهاية إلى إطلاق سراح كنديه وفرار مزران (يناير ١٦٥١) وبالرغم من أن كونديه كان فى وسعه أن يعتمد على تأييد الحزب الثائر من النبلاء؛ إلا أنه لانحراف مزاجه، كان آخر من يستطيع التوفيق بين صفوف النبلاء من أصحاب السيف والنبلاء من أصحاب الرداء يبدو حتى انفصمت عراه. ثم أن الوصية قد كرست نشاطها بوحى من مزران لعمل هين وهو إثارة قائد منافس لكونديه ويماثله فى غروره وطموحة من دوائر الفروند الداخلية وهو بول دى جوندى Paul de Gondi (أصبح فيما الكاردينال ريتز) زعيم القساوسة والرعاع وكان قد انحاز إلى جانب البلاط على وعد برتبة الكاردينال. ولم يلبث القائد تورين بعد ذلك حتى استسلم لفعل الرشوة. مات كل من الرجلين فى موضع يخول له المساهمة فى الدفاع عن قضية الملك؛ فكوندى كان ملك رعاع باريس غير المتوج، كما كان فى تورين وهو من أم هولندية أعظم جندى نظامى فى أوروبا. وفى يناير ١٦٥٢ أعيدت الأمور إلى نصابها حتى ان مزران أصبح قادرًا على اللحاق بالوصية على العرش فى أورليان.[1]

وقضى مزران السنوات الأخيرة من حكمة يحاول الوصول إلى الصلح مع أسبانيا وتم ذلك فى عام ١٦٥٩م، واستأنف سياسة ريشيليو. وقد انتصرت الجيوش الفرنسية فى الأراضى المنخفضة فى موقعة روكروا Rocroi عام ١٦٤٣م. وهكذا تحقق النصر الأول للخطة التى وضعها ريشيليو فى عهد خليفته مزران. كما أن فرنسا لا تزال فى حربها ضد الهابسبورج فى ألمانيا وأسبانيا، فقد أعلن ريشيليو هذه الحرب منذ عام ١٦٣٥م على أنها لم تتوقف ولم تنته عند عقد صلح وستفاليا Westphalia

---

[1] هربرت فيشر، المرجع السابق، ص٢٦٣ – ٢٦٤.

فى عام ١٦٤٨م تلك المعاهدة التى عقدت بين فرنسا والأمبراطور فرديناند الثالث. فقد ظلت الحرب قائمة بين فرنسا وأسبانيا، وكانت كلتاهما فى حالة إعياء شديدة.[1]

ولكن الخراب ساد فرنسا فى عصره، وجاء صلح وستفاليا لكى يزيد من عدد العاطلين، وينشر المجاعات فى كل مكان. وأعطت هذه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة، نتائجها السياسية، ودفعت فرنسا إلى أن تخضع وفى ظروف الإرهاق للنظام الملكى المطلق والمستبدة فيها. وحين بلغ لوى الرابع عشر سن الرشد، وتولى سلطته الملكية، كان لا ينسى الاضطراب والفوضى اللذين سادا فى صغره، واجبراه على الهرب من عاصمته. ولذلك فإنه قرر ألا يسمح للفوضى بمكان فى بلاده، وطوال حكمه، مهما كلفه ذلك من ثمن؛ فكان ملكا مطلقا بكل معنى الكلمة. أما الفرنسيين فأنهم كانوا فى حاجة إلى الراحة، ولم يكن لهم من أمل سوى طاعة الملك والخضوع له.[2]

عصر لويس الرابع عشر (١٦٦١ – ١٧١٥):

عند موت مزران فى ٩ مارس ١٦٦١ كان لويس الرابع عشر يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، وقد أظهر منذ البداية اتجاهه نحو الانفراد بالحكم والتحكم فى كيفية إنفاق أموال الدولة، استعان فى الحكم بثلاثة من المستشارين "لوتليه Le Tellier للشئون الحربية و "ليون Lionne للسياسة الخارجية وفوكيه Fouquet للشئون الاقتصادية، وكان مركز فوكيه حرجا بسبب انعدام ثقة الملك فى سلوكه، ولا أدل على ذلك من أن الملك عين كولبير مساعدا له إلا أنه لم يلبث أن حل محله.

على أن موارد فرنسا المتعددة وطاقاتها الواسعة وكثرة عدد سكانها، كل هذه الأمور كانت كفيلة على الرغم من تخلفها عندئذ فى الصناعة والزراعة بأن تجعلها تنهض باقتصادياتها. فقد كانت أكثر دول أوروبا القومية سكانا، ففيها حوالى خمسة عشر مليونا من المواطنين الذين يعملون فى فلاحة الأرض، وما يزيد على

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ١٦٩.

[2] جلال يحيى، المرجع السابق، ص٤٦.

خمسة ملايين يرتزقون من ريع أراضيهم أو من مكاسبهم فى الصناعة والتجارة، أو من مرتبات يتقاضونها لشغلهم المناصب والإدارية وغيرها.

وعندما بدأت حركة الاصلاحات الاقتصادية فى فرنسا أثناء أعوام الستينات ١٦٦٠م استغل لويس الرابع عشر أولئك الإداريين الذين دربهم مزران فى هذا المجال، وعلى رأسهم الوزير "كولبير" الذى حل محل "فوكيه" كما استفاد من جهود طائفة الفنانين ممن كان كل من مزران وفوكيه يشجعانهم، ومنهم المعماريون والنحاتون والرسامون.

وقد كان للاستقرار الذى حققه لويس الرابع عشر لبعض الأوضاع القائمة أثره فى نجاح الاصلاحات الاقتصادية فكان الملك وحده صاحب الحق فى تعيين أعضاء "المجلس الأعلى" Conseli d'enhaut، وكان عدد أعضائه يتراوح بين ثلاثة أعضاء وخمسة يستدعيه الملك إذ كان فى حاجة إلى نصحه ورأيه. استعان لويس الرابع عشر فى أمور الحكم بمندوبى الملك فى الأقاليم الذي اشتهر أمرهم فى عهد كل من ريشيليو ومزران. أصبحوا فى عهد لويس الرابع عشر حكامًا مقيمين، بينما كانوا فى العهدين السابقين مفتشين متنقلين بين أقاليمهم وعاصمة البلاد حيث مقر الحكومة المركزية.[1]

كان الإصلاح الرئيسى الذى شاهدته الستينات (١٦٦٠)فى فرنسا يرتبط بصفة خاصة بالاقتصاد والمسائل المالية. تأثرت ميزانية فرنسا كثيرا بسبب ما انفقت من أموال كثيرة فى المدة السابقة لحكم لويس الرابع عشر: أثناء محاربة ريشيليو فى العشرينات (١٦٢٠) وعند مقاومة مزران لحركتى الفروند فى الأربعينات (١٦٤٠) والخمسينات (١٦٥٠) وهكذا على الرغم من إمكانيات فرنسا الواسعة وطاقاتها الكبيرة وعدد سكانها الكبير؛ فإنها قد تخلفت عن كل من منافستها انجلترا وهولندا فى ميدان التجارة وميدان التوسع فيما وراء البحار، وعلينا أن نذكر أن كلا الدولتين قد نجت من التورط فى حرب الثلاثين عامًا التى كلفت فرنسا الكثير من المال والجهد.

---

(١) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٧٤.

على أن الإجراءات العديدة التي اتخذت للنهوض باقتصاديات فرنسا وأحوالها المالية عندئذ كانت حكيمة للغاية وموفقة، فاستحقت ثناء رجال الاقتصاد فيما بعد كما استحقت تفريظ كتاب الاقتصاد كذلك، فقد أحييت المصانع القديمة وانشئت كذلك مصانع جديدة. وكان اهتمام الملك بإقامة القصور الملكية، وتزويدها بكل ما يليق بها من متاع وأدوات للزينة كما تشاهد في فرساي وفي مارلي Marly عاملا مساعدا ومشجعا على إتاحة فرص كثيرة ومتعددة لبعض الصناعات الفرنسية مثل "الجوبلان" والمرايا "والمنسوجات الرقيقة الرائعة" كما أن ذلك الاهتمام قد فتح مجالات متعددة لعدد كبير من الرسامين والمثاليين والمصورين، وللآلاف من المشتغلين بصناعة الأثاث والأدوات الفضية وغيرها من الصناعات المرتبطة بتزيين القصور.

ثم أن حياة القصر الحافلة بالمسرات الزاخرة بالاحتفالات، أتاحت فرصة العمل للكثيرين من المشتغلين بصناعة الدانتيلا والتطريز والتفصيل والخياطة وصناعة الحلي والأحذية والقبعات واشتهرت بعض هذه الصناعات التي صدرتها فرنسا للخارج مثل الساعات والمنسوجات الرقيقة والدانتيلا والقطع الفنية الرائعة، وبذلك أضافت إلى صادراتها التقليدية من نبيذ ومنسوجات خشنة رصيدًا جديدًا من الصادرات التي عادت عليها بالربح الوفير.[1]

وانشئ عدد كبير من الشركات التجارية في حوض بحر البلطيق وفي البحر المتوسط وفي منطقة الهند الشرقية والعالم الجديد. وكان لويس الرابع عشر من أكبر المشجعين لهذه الشركات فساهم فيها بأمواله، كما شجع النبلاء على المبادرة بالإسهام فيها والإقبال على عقد الصفقات التجارية الكبيرة في عرض البحار. ولا ننسى أن نغفل احتياجات الجيش والبحرية المتزايدة قد ساهمت في زيادة إنتاج الملابس الرسمية الخاصة بأفراد كل منه، وكذلك إنتاج الأسلحة والبنادق والسفن[2].

---

(1) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٧٤ - ١٧٥.

(2) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٧٥.

ولقد ارتبط كل ذلك بإنشاء بحرية فرنسية قوية، ونجح كولبير في إنشاء أسطول تجاري هام. كما عمل على إنشاء أسطول حربي للمحافظة على خطوط المواصلات مع المستعمرات الفرنسية، وبخاصة مع كندا التي كان يرغب في تحويلها إلى مقاطعة فرنسية. ووضع نظامًا للتجنيد في البحرية وانشأ صندوقًا لمصابيها ومدرسة ضباطها.

نجح كولبير في كل ذلك، رغم العقبات التي كانت تواجهه، والتي كانت تتمثل في سياسة لوى الرابع عشر العسكرية، وفي ميله إلى البذخ وحياة العظمة، ولقد ابلغه ذلك ولكن لوى الرابع عشر كان ممتلئًا بالغرور نتيجة لانتصاراته، ورفض الاستماع إلى أي نصيحة للاعتدال، ولذلك فإنه تخلص من كولبير واشتهر بعد ذلك لوفوان الذى ظل وزيرًا للحربية لمدة ٢٥ سنة (١٦٦٦ - ١٦٩١).

ولقد أمضى لوى الرابع عشر ثلاثين سنة من فترة حكمه التي بلغت ٥٥ سنة في الحروب، الأمر الذى أدى إلى تغيير كامل في النظم العسكرية في فرنسا، وفي نفس الوقت الذى حدث فيه مثل هذا التغيير في الدول الأخرى؛ وتحول الجيش من جيش مؤقت إلى جيش نظامي دائم. وبلغ عدد الجيش الفرنسي وقت حرب الوراثة الأسبانية (سنة ١٧١٠) ١٢٥ ألف من المشاة و٤٧ ألف من الفرسان.

ووضع نظام لتدريب هذا الجيش الدائم، ولتنظيمه، وتنظيم تسلسل القيادة فيه، عن طريق قائمة بأقدمية الضباط. ووضعت له الإدارات المختلفة للتموين، الشئون الإدارية والمستشفيات الميدان. ووضع لوفوا كسوة عسكرية لكل الجنود؛ كما وضع نظامًا دقيقًا للطاعة دون اعتراض بين الجنود، وضباطهم، واهتم بنظام التجنيد، وعلى أساس التطوع، نظير الرواتب والخضوع للنظام العسكرى، وانشأ سلاحين جديدين: هما سلاح المدفعية؛ وسلاح المهندسين، وهو الذى اهتم بالتحصينات على طول حدود فرنسا، واشتهر من بين رجاله الماريشال فوبان. ولقد تمكن فوبان بدوره من إدخال تعديلات على الأسلحة، وبخاصة البنادق، وبشكل جعلها أقل ثقلًا، وأكثر فاعلية في إطلاق النيران، وزود كل بندقية بحربة، تساعد الجندى وقت الالتحام.

وكانت كل هذه الوسائل، الاقصادية والعسكرية، تساعد لوى الرابع عشر على تطبيق سياسته، وعلى القيام بحروبه في أوروبا.[1]

ثمة مظهر آخر لما استحدثه أقدام كوليير، يتضح في محاولته تنظيم القانون الفرنسي فأصدر "قوانين لويس" وهي مجموعة من الشرائع المحكمة الوضع تناولت الإجراءات المدنية والجنائية، والتجارة والبحرية، وزنوج المستعمرات (قانون السود) على أنها نظرًا لتمسكها بعقوبة التعذيب، وتحريم المستعمرات على اليهود والبروتسنت، لا تعتبر من المعالم الإنسانية في العالم. على أن تشريع ذلك العصر له أهميته، ليس فقط باعتباره أول خطوة هامة نحو وحدة فرنسا التشريعية التي تحققت بعد ذلك تحت حكم نابليون، بل ايضًا لأنه وضع الخطوط الرئيسية التي لا تزال الإجراءات في محاكم فرنسا تسير بمقتضاها. ولم ينجح كولبير في جمع الشرائع الفرنسية كلها في دستور واحد، وإنما ظلت تغلب على المجتمع حتى وقوع الثورة مجموعة كثيفة معقدة من العادات المحلية ظلت تتراكم، ولكن كولبير قد أورث فرنسا فيما أورثه إياها، فكرة جمع الشرائع كما خلف بعض الأجزاء الهامة المتناثرة، ومنها يمكن تأليف تلك المجموعة حين يحين الوقت لذلك.[2]

حروب لويس الرابع عشر

١- حرب الوراثة في الأراضي المنخفضة (١٦٦٧ - ١٦٦٨)

ظل النزاع بين الأسرة المالكة في فرنسا وبين أسرة الهابسبورج قائما مدة قرن من الزمان، وقد استطاعت فرنسا الانتصار على فرع هذه الأسرة النمسوي في صلح وستفاليا، ولكنها بقيت في حرب مع فرع آل هابسبورج الأسباني إلى أن تم صلح البرانس سنة ١٦٥٩، والواقع أن أسبانيا كانت في طريقها إلى الانحلال والاضمحلال.

---

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص٥٠ - ٥١.

[2] هربرت فيشر، المرجع السابق، ص٣٠٢.

وقد لاحت في عام ١٦٦٧ للملك لويس الرابع عشر فرصة التوسع في الشمال، في الأراضي المنخفضة الأسبانية. وذلك عندما مات ملك أسبانيا (فيليب الرابع) الذي تزوج لويس ابنته بعد أن نزل عن كل حق في وراثة عرش أسبانيا، ولكن بعد وفاة فيليب الرابع ادعى حق زوجته الأسبانية في وراثة الأراضي المنخفضة. وبادر إلى إرسال حملة فرنسية إلى تلك البلاد، وانتصرت قواته واستولت على عدة مدن على الحدود بدون صعوبة تذكر ولم تستطع أسبانيا أن تقوم بأي عمل من شأنه صد العدوان عن أملاكها فقد كانت مغلولة اليد بسبب انهاكها في قمع ثورة البرتغال التي هبت تطالب باستقلالها، ولم يكن لديها جيش قوي في الأراضي المنخفضة تستطيع مجابهة الجيش الفرنسي المنظم، ولذلك لم تجد قوات لويس من يوقف تقدمها فاستولى القائد (تورين) على عدة قلاع محصنة وكانت هذه الانتصارات الفرنسية سببًا في انزعاج كل من انجلترا، وهولندا والسويد. فقام "التحالف الثلاثي" بين تلك الدول لوقف لويس الرابع عشر عنده حده وحدثت اتصالات بين التحالف الثلاثي أعلن لويس بعدها أنه على استعداد للمناقشة في أمر الصلح. وقد تم الصلح في اكس لاشابل Aix - La - Chapelle (١٦٦٨) ونص الصلح على أن تحتفظ فرنسا بالجهات التي تم الاستيلاء عليها وهي شرلوا، وليل، وترناي، وثمانية بلدان أخرى على حدود الأراضي المنخفضة.[1]

٢- حروبه مع الجمهورية الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٩):

أدى مسلك هولندا خلال هذه الأحداث إلى استثارة غضب لويس وحنقه عليها، وهو الحنق الذي ضاعفه قيام الولايات الهولندية بإيواء الكتاب السياسيين الذين أزعجوا لويس بما نشروه عنه من إهانات وشتائم. ولكي يحقق لويس غرضه في القضاء على هولندا أو إذلالها لجأ إلى تمزيق الحلف الثلاثي عن طريق عقد معاهدة خاصة مع شارل الثاني ملك انجلترا (معاهدة دوفر سنة ١٦٧٠) ثم عقد معاهدة أخرى بين فرنسا والسويد [١٦٧٣] ولويس بعقد معاهدات مع كولونيا ومونستر قدم

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٠٨ - ٢٠٩.

لهما بمقتضاها معونة مالية، مما ترتب عليه اشتراك عشرين ألف ألمانى إلى جانب لويس فى حربه التالية. وفى عام ١٦٧٢ قيام تورين وكونديه والملك بغزو جنوب هولندا غزوا سريعًا على رأس مائة ألف رجل. وقتل الأخوين دى وت فى ثورة شعبية (٢٧ أغسطس) وهما زعيما الحزب الأرستقراطى الجمهورى فى هولندا، وتعيين وليم الثالث أورانج رئيسًا للدولة. وتم انقاذ مقاطعة هولندا ومدينة امستردام عن طريق فتح السدود. وتحالفت هولندا مع فردريك وليم ناخب براندنبرج (١٦٤٠ - ١٦٨٨) ثم انضم إليها بعد ذلك الأمبراطور وأسبانيا.[1]

وعقد فردريك وليم صلحًا منفردًا عام ١٦٧٣ هو صلح فوسم الذى احتفظ بمقتضاه بأملاكه فى كليفيس ماعدا وزل وريس. وتعلن الامبراطورية الحرب؛ ويعقد الصلح بين انجلترا وهولندا عام ١٦٧٤، ويقوم لويس بنفسه بغزو فرانش كومتيه، ويحارب كونديه أورانج وتعادل الفريقين فى موقعة ستف فى الأراضى المنخفضة. وقام تورين بحملة ناجحة على أعالى الراين (بعد أن دمر البلاتيات) ضد القائد الامبراطورى مونتكوتشولى وناخب انبرج. وعندما أوغل حلفاء لويس من السويديين فى أراضى ناخب برانبرج عاد الأخير وهزم السويديين فى موقفة فهربللين (٢٨ يونيو ١٦٧٥) وفى العام نفسه وقع تورين قتيلا عند سباخ فى بادن وانسحب الفرنسيين عبر الراين.[2]

وأحرز الفرنسيون نصرًا بحريًا فى البحر المتوسط على الهولنديين والأسبان فى عام ١٦٧٦م. على الرغم من وفاة دى روينز. ويباغت الفرنسيون غنت وايبر عام ١٦٧٨ ويستولون عليها. ولكن لجأ المتحاربون إلى المفاوضات التى لاقت فى بعض الأحيان نجاحا بين الأطراف المتحاربة، وعقدت معاهدات نموجين (١٦٧٨) بين فرنسا وهولندا وبين أسبانيا وفرنسا؛ وبين الامبراطو ر من جهة وفرنسا والسويد من جهة أخرى (٦فبراير ١٦٧٩) بين هولندا والسويد (١٢ أكتوبر ١٦٧٩) أما المعاهدة بين

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١١٨٦.

[2] نفسه، جـ٤، ص١١١٧

فرنسا والدانمرك فقد عقدت في فونتينبلو (٢ سبتمبر ١٦٧٩) كما عقدت المعاهدة بين الدانمرك والسويد في لوند (٢٦ سبتمبر ١٦٧٩). وتم بموجبها.[1]

١- استردت هولندا جميع أراضيها بشرط وقوفها على الحياد.

٢- نزلت أسبانيا لفرنسا عن اقليم فرانش كومتيه وعن مدن فالنسين، وكومبراي، وكمبريسيس، ايبر، وبوبرنجن، وسانت أومر، وايبر، وكونديه، وبوشان، وبوبيج، وغيرها من المدن الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية. نزلت فرنسا لأسبانيا عن مدن شارلروا، وبانش، وأودنارد، وآت وكورتريه، ولمبورج، وغنت دوايس وغيرها، كما نزلت عن بيوسردا في إقليم قطالونية.

٣- أعطى الأمبراطور فرنسا فريبورج في برايزجاو ونزلت فرنسا عن حقها الاحتفاظ بجامعة في فيليبزبورج، واتفق على أن يعود دوق لورين إلى دوقيته بشرط خاصة رفضها ذلك الدوق. وأجبرلويس الرابع عشر ناخب براندنبرج على أن يعقد صلح سان جرمان آنلي (١٦٧٩) وبمقتضاه سلم لويس الرابع عشر السويد جميع فتوحاته في بوميرانا وفي مقابل ذلك أعيدت إليه إمارة فريزلاند الشرقية، وهي التي أصبحت جزءا من بروسيا سنة ١٧٤٤، مع تعويض صغير.[2]

سياسة لويس الرابع عشر الدينية

من الأمور المؤسفة التي وقعت في عهد لويس الرابع عشر إلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥، فقد كان الهيجونت أثناء حربي الفروند موالين للملكية في فرنسا، بل أنهم سارعوا بتقديم المعونات المالية لها عندئذ. ولقد اعترف مزران بموقفهم العظيم، كما لم يكن الملك لينسى الخدمات والمساعدات التي قدموها عندئذ في أحرج الظروف، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن متعصبًا بل عرف بالتسامح الديني لأنه بطبيعته لم يكن ميالا إلى المناقشات الدينية والخوض فيها؛ وإنما كان اهتمامه منصبًا على أمر واحد هو الولاء للدولة. ولذلك كانت جماعة الجانسنت بمبادئها تهدد الأسس

(١) وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١١٨٧ - ١١٨٨.

(٢) وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١١٨٨.

الدينية والاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع الفرنسي، مما جعل أفراد هذه الطائفة أشد خطرا من طائفة الهيجونت على أن لويس الرابع عشر كان في الوقت نفسه حريصًا على تجنب كل ما من شأنه أضعافه وحدة البلاد الدينية، ومن مأثور أقواله فيما يتعلق بالسماح لليهود بممارسة مبادئهم في حرية. لا مانع من ذلك إذا لم يكن فيه مساس بالكنيسة الكاثوليكية".[1]

ووجه الهيجونت بعد حربي الفروند بحركة عدائية من جانب الكنيسة الكاثوليكية خاصة ولو من ناحية البلاط. كان رجال الكنيسة حريصين على إعادة عدد كبير من رجال الدين البروتستانت إلى العقيدة الكاثوليكية، كما اعترضوا على انتهاز الهيجونت فرصة انتشار الاضطرابات في فرنسا منذ عام ١٥٩٨ لتفسير مرسوم نانت تفسيرًا جعلهم يضاعفون من إنشاء معابد لممارسة دياناتهم خارج الأماكن التي اتفق عليها. وأقر وزراء منهم "لوتلييه" Le Tellier شكاوى رجال الدين الكاثوليك، التي تضمنت الحقيقة التالية؛ فهي أنهم قد أصبحوا يكونون "دولة داخل دولة" وطالبت بالعمل على الحد من حرياتهم. وقد اصغى لويس الرابع عشر لتلك المطالب، فبدأ إجراءاته ضد الهيجونت من عام١٦٦٩م، وموضحًا أن بروتستانت فرنسا قد تنازلوا عن امتيازاتهم، فأصدر أوامره في السبعينات (١٦٧٠) بهدم دور عبادتهم التي انشئت بعد عام ١٥٩٨، وأمر بألا تقام الشعائر الجنائزية الخاصة بهم إلا ليلا، كما صدرت بعض القوانين بتشجيع من يرغب في الارتداد إلى الكاثوليكية، ومنها الوعد بالمنح المالية.[2]

ومن العوامل التي اسهمت في دفع لويس الرابع عشر إلى إصدار قراره بإلغاء مرسوم نانت "رسالة لوتليير" Le Telliet الذي كتب إلى الملك وهو يحتضر، يطالبه فيها ملحًا بإلغاء المرسوم لتستطيع روحه الاستقرار والطمأنينة. وأغراه بعض الناصحين من بطانته بالمجد الذي ينتظره إذا ما هو نفذ ذلك الإلغاء فيكون بذلك

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٨٧.

[2] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٨٧.

االملك الوحيد الذى نجح فشل كل من هنرى الرابع ولويس الثالث عشر فى القضاء على التفرقة والشقاق الدينى داخل فرنسا، كما أن لويس الرابع عشر لم يكن على علاقات طيبة مع البابا "انوسنت" الحادى عشر. وقد رأى أن إلغاء المرسوم يحول دون تدخل البابا فى الحريات الغالية Gallican - Liberties، أى ما حصلت عليه كنيسة فرنسا من حريات واستقلال فى بعض الأمور عن كنيسة روما.

وقوبل إلغاء لويس الرابع عشر للمرسوم فى فرنسا بالترحيب من جانب طوائف الكاثوليك والجانسنت والجزويت والجاليكانيين على السواء. أما الدول البروتستنتية فقد أدانت لويس الرابع عشر وكانت من قبل تمتدح روح التسامح الدينى السائدة فى فرنسا لدرجة أن عددًا كبيرًا من الإنجليز والهولنديين قد أقاموا فى فرنسا إقامة دائمة، حيث كانوا يمارسون ديانتهم المخالفة للكاثوليكية فى أمان واطمئنان، وأتهم ليس الرابع عشر بالتعصب فى سائر الدول الأوروبية. من المؤكد أن ذلك الإجراء قد كلف لويس الرابع عشر غاليا، واسهم فى تغيير الدول من فرنسا بعد عام ١٦٨٥ . ثم كانت هناك أثار سيئة للغاية على الاقتصاد الفرنسي نظرًا لفرار ١٠٪ من الهجونت (وكان عددهم بفرنسا يبلغ حوالى المليونين) استطاع ذلك العدد من الهيجونت الفرار من فرنسا على الرغم من العقبات التى وضعتها حكومة فرنسا فى سبيل تعويق مغادرتهم للبلاد. على أن البعض قد عدل الصورة فيما يتعلق بأثر مغادرتهم لفرنسا على الحالة الاقتصادية بها. حقيقة أن صناعة الساعات قد تخلفت وظلت كذلك مدة عشر سنوات. كما أن الدول التى استقبلت الفارين من الهيجونت من الضياع مثل العاملين فى صناعة الورق والخبراء الاقتصاديين قد استفادت كثيرا منهم، فاستفادت كل من انجلترا وهولندا بل وبروسيا؛ وكانت الأخيرة بصدد بناء اقتصادياتها.[1]

من الواضح أن فرنسا لم تضار كثيرًا فى اقتصادياتها بسبب فرار الهجونت إذ أن بعض هؤلاء الفارين قد عادوا إلى فرنسا، كما أن من بقى منهم بالخارج لم

---

(١) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٨٨.

يتعاون مع القوى لفرنسا على أمل أن يسمح لهم لويس بالعودة إلى وطنهم بعد أن يطمئنهم على حرية ممارسة عقيدتهم؛ بينما قدم بعض الهيجونت من المتشغلين بأعمال البنوك فى حنيف أجل الخدمات لفرنسا. ثم إن الخسارة التى منيت بها فرنسا بسبب فرارهم منها عوضت عنها هجرة الآلاف من الكاثوليك الأيرلنديين والاسكتلنديين من مؤيدى أسرة استيورات إلى فرنسا بعد عام ١٦٨٨م.

ومن الشائع أن لويس الرابع عشر قد تأثر كذلك فيما يتعلق بإلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥ بزوجته "مدام ديمانتون de Maintenon التى تزوجها بعد موت زوجه مارياتريز الأسبانية فى عام ١٦٨٣م.[1]

حرب البلاتين ١٦٨٨ – ١٦٩٧:

وبينما كان لويس يواصل سياسته الداخلية التى تنطوى على اضطهاد الهيجونت وحرمان البلاد من خيرة أبنائها، واتباع سياسة الإسراف فى بناء القصور ومظاهر العظمة والأبهة، كان أعداؤه فى الخارج يعدون العدة لمقاومته ووقف أطماعه التوسعية التى لا تنتهى عند حد، ولا سيما بعد أن أغضب الدول الكاثوليكية بسياسته العدائية نحو البابا وتحالفه مع الأتراك العثمانيين. وكان أشد الحانقين عليه وليم اورانج الذى صمم على إقامة حلف جديد ضد لويس. وفى سنة ١٦٨٦ تمكن من الحصول على موافقة كل من أسبانيا والامبراطور وعدد كبير من الولايات الألمانية على تأليف حلف ضد فرنسا سمى بحلف أوجزبرج.[2]

وأصبحت الحرب بين لويس وبين هذا الحلف لا مناص منها، وحاول لويس أن يتجاهل هذا الحلف ويواصل عدوانه كما يحلو له. فبدأ يطالب الامبراطور بتغيير اتفاقية اتزبون وجعلها معاهدة ثابتة تقضى بضم الممتلكات الأخيرة وتوابعها نهائيا بدلا من امتلاكها لمدة عشرين سنة. فرفض الامبراطور ذلك رفضًا باتًا. وانتهز لويس فرصة موت شارل أمير البلاتين وأعلن ادعاءه عرش هذه الولاية. وأعلن الحرب

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٨٨ – ١٨٩.

[2] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢١٣.

على الامبراطور (سبتمبر ١٦٨٨) وعندئذ هب أعضاء الحلف لمناصرة الامبراطور ضد عدوهم المشترك لويس الرابع عشر وما لبثت انجلترا أن انضمت إلى الحلف فى نفس العام، وهو عام الثورة الانجليزية (١٦٨٨) ضد جيمس الثانى حامى حمى الكاثوليكية فى انجلترا، والذى ثار الشعب ضده واضطروه إلى الفرار وطلبوا من مارى ابنه جيمس الثانى وزوجها وليم أورانج رئيس الجمهورية الهولندية الحضور إلى انجلترا لتولى العرش، وفعلا تم تتويج وليم أورانج ملكا على انجلترا باسم وليم الثالث. وكان ذلك إيذانا بانضمام انجلترا إلى الحلف ضد لويس الرابع عشر الذى لم يعد له حليف من بين ملوك أوروبا. ومع ذلك كان لا يزال فى غنفوانه الحربى، وسارع – قبل أن يستعد الحلف إلى الإغارة على البلاتين، فخرب قراها ودمر مزارعها. وفى عام ١٦٨٩، أصبحت الحرب عامة، ولكنها كانت فى بدايتها فى مصلحة لويس، فى البر والبحر، ثم انقلب الحظ فى عام ١٦٩٢ وخصوصا فى البحر حيث كان لانجلترا التفوق.[1]

وامتدت الحرب البرية فى أوروبا، وانتصر الفرنسيون فى إيطاليا وطردوا القائد النمسوى من بيدمنت واستولوا فى الأراضى المنخفضة على منس ونامور (١٦٩١ – ١٦٩٢) وفى البحر كانت فرنسا تبدو فى أول الأمر وكأنها صاحبة السيادة البحرية، فقد انتصرت الأساطيل الفرنسية على الأسطولين الانجليزى والهولندى فى معركة رأس بتش Beachy Head (١٦٩٠) ولكن ما لبث أن انقلب الحظ لصالح انجلترا فى السنة التالية عندما تمكن قائد الأسطول الانجليزى "رسل" من دحر الأسطول الفرنسى فى معركة لاهوج La Hogue ومنذ تم للبحرية الانجليزية هذا النصر الحاسم أدرك لويس أن السيادة البحرية ستظل فى يد انجلترا وأن عليه أن يصرف ذهنه عن مشروع غزو انجلترا الذى كان يملأ تفكيره، والذى كان يقصد به اعادة العرش لجيمس الثانى الذى كان مقيما إذ ذاك فى أيرلنده.

وبعد تسعة أعوام من الصراع المتواصل، لم يعد بمقدور الفريقين مواصلتها بنفس القوة التى بدأت بها الحرب، ولاسيما فرنسا التى كان عليها أن تموّل حربًا

---

(1) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢١٤.

متشعبة الأطراف وكان مرغمة على مواصلة تجهيز أربعة جيوش برية والسلاح عدا ما تحتاج إليه أساطيلها من صيانة وتسليح وذلك تهيأ لمفاوضات الصلح. وعقد الفريقان معاهد رزويك Eyswick عام ١٦٩٨.

وبموجب شروط هذا الصلح تخلت فرنسا عن كل البلاد التى استولت عليها منذ معاهدة نمجن، ماعدا سترا سبورج والالزاس. واعترف لويس الرابع عشر بحق "وليم الثالث" فى عرش انجلترا، وكان ذلك كسبًا سياسيًا لوليم حيث اضطر لويس بموجب المعاهدة أن يعد بعدم تأييد أسرة استيورات فى أى محاولة تقوم بها لاستعادة عرش انجلترا.[١]

ولا شك أن صلح رزويك كان صدمة سياسية لفرنسا فقد أثر على سمعتها الحربية وأذل كبرياءها، ولكن لويس كان مضطرا لتوقيعه ولاسيما عندما ظهرت مشكلة أخرى أشد تعقيدًا وأكثر أهمية وهى مشكلة الوراثة الإسبانية.[٢]

٤- حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ - ١٧١٣)

وكان مما دعا لويس إلى الإسراع فى عقد صلح رزويك أنه أراد التفرغ لمسألة الوراثة الأسبانية عندما باتت منتظرة وفاة ملك أسبانيا شارل الثانى فى أية لحظة، وكان يدعى الحق فى وراثة ملكه كل من الامبراطور ليوبولد الأول ومنتخب بفاريا جوزيف فردناند إلى جانب لويس الرابع عشر الذى طالب الوراثة لنفسه ثم لابنه الأكبر (من زوجته ماريا تريزا ابنه فيليب الرابع ملك أسبانيا عام ١٦٦٥) ولذلك فقد أضحت مسألة الوراثة الأسبانية من شأنه الإخلال بالتوازن الدولى، فقد عظم اهتمام انجلترا خصوصا بهذه المسألة، ونجحت انجلترا فى تقسيم الأملاك الأسبانية بين الورثة الثلاثة فى لاهاى ١٦٩٨ ولكن وفاة جوزيف فردناند فجأة فى عام ١٦٩٩ اقتضى إعادة التقسيم مرة أخرى فى مارس عام ١٧٠٠ غير أنه وجد عند وفاة شارل الثانى ملك أسبانيا أن شارل قد ترك وصية فى نوفمبر عام ١٧٠٠ أوصى فيها بأملاكه

---

[١] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢١٥.

[٢] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق ص٢١٥.

إلى فيليب انجو حفيد لويس الرابع عشر على أمل أن ينقذ هذا أسبانيا من خطر التقسيم وأن تقوم فرنسا بالدفاع عنها. وعندئذ أسرع لويس بقبول وصية شارل وأعلن حفيده ملكًا على أسبانيا؛ ثم لم يكتف بذلك أعلن أيضًا أن حقوق فيليب دون انجولا تسقط باعتلائه عرش أسبانيا.[1]

وأمام هذا الخطر الداهم إذن تألبت الدول ضد فرنسا، فتعاقدت كل من انجلترا وهولندا وأغلب الأمراء الألمان والامبراطور على التحالف ضد فرنسا في ٧ سبتمبر ١٧٠١م. ولما كان وليم أورانج العامل الأول في هذه المحالفة، كما كان دائمًا في المحالفات السابقة، فقد قابل لويس هذا العمل بالاعتراف بابن جيمس الثاني ملكا على انجلترا باسم جيمس الثالث. وفي مايو ١٧٠٢م وبعد وفاة وليم الثالث فجأة وسط هذه الأزمة (في مارس ١٧٠٢م) أعلنت الحرب ضد فرنسا.[2]

لقد كانت الحرب طويلة الأمد (١٧٠٢ – ١٧١٣) لأن قوى الفريقين كادت تكون متكافئة، ولم يحرز أحدهما نصرًا على الآخر. ووضعت قيادة الحلفاء في يد دوق مولبرا Marlbogh أعظم قواد الانجليز وانتصر الحلفاء في المعارك الهامة التي دارت رحاها في بلنهايم Belnhein في بافاريا سنة ١٧٠٤م، وفي راملسيز Rammlies ١٧٠٨م وفي أودنارد audnarde ١٧٠٨م وفي مالبلاكيه Malapaqnct سنة ١٧٠٩ في الأراضي المنخفضة الأسبانية.

وقد أرهقت الحرب فرنسا كل الإرهاق، فقد اندحرت قواتها في مواقع كثيرة، وخسرت مئات الألوف من رجالها ولم يجد لويس الرابع عشر بدا من عرض الصلح على الحلفاء وشجعه على ذلك علمه بأن الشعب الانجليزي بدأ يسأم الحرب ويتطلع إلى السلام، ثم حدثت ظروفا كانت سببًا في خلاص فرنسا من تلك الحرب الطاحنة فقد مات الامبراطور جوزيف سنة ١٧١١ وتولى عرش الامبراطورية أخوه الأرشيدوق شارل الذي كان مرشحًا لوراثة العرش في أسبانيا فأصبح من المستحيل

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٣.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٣١.

على الدول أن تقبل اتحاد عرش أسبانيا وألمانيا في عاهل واحد، وفي الوقت نفسه تغيرت الوزارة الإنجليزية وأصبح الحكم في يد حزب التورى Tory الذى كان يرى إنهاء تلك الحرب، واستدعت الوزارة القائد "ملبدا" صاحب الانتصارات العظيمة، وقبلت الدخول في مفاوضات مع لويس تمهيد ا لعقد الصلح، وخرجت من الحرب في عام ١٧١٢ ثم تبعتها هولندة.[1]

صلح أترخت utrcch ١٧١٣:-

وفي هذا الصلح تم الاتفاق على ما يأتي:-[2]

١- الاعتراف بفيليب "انجو" الخامس ملكا على أسبانيا ومستعمراتها على أن يتنازل عن كافة حقوقه في عرش فرنسا.

٢- استولى الامبراطور (شارل السادس منذ ١٧١١) على الأراضي المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) ونابلي وميلان وسردينا

٣- استبقت فرنسا الالزاس بما فيها مدينة ستراسبورج وفق معاهدة، روزيك ولكنها سلمت القلاع التى استولت عليها على جانب الراين الأيمن.

٤- أعيد كل منتخبي كولون وبفاريا إلى إمارته، وتم الاعتراف بحقوق أسرة هانوفر في وراثة عرش انجلترا، كما نفى المطالب بعرش انجلترا (جيمس الثالث) في فرنسا.

٥- نالت انجلترا جبل طارق ومينورقه ونيوفوندلاند وخليج هدسن وغير ذلك في فرنسا وفي أمريكا الشمالية، كما نالت امتيازات تجارية في المستعمرات الأسبانية.

٦- تم الاعتراف بمملكة بروسيا، كما أعطت جلدرلند العليا.

٧- نال دوق سافوى جزء من ميلان.

٨- تم الاتفاق على تهديم تحصينات دانكرك.

---

(١) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ٢١٨.

(٢) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ٢١٨.

وهكذا خرجت انجلترا من هذه الحرب منتصرة ووضعت أساس سيادتها فى البحار وأحرزت التفوق فى أوروبا بينما خرجت فرنسا منهوكة القوى وأخفقت فى سياسة الوصول إلى الحدود الطبيعية، والسبب الأكبر فى هذا الفشل أنها رفضت معاهدات التقسيم وقبلت وصية شارل الثانى.[1]

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٣٢.

الفصل الثانى عشر

بريطانيا فى القرن السابع عشر

آل ستيورات وثورة البيورتان

حقق الانجليز خلال القرن السادس عشر نجاحًا اقتصاديا باهرًا بفضل سياسة ملوك أسرة تيودور. كما ساهم فى نشوء طبقة بورجوازية نامية فيها متقدمة على بقية القارة الأوروبية. وكان لهذا النجاح عوامل متعددة أهمها:-[1]

أ – أن إنجلترا لم تتأثر كثيرا بالمنازعات الداخلية التى حصلت أثناءها الإصلاح الدينى على غرار بقية دول أوروبا. فقد انتشرت فيها البروتستانتية وعم على أثرها روح التسامح حتى أنها استقطبت العديد من المهاجرين المضطهدين من سكان الفلاندر الذين طوروا فيها صناعة المنسوجات الصوفية ومن هيجونت فرنسا البارعين فى الأعمال الصناعية والتجارية. أما الحروب الأوروبية التى انهكت اقتصاديات الدول وخاصة الحروب الإيطالية وحروب الدين فإن انجلترا لم تشارك فيها إلا مختارة بل أنها لم تتدخل فى نزاع إلا وكسبت على أثره مزيدًا من النفوذ والمستعمرات.

ب– أن توفر المواد الخام اللازمة للصناعة وخاصة الصوف قد أدخل انجلترا فى ميدان السبق التجارى. فازدهرت المنسوجات الصوفية فيها على أثر تشجيع الفلمنكيين إليها منذ القرن الرابع عشر. حتى أن هنرى السابع فرض رسومًا باهظة جدًا على تصدير مادة الصوف. فارتفعت أسعار المنسوجات التى يحيكها سكان الفلاندر مما أدى إلى رواج الصناعة الإنجليزية وبالتالى إلى ازدياد النشاط التجارى فيها. فنشأت على أثر ذلك فى القرن السادس عشر طبقة ثرية اقبلت على شراء الأراضى ووقفت وجهًا لوجه أمام طبقة النبلاء التى عبرت عن سخطها بين فترة وأخرى بالثورة ضد اليزابيث دفاعًا عن الكثلكة.

---

[1] محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى (عصر النهضة)، ص٢٠٩.

جـ- رواج التجارة الإنجليزية: لم تكن التجارة الداخلية فـي انجلترا تتعـرض للمصاعب بسبب القـوة الملكيـة التـى منعـت قيام الحواجز الجمركيـة بـين المقاطعات لأنها معيقة للنشاط التجارى. أما التجارة الخارجية فقد ازدهرت على أثر انتقال مركز التجارة إلى الأطلسى بعد أن كانت مدن المتوسط تحتكر التجارة مع الشرق طيلة العصور الوسطى. ومما ساعد على هذا النمـو براعة الإنجليز فى الأعمال البحرية. إذ أن موقع انجلترا الجغرافى المقرون بكابوس الغزو الخارجى هيأ لها الاهتمام ببناء الأساطيل التى ساهمت عن طريق أعمال القرصنة التى كثيرًا ما كانت تتم برضى الملوك أنفسهم لأن تصبح انجلترا على أبواب القرن التاسع عشر أقوى دولة بحرية فى العالم.[1]

لقد أدى هذا النمو الاقتصادى إذن الذى عرفته انجلترا، لا إلى ضعف طبقة النبلاء وزيادة نفوذ السلطة الملكية فحسب، بل إلى تعاظم دور البورجوازية بأعدادها الهائلة من التجار والصناعيين فأخذت تتطلع إلى المشاركة فى الحكم منذ أواخر القرن السادس عشر. وعندما زال خطر الغزو الأسبانى بتحطيم الأرمادا أخذت هذه الفئة تضغط على الملكية للتراجع عن الاحتكارات التى فرضتها فى السابق لتحديد الأسعار وسلم الأجور الذى صدر سنة ١٥٦٣، وهكذا أحدثت التغييرات الاقتصادية التى عرفتها انجلترا تغيرًا جذريًا فى مفهوم السلطة السياسية فى القرن السابع عشر توطدت حقوقيته فى عدم خضوع البرلمان لمشيئة الملك حتى تم له النصر النهائى الذى تمثل فى ثورة سنة ١٦٨٨م.[2]

كانت السلطة الملكية فى انجلترا تختلف عن مثيلتها فى فرنسا أو أسبانيا من الناحية النظرية على الأقل. إذ أن الملك فيها كان مقيدًا بحدود الدستور والتشريعات التى كان يصدرها البرلمان بين فترة وأخرى. ومع ذلك فإن أسرة تيودور منذ عهد هنرى السابع حتى اليزابيث قد مارست الحكم المطلق إلى أبعد الحدود. مستفيدة

---

[1] حسن كامل سليم، تاريخ أوروبا الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، الاسكندرية ١٩٥٨م، ص٧٧؛ محمد مخزوم، المرجع السابق، ص٢١٠.

[2] محمد مخزوم، المرجع السابق، ص٢١٠.

من فترة الاضطراب التى خلفتها حروب المائة عام وحرب الوردتين التى أدت بحياة خيرة شباب النبلاء ومن ثم الشعور القومى الذى بلغ أوجه فى مساندة الملكية على حساب سلطة البابا الكاثوليكية. فكما عززت النهضة الحديثة التى عرفتها انجلترا موقف الملك فإن الطبقة البورجوازية التى تكونت بفضل الازدهار الاقتصادى الذى حققته الملكية لها قد أمدت بدورها فى المرحلة الأولى، الاستبداد الملكى بتأييد أدبى وسلطان مطلق.

لقد استطاع ملوك أسرة تيودور تحت وطأة التهديد الخارجى وشخصيتهم القوية أن يعالجوا المسائل القانونية بمهارة فائقة. إلا أن البرلمان الإنجليزى المتشكل من مجلس اللوردات الذى يضم ممثلين عن النبلاء والاكليروس (يعينهم الملك مدى الحياة) ومن مجلس العموم ويضم أعضاء منتخبين يمثلون أصحاب الأراضى الأحرار والبورجوازيين أخذ أعضاؤه منذ أواخر عهد اليزابيث يتمسكون بصلاحيتهم بعد أن نما فيهم الاهتمام بشؤون المملكة السياسية والمالية والدينية. وفعلا خضعت اليزابيث سنة١٦٠١ لمطالب مجلس العموم بعد أن كانت غير عابئة بقراراته طيلة حكمها. بل أنها كثيرًا ما كانت تجبر البرلمان على الموافقة على المراسيم التى كانت تصدرها دون مشاورته.[1]

أما فى عهد جيمس الأول (١٦٠٣ – ١٦٢٥). فقد حكم انجلترا بعد اليزابيث، وكان طبيعيا أن يتبع سياسة مغايرة لسياستها، ولم يكن له حكمتها ولا حيطتها، وكان يؤمن إيمانا أعمى بنظرية حق الملوك الإلهى. أى أن الملوك قد استمدوا سلطانهم من الله، ولا يمكن للرعية التدخل فى أعمال الملك، وأن الملوك خلفاء لآدم لهم حق السيطرة على البسيطة. كذلك حدث تغيير فى موقف البرلمان. والبرلمان الإنجليزى أخذ بنصيب كبير فى الحياة الإنجليزية. لم تكن له سلطة محددة، ومع ذلك فكان من المتعذر إبعاده أو القضاء عليه، وكان نفوذه يزداد كلما

---

[1] محمد مخزوم، المرجع السابق، ص٢١١.

كانت الملكية ضعيفة، وكلما بعد الخطر عن البلاد، وأخذ البرلمان يشعر بأنه شئ في انجلترا، وبأنه مصدر الحكم.

ولقد ساعد البرلمان على الوقوف ذلك الموقف كون انجلترا جزيرة لا تحتاج إلى جيش دائم على أهبة الاستعداد. فلم يجد الملوك سلاحًا قويًا يستغلونه ضد البرلمان. وعملت المسألة الدينية على سوء العلاقات بين الملك والبرلمان، فكان هناك من يقولون بالاستفادة من الكلفيتية. ولقد حاول البرلمان أن يفرض إرادته على الملك[1] بضرورة الرجوع إليه في كل ما يختص بنظام الضرائب ثم انتقد سياسته.

على أي حال تولى جيمس الأول العرش في ظروف مواتية بالنسبة له، فانجلترا قد نجت من خطر محقق كان يتهددها من جانب أسبانيا بانتصارها على الأرمادا الأسباني في سنة ١٥٨٨. كذلك استقرت الأوضاع الدينية باتباع المذهب الأنجليكاني، مذهب الكنيسة الإنجليزية بعد أن ضم البيورتان. وكان من الممكن أن تسير الأمور الدينية بشئ من اليسر والسهولة لو أن جيمس الأول أحسن التصرف في معالجة الخلافات الطفيفة بين البيورتان والانجليكانيين. لاسيما وأن تلك الخلافات لم تكن تمس جوهر العقيدة. ولما فشل المؤتمر الذى عقد في هامتون كورث Hampton Court (يناير ١٦٠٤) للتوفيق بين الطائفتين.[2]

وكان فشل المؤتمر مدعاة لغضب الملك على البيورتان وعلى كل من يخالف سياسته الدينية، ومنهم الكاثوليك الذين كانوا يتوقون إلى التخلص من القيود الدينية التي فرضت عليهم. وإذا كان البيورتان لم يتخذوا موقفًا شديدًا من الملك، فإن الكاثوليك قد صمموا على الانتقام، فدبروا مؤامرة لنسف البرلمان والإطاحة بالحكومة، فوضعوا داخل أقبية البرلمان مواد متفجرة لنفسه في ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥م. ومن حسن حظ الحكومة أن اكتشفت المؤامرة قبل حدوث الانفجار، وقبضت على المتآمرين وقدمتهم للمحاكمة وقضت بإعدامهم. وقد أحدث هذا النبأ

---

(1) محمد محمود السروجي، معالم التاريخ الأوروبي الحديث، ص١٩٤ - ١٩٥.

(2) محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص١٩٥.

صدى عميقًا لدى الرأى العام الإنجليزى والملك، فأخذوا يتوجسون خيفة من نوايا الكاثوليك وينظرون إليهم نظرة شك وريبة، وأصبحوا موضع اضطهاد حوالى قرنين من الزمان.[1]

ولم تكن هذه المتاعب الخاصة بالبيورتان والكاثوليك هى كل ما أثاره جيمس الأول نتيجة أسلوبه فى الحكم، إذ لم يلبث أن دخل فى نزاع مع البرلمان بسبب الأزمة المالية. وكان من المحتمل بشئ قليل من الحكمة والمهارة استمالة البرلمان إلى جانب العرش لإصلاح الحالة المالية بسد العجز المطلوب، غير أن جيمس آثر الإجراءات العنيفة فأمر بتحصيل عدة ضرائب من غير أن يطلب إلى البرلمان الموافقة عليها، على أمل أن يذعن البرلمان فى النهاية ويقرها بعد ذلك. ولكن جيمس لاقى معارضة شديدة فى البرلمان فأخذ يحل مجالسه الواحد تلو الآخر، أو يؤجل انعقادها كما حدث فى الفترة بين عام ١٦١١ وعام ١٦٢١. حينئذ انتقلت المسألة من نزاع حول إقرار بعض الضرائب المعينة إلى المناقشة فى ميدان سياسى خطير وهو حق الملك فى فرض ضريبة دون موافقة البرلمان، ولم يكن هناك مفر من الوصول إلى حل لهذه المسألة إن عاجلا أو آجلا، سواء بالطرق السلمية أو باصطدام بين الملك وممثلى الأمة.

وكانت السياسة الخارجية التى سار عليها جيمس الأول آخر العوامل الرئيسية التى زادت من كراهية الشعب له، فقد كان جيمس يناصر السلم فى أوروبا لأسباب منها أنه ليس فى مقدور بلاده بسبب حالتها المالية أن تدخل فى حروب خارجية، ولأنه هو نفسه كان متشبعًا بالمبادئ السلمية التى انتشرت فى أوروبا بعد الحروب الدينية الطويلة، ولا شك فى أن سياسة السلام كانت فى ذاتها سياسة حميدة، ولكن الذى جعل الشعب الإنجليزى يكرهها أن الطريقة التى حاول بها جيمس تنفيذ هذه السياسة قامت على قاعدة الاتفاق مع أسبانيا الكاثوليكية وهى عدو انجلترا القديم. وكان جيمس يعتقد أن اتفاق الدولة الكاثوليكية الأولى فى

---

[1] نفسه، ص١٩٦.

أوروبا (أسبانيا) مع الدولة البروتستنتية الأولى (انجلترا) سيؤدى حتما إلى إقرار السلام فى القارة الأوروبية. وكان الأسبان يستغلون هذه الرغبة من ناحية جيمس لرعاية مصالحهم على حساب انجلترا، فقد غضب الشعب الإنجليزى عندما أعدم الملك فى عام ١٦١٨ سير والتررالى Walter Raleigh، أحد أبطال عهد اليزابيث لأنه هاجم قرية صغيرة فى ممتلكات أسبانيا بأمريكا الجنوبية. ولما نشبت حرب الثلاثين عامًا سنة ١٦١٨ فى ألمانيا واشتبك صهره. فردريك أمير البلاتينات فى صراع مع الكاثوليك، التزم جيمس الحياد إبقاء على علاقته الطيبة مع أسبانيا وعلى أمل أن تنتهى الحرب فى صالح صهره. لكن الأمر انتهى بطرد فردريك من ألمانيا. ومع أنه كان واضحًا أنه لا مفر من الدخول فى حرب إذا أريد إرجاع فردريك إلى عرشه، فقد بقى جيمس يعلل نفسه بالمفاوضة السلمية مع أسبانيا، ثم حاول أن يزوج ابنه من أميرة أسبانية على أمل أن تؤدى هذه الزيجة إلى توثيق العلاقات السلمية بين الدولتين – بل ى إلى إرجاع فردريك سليما إلى عرشه. فلما باءت هذه الخطط بالفشل وتأهب للحرب ضد أسبانياعاجلته المنية فى عام ١٦٢٥ وخلفه ابنه شارل الأول.[1]

واعتلى شارل الأول (١٦٢٥ – ١٦٤٩) العرش فورث عن أبيه تركة مثقلة بالخلاف بين الملكة والبرلمان، وكان يشبهه فى نزعته الاستبدادية وصلابة رأيه، وفى عجزه عن كسب محبة الشعب وعاش حياته فى صراع دائم مع مجلس العموم ووضع ثقته فى دق بكنجهام Duke of Bukingham الذى كان موضع سخط الشعب منذ عهد جيمس الأول، وقد حاول شارل فى مستهل حكمه أن يبهر الأمة بانتصارات حربية فى الخارج وظن أنه يستميل الشعب إليه لو أعلن الحرب على أسبانيا ولكن حملته باءت بالفشل. كذلك حاول أن يناصر الهيجونت فى فرنسا ضد ريشيليه وفشلت الحملة التى أرسلت لمساعدتهم فى "لاروشيل" ونتج عنها تدعيم قوة ريشيليه وضياع هيبة الملكية الإنجليزية وسمعتها فى فرنسا.

محمد أحمد أنيس، المرجع، ص٢٣٦ – ٢٣٧.

واضطر شارل إلى جمع المال بعد الخسارة الفادحة التى أصيبت بها الخزانة الإنجليزية، وكان كلما أراد مالا بطريق غير شرعى (أى موافقة النواب) يلجأ إلى وسائل نفرت منه الشعب، إذ كان يفرض قروضًا إجبارية على طبقة التجار وأصحاب السفن والضياع وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى فكانت هذه المظالم سبيلا إلى زيادة عوامل الثورة وخصوصا أنه كان يأمر بسجن كل من يمتنع عن إقراض الملك المال المفروض عليه. وانفجر الشعب مطالبا بتحديد نفوذ الملكية بحيث لا يسجن أحد دون محاكمة عادلة. وكان لذلك صدى قوى فى البرلمان فاجتمع أعضاؤه فى عام ١٦٢٨ وقرروا إعداد وثيقة سميت "ملتمس الحقوق" The Petition of Right وتعتبر من أهم الوثائق فى التاريخ الإنجليزى. طالبوا فيها

أ – أن لا تفرض جباية القروض والضرائب والهبات بدون موافقة البرلمان.

ب– أن لا يسجن أحد من الرعية سجنًا تعسفيا ولا يعامل إلا بما تقتضيه قوانين البلاد.

جـ– وأن لا يجبر الشعب على إيواء الجند والبحارة فى منازل المواطنين أو استضافتهم بأى حال من الأحوال.[1]

وقد اعتبر الملك هذه المطالب التى جاءت فى (ملتمس الحقوق) إفتائًا على حقوقه وتقيدا لسلطته. فرفضها فى بداية الأمر ثم قبلها بعد تردد طويل، لأنه كان فى أشد الحاجة إلى موافقة البرلمان على صرف الأموال التى طلبها، وفعلا قرر المجلس الموافقة على صرفها ولكنه أعد مذكرة ناشد فيها الملك أن يأمر بعزل دوق بكنجهام، فغضب شارل واعتبر هذا الطلب – رغم أنه صيغ بعبارات ودية نحو الملك – تدخلا فى (حقه الإلهى) فى الحكم. وتأزمت الحالة فى عام ١٦٢٩م بين الملك والبرلمان، حيث قرر شارل أن يحكم بغير البرلماں، ولم يكن للبرلمان حق قانونى فى الاجتماع إلا بدعوة من الملك، ومما زاد الأمر خطورة تفاقم النزاع الدينى أيضًا بين الملك والمجلس وكان الشعب من ورائه يؤيده ضد الملك، بسبب ما ذاع من أنه يميل إلى العودة إلى المذهب الكاثوليكى، ولا سيما أن زوجته - هنريتا ماريا

عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، ص٢٢٥ - ٢٢٦.

أخت الملك لويس الثالث عشر ملك فرنسا – كانت تدين بالكاثوليكية. واشتد سخط الملك على مجلس العموم بعد عدة جلسات ساد فيها الهياج والشغب، ورفض المجلس أن ينفضّ بأمر من الملك، وبقى رئيس المجلس فى مكانه وأعلن المجلس القرار التالى فى نفس الجلسة "إن كل من يدخل فى الدين بدعًا كاثوليكية، وكل من يشير بجباية الضرائب قبل موافقة البرلمان، وكل من يؤدى هذه الضريبة يعتبر عدوا للمملكة والمصلحة العامة".[1]

وواضح أن الملك كان هو المقصود بذلك، فما كان من شارل الأول إلا أن فض البرلمان وحكم حكما مطلقا فى المدة من ١٦٢٩ – ١٦٤٠، وفى خلالها وضعت بذور عوامل الثورة العظمى التى أدت إلى الحرب الأهلية بين الملكية وأتباعها والبرلمان وأتباعه، وقد انتقم الملك من "اليوت" فأودعه السجن مع صديقه "فالنتين" Valentine وسترود Strode. فمات اليوت فى قلعة لندن ١٦٣٢م، استمر صديقاه فى سجنهما إحدى عشرة سنة، وانتقم الملك بذلك لصديقه دوق بكنجهام فى شخص اليوت. ولكنه لم يلبث بشخصيتين فى تصريف شئون الدولة على النحو الذى يريد، فسلك كلاهما سياسة استبدادية استفزازية أثارت الشعب الذى كان يرقب عن كثب تصرفات الملك وأعوانه.[2]

كان أولهما "توماس ونتورث Thomas Wentworth" استعان به الملك فى تصريف شئون الدولة، فاتبع وسائل غير مشروعة فى سبيل تزويد الملك بالمال حيث فرض ضرائب جمركية بمراسيم ملكية، واستحدث ضرائب جديدة فرضها على سائر طبقات الشعب دون موافقة البرلمان. كما حدد ضرائب أخرى ومنها ضريبة السفن، وكانت تجبى على الموانى أثناء الحرب. ولكنه فرضها على كل أنحاء انجلترا زمن السلم. فاستطاع بذلك تقديم الأموال اللازمة للملك، فكان لذلك أثره فى أنه

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٢٦.

[2] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٩٧ – ١٩٨.

أصبح شخصية مكروهه من الشعب مما أدى إلى إعدامه سنة ١٦٤١م بعد صدور تهمة الخيانة العظمى ضده.

وثانيها كان "لود Laud" رئيس أساقفة كنتربرى، وقد عمل هذا بدوره على تركيز السلطة فى يد الملك عن طريق نشر العقيدة الانجليكانية والقضاء على البيورتان، فاضطهد كل من رفض أن يتبع كنيسة انجلترا، واستعان لود بالمحاكم والمجالس الاستثنائية لإلقاء الرعب فى النفوس، فتعقب المخالفين بالمصادرة والاضطهاد، وحرمهم من مصادر أرزاقهم، بل عرضهم كذلك لألوان التعذيب والتشويه، فأدى ذلك إلى التذمر وإلى هجرة أعداد غفيرة منهم إلى سواحل أمريكا الشمالية حيث هاجر بين عامى ١٦٣٩ – ١٦٤٠ مئات من الإنجليز من الزراع ورجال الدين وغيرهم ممن رغبوا فى العبادة وفق طريقتهم، فتركوا بلادهم واستقروا على سواحل ماسا شوستس Massachussetts. وقد نقل من هاجر منهم بسبب اضطهادات "لود" إلى "نيوانجلند" النظم والمجالس التى اعتادوها فى بلادهم. وصدق القول بأن سياسة لود الدينية قد أدت إلى تأسيس المستعمرات الإنجليزية فى نيوانجلند".

وعندما أراد أن يفرض العقيدة الأنجليكانية على الشعب الاسكتلندى، وكانت الكنيسة البرسبتارية Prespeterian Chrch هى السائدة فيها، وكانت تعتمد على عقيد كلفن، رفض الاسكتلنديون اعتناق المذهب الأنجليكانى فأعدوا جيشا للأغارة على انجلترا من الشمال ليحدثوا القلاقل والاضطرابات حول شارل الأول. فاضطر إلى دعوة البرلمان إلى الاجتماع للحصول على المال اللازم لمواجهة خطر الغزو الاسكتلندى.[1]

فدعا برلمانه الرابع للبرلمان القصير فى وستمنستر (١٣ ابريل – ٥ مايو) رفض هذا البرلمان الموافقة على الأموال حتى تسوى المظالم، مما أدى إلى حله بسرعة. صخب وهجوم على قصر لود. الاضطرابات فى اسكتلندا تتسبب فى وقوع الحرب

---

(١) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص١٩٨ - ١٩٩.

الأسقفية الثانية الملكيون يهزمون في مناوشة في نيوبرن على التاين (٢٨ أغسطس). بمقتضى معاهدة ريبون، وافق شارل على أن يدفع يوميا للجيش الاسكتلندى مبلغ ٨٥٠ جنيه حتى يتم الوصول إلى تسوية عامة. جعلت هذه الالتزامات دعوة البرلمان أمر لا مفر منه.

وعقد البرلمان الطويل وهو البرلمان الخامس في عهد شارل الأول (٣ نوفمبر ١٦٤٠ – ١٦ مارس ١٦٦٠) ظلت الدورة منعقدة حتى ٨ سبتمبر ١٦٤١. وكان مما جعل لمجلس العموم سيطرة غير عادية على الملك شارل الأول أن الجيش الاسكتلندى لن يسرح إلا بعد الحصول على الرواتب المتأخرة. وفي ١١ نوفمبر اتهم ستراتفورد بالخيانة. وتبعه لود، وأرسل كلاهما إلى القلعة. وفي أثناء محاكمة ستراتفورد في مارس التالي اسقطت تهمة الخيانة لعدم ثبوتها، وصدر قرار حكم بالإعدام وفقدان الحقوق المدنية، وتمت الموافقة عليه في كل من مجلس العموم واللوردات في ابريل. فنفذ في ستراتفورد حكم الإعدام في ١٢ مايو. وفي تلك الأثناء وافق البرلمان على قانون السنوات الثلاث الثورى وبمقتضاه يستلزم استدعاء البرلمان مرة كل ثلاث سنوات حتى إذا لم يبادر الملك بذلك (١٥ مايو ١٦٤١) وتلا ذلك في مايو قانون يجرم حل البرلمان القائم أو تأجيل انعقاده دون موافقة البرلمان؛ وقد وقع شارل مكرها مع قرار الحكم بإعدام ستراتفورد. وبلغت الراديكالية أوجها بالقرار إلغاء وظيفة الأساقفة. وكان هذا و قانون الأصل والفرع الذى جعل البيورتان المعتدلين ينفصلون عن البرسبتاريبيين الأكثر راديكالية.[1]

وفي يوليو سنة ١٦٤١ تم إلغاء مجالس قاعة النجم واللجنة العليا. وكانت هذه المجالس جزءا من دستور انجلترا، مما يبين أن البرلمان بإلغائها كان مصمما على إحداث ثورة. وفي أغسطس من نفس العام عقدت معاهدة صلح مع اسكتلندا. ودفعت الأموال للجيوش الاسكتلندية والإنجليزية نتيجة إجراءات فرض ضريبة خاصة للرأس أجازها البرلمان. ولجأ شارل إلى الاسكتلنديين. وعند تأجيل البرلمان

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٠١٦.

فى سبتمبر عن كل مجلس لجنة لتنعقد أثناء العطلة (وكان بيم رئيس لجنة العموم). حاول شارل أن يرضى أعضاء البرلمان المعتدلين عن طريق توظيف زعيمهم "لوسيوس كرى" لورد فوكلند.

وفى اسكتلندا دبر مركز منتروز مؤامرة للقبض على ايرل أرجيل الزعيم البرستبارى. وبدا كأن كشف المؤامرة سيورط شارل نفسه فيها، الذى وقع هكذا فى يدى أرجيل. تنازل شارل فى الواقع عن كل سيطرة على اسكتلندا لأرجيل. والبرسبتاريين، ولم ينل فى مقابل ذلك إلا وعدا بألا يتدخل فى شئون الديانة الإنجليزية (١٦٤١). واجتمع البرلمان وسمع أنباء مذبحة البروتسنت فى الستر (قتل ثلاثون ألفا). ما زال البرلمان غير راغب فى أن يعهد شارل بجيش؛ قدم إليه الاحتجاج الأعظم (أول ديسمبر)، وافق عليه مجلس العموم فى نوفمبر بأغلبية أحد عشر صوتا، ويتضمن ملخصًا لجميع مظالم عهده، وأمر البرلمان بطبعه فى ١٤ ديسمبر.[1]

وأمر شارل بتوجيه تهمة الخيانة إلى كل من "لورد لمبكتون وبيم وهمبدن وهزلرج وهولز وسترود من مجلس العموم لاتصالهم المريب مع الاسكتلنديين أثناء الاضطرابات الأخيره. وعندما رفض أعضاء مجلس العموم أن يصدروا أمر القبض عليهم، قصد شارل ومعه بضع مئات من الجند المجلس وحاول القبض على خمسة أعضاء (٤يناير) وانسحب عندما فشل فى التثور عليهم، فقد لجأ الرجال الخمسة إلى لندن حيث تبعهم أعضاء مجلس العموم وكونوا لجنة فى "جيلد هول" تحت حماية أبناء لندن. وبارح شارل لندن فى ١٠ يناير، بينما عاد الأعضاء الخمسة. وتشجع أعضاء مجلس العموم الفائزون وفرضوا على الملك قرارات لحرمان الأساقفة من عضوية مجلس اللوردات، ومنح البرلمان قيادة الميلشيا. ورفض الملك أثناء وجوده فى يورك أن يوقع على القرار الأخير، ولحق به اثنان وثلاثون من اللوردات، وخمسة وستون عضوا من العموم، وكان معه كذلك الحتم الأكبر. وعلى ذلك اضطر البرلمان

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، ص١٠١٦ - ١٠١٧.

عندئذ إلى الموافقة على القوانين التى لم يقرض على الملك ولم يظهر فيها الختم الأعظم.

وقام البرلمان بمحاولة أخيرة للتقرب من شارل عندما عرض عليه التسعة عشر اقتراحا؛ التى يلزم فيها الملك بالموافقة على قرار الميليشيا (الحرس الوطنى) أن يعهد بجميع الاستحكامات إلى ضباط يعينهم البرلمان؛ ويلزم إدخال اصلاحات على الطقوس الدينية وحكومة الكنيسة وفقا لرغبات البرلمان؛ وأن يصبح على البرلمان تعيين وعزل جميع الوزراء الملكيين وتعيين الأوصياء على أولاد الملك وأن يكون للبرلمان، إذا أراد، سلطة طرد جميع اللوردات الذين رفعوا إلى هذه المنزلة بعد هذا التاريخ من مجلس اللوردات ولكن الاقتراحات رفضت.[1]

وعين البرلمان لجنة الأمن العام. وكلف ايسكس بتكوين جيش من ٢٠,٠٠٠ من المشاة، و٤٠٠٠ من الفرسان وفى ٢٢ أغسطس عند رفع شارل العلم الملكى فى نتنجهام، بدأ الطور الحربى للثورة العظمى.[2]

وبدأت الحرب الأهلية بين البرلمان والملك (١٦٤٤ - ١٦٤٩). وانضم إلى الملك الأشراف وأتباع الكنيسة الأنجليكانية والكاثوليكية، بينما استعان البرلمان بالطبقة الوسطى. وكان أفرادها يوصفون بذوى الرءوس المستديرة Round Heads كما استعان بمعتنقى العقيدة البروتستنتية غير الأنجليكانية مثل البرستبارية والبيورتان. واستطاع البرلمان كذلك الوصول إلى التحالف مع اسكتلندا ضد الملك والكنيسة الأنجليكانية، واستمرت الحرب مدة خمس سنوات وانتهت بهزيمة الملك وإعدامه.

وانتصرت قوات البرلمان على قوات الملك لأسباب متعددة من أهمها:-[3]

١- أن الطبقة الوسطى اشتركت فى الحرب إلى جانب البرلمان وهى صاحبة الثورة فى انجلترا وانضمت إليها أقاليم انجلترا الشرقية التى تزخر بمراكزها الصناعية

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٠١٧.

[2] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١٠١٧.

[3] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص٢٠٠ - ٢٠١.

والتجارية، وبذلك توافرت الأموال اللازمة لتكوين جيش نموذجي، كما أنضمت القوة البحرية أي قوة الأسطول مما كان له أثره في ترجيح كفة البرلمان على الملك.

٢- ظهور شخصية أوليفر كرمويل بين المقاتلين فاستطاع هذا الجندي الشجاع أن ينظم جيشًا نموذجيًا كسب به المعارك المختلفة التي دارت بين الفريقين وأصبحت له شهرة عالمية أشاد بها القائد الفرنسي "تورين Turenne" الذي شهد ببراعة هذه الجيش عندما أرسل كرمويل جيشًا لفرنسا لمساعدتها في حروبها ضد أسبانيا فأحرزت يومئذ نصرًا في موقعة "الدن Dunne المشهورة واستطاعت هذه القوات التي دربها وقادها "أوليفر كرمويل" أن تنتصر على قوات الملك شارل الأول في موقعتي "مارستون مور" سنة ١٦٤٤، ونازبي Nasby سنة ١٦٤٥. وتعد موقعة مارستون مور" اشهر مواقع هذه الحرب، ظهرت فيها مقدرة كرمويل الحربية العظيمة التي رفعته إلى مصاف عظماء القواد، وقد اعترف له البرلمان بذلك. وعرف كرمويل بتسامحه، فأفسح مجال الترقي في الجيش أمام الجميع بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية، على أن البرلمان الذي استطاع أن ينال هذه الانتصارات على الملكية في ميدان الحرب فشل في ميدان الصلح. فلم يستطع بعد ذلك أن يوحد صفوفه وأن يتبع سياسة سلمية بين الفريقين. بل إن البرلمان اتبع سياسة اضطهاد إزاء معتنقي العقيدة الانجليكانية، وكان يحرمهم من معاشاتهم. وأخذ يطارد الملكيين ويفرض عليهم غرامات فادحة. كما أن البرلمان بدأ يحقد على الجيش ويخشى ازدياد نفوذه نتيجة لتلك الانتصارات التي أحرزها. وهكذا بدأت تظهر الفرقة بين صفوف المنتصرين من أعضاء حزب البرلمان والجيش. ولم يعد البرلمان الذي أظهر عداءه لحرية الرأي البروتستنتي في انجلترا كما لم يقدر خدمات الجيش الذي يرجع إليه الفضل في انتصاراته الساحقة على الملك الذي لم يعد صالحًا لحكم انجلترا. وقد أثارت تصرفات البرلمان يومئذ غضب كل من الشخصيتين العظيمتين في انجلترا في ذلك العهد وهما "أوليفر كرمويل" و"ميلتون".

ويتبين من المفاوضات التى بدأت بين البرلمان والجيش والملك أنه لم تكن هناك أى فكرة لاستبعاد الملك عن العرش، بل كان كل من البرلمان والجيش يرغب فى عودة الملك إلى الحكم، وقد عبر كل فريق عن أرائه ومبادئه وكانت جميعها فى صالح الدولة لو أخذ بها. كان الملك بطبيعة الحال ينادى بالملكية وكتاب العبادة الإنجليزية (أى العقيدة الأنجليكانية) بينما كان البرلمان ينادى باحترام القانون العام والحكومة المسئولة والجيش ينادى بضرورة التسامح لسائر الطوائف البروتستنتية.

فى الواقع أن كل هذه الأمور كانت لصالح الملكية فى انجلترا، فلو أخذ بها جميعا لاستطاعت الملكية أن تستقر. على أنه لم يكن مقدرًا لشارل الأول أن يعود للحكم ثانية، إذ رأى لسوء حظه أثناء المفاوضات أن ينتهز فرصة الخلاف بين البرلمان والجيش وموقف اسكتلندا من إنجلترا ليقضى على أعدائه جميعًا، وليعيد لنفسه الحكم المطلق فى انجلترا. وهذا أكبر دليل على أن الملك لم يتخل عن عقيدة حقه المقدس. فبينما كان يفاوض الجيش والبرلمان أخذ يعد العدة لاستئناف الحرب وذلك عن طريق إثارة المدن الكبرى والتحالف مع رعاياه الاسكتلنديين. ولأحكام المؤامرة فر الملك من يد الجيش، ولكن الجيش لم يلبث أن قبض عليه، ولم يغفر تحالفه مع الاسكتلنديين وتآمره بالتالى على سلامة البلاد وعقيدتها الدينية.[1]

وعند عودة أوليفر كرمويل من صد الاسكتلنديين المناصرين للملك فى بريستون Preston وكان نفوذه قد ازداد نتيجة للتطهير الذى قام به "برايد" Pride عام ١٦٤٩م بطرد الأعضاء البارزين من الحزب الملكى فى البرلمان – أصبح مهيأ للتخلص من الملك. وقد اجمعت الآراء على ذلك، فأدانته الهيئة التى حاكمته وكانت مكونة من أعدائه، واتهمته بالخيانة العظمى فاعدم فى هوايت هول

---

(١) زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص٢٠١ - ٢٠٢.

White Hall فـى فـبراير ١٦٤٩، ونسـى الإنجلـيز الأخطـاء التـى ارتكبـها شـارل واعتبروه شهيدا.[1]

عهد سيطرة كرمويل ١٦٤٩ – ١٦٥٨:

وأعلنت الجمهورية فى الجزر البريطانية وأطلـق عليها فـى تلـك الفترة اسم رابطة الشعوب البريطانية Commonwealth وأعلـن المجلس أن حكومـة انجلـترا أصبحـت بـلا ملـك ولا مجلـس لـوردات، وحـاول كرمويـل أن يقيـم حكمـا صالحـا فـى البـلاد وأخـذ مـع أنصـاره يضـع دسـتورًا جديـدًا أطلقـوا عليـه اسـم "أداة الحكـم Instrument of Governmcy" وبموجـب هـذا الدسـتور أصبحـت انجلـترا جمهورية من الناحية النظرية، ولكن كرمويـل الـذى كـان يحمـل لقب حـامى الدولة كان فى الواقع يحكم كملك بغير تاج، إذ كان يتمتع بسلطة تفوق فى بعض الأحيـان السلطة التى كان يتمتع بها شارل الأول.

وعادت النظم البرلمانية القديمة بعد أن أدخلت عليها بعض التعديلات ولم يكن للبرلمان الجديد سلطة دستورية كاملة، ولم تكن العلاقات بين كرمويل ومجلـس العمـوم وديـة دائمًـا، لأن أعضاؤه كـانوا يرتشـون ويسـندون الوظـائف إلى صنائعـهم وأقاربهم، فضاق كرمويل بهم وأمر بحل المجلس (١٦٥٣) وإجراء انتخابـات جديـدة، ولما انعقد المجلس الجديد أثبت فشله فأمر بحله أيضًا، وأصبح زمام الأمـور كلها بيد كرمويل (حـامى الجمهوريـة). وحكـم البـلاد حكمـا دكتوريـا معتمـدا علـى براعتـه السياسية وجيشه القوى مدة خمسة سنوات، وهو إن واجهته صعوبات جمة فى سياسته الداخلية إلا أنه كان ناجحًا فى سياسته الخارجيـة فقد عقد تحالفًا مع فرنسـا وساعد الفرنسـيين فـى حربهم ضـد الأسبان، ونـالت انجلـترا فـى نظير ذلـك مينـاء دنكـرك، وجزيرة جاميكا ومات كرمويل سنة ١٦٥٨.

ظهر ضعف النظام الذى أوجده كرمويـل بعـد وفاتـه، فقـد كـانت البـلاد فـى أشد الحاجة إلى شخصية قديرة تستطيع أن تقوم بأعباء الحكم دراية وحكمـة، ولكـن

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص٢٠٢.

ولده رتشارد الذى خلفه فى رئاسة الجمهورية كان ضعيف الشخصية على الرغم من أنه كان شابًا ميالا إلى الخير والإصلاح، فلم يستطع أن يسيطر على الموقف كأبيه فقد واجه عدة صعوبات لم يكن فى مقدوره مواجهتها بالحزم الواجب. أولهما إطماع بعض قواد الجيش ممن ينزعون إلى الوصول إلى السلطة، وثانيهما الجمهوريون الذين ظهر منهم زعماء يطمعون فى القيام بانقلابات سياسية، وثالثها الملكيون الذين يرغبون فى عودة ملوك أسرة ستيورات، وأخيرًا الأحزاب الدينية التى تريد فرض مذاهبها بالقوة فى البلاد.

واتضح لريتشارد أن أضعف من أن يواجه الموقف المعقد فيتنازل عن العرش، وبقى على الجيش أن يتصرف. وكان أقوى القواد شخصية فى ذلك الحين الجنرال منك Monk وكان هذا القائد من المحافظين الذين يرغبون فى إرجاع الملكية. فكاتب شارل الثانى وهو ابن شارل الأول، الذى كان يعيش فى منفاه بهولندة، وطلب منه العودة إلى انجلترا لاعتلاء العرش. وقبل شارل وبذلك انتهت الجمهورية وعادت الملكية إلى آل ستيورات.[1]

كان شارل الثانى (١٦٦٠ – ١٦٨٥) من أكثر ملوك انجلترا قربا من قلوب الشعب. ولم يكن حب الشعب له راجعًا إلى صفاته وفضائله بقدر ما كان تعبيرا عن رد الفعل الذى أحدثه قيام الجمهورية ونظام الحماية. فعودة شارل لا تحدد فقط نهاية التجربة الجمهورية فى تاريخ انجلترا بل تبرز أيضًا بنبذ فكرة فرض السياسة البيوريتانية الصارمة العنيفة على المجتمع. وكان شارل قد عاش فى فرنسا وتأثر بالحياة الفرنسية إلى حد بعيد، وخصوصا بما كان لويس الرابع عشر قد أدخله فى بلاطه من تقاليد فلما عاد شارل إلى انجلترا كان رسولا لهذه العادات والتقاليد الفرنسية فى بلاطه حتى أطلق عليه اسم الملك المرح Merry Monarch وكان

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٣٣ - ٢٣٤.

هذا يناسب تمامًا الحالة النفسية التى وجد عليها الشعب الانجليزى بعد فترة طويلة من الحروب الأهلية والخلافات الداخلية والمذابح والاضطهادات.[1]

لم يكن لشارل شخصية قوية، ولم يكن عنيدا أو متشبعا بنوع معين من المبادئ مثل أبيه، وكان سهلا يضع مسراته وملذاته فوق كل اعتبار. وقد خدمت هذه الشخصية الموقف الذى واجهته انجلترا بعودة الملكية. فهو لا يتشبث فى نزاعه مع وزرائه أو مع البرلمان برأيه. وما أن اعيدت الملكية إلى انجلترا حتى طغت الرغبة عند المنتصرين فى الانتقام من خصومهم البيوريتان فقد كان العفو العام الذى أصدره الملك من هولندا خاضعًا لمراجعة البرلمان. ولكن البرلمان قرر معاقبة من تسببوا فى قتل شارل الأول، فاعدم ثلاثة عشر من الذين اتهموا بالاشتراك فى قتل الملك، كما أخرجت جثة كرومويل من قبره ومثل بها، وباستثناء هذا لم تكن عودة الملكية مصحوبة فى الحقيقة بما يماثلها فى تاريخ البلاد الأخرى من حوادث العنف والاضطهاد وكان هذا يرجع إلى اعتدال الملك شارل الثانى. ومع ذلك فإن البيوريتان المقهورين الذين تزعمهم فى ذلك الوقت الشاعر الكبير ملتون كانوا ينظرون إلى عودة شارل على أن الصراع الدينى والمدنى السابق قد ضاع سدى. والحقيقة أن المسألة لم تكن كما فهمها البيورتان، فعودة الملكية لم تكن على حساب المكاسب التى كسبها الشعب فى نزاعه مع شارل الأول. ويكفى للدلالة على هذا أن نذكر أن أى ملك بعد ذلك لم يحاول أن يناقش حق البرلمان فى مراقبة الضرائب. ورغم هذا،فقد عادت الملكية إلى انجلترا منتصرة وبها قدر كبير من النشاط والقوة. وكان الجو العام فى انجلترا كنتيجة طبيعية لرد فعل الجمهورية يهئ انتصارًا ساحقًا للملكية حتى أن بعض المؤرخين يعتقدون أنه كان فى الإمكان العودة بالملكية إلى سلطتها أيام شارل لو كان الجالس على العرش رجلا آخر غير شارل الثانى.[2]

---

[1] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٤٨ - ٢٤٩.

[2] محمد أحمد أنيس، المرجع السابق، ص٢٤٨ - ٢٤٩.

ولقد أطلق على البرلمان الذى انتخب عام ١٦٦١ برلمان الفرسان The Cavalier Parliament وغالبية من الملكيين ظهور رد فعل ضد البيوريتانية. إحياء الألعاب والرقص والمسرح. ويسن البرلمان مجموعة من التشريعات المتشددة عرفت منذئذ باسم قوانين كلارندون (وإن كان كلارندون نفسه عارض هذه القوانين كثيرا) وكانت هذه القوانين على النحو التالي:-[1]

١- قانون القضاة المحليين (٢٠ نوفمبر سنة ١٦٦١م) وبمقتضاه كان على جميع القضاة أن يخضعوا المراسيم الكنيسة الانجليكانية وأن يتخلوا عن التعهدات التى أخذوها على أنفسهم لكرمويل، وأن يقسموا على اعتبار حمل السلاح ضد الملك عملا غير شرعي.

٢- قانون التجانس الكنسي (٢٤ أغسطس ١٦٦٢) الذى تطلب من رجال الكنيسة وأعضاء الكليات والمعاهد وأساتذة المدارس أن يتقبلوا جميعا كتاب الصلاة العامة الخاص بالبروتسنت (والذين رفضوا ذلك هم المنشقون غير التابعين للكنيسة الأنجليكانية.

٣- قانون الاجتماع (مايو ١٦٦٤) وهو الذى حرم عقد اجتماعات دينية يقوم بها أكثر من خمسة من المنشقين عن الكنيسة إلا إذا كان الاجتماع فى منزل خاص.

٤- قانون الأميال الخمسة (أكتوبر ١٦٦٥) الذى فرض على جميع الذين لم يقبلوا التجانس الكنسى أن يقسموا على عدم المقاومة ويتعهدوا بألا يحاولوا إدخال أى تغيير فى الكنيسة أو الدولة، كذلك حرم هذا القانون عليهم أن يقتربوا أكثر من خمسة أميال من أية مدينة تدخل ضمن دائرة قانون التجانس الكنسي. وكان من الصعب بتقيد هذا القانون بدقة وبخاصة المادة الأخيرة منه.

وقد تبينت سياسة شارل الثانى للرأى العام الإنجليزى عندما وقع معاهدة مع لويس الرابع عشر فى عام ١٦٧٠م وعد بموجبها أن يؤيد الكنيسة الكاثوليكية وأن يساعد لويس فى حروبه المتوقعة مع الهولنديين ووعد لويس فى نظير ذلك أن يمد

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١١٤٢.

شارل بالجنود والأموال تأييدا له ضد أية ثورة شعبية تقوم ضده انجلترا عندما تسنح له الفرصة بالانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما. عندئذ أدرك الشعب أن ملكهم يعبث بكرامة بلاده، فتصبح كأنها تابعة لعدوتها القديمة فرنسا، وأنه يسعى فى إقامة الحكم المطلق وترسيخ الكاثوليكية الرومانية فى انجلترا بمساعدة دولة أجنبية.[1]

ولما لم يكن لشارل الثانى وريث من بعده، أصبح أخوة جيمس الثانى (١٦٨٥ – ١٦٧٩) وريثه الشرعى، وكان جيمس الثانى معروفا بتحمسه الشديد للكاثوليكية وعزمة على إعادتها كمذهب رسمى للبلاد مهما كلفه الأمر. وكانت وراثته للعرش مثارا للمناقشة فى البرلمان فقد اقترح فريق من الأعضاء أن يصدر المجلس لائحة الحرمان Exclusion Bill لمنع جيمس من وراثة العرش وعند مناقشة هذا الاقتراح انقسم الأعضاء إلى فريقين مجد ومعارض. وكان هذا الاختلاف فى الرأى على إصدار قانون الحرمان أساسا لتكوين نظام الحزبين فى البرلمان الإنجليزى، وظهر إلى الوجود حزب الهويج Whigs أى الأحرار فكان لا يؤيد سلطة الملك المطلقة ويعمل على ازدياد حريات الأفراد، وكان حزب الخارجين على الكنيسة الأنجليكانية من التجار والطبقة الوسطى، وكان أعضاؤه بخشون المبادئ الملكية التى يدين بها حاكم هولندا، ولذلك عندما حاول دانبى أن يجعل انجلترا تقوم بحرب ضد فرنسا اشتد خوف حزب الهويج من إتاحة الفرصة لحزب التورى لتكوين جيش قد يستخدمونه فى القضاء عليهم. ولذلك نجحوا فى منع وقوع هذه الحرب. وأما الحزب الأخر فهو حزب التورى ومؤسسه دانبى Danby، وهو حزب المحافظين وغالبية أعضائه من ملاك الأراضى من المؤيدين للكنيسة الأنجليكانية والسلطة الملكية وكان دانبى خلال سيطرته ١٦٧٤ – ١٦٧٨ صديقا لهولندا، وعدوا لفرنسا عمل على توطيد أواصر الصداقة بين هولندا وانجلترا بتزويج وليم حاكم هولندا من مارى ابنة جيمس آخى الملك وولى العهد على الرغم من معارضة الأخير.

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٣٥.

وكانت المنافسة خطيرة بين الحزبين، وقد يتبين لدانبي وأعوانه من المحافظين اتخاذ الوسائل لأقصاء "الهويج" الأحرار عن الحكم، ومن أهمها عدم السماح بوقوع انتخابات عامة من شأنها تغيير طابع البرلمان. وكان في هذا خطأ كبير لأن وجود حزبين في الحكم ظاهرة صحية يترتب عليها أن يكون هناك حزب معارض خارج الحكم، فيجعل الحزب الحاكم حريصًا كل الحرص على ألا يخطئ حتي لا ينجح الحزب الآخر في جعله يفقد ثقة البرلمان فيستبعد من الحكم. عمل دانبي على التخلص من أعدائه من أعضاء الحزب المعارض مستخدمًا العنف والشدة، مما أثار زعيم المعارضة" لورد شافتسبرى" وزاد الحالة سوءا ادعاءات "تستاس واتس Titus Oats في خريف ١٦٧٨ عن وجود مؤامرة كاثوليكية مريرة لحرق مدينة لندن للتمهيد لخلع شارل وتنصيب دوق يورك ملكا على انجلترا، وتأكدت تلك الشائعات بصفة خاصة عندما نشرت بعض الرسائل التي كتبها كولمن Coleman السكرتير الخاص لدوك يورك ولي العهد إلى أحد مستشاري لويس الرابع عشر يشير فيها إلى مسألة تحويل انجلترا إلى الكاثوليكية. وظهر الخلاف واضحًا بين حزبي التورى والهويج تجاه هذه المؤامرة، فبينما أصر الهويج على حرمان جيمس الثاني من العرش كلية، اكتفى حزب التورى بالإبقاء عليه مع تحديد سلطاته.[1]

ولما فاز جيمس الثاني بالعرش في عام ١٦٨٥، أثبت عدم جدارته بثقة الشعب والبرلمان، بل أنه فقد ثقة حزب التورى الذى ناصره ودافع عن حقوقه ورفض قرار مجلس العموم. فقد تحدى الملك البرلمان بأن أصدر لائحة التسامح الديني Delreation of Indulgence التي ألغت القوانين التي صدرت من قبل ضد الكاثوليك وغيرهم من أعداء البروتسنت، وأقدم على تعيين عدد من الكاثوليك في وظائف الحكومة ومناصب الجيش. وبهذه الاجراءات أغضب كلا من التورى والهويج على السواء. فحزب التورى كان يخشى من أن وجود ضباط من الكاثوليك على رأس قيادة الجيش، يجعل الجيش يحارب الكنيسة الإنجليزية (الأنجليكانية)

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٣٦ - ٢٣٧.

ويفرض نفسه على تصريف الأمور في البلاد كما هـو الحـال مع جيش كرمويل. وأما "الهويـج" فكـانوا ينقمـون علـى الملـك عـدم احترامـه لسـلطة البرلمـان ومنـاصرة الكاثوليكية إلى أبعد الحدود[1].

وكـان أمل الشعـب الوحيـد هـو أن جيمـس الثـانى كـان مسـنا، ولـه ابنـة بروتستنتية من زوجته الأولى سوف تخلفه عن العرش، ولكن جيمس لم يلبث أن رزق ابنا من زوجته الثانية الكاثوليكية، وتبعا لقانون وراثة العرش يصبح الولد أحق بولاية العهد، وبطبيعة الحال سوف يربى الولد على عقيدة أبيه.

لم يعد أمام الشعب الوحيد إلا حل واحد هو أن يقرر البرلمان خلع الملك وولي عهده ويدعو ابنته (ماري) إلى تولي العرش. ووافق فعلا أعضاء الحزبين في البرلمان على اتخاذ هذا الإجراء. ولما كانت ماري متزوجة من وليم أورانج حاكم هولندة. فقد ذهب وفد من البروتستانت لدعوة وليم وماري إلى القدوم إلى أنجلترا ليتولي العرش ولبى وليم وماري الدعوة، على اعتبار أنها رغبة الشعب الإنجليزى. وفي عام ١٦٨٨م نزل وليم أرض انجلترا وزحف بجيشه على لندن، وناصره الشعب البروتستنتي وتخلى جيش جيمس عن الدفاع عن عرشه ففر إلى فرنسا. واستطاع وليم أن يقضي على المقاومة الكاثوليكية التي حاول القيام بها زعماء الكـاثوليك فـي اسكتلندا وايرلنده.[2]

ويطلـق الإنجليز علـى ثـورة ١٦٨٨ "الثـورة العظمــى والثــورة المجيــدة Glorious Revolution والثورة البيضاء. والواقع أنها تستحق كل ذلك: فهي بيضاء، لأنها وقعت دون إراقة دماء. ومجيدة وعظيمة لأنها تمخضت عن "قـانون الحقـوق" ١٦٨٩، الـذى دعـم نظـام الحكـم الملكـى الدسـتورى ونظـام العقيـدة الأنجليكانية، وما إلى ذلك من مزايا عديدة وأثبت اتفاق ١٦٨٩ بين الملك والبرلمان أنه يتضمن نظاما وطيد الأركان سليم القواعد، ولم يكن هـذا الاتفاق الجديد عاملا

---

[1] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٣٦ - ٢٣٧.

[2] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٣٧.

عظيمًا في منح الإنجليز حرية تفوق تلك التي حصلوا عليها من قبل، ولكن كان فيه تجديد الهيئة السياسية والحكومة للدولة وسلامة تصرفاتها، كما أحل هذا الاتفاق الجديد التعاون بين الملك والبرلمان محل التشاحن والتنافس على أساس غلبة البرلمان. كذلك استطاعت انجلترا بفضل هذا الاتفاق أن تجتاز المحنة التي واجهتها بسبب أطماع لويس الرابع عشر المتزايد بسلام، بل استطاعت كذلك بفضل هذا الاستقرار أن تحتل مركز الزعامة في السياسة الأوروبية بفضل جهود ملبرا Malborough والبول Walpole وشاتام Chatham، فتتزعم أوروبا بجيوشها ومستعمراتها وتجارتها. كما تميزت انجلترا بحريتها في مجال السياسة والدين واشتهرت بنهضتها الثقافية.[1]

ويرجع الفضل في ذلك كله إلى إعلان الحقوق Dellaration of Rights، وقد توّج البرلمان انتصاره بهذا الإعلان عام ١٦٨٩م بين فيه افتئات جيمس الثاني على حقوق الشعب .. واشترط فيه على الملك الجديد ومن يليه مراعاتها وأنه لا يجوز للملك إلغاء أي قانون أو أن يقوم بزيادة الضرائب أو فرض ضرائب جديدة، أو تشكيل جيش إلا بموافقة البرلمان، ومنع سجن أي مواطن من غير محاكم قانونية. وقد وافق وليم وماري على كل الشروط التي وردت في إعلان الحقوق. وتولى وليم العرش باسم "وليم الثالث". والواقع أن قانون الحقوق كان من الناحية النظرية دستورًا يقيّد سلطات الملك ويحمي سلطات البرلمان.[2]

ثم صدرت بعد ذلك عدة قوانين لتدعيم السياسة الجديدة ومنها قانون التسامح الديني (١٦٨٩) الذي أعفى المنشقين الين أقسموا يمين الولاء والاعتراف بسيطرة الكنيسة من جميع العقوبات المفروضة على المنفيين من الكنائس الأنجليكانية، كذلك صدر قانون التسوية Act of Settlement (١٧٠١) واستقر الرأي على أن تكون وراثة العرش من حق صوفيا أميرة هانوفر حفيدة جيمس الأول

---

[1] زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص٢٢٤.

[2] عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٣٨.

ثم لذريتها من بعدها. تقرر أن يكون بريطانيا العظمى من البروتسنت وإلا ينتقلوا إلى خارج المملكة إلا بموافقة البرلمان، وألا تقحم البلاد فى حرب من أجل حماية الممتلكات الخارجية للملوك ولا ينعم على أى أجنبى بمنحة من التاج أو يتقلد وظيفة مدينة أو حربية، وأن يكون الوزراء مسئولين عن تصرفات ملوكهم وما يصدرونه من قرارات، وأن يتولى القضاة وظائفهم مدى الحياة إلا فى حالة الاتهام بسوء السيرة.[1]

وأخيرًا صدر قانون الوحدة Act of union وبموجبه أصبحت اسكتلندا أو انجلترا مملكة متحدة تحت اسم بريطانيا العظمى (١٧٠٧). أدى هذا الإجراء الذى أوجبه حذف اسكتلندا من قرار التسوية إلى ما يأتى:

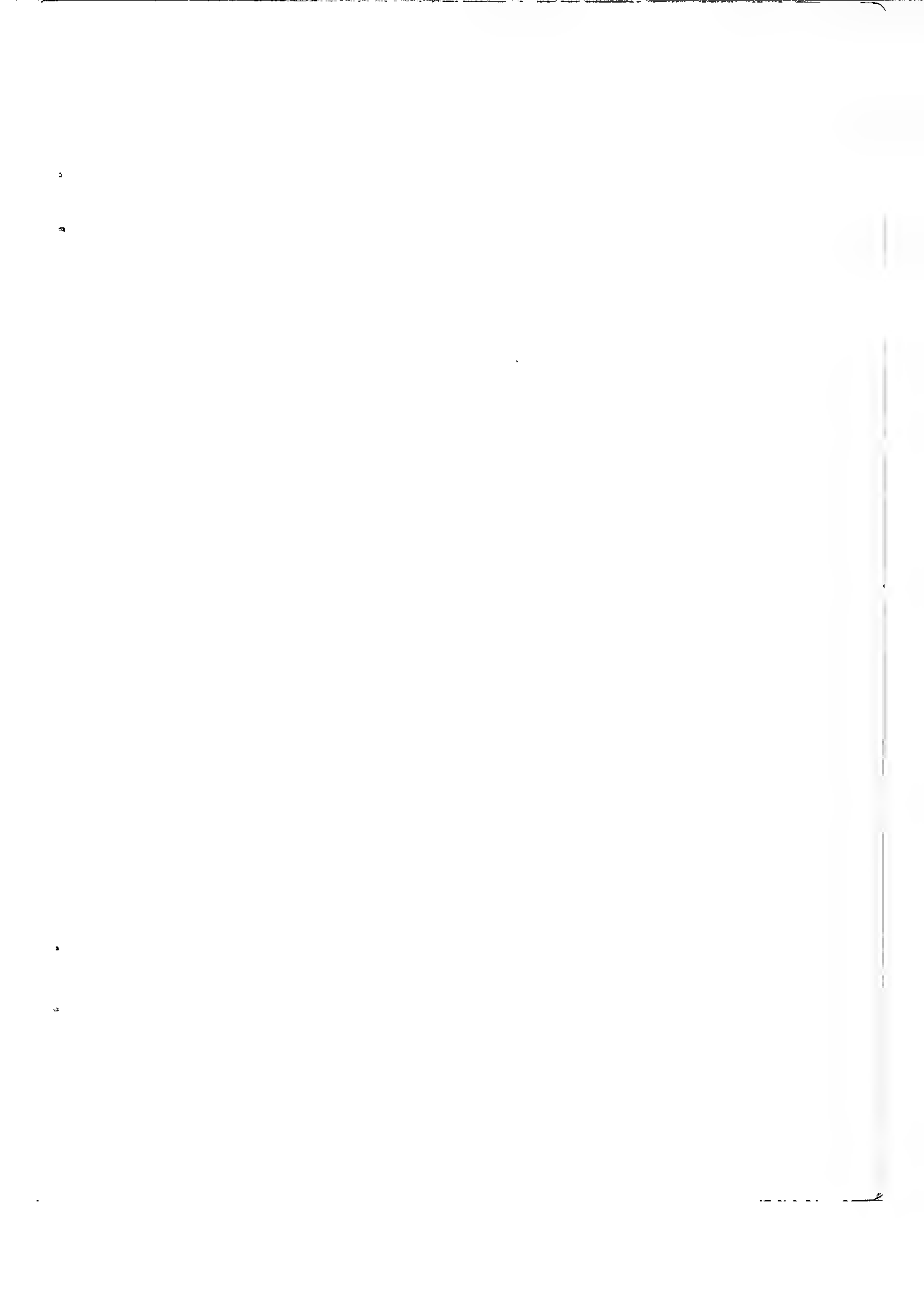
١- أن ترث صوفيا أميرة هانوفر وذريتها من البروتسنت عرش المملكة المتحدة.

٢- أن يكون هناك برلمان واحد تسهم فيه اسكتلندا بستة عشر عضوا منتخبا من اللوردات وخمسة وأربعين عضوا من النواب المنتخبين. لا يضاف أعضاء جدد إلى طبقة اللوردات فى اسكتلندا. يبقى القانون الاسكتلندى والإدارة القانونية الاسكتلندية دون تغيير، كما تبقى الكنيسة دون تغيير. واتخاذ العلم المشترك (علم سان جورج وسان اندروس) علما قوميا لبريطانيا العظمى.[2]

---

[1] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ص١١٥٤ - ١١٥٧.

[2] وليم لانجر، المرجع السابق، جـ٤، ١١٥٩.



ثبت بالمراجع

١- السيد رجب حراز [دكتور]:

عصر النهضة ، دراسة فى الحضارة الأوروبية الحديثة . القاهرة١٩٧٤.

٢- جلال يحيى [دكتور] :

معالم التاريخ الحديث ، الإسكندرية ١٩٦٧.

٣- حسن صبحى [دكتور] :

التاريخ الأوروبى الحديث / الجزء الأول ١٤٥٣ - ١٧٩٣ الإسكندرية ١٩٨٣.

٤- حسن كامل سليم :

تاريخ أوروبا الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، الأسكندرية ١٩٥٨.

٥- زاهر رياض [دكتور] :

استعمار أفريقية ، القاهرة ١٩٦٥.

٦- زينب عصمت راشد [دكتورة] :

تاريخ أوروبا الحديث ، منذ مطلع القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٩٨.

٧- عبد الحميد البطريق [دكتور] ، عبد العزيز نوار [دكتور] :

التاريخ الأوروبى الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا . بيروت.

٨- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم [دكتور] :

معالم التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٨٢ .

٩- عبد العزيز نوار [دكتور] عبد الحميد نعنعى [دكتور] :

أوروبا فى بعض الأزمنة الحديثة، بيروت ١٩٧٤ .

١٠- عبد العزيز محمد الشناوى [دكتور]

أوروبا فى مطلع العصور لحديثة ، حـ ١ . الطبعة الخامسة . القاهرة . ١٩٨٥ .

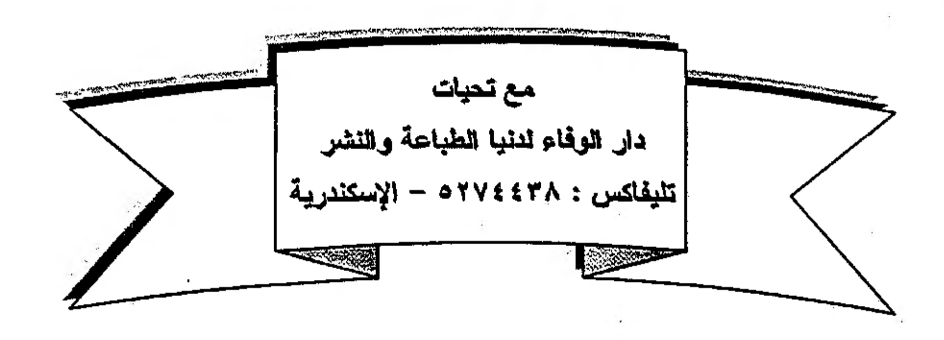
١١- عبد العظيم رمضان [دكتور] :
تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث ، حـ ٢ ، القاهرة ١٩٩٧ .
١٢- عمر عبد العزيز عمر [دكتور] :
دراسات فى التاريخ الأوروبى والأمريكى الحديث الإسكندرية ١٩٩٢ .
١٣- محمد أحمد أنيس [دكتور] ، السيد رجب حراز [دكتور] :
عصر النهضة الأوروبية ، القاهرة ١٩٦٠ .
١٤- محمد محمود السروجى [دكتور] :
معالم التاريخ الأوروبى الحديث ، الإسكندرية ١٩٦٧ .
١٥- محمد مخزوم [دكتور] :
مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى - عصر النهضة بيروت ١٩٨٣ .
١٦- نور الدين حاطوم [دكتور] :
تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، دمشق ١٩٦٨ .
١٧- هربرت فيشر :
أصول التاريخ الأوروبى الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية ، ترجمة الدكتورة زينب عصمت راشد ، والدكتور / أحمد عبد الرحيم مصطفى مراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٦٢ .
١٨- وليم لانجر :
موسوعة تاريخ العالام ، حـ ٤ ، ترجمة محمد زيادة القاهرة ١٩٦٣ .

المحتـــــوى

الفصل الثالث

الفصل الرابع


تم بحمد الله


مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

يتناول هذا الكتاب

تاريخ أوروبا الحديث منذ فجر عصر النهضة، والنظريات التى قيلت عن بداية التاريخ الحديث. والأحداث الجليلة، وانطلاقته الفكرية الرائعة الوضاءة التي بهرت الدنيا، وايقظت العقول، ثم دفعتها تبحث عن مصادر الخير وما يمكن أن تستخلص منها من اخلاط السعادة التى ينبغى أن يستمع بها البشر في هذه الحياة.

وقد بدأ عصر النهضة الأوروبية فى الأراضى الإيطالية ثم انتقل بعد ذلك إلى دول أخرى مثل فرنسا والولايات الالمانية وانجلترا وأسبانيا والبرتغال. كما تناول أثر حركة الكشوف الجغرافية فى بناء المستعمرات فى العالمين القديم والجديد وما ترتب على ذلك. كما تعرض للتنافس الدولى فى الأراضى الإيطالية وخاصة بين أسبانيا وفرنسا. ثم ما شهدته أوروبا بعد ذلك من أحداث مثل الإصلاح الدينى الذى بدأ فى الأراضى الألمانية ثم انتقاله بعد ذلك إلى المناطق الأخرى من أوروبا والعالم الجديد، وكثراً تباعه.

وفى ذلك العهد ... تاريخ أوروبا الحديث .كشفت جهود الأوروبيين عن عالم جديد، اتجهت إليه القلوب والأبصار واهتزت له أركان أوروبا، وترتبت عليه نتائج خطيرة تجسدت أخيراً فى بناء دولة أصبحت اليوم فى مقدمة الدول الكبرى وأبرزها فى عالم الثقافة والصناعة والاقتصاد والسياسة بل أصبحت تهيمن على مقدرات ما يسمى بالنظام العالمى الجديد

المؤلف

تاريخ أوروبا الحديث

د. صلاح أحمد هريدى

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر